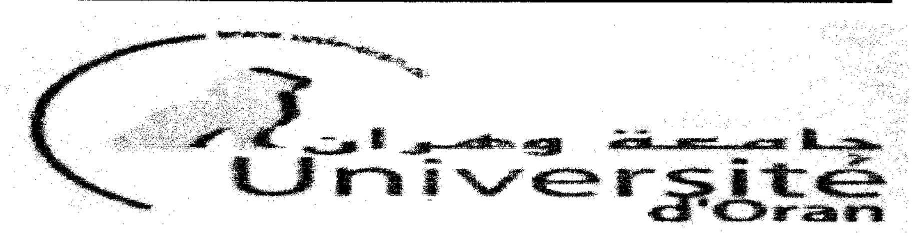


عصور "الجديدة"

مجلة فصلية محكمة تعنى بتاريخ الجزائر والتراث التاريخي المخطوط يصدرها مختبر البحث التاريخي *"تاريخ الجزائر"- جامعة وهران*

عدد 3-4- عدد خاص بالندوة العلمية الوطنية حول التاريخ والمؤرخين الجزائريين

خريف- 1432هـ- 2011م/شتاء 1433هـ-2012م

ردمد ISSN 2170-1636

الإيداع القانوني: Depot Légal -2011

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ صدق الله العظيم

[آل عمران: الآية 140].

شروط النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المستوفية للشروط الأكاديمية التالية:

1- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره، وأن لا يكون فصلا من مذكرة ماجستير أو أطروحة دكتوراه.

2- أن يتبع الباحث الأصول العلمية المتعارف عليها، وبخاصة فيما يتعلق بتوثيق المصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع بالهوامش في آخر البحث، وضرورة كتابتها على الشكل التالي: المؤلف- عنوان الكتاب- المحقق- الطبعة- دار النشر- مكان النشر- تاريخ النشر- الجزء والصفحة.

3- تقدم الأعمال في قرص مضغوط ونسخة مطبوعة على وجه واحد، أو ترسل إلى البريد الإلكتروني للمجلة.

4- يتراوح عدد صفحات البحث ما بين 10 إلى 20 صفحة مكتوبة بخط Traditional Arabic مقاس 14 وتباعد 1. وتكتب الهوامش بطريقة عادية في نهاية البحث، وبمقاس 10 وتباعد فردي.

5- تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي، ولا تقبل المقالات التي لا تحترم الشروط المذكورة سابقا.

6- لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

7- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

عنوان المراسلة: ترسل البحوث والدراسات باسم:

أ.د.عبد القادر بوباية- مختبر تاريخ الجزائر- قسم التاريخ وعلم الآثار

ص ب 1541 المنور- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران- الجمهورية الجزائرية

هاتف/فاكس: 0021341348531/0021341427139

البريد الإلكتروني: oussourrevue@gmail.com

الموقع الإلكتروني: Dahou55.maktoobblog.com

فهرس الموضوعات

كلمة العدد

نواصل المسيرة العلمية لمجلة عصور الجديدة مع هذا العدد المزدوج الذي خصصناه لنشر المداخلات التي أسهم بها المشاركون في الندوة العلمية الثانية التي نظمها مختبر تاريخ الجزائر لموضوع "التاريخ والمؤرخين الجزائريين عبر العصور".

مما لا شك فيه أن المؤرخين الجزائريين كان له إسهام واضح في التدوين التاريخي عامة، وتدوين تاريخ الجزائر عبر العصور خاصة، وكان لهم وجود ضمن كوكبة المؤرخين الذين تخصصوا في هذا النوع من الكتابة، وقد ازداد عددهم أكثر بعد حصول الجزائر على استقلالها، وبخاصة بعد انتشار أقسام التاريخ في العديد من جامعات الجزائر.

وقد سمح ذلك ببروز نخبة سعت جاهدة إلى المساهمة وبدور فعال في كتابة التاريخ وتحقيق مصادره المخطوطة.

ومن خلال المداخلات التي قدّمها باحثون من جامعات تلمسان وسيدي بلعباس وتيارت ومعسكر ووهران والشلف والجزائر والبويرة والمسيلة والوادي تبين بجلاء وجود نواة مدرسة تاريخية جزائرية تسعى جاهدة إلى كتابة التاريخ الوطني من جهة، وإلى الإسهام في التدوين التاريخي المغاربي وتحقيق التراث المخطوط الذي تزخر به الكثير من الخزائن المنتشرة عبر التراب الوطني وكذا الخزائن والمكتبات المتواجدة خارج الجزائر.

وقد اختتمت الندوة العلمية بتكريم أحد الوجوه البارزة في الكتابة التاريخية وتحقيق التراث المخطوط بالجزائر، ويتعلق الأمر بالأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات الذي يعتبر قدوة لكثير من المؤرخين الشباب بالنظر إلى الدور الفعال الذي أسهم به في كتابة التاريخ وتحقيق التراث المخطوط، وقد سعينا من خلال هذا التكريم الذي يصادف احتفالية تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية– والأستاذ من أبناء هذه المدينة– إلى ترسيخ سنة حميدة تتمثل في تكريم المؤرخين الجزائريين في حياتهم حتى نشعرهم بالقيمة الكبيرة التي يحتلونها في الحركة العلمية عامة، وفي التدوين التاريخي وتحقيق التراث المخطوط خاصة.

مدير المختبر ورئيس التحرير: أ.د عبد القادر بوباية

المقالات باللغة العربية

مؤرخون في ذمة الله:
الأستاذة تالية سعدو

أ.د عبد القادر بوباية*

في مساء يوم الجمعة 23 مارس 2012م، وعلى الساعة السادسة مساء تلقيت مكالمة من الأستاذ وهراني قدور- جامعة تلمسان- ظننت لأول وهلة أنه يريد أن يعلمني بتنظيم جامعة تلمسان لندوة علمية يريد دعوتي إليها، ولكن المفاجأة كانت كبيرة عندما أعلمني بوفاة الأستاذة تالية سعدو في مصر أين كانت متواجدة في تربص علمي قصير المدى، وكانت الفاجعة أكبر عندما أعلمني بظروف وفاتها متأثرة بتسرب الغاز أثناء استحمامها في أرض الكنانة.

لقد ذهبت الأستاذة سعدو إلى مصر لإجراء هذا التربص، وكلها أمل في أن تضيف معلومات إلى ما جمعته من مادة متعلقة بأطروحة الدكتوراه الموسومة بـ"الحياة الاقتصادية في الأندلس على عهد الأمويين (138-422هـ/756-1031م)" التي كانت تحضرها تحت إشرافي منذ سنة 2006م، وكان من المتفق بيننا أن تأتيني بالفصل الأول بمجرد عودتها من تربصها، ولكن الأجل حال دون تحقيق ذلك.

نحن مسلمون ونؤمن بالقضاء والقدر، ولكنني أعتبر أن رئيس جامعة ابن خلدون بتيارت يتحمل جزءا من المسؤولية فيما حدث للأستاذة تالية سعدو بمصر، ذلك أنها قد قدمت رسالة استقبال من المغرب الشقيق، وكان من المفترض أن تتوجه إلى هذا البلد الذي توجد به المادة التاريخية التي تخدم أطروحتها سواء المطبوعة منها أو المخطوطة بصفة أخص، كما أن الأساتذة الذين كانت ستقابلهم في هذا البلد من المتخصصين في التاريخ الأندلسي، وبالتالي فالفائدة كلها موجودة في المغرب الشقيق، ولكن القرار الذي اتخذه رئيس الجامعة، والذي منع بموجبه كل أساتذة جامعة ابن خلدون من التوجه إلى المغرب تطرح أكثر من سؤال، بخاصة وأن الوزارة لم توجه أي تعليمة يبرر بها هذا المنع، وقد حاولت الباحثة ثني عزيمة رئيس

* – أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي ومدير مختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران.

الجامعة بصفتها رئيسة للمجلس العلمي لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية إلا أنه أصرّ على منعها ومنع الأساتذة من التوجه إلى المغرب رغم حصولهم على رسائل استقبال من هذا البلد.

لقد رحلت الأستاذة سعدو في وقت كنت بحاجة إليها من أجل مساعدتي في استكمال مشروع البحث الوطني حول مصادر ومراجع تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط باعتبارها عضو رئيس فيه، وفي وقت كنت في حاجة إليها في مختبر تاريخ الجزائر الذي كانت عضو في إحدى فرق البحث به، وفي مشروع بحث حول "فتنة القرن الخامس الهجري ودور البربر المغاربة فيها"، ولكنني في نهاية المطاف سأضطر إلى العمل بدون وجودها، وهي التي كانت من الباحثين الجادين- وكم هم قليلون- في الجامعة الجزائرية.

كان آخر نشاط لها هو حضورها في الندوة العلمية التي نظمها مختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران- حول التاريخ والمؤرخين الجزائريين عبر العصور يومي 7 و8 ديسمبر 2011م بقسم التاريخ، حيث أشرفت على تنظيم الندوة، وتكفلت بإنجاحها من خلال نشاطها الدؤوب طيلة يومين إلى درجة أنها كانت تنفق من مالها الخاص عندما احتاج المحاضرون إلى تناول بعض المشروبات الساخنة والحلويات خلال فترات الاستراحة، وألحت على القيام بذلك.

لقد كانت الأستاذة تالية سعدو مثالا للباحثة الجادة والمؤمنة بضرورة الارتفاع بمستوى الجامعة الجزائرية وبالبحث العلمي بها إلى مصاف الدول المتقدمة، وكانت حريصة على المشاركة في هذا المجهود من خلال انتمائها إلى مختبر تاريخ الجزائر ومشاريع البحث المختلفة التي اقترحتها منذ مناقشتها لمذكرة الماجستير في سنة 2005م.

وكانت قبل ذلك قد ساهمت في تكوين ألاف أبناء الجزائر حيث اشتغلت أستاذة لمادة العلوم الاجتماعية بثانوية الحياة- وهران- منذ حصولها على شهادة الليسانس في التاريخ من معهد التاريخ- جامعة وهران- سنة 1985م.

لقد كانت الأستاذة سعدو أختا بالنسبة لأقرانها من الأساتذة، وأمَّا بالنسبة لطلبتها في جامعتي ابن خلدون بتيارت وجامعة سعيدة، والكل يشهد لها بالاستقامة والجدية والأخلاق الحسنة.

رحمك الله أختي العزيزة، وأسكنك فسيح جناته، وألهم ذويك الصبر والسلوان.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

الأستاذة تالية سعدو في سطور:

الاسم واللقب: تالية سعدو

تاريخ ومكان الميلاد: 30-05-1959 في سعيدة.

عنوان العمل: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة ابن خلدون- تيارت.

الرتبة: أستاذة مساعدة أ في تاريخ الغرب الإسلامي.

موضوع الدكتوراه (في طور الإنجاز): الحياة الاقتصادية في الأندلس على عهد الأمويين (138-422هـ/756-1031م)

الشهادات العلمية:

نوعها	تخصص	تاريخ الحصول عليها	المؤسسة	ملاحظة
ليسانس	تاريخ	1985	جامعة وهران	بدون
ماجستير	تاريخ العصور الوسطى	2005/11/26	جامعة وهران	مشرف جدا

* النشاطات البيداغوجية:

- أستاذة مادة العلوم الاجتماعية في التعليم الثانوي- ثانوية الحياة- وهران من 1985 إلى 2006م.

- أستاذة مساعدة ب في تاريخ المغرب الإسلامي- معهد التاريخ- جامعة ابن خلدون تيارت-منذ سبتمبر سنة 2006م.

- أستاذة مستخلفة بمعهد العلوم السياسية- جامعة سعيدة خلال السنة الجامعية 2009-2010.

* النشاطات العلمية:

* الملتقيات الدولية:

- المشاركة في الملتقى الدولي حول مدينة وهران المنظم من طرف وزارة الشؤون الدينية والأوقاف يومي 2 و3 أبريل 2008م بجامعة العلوم والتكنولوجيا- وهران- بمحاضرة عنوانها "مدينة وهران من خلال المصادر العربية".

- المشاركة في الملتقى الدولي حول شخصية الشيخ يحي العيدلي المنظم من طرف وزارة الشؤون الدينية والأوقاف يومي 19 و20 ماي 2010م في بجاية بمحاضرة عنوانها "تلامذة الشيخ يحي العيدلي: الشيخ أحمد زروق نموذجا".

* الملتقيات الوطنية:

- المشاركة في الملتقى الوطني المنظم من طرف جامعتي أحمد دراية -أدرار- وابن خلدون- تيارت- يومي 14 و15 أبريل 2009م بمحاضرة عنوانها " العلاقة بين منطقة توات ومراكش على عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي".

- المشاركة في الملتقى الوطني حول التاريخ السياسي والحضاري لمنطقة تيارت المنظم من طرف جامعة ابن خلدون بتيارت يومي 4 و5 ماي 2009م بمحاضرة عنوانها: "مدينة تاهرت من خلال المصادر الجغرافية العربية".

- المشاركة في الملتقى الوطني الرابع حول تاريخ الأمازيغ المنظم من طرف وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بمدينة بجاية يومي 14 و15 جوان 2009م بمحاضرة عنوانها: "مساهمة البربر في الحركة الفقهية بالعدوة الأندلسية".

- المشاركة في الملتقى الوطني حول التاريخ السياسي والحضاري لمنطقة تيارت المنظم من طرف جامعة ابن خلدون بتيارت يومي 13 و14 أبريل 2010م بمحاضرة عنوانها: "مساهمة المرأة الإباضية في الحركة الفكرية الإباضية بتاهرت الرستمية".

- المشاركة في اليوم الدراسي المنظم من طرف جامعة ابن خلدون بتيارت يوم 10 ماي 2011م بمداخلة موسومة بـ"الدور العلمي والثقافي لتاهرت على عهد الرستميين".

- المشاركة في الملتقى الوطني الذي نظمته بلدية عشعاشة وجمعية نشاطات الشباب إقرأ بالتعاون مع مخبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران حول "جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: مجازر جبال الظهرة نموذجا" في مدينة عشعاشة (ولاية مستغانم) يومي 18 و19 جوان 2011م بمحاضرة عنوانها: "محرقة أولاد رياح من خلال المجلة الإفريقية".

* المقالات الوطنية:

1- مدينة تاهرت من خلال المصادر الجغرافية- مجلة الخلدونية- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- عدد خاص- أكتوبر 2009م- صص34-42.

2- الحركة الفكرية في الدولة الرستمية ومساهمة المرأة فيها- مجلة عصور الجديدة- مختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران- العدد 1- ربيع 1432هـ/2011م- صص63-75.

* نشاطات البحث العلمي:

1- رئسة المجلس العلمي لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة ابن خلدون- تيارت منذ عام 2010م.

2- عضو في مشروع بحث وطني حول موضوع "دور البربر في تاريخ وحضارة الأندلس"(2008- 2010م).

3- عضو في مشروع بحث وطني حول "مصادر ومراجع المغرب الأوسط في العصر الوسيط" منذ 2 ماي 2011م.

4- عضو في فرقة بحث حول التراث التاريخي الجزائري في مختبر بحث وطني عنوانه: "تاريخ الجزائر"- جامعة وهران- منذ 2008م.

5- عضو في مشروع بحث وطني حول موضوع "فتنة القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بالأندلس ودور البربر المغاربة فيها" منذ 2012/01/01م.

* النشاطات البيداغوجية:

السنة الجامعية	المؤسسة الجامعية	الكلية أو المعهد	محاضرة	تطبيق
2006-2007	ج.تيارت	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	تاريخ العرب	تاريخ العرب+ ما قبل التاريخ
2007-2008	ج.تيارت	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	تاريخ العرب	تاريخ العرب+ جغرافيا عامة
2008-2009	ج.تيارت	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	تاريخ العرب	تاريخ العرب+ جغرافيا عامة
2009-2010	ج.تيارت ج.سعيدة	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية معهد العلوم السياسية	تاريخ العرب	قضايا عربية الحياة الثقافية في المغرب الإسلامي تاريخ الفكر السياسي
2010-	ج.تيارت	قسم التاريخ	صدر	قضايا عربية

2011			الإسلام	الحياة الثقافية في المغرب الإسلامي
2011-2012	ج.تيارت	قسم التاريخ	صدر الإسلام	قضايا عربية الحياة الثقافية في المغرب الإسلامي

* عرض وتقديم مذكرة الماجستير:

العنوان: الجيش الأندلسي على عهد عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م)

تاريخ أول تسجيل: 2001م.

تاريخ المناقشة: 2005/11/26م.

مكان المناقشة: قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- جامعة وهران.

بدأت الباحثة مذكرتها بمقدمة جاء فيها "لقد استمر تواجد المسلمين في الأندلس نحو ثمانية قرون، واشتهر خلالها العديد من الأمراء والخلفاء الذين كانت لهم العديد من الإنجازات والمآثر، ومن أبرز الشخصيات عبد الرحمن الناصر لدين الله"، ثم ذكرت الظروف التي وصل فيها الناصر إلى سدة الحكم، وبينت كيف تمكن من تكوين جيش قوي نجح بفضله في إخماد نيران الفتنة، وتوحيد الأندلس من جديد، وفرض هيبتها على ممالك النصارى المنتشرة في الشمال.

ذكرت الباحثة الهدف من اختيارها لهذا الموضوع، وهو محاولة إبراز أهم التغيرات التي طرأت على القوات البرية والبحرية على عهد عبد الرحمن الناصر.

إشكالية البحث:

ما هي الدوافع الحقيقية التي جعلت الخليفة الناصر يهتم بالجيش ويوليه هذه العناية الفائقة؟

ما هي الأهداف التي سعى إلى تحقيقها من خلال بناء القواعد البحرية؟

ما هو الدور الذي لعبته تلك القواعد في الدفاع عن السواحل الأندلسية؟ وهل كانت سياسة الناصر الحربية ناجحة في إخضاع الثوار والمنتزين في الداخل، ومواجهة التكالب المسيحي بالخارج؟ وإلى أي مدى نجح في ذلك؟

ثم ذكرت الباحثة الرسائل الجامعية والدراسات غير الأكاديمية التي تطرقت إلى موضوع الجيش، وتوصلت إلى أن هذا الموضوع لم يحظ في المغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة بدراسة متخصصة وواسعة مقارنة بالمواضيع السياسية والاقتصادية والأدبية، وهو العامل الذي شجع الباحثة على الخوض في غماره.

قسمت الباحثة عملها العلمي إلى مدخل وثلاثة فصول، تناولت في المدخل الجيش في الأندلس قبل سنة 300هـ/912م، وتحدثت فيه عن اهتمام الأمراء الأمويين بتنظيم الجيش ودعمه، وتقويته بالأسلحة والرجال، وحاولت الوقوف عند مجهود كل واحد من هؤلاء الأمراء (صص2-21).

أفردت الفصل الأول الموسوم بـ"عوامل تطوير عبد الرحمن الناصر لنظام الجيش" لدراسة عوامل تطوير عبد الرحمن الناصر لنظام الجيش، ومنها التهديد النورماندي المتواصل على سواحل الأندلس الغربية والجنوبية الغربية، والرغبة في تقوية مركزه السياسي، ومواجهة التمردات الداخلية التي قام عمال الكور، والأخطار الخارجية المتمثلة في هجمات النصارى على دار الإسلام من جهة، واستفحال الخطر الفاطمي على السواحل الجنوبية والشرقية للعدوة الأندلسية من جهة أخرى (صص23-57).

وتناولت في هذا الفصل العناصر التالية:

- العوامل الداخلية
- العوامل الخارجية: أ- الخطر المسيحي في الشمال.
  ب- الخطر النورماندي.
  ج- الخطر الفطمي.

وخصّصت الباحثة تالية سعدو الفصل الثاني الموسوم بـ: "تنظيم الجيش" لموضوع تنظيم الجيش بقسميه البري والبحري على عهد عبد الرحمن الناصر، وتناولت فيه أهم التنظيمات والمناصب والخطط العسكرية، حيث تحدثت عن القيادة الجند وصاحب الخيل وصاحب اللواء وصاحب العسكر والعارض والطبالين وغيرهم، كما تناولت في هذا الفصل الأساليب القتالية والحملات العسكرية والصوائف، ثم عرّفت بالأسلحة والزي الحربي، كما تعرّضت فيه أيضا لتنظيم الجيش البحري من قيادة ونواتية ورؤساء وقطع الأسطول، وأهم دور صناعة السفن والقواعد البحرية، وأنهت الفصل بالحديث عن أعطيات الجند (صص59-119).

وعالجت في هذا الفصل العناصر التالية:

أولا: الجيش البري: أ- التنظيمات والمناصب العسكرية والخطط.

ب- التنظيمات التعبوية والمراسم.

ثانيا: البحرية الإسلامية على عهده وأعطيات الجند.

وتناولت الباحثة في الفصل الثالث الموسوم بـ"نتائج سياسة الناصر الحربية" أبرز نتائج السياسة الحربية لعبد الرحمن الناصر، ومنها استعادة الوحدة السياسية للدولة، ومقارعة خصومها في الخارج، وبخاصة منها ممالك ليون ونبارة، إضافة إلى التصدي للخطر الفاطمي الشيعي الذي كان يهدد سواحل العدوة الأندلسية (صص121-153).

وعالجت في هذا الفصل العناصر التالية:

- استعادة الوحدة السياسية.

- مقارعة الخصوم الخارجيين: أ- الخطر الفاطمي.

ب- الخطر المسيحي.

وأنهت الباحثة دراستها بخاتمة ضمّنتها أهم النتائج التي توصلت إليها ومنها:

* نجاح عبد الرحمن الناصر في القضاء على ضعف العدوة الأندلسية، وتخليصها من الأخطار المحدقة بها وجمع شتاتها، وذلك من خلال الأعمال التالية:

- إصلاح الجيش الذي أنهكه التصدي للثورات والتمردات، والعمل على تجديده وتدعيمه من خلال جلب أفراد الجند من مختلف أنحاء الأندلس، واستكثار الأسلحة والذخائر.

- الاعتماد على الصقالبة، وتعيينهم في المناصب العليا في القصر والإدارة والجيش.

- العناية بالبحرية ورفع مستواها لكي تتمكن من منافسة خصوم الأندلس في مجال الصراع البحري، وذلك من خلال تقوية الأسطول، والإكثار من بناء السفن الحربية، وإنشاء عدد كبير من دور الصناعة البحرية، وبذلك كان الناصر المؤسس الحقيقي للقوة البحرية الأندلسية التي تمكن الأمويون بفضلها من السيطرة على الثغور المغربية المطلة على مضيق جبل طارق، ومنها سبتة ومليلة.

- القضاء على الفتن الداخلية والثورات التي كان العرب والبربر والمولدون يتزعمونها معتمدا في ذلك على سياسة مرنة اتسمت بالقوة والحزم حينا وباللين والاعتدال حينا آخر، وبفضل

هذه السياسة استعاد الاستقرار والأمن، ووحد الجبهة الداخلية، وبخاصة بعد قضائه على ثورة المولدين بقيادة عمر بن حفصون التي تعتبر أطول ثورة عرفتها العدوة الأندلسية.

- مواجهة نصارى الشمال الذين أصبحوا يشكلون خطرا على الوجود الإسلامي في الأندلس، وبخاصة بعد أن توحدت جهود ملوك ليون ونبارة، والنجاح في التغلب عليهم وإخضاعهم لسلطانه.

- مواجهة الخطر الفاطمي الذي كان يهدد الجانب السياسي والديني لقرطبة في آن واحد، وتبني استراتيجية خاصة اقتضت استعمال السياسة من خلال إضفاء لقب الخلافة على نفسه والتزيّ بزيها سنة 316هـ/928م، ومحاربته عسكريا بشكل غير مباشر من خلال اصطناع ملوك ورؤساء القبائل البربرية في بلاد المغرب ليكونوا حلفاء له وأعوانا يضعفون نفوذ خصومه العبيديين، وبذلك نجح في رد خطرهم.

وخلصت الأستاذة تالية سعدو في آخر بحثها إلى التأكيد على نجاح عبد الرحمن الناصر في إقرار الأمن بالأندلس، وتخليص بلاده من الفوضى التي أنهكتها، ورد كيد الأعداء وبخاصة منهم الإسبان والعبيديين، ونتيجة لكل ذلك عرفت الأندلس على عهده رخاء وازدهارا كبيرين حيث ارتفعت مداخيلها وزادت إيراداتها، وتكامل للأندلس القوة والرخاء، وسادها الاستقرار والسلام في عهده، وذلك- كما تقول الباحثة في نهاية بحثها- بفضل: "حكمته في التسيير، وصرامته في القيادة، ومرونته في التعامل مع الأحداث الداخلية، وصلابته في مواجهة الخطر الخارجي، وجمعه بين الجهاد ومواجهة الأعداء، وبين إقامة الدولة وتقوية مؤسساتها، وتوسيع إيراداتها".

وقد اعتمدت الباحث تالية سعدو في معالجها لفصول البحث على المنهج التاريخي المقارن حيث عمدت إلى مقارنة النصوص التاريخية المختلفة، وتحليلها من أجل الوصول إلى وضعية الجيش الأندلسي على عهد عبد الرحمن الناصر.

ومن أجل التحكم في مختلف فصول البحث، ومعالجته بالشكل اللائق اعتمدت الباحثة على عدد من المصادر العربية المتخصصة، ومن أبرزها تاريخ افتتاح الأندلس لأبي بكر ابن القوطية المتوفى سنة 367هـ/977م، والمقتبس في أخبار الأندلس لابن حيان القرطبي المتوفى سنة 469هـ/1076م، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي المتوفى سنة 712هـ/1312م، وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب لسان الدين المتوفى سنة 776هـ/1374م، وكتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام لنفس المؤرخ،

وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لمؤلفه عبد الرحمن ابن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م.

ومن كتب الجغرافيا التي اعتمدت عليها الباحثة المسالك والممالك لأبي عبيد البكري المتوفى سنة 487هـ/1094م، وكتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك لأحمد بن عمر العذري المعروف بابن الدلائي المتوفى سنة 478هـ/1085م، ومعجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة 626هـ/1228م، وكتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري محمد بن عبد الله المتوفى سنة 866هـ/1461م.

كما اعتمدت الباحثة على كتب التراجم، ومنها تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي، وبغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس للضبي، وكتب الأدب، ومنها كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقري أبو العباس أحمد، كما اعتمدت على كتاب سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي وكتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسي، إضافة إلى مصادر ومراجع أخرى بلغ عددها مائة واثنين وعشرين مؤلفا.

وضمّنت الباحثة تالية سعدو مذكرتها عددا هاما من الملاحق من خرائط ورسوم توضيحية لملابس الجند وأسلحته، إضافة إلى قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية المستعملة في الدراسة.



آخر نشاط علمي شاركت فيه الأستاذة سعدو تالية– إحياء ذكرى محرقة غار الفراشيش

مداخلات الندوة العلمية

المداخلات في التاريخ الوسيط

يحي بن خلدون
وكتابه بغية الرواد

أ.د عبد الحميد حاجيات*

يمكن القول بأن ما تهَيَّأ ليحيى بن خلدون من تكوين أدبي وعلمي، كان يناسب تمامًا وظيفة كاتب السِّرِّ للسلطان الزياني. وذلك أنه كانت تتوفر فيه الشروط المطلوبة من علماء وأدباء البلاط، من رزانةٍ وذكاء واستقامةٍ، وأناقة في الأسلوب، ونبوغ في سائر فنون الأدب، وقدرةٍ على منافسة أشهر شعراء بلاط أبي حَمُّو الثاني[1]. وعلاوة على ذلك، فإن يحيى ابن خلدون كان قد حصل على تجربة هامَّة في مجال الحياة السياسية. وذلك أنه شغل منصب حاجب للأمير أبي عبد الله الحفصي في بجاية. وكان يعرف جيدًا حياة العرب البدو وتقاليدهم، واطلع عن كثب، أثناء إقامته صحبة أخيه عبد الرحمن عند ابن مُزني، في ناحية بسكرة، على المشاكل التي كانت تنجم عن الوضعية التي خلقها وجود العرب البدو في بلاد المغرب، وعلى الدور السياسي الهامّ الذي كان هؤلاء يقومون به آنذاك.

ومن بين المهامّ التي كانت تسند عادة لكاتب السِّرّ تسجيلُ أمجادِ عهدِ السلطان، ومفاخر دولته، وبطولات جيوشه، وذكر الأحداث الشهيرة في حياة البلاط، وتدوين كل ذلك، مستعمِلاً أسلوب العصر الأدبي، وما يمتاز به مِن تصنع وتكلفٍ. ثم إن كاتب السرِّ كان يكلف أيضا بإنشاء مراسلات السلطان ذاتِ الطابع السرِّيّ، كما أنه كان يُطلب منه كتابة عقود تولية الولاة والرسائل الرسمية[2].

وهكذا، يبدو جَليّا أن وظيفة يحيى بن خلدون هذه كانت تجعله في جَوٍّ ملائم لإنتاجٍ أدبي غنِيٍّ ومتنوِّع[3]. ومن المؤسف أن الرسائل التي كتبها يحيى ابن خلدون أثناء قيامه بتلك الوظيفة لم تصل إلينا. غير أن أهمَّ إنتاجه لم يَضِع، ويتمثل في بعض القصائد الشعرية، وكتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، الذي نحن بصدد تحقيقه ونشره.

* – أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي– قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة أبو بكر بلقايد– تلمسان.

1-تاريخ تأليف "بغية الرواد" وعنوانه: يواجه الدارس لكتاب "بغية الرواد" تساؤلاتٍ عديدة، وبعضها يصعب الجواب عليه. ويمكن اعتبار أن هذا الكتاب، الذي لم يَتِمَّ تأليفه، كان من المُحتمَل جدا أن يُدخِلَ عليه مؤلفه بعض التعديلات، لو كتِبَ له المزيد من العمر[4]. وأوّل تساؤل يخصُّ تحديد تاريخ تأليف الكتاب والظروف التي كتِبَ فيها. ومن الصعب الإجابة على هذا التساؤل، إذ ليس لدينا أي دليل يمكن الاعتماد عليه لضبط تاريخ شروع يحيى ابن خلدون في كتابة "بغية الرواد"، بصفةٍ يقينية. إلاَّ أن ذلك لا يمنعنا من البحث عن بعض القرائن التي قد تساعد على تسليط بعض الأضواء في هذا الموضوع، من خلال دراسة هذا الكتاب.

وقد ذكر يحيى ابن خلدون في مقدمة كتابه أنه امتثل لأمر السلطان عندما قام بتأليف "بغية الرواد"[5]. غير أنه لم يحدد التاريخ الذي صدر فيه هذا الأمر. فهل يُفهَم من هذا أنه ألف القسم الأكبر من كتابه أوعلى الأقل، الجزء الأول منه، أثناء إقامته الأولى في بلاط أبي حَمُّو (769-772هـ)؟ أو هل ينبغي اعتبار تاريخ تأليفه بعد ذلك، أي أثناء مُقام المؤلف في البلاط المريني (772-776هـ)، أو أثناء الإقامة الأخيرة بتلمسان (776-780هـ) ؟[6].

وقد يبدو من المُحْتمَل أن يكون يحيى ابن خلدون قد فكر في إنجاز هذا العمل، وبدأ بجمع الوثائق الضرورية، أثناء إقامته الأولى في البلاط الزياني. وعلى سبيل المثال، يمكن الإشارة إلى الفصل الثاني من الباب الأول من القسم الأول، الذي يتضمّن تراجم علماء وصلحاء تلمسان. فهو، من دون شك، يتطلب إجراء أبحاثٍ طويلةٍ في عين المكان، والحصول على معلومات كثيرة من خلال الحديث مع المثقفين وكبار أهل المدينة، أثناء إقامة تمتد أشهرًا عديدة أو سنوات. وكذلك الأمر بالنسبة لجمع القصائد الشعرية الكثيرة، التي نظمها شعراء البلاط، أو السلطان أبو حمُّو نفسه.

غير أن هناك بعض القرائن، التي قد تجعلنا نرجِّح عملية تأليف الكتاب، وحتى الجزء الأول منه، إلى ما بعد احتلال السلطان عبد العزيز المريني لتلمسان (محرم سنة 772هـ)[7]. ويبدو من الأنسب الاعتقاد أن تأليف القسم الأول من "بغية الرواد" كان بعد وفاة السلطان عبد العزيز المريني، أي خلآل سنتي 774-775هـ، وذلك أنه يقع في فترة غنيَّة من حياة المؤلف، من الناحية الثقافية، إذ أنها تمتاز بجوٍّ ملائم جدا للإنتاج الأدبي. وتلك الفترة هي التي كان ينعم فيها بصحبة أخيه عبد الرحمن، وبصداقة لسان الدين ابن الخطيب. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ما كان لهذا الأخير من تأثير عميق على يحيى بن خلدون وأخيه عبد الرحمن. فكان نبوغه في

ميادين الأدب، من شعر ونثر وتاريخ وغير ذلك، وانصرافه إلى التأليف في ذلك كله، يدعو الأخوَيْن إلى الاتصال به، بالإضافة إلى انتمائهما إلى أصل أندلسي مثله، ممَّا كان يساعد على توثيق عرَى صداقةٍ كانت تربطهما به منذ حوالي عشر سنوات[8].

وكان لسان الدين قد التجأ إلى البلاط المريني في أواخر سنة 772هـ، فارًّا من غضب سلطان غرناطة، نتيجة مؤامرة حاك خيوطها ابن زمرك وأصدقاؤه[9]. ولا شك أن ما كان يتمتع به من صَيْتٍ ذائع، وعلوّ كعبٍ في فنون الأدب والتاريخ، وما كان قادرًا على تقديمه من مساعدة للأدباء الناشِئِين، قد حثَّ يحيى ابن خلدون وأخاه عبد الرحمن على ملازمته، والاستفادة من اللقاءات التي كانت تجمع بينهم، وما كان يجري فيها من محادثات أدبية ونقدٍ للإنتاج الثقافي المعاصر، وعرض لما جادت به القريحة من نثر أو شعر.

ويبدو جَلِيًّا من هذه الاعتبارات أن السنوات الثلاث التي قضاها يحيى ابن خلدون في البلاط المريني بتلمسان ثم بفاس (773-776هـ)، كانت حاسمة في اتجاهه، واتجاه أخيه عبد الرحمن، إلى التأليف في التاريخ[10]. فكان إنتاجهما، مثل إنتاج ابن الخطيب، ممَّا يُهْدى إلى سلاطين دول المغرب الإسلامي المعاصرين لهم. وكأنهم كتبوا لغرض الدلالة على ولائهم لأولئك الملوك، وربما أيضًا ليبرهنوا على سعة اطلاعهم وبلاغتهم، أكثر ممَّا كتبوا لغرض البحث النزيه. وإذا كان هناك هدف رئيسي يراعيه المؤلف في معظم هذا الإنتاج، فإنما هو العمل على مداراة السلطان الذي يُهْدَى إليه الكتاب، وإظهار عهده في أجمل حلة للأجيال القادمة[11].

ومن المحتمَل جدًا أن كتاب "بغية الروَّاد"، الذي ألف لذكر أمجاد عهد أبي حمُّو الثاني، لم يبرز إلى الوجود لولا رغبة يحيى ابن خلدون في استرجاع منصبه في البلاط العبد الوادي، والحصول على رضى سلطان تلمسان. وهكذا، يكون الشروع في تأليفه عندما ساءت الأحوال السياسية بفاس، كما سبق ذكره[12]، بينما كان السلطان أبو حمُّو قد أعاد الاستقرار والأمن في معظم مناطق مملكته، وأعاد إلى عاصمته ودولته حياة جديدة. ولا شك أن قلق يحيى ابن خلدون قد اشتدَّ بعد أن ألقِيَ القبض على لسان الدين ابن الخطيب (شوال 775هـ)، وأن رغبته في معادرة فاس، والعَودة إلى تلمسان قد ازدادت تأكدًا، إلى أن قتِلَ ابن الخطيب فاستحالت إلى تصميم لا رجوع فيه.

وكان على يحيى بن خلدون أن ينال من السلطان الزياني رضاه وعفوه على ما صدر منه، منذ ثلاث سنوات، من الالتحاق بالبلاط المريني بتلمسان أوّلاً، ثم بفاس. والجدير بالملاحظة أن الجزء الثاني والأخير من "بغية الروّاد " ينتهي إلى آخر سنة 776هـ، ممّا يجعلنا لا نستبعِد أن يكون تقديم الكتاب للسلطان أبي حمُّو قد وقع في أوائل سنة 777هـ، أي بعد عودة المؤلف بحوالي سنة، وفي وقتٍ كانت قد عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي في المملكة الزيانية، واستعادت بعض رونقها ونفوذها[13].

واستنتاجًا من هذه الاعتبارات، يبدو من الأرجح أن نحدد تاريخ إنهاء تأليف الجزء الأول من "بغية الرواد" في أوائل سنة 776هـ، أي في آخر الإقامة بفاس، أو في أوائل الإقامة الأخيرة بتلمسان، وتاريخ الانتهاء من كتابة الجزء الثاني في أوائل سنة 777هـ[14].

وهناك إشكالية أخرى تتعلق بعنوان الكتاب. وذلك أن بعض المخطوطات أوردت عنوان "نجعة الروّاد" عِوَض عنوان "بغية الروّاد" الذي اشتهر به الكتاب. وقد ورد ذكر العنوان بعبارة "نجعة الروّاد" في مقدمة أربع نسخ من المخطوطات العشر التي رجعنا إليها في تحقيق الكتاب، وهي التي استعملنا للدلالة عليها الرموز التالية : ح ، ل، ر، س. والغالب على الظن أنها كانت واردة أيضًا في مقدمة نسخة ب، المبتورة الصفحات الأولى، لِما بينها وبين نسخة ح، من تقارب كبير في النص. وورد كذلك هذا العنوان في آخر الجزء الأول من النسخ التالية : ب، ح، ل، ر[15].

غير أن عنوان "بغية الرواد" قد ورد في النسخ الخمس التي تدلُّ عليها، في نشرتنا هذه، الرموز التالية : ج، ط، ق، ز، ش، وكذلك في آخر الجزء الأول من نسخة س، وفي آخر الجزء الثاني من جميع النسخ. ويلاحظ أن النسخ التي ورد فيها عنوان "نجعة الروّاد"، هي أقدم المخطوطات، وأن هذا العنوان قد أثبت غالبًا في أوّلها، ثم عُوِّضَ في آخر الجزء الأول من نسخة س، وفي آخر الجزء الثاني من النسخ الأخرى كلها بعنوان "بغية الروّاد".

ولذا، فلا يُسْتبْعَد أن يكون يحيى ابن خلدون قد أطلق على كتابه، بادِئ ذي بَدءٍ، عنوان "نجعة الروّاد"[16]. ثم بَدا له أثناء تأليفه للكتاب أن يغيّره ويعوّضه بعنوان "بغية الرواد"، الذي هو أجمل وأفصح[17].

2–مضمون الكتاب: لا شك أن القارئ يتبيَّن، من عنوان الكتاب التامّ، "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، أن الموضوع المطروق فيه هو تاريخ الدولة الزيانية، من نشأتها

إلى عصر المؤلف. غير أن يحيى ابن خلدون يتجاوز، في كثير من الأحيان، هذا الإطار الضيِّق، ليعالج مسائل هامشية، ليست من صميم الموضوع. وهذا، إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على أفق أوسع في نظرية التاريخ عند يحيى ابن خلدون، بالنسبة لكثير من كتَّاب عصره[18]. وقد ذكر المؤلف في المقدمة أنه ألف كتابه بأمر من السلطان الزياني، لغرض تخليد أمجاد ملوك الدولة العبد الوادية، وبخاصَّةٍ عهد أبي حَمُّو الثاني. وتنتهي المقدمة بفهرست الكتاب، الذي يشتمل على ثلاثة أقسام.

فالقسم الأول يشكل مقدمة طويلة للموضوع، تتضمَّن دراسة يراها المؤلف ضرورية لتاريخ هذه الدولة، حول أصل قبيلة بني عبد الواد، وماضيها قبل تأسيس الدولة. ولأجل ذلك، فهو يبدأ بوصف البلاد التي شملتها مملكتهم، وبخاصَّةٍ عاصمتهم تلمسان. ويستدلُّ على فضل هذه البلاد في الإسلام بأحاديث ورد فيها ذكر المغرب، وبما يرجى من أهمِّيَّة الدور الذي يقوم به في نصرة الإسلام[19].

ثم يتناول وصف مدينة تلمسان العتيقة، وموقعها الطبيعي الجميل، اعتمادًا على البكري والزهري، ويورد، في صدد هذا الوصف، بعض القصائد التي نظمها شعراء مشهورون في التغني بروعة جمالها ومجدها[20]. ثم ينتقل إلى استطراد طويل حول العلماء والصلحاء الذين ولدوا بتلمسان ونشؤوا فيها، أو نزلوها وتوفوا بها، منذ حوالي القرن الخامس الهجري.

وينتهي الباب الأول بفصل يتضمَّن نظرة عامَّة وموجزة، حول تاريخ تلمسان قبل تأسيس الدولة العبد الوادية، وذكر الدول التي ملكت ناحيتها منذ الفتح الإسلامي، مع إبداء بعض العناية بدولة الأدارسة، الذين يعتبرون أجدادًا لملوك بني عبد الواد، حسب الرأي الشائع بين علماء البلاط بتلمسان.

ثم يتناول المؤلف، في الباب الثاني، دراسة الدور الذي قامت به قبيلة بني عبد الواد في تاريخ المغرب، قبل تأسيس دولتهم، وذلك بعد أن ذكر المؤلف آراء النسابة والمؤرخين العرب حول أصل البربر، وهو لا يشك، على ما يبدو، في صحَّةِ انتساب ملوك بني عبد الواد إلى الأدارسة[21]. بل يحاول تدعيمها بحُجَج فقهيَّةٍ، لإبطال آراء مَن نفى صِحَّة هذا النسب[22].

وفي الباب الثالث يتعرَّض إلى الأوضاع التي مكنت بني عبد الواد من الاستقرار بناحية تلمسان، وما أدَّى إليه ذلك من ضغط قويّ على المدينة إبَّان انهيار النفوذ الموحِّديّ، ثم تحوَّل ذلك إلى الاستيلاء عليها وعلى ناحيتها بفضل جرأة رؤساء القبيلة. وبانتقال الرئاسة إلى

يغمراسن بن زيان تحوَّل الحكم إلى إمارة مستقلة، ودخلت قبيلة بني عبد الواد وتلمسان عهدًا جديدًا.

ويتضمَّن القسم الثاني أيضًا ثلاثة أبواب، خصِّصَ أولها لذكر عهد يغمراسن وابنه أبي سعيد، ثم ثلاثة أمراء، من نسل هذا الأخير[23]. وينتهي هذا الفصل الهامّ بذكر تغلبِ السلطان أبي الحسن المريني على إمارة تلمسان. والجدير بالملاحظة أن يحيى ابن خلدون لا يولي أهمِّيَّة لتاريخ تلمسان أيام أبي الحسن المريني (737-749هـ) وابنه أبي عنان (753-759هـ)، رغم ما كان لتلمسان آنذاك من دور هامّ في تاريخ المغرب، وما تخلل ذلك من إنجازاتٍ عمرانية لا يستهان بها. والظاهر أن السبب في موقف المؤلف هذا، هو أن الغرض من تأليفه هو تمجيد الدولة العبد الوادية، فلا داعي لذكر أمجاد وأخبار منافسيهم المرينيين. والباب الثاني يتناول الظروف التي أدَّت إلى إحياء الدولة العبد الوادية على يد الأخوَيْن الأميرَيْن أبي سعيد الثاني وأبي ثابت. وبذكر عهد هاذيْن الأميرَيْن، في الباب الثالث من هذا القسم، ينتهي الجزء الأول من كتاب "بغية الروَّاد ".

أمَّا الجزء الثاني، الذي يشكل القسم الثالث من الكتاب، فقد خصّصَ كله لذكر عهد أبي حَمُّو الثاني، إلى آخر سنة 776هـ. وهنا أيضًا يلجأ المؤلف إلى التقسيم إلى ثلاثة أبواب، تناول في أولها ذكر الخلال الحميدة التي اتصف بها أبو حَمُّو، وفي الثاني عرض حياة أبيه وأسلافه، الذين لم يكن لهم حظٌّ في الإمارة، إلى يحيى بن يغمراسن، منتهيا بحياة أبي حمُّو الثاني قبل الإمارة، والحركة الموفقة التي حققت إلى رغبته في إحياء الدولة الزيانية مرَّة ثانية[24]. ثم في الباب الثالث، وهو أضخم بابٍ في الكتاب، تعرَّضَ إلى تاريخ عهد أبي حمو الثاني، متبعًا نظام السنوات، إلى آخر سنة 776 هـ وفي هذا الباب ذكر مفصَّل لأخبار النصف الأول من عهد أبي حمو، إلاَّ أن العرض، في كثير من الأحيان، مُثقل بما يضاف إليه من استطرادات، الغرضُ منها الترفيه على القارئ وتسلِيَته، وذلك مثل القصص الفارسية المقتبَسَة من كتاب "سلوان المطاع" لابن ظفر[25] وكثير من القصائد الشعرية.

وينتهي الجزء الثاني من "بغية الرواد " بذكر حوادث آخر سنة 776هـ غير أننا نجد، في بعض النسخ المخطوطة، ملحَقًا صغيرًا، يتناول ذكر حوادث أول سنة 777هـ وهذا الملحق لا يوجد في أقدم النسخ. ثم إن أسلوبه يختلف عن أسلوب يحيى ابن خلدون بصفة محسوسة، ممَّا يجعلنا نرجح أنه من وضع بعض النسَّاخ.

3-مصادر "بغية الرواد "

يختلف الأمر بالنسبة لموضوع مصادر "بغية الروّاد" حسب أبواب الكتاب وفصوله. فإذا كان الجزء الثاني يعتمد خاصّة على أخبار رواها بعض مَن شهدها من المعاصِرين لها، ومن بينهم المؤلف، وعلى رسائل رسميّة متبادَلة بين أمراء المغرب الإسلامي[26]، فالجزء الأول، في أغلب فصوله، يستقي المعلومات من مصادر مكتوبة متنوّعة وعديدة، إذ أنه يعالج مسائل أقلّ اختصاصًا بالأمراء الزيانيين. ويذكر يحيى ابن خلدون، في كثير من المواطن، المصادر التي اعتمد عليها، وخصوصًا عندما يريد تدعيم الآراء التي يسوقها للقارئ، وإقامة الأدلة في المسائل المختلف فيا. فمثلاً، عندما تناول الإطار الجغرافي الذي نشأت فيه الدولة العبد الوادية، وذكر حديث "لا تزال طائفة من أمتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"، لجأ إلى ذكر بعض المحدثين المشاهير، كمسلم والدارقطني وبَقِي بن مَخلد وعُبَيْد الله الهروي، لتأييد الرواية التي ساقها، مقتفيًا في ذلك آثار عدد من العلماء المغاربة ومعتمدًا بصفة خاصّة على ابن الزيّات التادِلي، صاحب كتاب "التشوُّف"[27].

وفيما يتعلق بوصف تلمسان، يرجع يحيى بن خلدون إلى ما ورد في كتابَيْ البكريّ والزُّهْريّ، وكأنه يروي قولهما من ذاكرته، حيث إننا نلاحظ أن النص الذي يسوقه يختلف كثيرًا عن النص الأصلي من ناحية الألفاظ، غير أنه يؤدِّي المعنى بأمانة[28]. وفي ذكر تراجم علماء تلمسان وصلحائها، يبذل يحيى ابن خلدون مجهودًا أكبر في احترام الصيغة اللفظية للنصوص التي يرويها عن سابقِيهِ، مثل ابن الأبّار وابن عبد الملك المرَّاكشي وابن الزيّات، وهو في أغلب الأحيان، لا يذكر المصادر التي يستقِي منها معلوماته[29].

غير أن يحيى بن خلدون يبرهن على اطلاعه الواسع لمَّا يتناول موضوع أصل البربر. فهو يعرض النظريات التي أبداها في هذا المجال أشهر المؤرخين وعلماء الأنساب وغيرهم من العلماء ويحاول أن يقدِّم هذه النظريات المختلفة بوضوح وإيجاز، وقد ساعده على ذلك تكوينه الفقهي والتاريخي. ويبدأ عرضه هذا بالإشارة إلى النظريات التي تقول بانتساب البربر إلى حام ممَّا رواه المسعودي والقضاعي والطبري والصولي. ثم يذكر التي تقول بانتسابهم إلى سام، من دون أن يشير إلى أسماء أصحابها. ثم يذكر بعد ذلك نظرية مالك بن المرحَّل، المتوفى سنة 699هـ، التي تقول بأن البربر قبائل مختلفة من حِمْيَر ومُضَر وقِبْط وعمالقة وقريش، اجتمعت في الشام، وتقاربت لغاتها المختلفة، ممَّا أدَّى إلى لغة جديدة هي لغة البربر[30].

ثم ينتقل المؤلف إلى نقطة كثر حولها اختلاف العلماء، وتتعلق بالظروف التي أدَّت إلى استقرار البربر في المغرب. فيروي قول المسعودي والطبري و[illegible] 581هـ بأن إفريقش اليمني أتى بهم في جملة جيشه عندما ملك المغرب، وتركهم به. ثم يذكر قول البكري، بأن بني إسرائيل هم الذين طردوهم من ديارهم بفلسطين، بعد موت زعيمهم جالوت على يد داود عليه السلام. وهو أيضًا رأي ابن قتيبة والصولي[31].

وبعد ذكر هذه الأقوال، يورد يحيى ابن خلدون رأيًا آخر، لم يُشِرْ إلى قائله، ويفضّله على الآراء الأخرى، ومفاده أنّ طائفة من قبائل البربر تنتمي إلى أصل عربي، بعضها يمني، وبعضها الآخر نزاري. ومن بين هذه الأخيرة البُتر، ومن هؤلاء زناتة، أبناء برّ بن قيس عيلان. ويضيف المؤلف أن هذا الرأي قد ذكره أيضًا الطبري والبكري[32]. وهكذا فبنو عبد الواد، وهم من زناتة، ينتمون إلى قيس عيلان[33].

وعندما يصل الباحث إلى لبّ الموضوع، وهو تاريخ الدولة العبد الوادية، ويتساءل عن المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في ذلك، فإنه يلاحظ أن هذا الأخير لم يُشِرْ إلى أيِّ مصدر لتاريخ المغرب خلال القرنين السابع والثامن للهجرة. وتدعوه الحيرة إلى التساؤل عمَّا إذا كان يحيى بن خلدون قد عرف مصادر لتاريخ تلمسان وتاريخ الدولة الزيانية، مثل كتابَي ابن الأصفر وابن هَدِيَّة، وعنوان كليهما "تاريخ تلمسان"[34]، وربما أيضًا كتاب "زهر البستان في دولة بني زيان"[35]، ولم ير ضرورة الإشارة إليها في كتابه، أو أنه لم يعرف تاريخ الدولة الزيانية والحياة الفكرية بتلمسان إلا عن طريق أشياخه، مثل الآبلي، وعن طريق اتصاله بالمثقفين المعاصرين له.

غير أنه يُسْتبْعَد أن خزانة أبي حَمُّو الثاني كانت لا تحتوي على هذه الكتب، وأن يحيى ابن خلدون لم يتمكن من مطالعتها. وقد يكون هذا الأخير صرف عنايته كلها إلى القسم الأخير من كتابه، الذي يتضمَّن عهد أبي حمُّو الثاني. وهو، في هذا المجال، يؤرِّخ للأحداث المعاصِرة، ويقوم بدَوْر شاهدِ عِيان، لا يحتاج إلى مطالعة المصادر المكتوبة. ويلاحظ في هذا الصدد أن الجزء الأول من "بغية الرواد" جاء في غاية الإيجاز، ممَّا جعله، في بعض الأحيان، يُهْمِل ذكر بعض المعلومات الهامَّة[36].

4–نظرية يحيى ابن خلدون في التاريخ

لا شك أن نظرية يحيى ابن خلدون في التاريخ لا تمتاز بالطرافة والجدَّة التي تمتاز بها نظرية أخيه عبد الرحمن، بالنسبة للمؤرخين المعاصرين له.غير أنه لا يمكن إغفال هذه النقطة من دراستنا، لِمَا لها من صِلة وثيقة بمنهجية يحيى بن خلدون، ومن أهمِّيَّة خاصَّة في شرح بعض جوانبها.

وفي هذا الصدد، يمكن القول إن التاريخ كان يُعْتبَر في القرن الثامن الهجري، وهو عصر المؤلف، عِلمًا لا مجال للشك في جواز الاشتغال به، عند المحدِّثين والفقهاء.وكان هذا الحكم بالجواز يعتمِد أساسًا على فائدة علم التاريخ في المجال الديني والخلقي. فمعرفة أخبار الأمم والشعوب السالفة، وأعمال كبار رجالها، الذين ساهموا مساهمة فعَّالة في تطوُّر الإنسانية، بما أبدَوْه من خصال حميدةٍ أو ذميمة، وما لهم من أثر في الحياة الدنيا، من جرَّاء سلوكهم وسيرتهم، كل ذلك يشكل عِبْرَة خلقية هامَّة للأجيال القادمة[37].

وهذه الفكرة الشائعة في ذلك العصر، هي التي عبَّر عنها يحيى ابن خلدون في مقدمة كتابه، حيث إنه ذكر أن أخبار السلف عِبْرة للخلف[38]، وأن تدوين أخبار العظماء "أسوة في الفخر اللباب، وعظة وذكرى لأولي الألباب"[39].

غير أن يحيى ابن خلدون لا يعتبر هذه القصدِيَّة الخلقِيَّة عاملاً أساسيًّا لإنتاجه التاريخي، بل الغاية الأساسية في ذلك هي تخليد أمجاد أمراء الدولة العبد الوادية، وبخاصَّةٍ السلطان أبي حمُّو الثاني، الذي انصرف إلى مدحه والثناء عليه. وهكذا، فالغرض من هذا التأليف هو كتابة تاريخ دولة، والإشادة بأمجادها، وإطلاع الخلف عنها[40]. فليس الغرض، في الحقيقة، القيام ببحث نزيهٍ، يهدف إلى المعرفة الموضوعية البعيدة عن التملق للأمراء وكبار الدولة، كما كان يريده عبد الرحمن ابن خلدون[41].

ولذا، فكتاب "بغية الرواد"، الذي ألف بأمر من السلطان أبي حمُّو الثاني، يحمِل طابع عصره. فهو إنتاج عالم من علماء البلاط، كتب، قبل كل شيء، لغرض تمجيد عهد السلطان الزياني، ثم لذكر أخبار الأمراء الزيانيين الذين سبقوه[42]. وعلى هذا الأساس، ينبغي طَرح مسألة الصدق والموضوعية، عند يحيى ابن خلدون، على بساط البحث، كما ينبغي أن تطرح بالنسبة لسائر مؤرخي البلاط. وهذا يؤدِّي بنا إلى دراسة منهجيته التاريخية.

5-منهجية التاريخ عند يحيى ابن خلدون

يبدو أن هناك مظهرَيْن متميِّزيْن في كتاب "بغية الرواد". أولهما خاصٌ بمدح السلطان والأمراء الذين سبقوه، وقد صِيغَ في أسلوب السجع المعتمِد على المحسِّنات البديعية، ويقع خاصَّة في بداية الفصول والأبواب وفي مقدمة الكتاب. وثانيهما هو مظهر كتابة التاريخ الحقيقي، ويختلف عن السابق، سواء في المبنى أو في المضمون، وهو الذي يهمُّنا بشكل خاصٍّ.

وبما أن هاذيْن المظهرَيْن يرميان إلى هدفين مختلفيْن، فينبغي التمييز بينهما في دراستنا لمنهجية يحيى ابن خلدون. فالجانب المدحي يقع على عاتق عالِم البلاط، الذي يرخي العِنان لخياله، ويتكلف الاستعارات والتشبيهات العديدة. وهذا الموقف، الخاضع لتقاليد العصر، هو الذي اتخذه سائر مؤرخي البلاط، آنذاك، أمثال لسان الدين ابن الخطيب، وابن مرزوق الخطيب، وابن الأحمر، وصاحب "الحلل الموشية"، وصاحب "زهر البستان "، وغيرهم[43]. وإذا كان يبدو جلِيًّا أن هذا المظهر يكتسي طابع التذلل والتملق، فإن المظهر الثاني، على عكس ذلك، يخضع لقواعد علم التاريخ المعهودة عند العرب، والملتزمة حدود الأمانة العلمية والصدق. وعليه، فلا يسوغ للباحث أن يرفض مبدئيًّا كل الأخبار الواردة في "بغية الرواد" بحُجَّة طابع الكتاب المدحي. وذلك أن يحيى ابن خلدون قد ميَّز، سواء من حيث المبنى أو المعنى، بين القسم المدحي والقسم التاريخي، وأحلَّ هذا الأخير المنزلة الأساسية في كتابه، بينما لم يترك للأول إلاَّ دور الغِلاف والزخرفة، في ذلك الإنتاج. وعلى كل، فينبغي استعمال هذا النوع من التآليف بكل ما يتطلبه من حذر ويقظةٍ، إذ لا يُعْقل أن يعالج يحيى ابن خلدون، كاتب أبي حمُّو الثاني، تاريخ الدولة العبد الوادية، وبالأخصّ عهد السلطان الذي يخدمه، من دون أن يفكر في إظهار الأحداث والوقائع في صورةٍ ملائمةٍ لأولئك الأمراء. فهو يحاول مداراة حساسيتهم، ولكنه لا يعمد، في ذلك، إلى تغيير الحقائق التاريخية، وإنما يلجأ، غالبًا إلى أسلوبٍ خفِيٍّ، ينحصر في إغفال بعض التفاصيل، أو السكوت عن بعض الأحداث. غير أن هذا الأسلوب ليس عامًّا في الكتاب. فلم يتأخر يحيى ابن خلدون، مثلاً، عن ذكر أكبر هزائم أبي حمُّو الثاني، ووصْفِ أحداثها[44]. إلاَّ أننا نلاحظ، من ناحية أخرى، أنه لم يُشِرْ إلى كثير من هزائم يغمراسن[45]، كما أنه لم يصرِّح بتدهور نفوذ أبي حمُّو الثاني إثر الهزائم التي مُنِيَتْ بها جيوشه من سنة 765 إلى سنة 772هـ، من جراء انتهاز العرب البدو جميع الفرص للاستيلاء على أراضي الإمارة، والصراع الناشئ بين السلطان وابنه الأكبر أبي تاشفين.

ومن جهة أخرى، يلاحظ أن مضمون "بغية الرواد" لا يشمل جميع مظاهر البحث التاريخي، وخصوصًا القسم الخاصّ بتاريخ عهد السلطان أبي حمُّو الثاني، وهو أهمّ أقسام الكتاب، سواء من ناحية الحجم أو من ناحية قيمة المعلومات، حيث إنَّ ميدان التاريخ يكاد ينحصر في نشاط السلطان وجيوشه وحياة البلاط. أما الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فلم تحظ بعناية المؤلف، الذي أغفل التعرُّض إليها، ما عدا بعض المعلومات النادرة جدا، وردت بصفةٍ عابرة في صدد الحديث عن حياة البلاط[46].

غير أن الأمر يختلف بالنسبة للجزء الأول، الذي هو بمثابة مقدمةٍ لتاريخ عهد أبي حمُّو الثاني، حيث إن المؤلف يخصِّص مكانة هامَّة للتعرّض إلى ميادين خارجة عن الحياة السياسية، ممَّا يجعل مجال العرض أوسع وأشمل. فبعد مقدمة حول الإطار الجغرافي، ينصرف الكاتب إلى ذكر الحياة الفكرية بتلمسان فيما يزيد على مائة ترجمة للعلماء والصلحاء. ثم يستعرض بإيجاز الولاة والأمراء الذين حكموا هذه المنطقة من المغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامي. ويلي ذلك تاريخ الدولة الزيانية قبل عهد أبي حمُّو الثاني، بعد عرض موجز حول أصل قبيلة بني عبد الواد، والظروف التي أدَّت إلى تأسيس إمارتهم.

ويُسْتنتج ممَّا سبق ذكره أنَّ يحيى بن خلدون يجمع موادَّ مختلفة، ويجعل منها دراسة وافية عن تلمسان. ولكنه، في نفس الوقت، يعالج مختلف النقاط المطروقة بصفة مقتضبة، مكتفيًا بانتقاء بعض المعلومات، ومن دون أن يفكر في تقديم دراسة مستوعِبَة للموضوع[47]. وعلى كل، فإن الجزء الأول من "بغية الرواد " يستوحي طريقة تأليفه من منهج بعض المؤرخين المغاربة، أمثال عبد الواحد المراكشي ولسان الدين ابن الخطيب، الذين يستهلون مؤلفاتهم بمقدمة متنوِّعة المحتوى، تتضمَّن خاصَّة وصف البلاد المعنِيَّة، من حيث دراسة أوضاعها الجغرافية والاجتماعية والفكرية، وكذلك من ناحية تطوُّرها السياسي قبل الفترة المعنِيَّة[48].

وهكذا، يتضح أن هؤلاء المرخين انتهجوا اتجاهًا جديدًا في معالجة التاريخ، يمتثل في ربط التواريخ السلطانية بالتاريخ الإقليمي السابق، وبالإطار الجغرافي والبيئة الاجتماعية والثقافية، وإن كانوا لم يُصَرِّحوا بهذا المنهج، ولم يُعْربوا عنه في غضون مؤلفاتهم. ويبدو أن يحيى ابن خلدون كان له شعور واضح بهذا الاتجاه الذي كانت تتبعه المدرسة التاريخية المغربية آنذاك. فهو يذكر، في بداية القسم الأول من كتابه، أنه سيحاول دراسة "ما لا غنى بنا عنه من التعريف بكنه قبيل بني عبد الواد وأوَّلِيَّته". ثم يتابع حديثه قائلاً: "ولما كان كل حادث مفتقرًا بذاته إلى

مكان سابق، وزمان لاحق، وجب أن نفرد لذكره[49]، وذكر كل منهما[50]، بابًا نفي فيه بغرضنا من خبره"[51].

وقد يكون مفيدًا أن نقارن بين هذه الفكرة، والفكرة التي أبداها عبد الرحمن ابن خلدون في هذا الموضوع. فهو يقول في بداية المقدمة : "إن كل حادث من الحوادث، ذاتًا كان أو فعلاً، لا بد له من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله"، الأمر الذي يتطلب معرفة "طبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها"[52].

لا شك أن هناك تقاربًا صريحًا بين هاتين الفكرتين المنبعثتيْن عن اهتمام واحد، وهو أن التاريخ الوقائعي لا يمكن له وحده، أن يفسِّرَ أسباب الحوادث التاريخية ونتائجها، وأن معرفة التاريخ الدقيقة والصحيحة تتطلب، بالإضافة إلى عرض الحوادث، دراسة الإطار الذي وقعت فيه، والأوضاع التاريخية التي تتصل بها.

فهذا المبدأ قد ذهب إليه كل من الأخوَيْن يحيى وعبد الرحمن، وعبَّر عنه كل واحد منهما بما يناسب مجالات البحث التي عُنِيَ بها. فأورده عبد الرحمن ليطبقه على التاريخ العامّ، وجعل منه حقيقة صالحة لكل زمان وكل مكان، بينما وضعه يحيى لتاريخ دولةٍ، مؤكدًا أهمِّيَّة اعتبار سائر العناصر المحلية المتصِلة به. ويتطلب هذا الاتجاه، الذي ينبني على فكرة البحث عن الأسباب والعِلل، دراسة سائر العوامل التي تخضع الأحداث التاريخية لتأثيرها، وكل العناصر التي ترتبط بها أو تنبعث عنها، كما يرتبط ذلك بنقد المعلومات، شفاهية كانت أو كتابية. وفي هذا الصدد يبدو أن يحيى ابن خلدون يجري عملية النقد في مستوى انتقاء المعلومات فقط. أما الأخبار التي يوردها، فهو لا يتعرَّض لنقدها إلاَّ نادرًا[53]. وكثيرًا ما يشير يحيى ابن خلدون، في الجزء الأول من كتابه، إلى المصادر التي يستقي منها الأخبار. إلاَّ أنه يكتفي غالبًا بذكر اسم المؤلف، دون الإشارة إلى عنوان الكتاب الذي يعتمد عليه. ثم إنه لا يرى ضرورة ذكر إسناد رواة الأخبار، شأنه في ذلك شأن معظم كتّاب عصره[54].

ويلاحظ أن لهذا التطوُّر في منهجية التاريخ صِلة وثيقة بتطوّر نظرية العلماء للتاريخ. فاعتبار التاريخ علمًا من العلوم المساعدة لمعرفة الشريعة، وتفهّم الإشارات التاريخية الواردة في القرآن، طيلة القرون الأولى للهجرة، كان يُحَتم اتباع منهج المحدِّثين في تدوينه. ولكن، عندما بدأ العلماء يكتبون التاريخ لتمجيد حكم السلاطين والخلفاء، لم يرَوْا أيّة ضرورة لنقد الإسناد

في رواية الأخبار. وأصبح المقياس الوحيد لقيمة الخبر، اتفاقه والهدف الذي يرمي إليه المؤلف.

ويستنتج من كل هذه الاعتبارات أن يحيى ابن خلدون ينتمي إلى المدرسة التاريخية المغربية التي ازدهرت في القرنين السابع والثامن للهجرة، بما امتازت به نظريته للتاريخ ومنهجيته. وذلك خلافًا لأخيه عبد الرحمن، الذي لم يأخذ كثيرًا عن سابقيه، ولم تعْنَ الأجيال التالية بدراسة إنتاجه ومواصلة جهوده.

ثم إننا نلاحظ عند يحيى ابن خلدون وعبد الواحد المراكشي ولسان الدين ابن الخطيب وأبي عبد الله بن مرزوق وغيرهم، أن كلاًّ من الباحث وعالِم البلاط يتجاوران في نفسيَّة المؤلف المؤرخ، ويعيشان في جوٍّ وئام واتفاق. وفي هذا الجوار، يضطرُّ كل واحد منهما أن يتنازل عن بعض المبادئ، ويتحالف مع الآخر. وعندئذٍ، ينقص الإنتاجَ شيء من الدِّقة والصدق، إلاَّ أنه يزداد سعة ووضوحًا[55].

غير أن هذا الاتجاه الذي سلكته التواريخ السلطانية، يجعلنا نشعر بشيء من الأسف، إذ أنه أدَّى إلى جعل قسم هامّ من نتاج المؤرخين في خدمة الحكام، على حساب الموضوعية والنزاهة.

6-أسلوب يحيى بن خلدون: لقد امتاز القرن الثامن الهجري، من ناحية تطوّر الأسلوب الأدبي، بتمادي التيارات التعبيرية التي ظهرت، منذ القرن الرابع الهجري، في الأدب العربي بالمشرق. ولم تفتأ تزداد انتشارًا ورسوخًا، لِما وجدت من إقبال لدى جمهور الأدباء، الذين بالغوا في تطبيق اتجاهاتها القائمة على الإسراف في اللجوء إلى التشبيه والاستعارة وغير ذلك من صور البلاغة، الأمر الذي أثقل الإنتاج الأدبي نثرًا وشعرًا، وطبعه بطابع التكلف والتصنع. وقد عرفت هذه الاتجاهات انتشارًا كبيرًا في الأندلس وأقطار المغرب، ولاسيَّما بين كتَاب مختلف البلاطات السلطانية. وعمَّ استعمال السجع في المراسلات الرسمية والخاصَّة، التي "امتازت بوفرة التعابير المسجَّعة القليلة المعنى"[56].

أما يحيى بن خلدون فإنه سلك الطريق التي عبَّدها سابقوه، في هذا الميدان[57]. ولا شك أنه تأثر بالكتَّاب والأدباء المشهورين في عصره، أمثال ابن عبد المهيمن الحضرمي وابن رضوان، وبصفة خاصة، لسان الدين ابن الخطيب، الذين قاموا بدَوْر رئيسي في تكوينه، وحصوله على مَلكة هذه الأساليب التعبيرية المثقلة بالمُحَسِّنات البديعِيَّة[58].

هذا، و يمتاز أسلوب يحيى بن خلدون بدِقة الوصف، وبراعة التصوير، وسعة الخيال، والتوفيق في اختيار المفرَدات. فنثره يتألق تألقَ الأحجار الكريمة، فيَفتن القارئ بما يحمِل في طيّاته من تأنق وجزالةٍ وتراكم الصور البلاغية، ممّا كان ينال رضى الأدباء والمثقفين وإعجابهم.

وعلاوة على ذلك، فإن يحيى بن خلدون كان يكثر من استعمال الاستعارة إلى حد يقرب من الإسراف، ويُرْسِل الكلام متناسِق الأطراف، منسَجم العبارات، مزدانًا بنغمات السجع، ممًّا كان يكسب أسلوبه رَوْنقًا وجمالاً، ويجعله في مستوى إنتاج كبار الأدباء، ويحقق لصاحبه النجاح عند الأمراء والسلاطين[59].

والجدير بالملاحظة أن يحيى بن خلدون لا يبالغ في استعمال السجع. فهو يلجأ إليه ليبرهن على صدق قريحته ونبوغه في فنون الأدب، ولإجادة وصف الأمير وعاصمته، والتعبير عن عواطف الإخلاص والوفاء. ولكنه، إذا ما انصرف إلى ذكر الأخبار، أو عالج مسائل تاريخية، فإنه يفضل النثر المُرْسَل، ويتوخى في أسلوبه البساطة والدقة[60]. ويبدو أن هذا التكوين الأدبي المعتمِد على وفرة الرصيد اللغوي، للتغلب على الصعاب الناجمة عن مقتضيات السجع، كان يهَيِّئ صاحبه لنظم الشعر، إذ أن السجع يحتلُّ منزلة بين النثر المرسل والشعر.

فلا غرابة إذا كان يحيى بن خلدون شاعرًا أيضًا، شأنه في ذلك شأن معظم كتَاب البلاط في عصره. وشعره يخضع لذوق معاصريه، ويَنِمُّ عن سعة الاطلاع على الأدب العربي، وممارسةٍ جدِّيَّةٍ لهذا الفن المزدهر آنذاك في بلاطات الأمراء. وتشهد قصائده، التي نظمت بمناسبة الأعياد الدينية والأحداث الهامَّة، على مواهب أدبية حقيقية، وعلى سهولة في نظم المقطوعات الشعرية الطويلة. وعلى كل، فينبغي نقد هذا الإنتاج الشعري بوضعه في إطار عصره، وإجراء مقارنة بينه وبين نماذج من الإنتاج المعاصر له، ومراعاة التقاليد المتبعة آنذاك.

ورغم أن يحيى بن خلدون لم يَصِلْ إلى درجة فحول الشعراء، فإن شعره قد نال إعجاب المعاصرين، وحَظِيَ بإقبالهم عليه. وإذا كان أغلب القرَّاء، في زماننا هذا، لا يعجبون به ولا يميلون إليه، فذلك لا يمنع أن هذا الشعر له قيمة في حدِّ ذاته، وأنه يحمِل طابعَ عصر من العصور[61].

7- خطة تحقيق كتاب "بغية الرواد ":

أ-اختيار النسخة الأساسية: يظهر ممَّا ذُكِر سابقًا في وصف مخطوطات كتاب "بغية الروَّاد"، التي أمكن الاطلاع عليها[62]، أن نسخة الأسكريال هي الوحيدة التي ليست مصابة بنقص ملحوظ ، ما عدا البتر القليل في أولها وآخرها، وأنها أكمل النسخ، وأقربها إلى نسخة المؤلف المفقودة. أمَّا المخطوطات الأخرى، فيبدو أنها تشكل مجموعتيْن متميِّزتيْن:

1-فالمجموعة الأولى تضمُّ النسخ المُشار إليها برموز: ق، ب، ح، ر، ل. وهي قريبة من نسخة الأسكريال، إلاَّ أنَّ فيها بعض الثغرات. وتتضمَّن هذه المجموعة سائر القصائد الشعرية، إلاَّ مقطوعة واحدة[63]. ثم إن بعض الفقرات والجمل ناقصة في هذه النسَخ، الأمر الذي يرجِّح الاعتقاد بأنها تنتمي إلى أصل واحد، غير النسخة الأم.

2-أمَّا المجموعة الثانية فهي تضمُّ المخطوطات المشار إليها برموز: ج، ط، ز، ش، وكلها تنقصها قصائد شعرية عديدة. غير أنها تتضمَّن بعض الفقرات الساقطة في المجموعة الأولى. فهذه النسَخ تنتمي أيضًا إلى أصل واحد، وتمتاز بزيادة مفردات أو عبارات، أضِيفت إلى النص الأصلي؛ وقد يكون ذلك لقصْد المزيد من الوضوح. ويُسْتبْعَدُ نِسْبَة هذه الزيادات، التي لا توجد في المجموعة الأولى ولا في مخطوط الأسكريال، إلى المؤلف، لضعْفِها اللغوي، ولثقلها من ناحية الأسلوب[64].

وعليه، فيُسْتنتج ممَّا سبق أنَّ كلاًّ من المجموعة الأولى والثانية ونسخة الأسكريال تنتمي إلى ثلاث أمَّهات أصليَّة متغايرة، وأنَّ أصحَّ هذه الأمَّهات وأوثقها هو الأصل الذي تنتمي إليه نسخة الأسكريال. ولذا اعتبرناها النسخة الأصلية لتحقيقنا هذا. أما بالنسبة للورقات المبتورة منها، في أول الكتاب وآخره، وبعض الفقرات من المقدمة التي لا توجد إلاَّ في المخطوطيْن ر، ل، فإننا اتخذنا مخطوط ر نسخة أساسية (الورقات 1 أ، 83 أ-ب، 84 أ-ب)، وقد فضلناها على نسخة ل، رغم أن هذه الأخيرة أقدم بحوالي ثمانين سنة، لأنها أضبط منها وأقل أخطاء.

ب) تحقيق النص: وفيما يخص تحقيق النص، فلم نرَ ضرورة إضافة الزيادات التي وردت في النسَخ الأخرى، ولاسيما زيادات المجموعة الثانية (ج، ط، ز، ش) إلى نص نسخة الأسكريال (النسخة الأساسية)، كلما كانت هذه الزيادات لا تأتي بأية فائدة لتفهّم النص وإيضاح المعنى. غير أننا التزمنا إضافة الزيادات، التي يتطلبها السِّياق، إلى النسخة الأساسية، وجعلناها بين مَعْقوفتيْن.

أما الهوامش، فإنها تتضمَّن ذكر الاختلافات بين النسخ، وما طرأ عليها من نقص أو زيادة؛ ونظرًا إلى تراكم الأغلاط في معظم النسَخ، فقد اضطررنا إلى الاقتصار على ذكر الاختلافات التي ليست من باب الأغلاط الكتابية أو النحوية أو اللغوية، كما أننا توخينا تخفيف هذه الهوامش باتخاذ الرموز الاصطلاحية التالية:

1-رمز+ للدلالة على زيادة في النسَخ غير النسخة الأساسية؛

2-رمز– للدلالة على نقص في النسخ المذكورة؛

3-المعقوفتان [...] للدلالة على النقص الواقع في النسخة الأساسية، والذي لا يستقيم المعنى في النص إلاَّ بإثباته؛

4-النجمتان * ... * للدلالة على الجمل والفقرات الناقصة في نشرة ألفرد بل، والتي لم ترد إلا في النسَخ س، ر، ل؛

5-القوسان (...) للدلالة على زيادة كلمة أو عبارة لم ترد في جميع النسَخ، واقتضى إدراجَها في النص ضرورة السِّياق أو تيسيرُ تفهّم النص.

هذا، وقد اعتمدنا على هوامش نشرة ألفرد بل لإثبات اختلافات النسَخ التي استعملها ولم نتمكن من الحصول عليها (ج، ط، ق، ح)، إلاَّ أن نشرته هذه، في كثير من الأحيان، تتضمَّن اختلافات عن نسختنا الأساسية، من دون أن ترد إشارة إلى أي اختلاف بين تلك النسَخ.

وقد أضفنا إلى هوامش تحقيق النص هوامشَ أخرى تتضمَّن معلومات حول أعلام الأشخاص والأمكنة والكتب الواردة في الكتاب، وكل ما يتطلب مزيدًا من الإيضاح والتدقيق. واقتصرنا غالبًا على ما لم يَرِد في نشرة ألفرد بل من المعلومات الإضافية، التي تمَكنَ التِقاطها من المطبوعات العديدة التي صدرت منذ ذلك العهد.

وفيما يخصّ تصحيح الأغلاط التي تتضمَّنها النسخة الأساسية، فإننا لجأنا إلى كل الوسائل المتوفرة لدينا، وذلك بالرجوع إلى النسَخ الأخرى، مع إثبات ما ورد في النسخة الأساسية في الهوامش. كما رجعنا أيضًا إلى المصادر التي اعتمد عليها يحيى ابن خلدون في تأليفه لتصحيح الأغلاط الواردة في جميع النسَخ[65]. وكذلك استعملنا مصادر أخرى أحدث من "بغية الرواد"، مثل "نظم الدر والعقيان" للتنسي، و"نفح الطيب" للمقري، و"تعريف الخلف" للحفناوي، التي نقلت فقرات وقصائد عن "بغية الرواد"، فوجدنا فيها بعض الاختلافات المفيدة.

وأخيرًا، وبصفةٍ استثنائية، اخترنا أنسب العبارات أو المفردات، من ناحيتي الأسلوب والمعنى، كلما اقتضى الأمر ذلك، إذ أنَّ هدفنا من تحقيقنا هذا هو أن نقدم للقارئ كتابًا منقحًا، مستقيم التعبير، كامل النص. وأملنا أننا، بعملنا هذا، نكون قد ساهمنا في خدمة تاريخ المغرب، بصفة عامة، والجزائر، بصفة خاصة، وفي إزاحة الستار عن بعض جوانب شخصية يحيى ابن خلدون.

الهوامش:

1- عن يحيى بن خلدون الشاعر، راجع : بغية الرواد، ج2، ص 88، 149-153، 258-261، 199-200، 214-217؛ زهر البستان، ورقة 86 ب-87 أ؛ المقري، نفح الطيب، ج9، ص 212-215، 218-219، 340-341؛ نفس المؤلف، أزهار الرياض، ج1، ص 239-242، 246-247. Bargès, Complément..., pp. 150-152 et 207.

2- عن مهام الكاتب في البلاط، راجع : أبو حمو العبد الوادي، واسطة السلوك، ص 81-82.

3- عن الفنون الأدبية التي كان يمارسها الكتّاب في ذلك العصر، بالإضافة إلى التاريخ، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص 110-365.

4- ينتهي الجزء الثاني من "بغية الرواد" إلى آخر سنة 776 هـ غير أن بعض المخطوطات تشتمل على ملحق يتضمن ذكر حوادث أوائل سنة 777 هـ، في بعض الصفحات. وقد يكون هذا الملحق من وضع كاتب غير يحيى بن خلدون. راجع : بغية الرواد، ج2، ص 220-222.

5- انظر : مقدمة كتاب "بغية الرواد"، فيما يلي، ص 85-86.

6- من البديهي أن القسم الأخير من الكتاب، الذي يتناول عهد السلطان أبي حمو الثاني، وبالأخص حوادث سنة 776 هـ، قد ألف، بدون شك، أثناء الإقامة الثانية والأخيرة في بلاط أبي حمو الثاني، أي بعد فاتح ربيع الأول سنة 776 هـ

7- من هذه القرائن أن يحيى بن خلدون يذكر تاريخ وفاة أبي عبد الله الشريف(4 ذي الحجة 771 هـ) ، كما أنه يشير إلى أن أبا عبد الله بن مرزوق الخطيب، المتوفى سنة 781 هـ، كان يوجد= =بمصر في عهد تأليفه للكتاب، ومن المعلوم أن ابن مرزوق الخطيب رحل إلى مصر في ربيع الأول 773 هـ راجع : بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص 126-131؛ المقري، نفح الطيب، ج7، ص 309-338؛ التعريف بابن خلدون، ص50-56؛ ابن مريم، م. س.، ص 184-190.

8- راجع نص الرسالة التي بعثها ابن الخطيب إلى يحيى بن خلدون بمناسبة تعيينه في منصب كاتب لأبي حمو الثاني، في كتاب " نفح الطيب " للمقري، ج9، ص 99-103. عن الرسائل التي بعثها ابن الخطيب لعبد الرحمن بن خلدون، راجع : التعريف بابن خلدون، ص 112-130، 137-139، 224-231؛ المقري، نفح الطيب، ج9، ص 93-99.

9- انظر، فيما قبل، ص 37، 38 وهامش 1.

10- عن تأثير لسان الدين ابن الخطيب في تكوين يحيى بن خلدون الأدبي والتاريخي، انظر، فيما قبل، ص 37-39.

11- راجع، فيما قبل، ص 37-38.

12- راجع، فيما قبل، ص 38-39.

13- راجع، فيما قبل، ص 40-42.

14- ورد في وسط الجزء الثاني من " بغية الرواد " ذكر رسالة لابن الخطيب، مما يرجح جعل تاريخ كتابة ذلك القسم من الكتاب بعد وفاة ابن الخطيب، حيث وردت عبارة "رحمه الله" بعد ذكر اسمه (بغيةالرواد، ج2، ص 120).

15- ورد ذكر العنوان ثلاث مرات في كتاب " بغية الرواد "، الأولى في المقدمة، والثانية في آخر الجزء الأول، والثالثة في آخر الجزء الثاني. عن الرموز التي استعملناها للدلالة على النسخ المخطوطة التي رجعنا إليها، انظر، فيما يلي، ص 71-72.

16- من المحتمل جدا أن يكون يحيى ابن خلدون قد تأثر، في وضع هذا العنوان الأول، بعنوان أحد تآليف لسان الدين، وهو "ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب ".

17- يوجد تكرار في المعنى في كلمتي " النجعة " و" الرواد ". فكلاهما يدلان على البحث عن المرعى، بينما لا يوجد هذا التكرار في عنوان : بغية الرواد ". ومن بين مشاهير المؤلفين المغاربة، الذين غيروا عناوين كتبهم، يمكن ذكر أبي العباس المقري، الذي عوّض عنوان " عرف الطيب "، الذي اختاره أولا لكتابه، بعنوان " نفح الطيب ". راجع : المقري، نفح الطيب، ج1، ص 117.

18- حول نظرية يحيى بن خلدون في التاريخ، انظر، فيما يلي، ص 56-57.

19- حول هذه الأحاديث، واختلاف لمحدثين في نصّها، انظر : فيما يلي، ص 53-54.

20- هؤلاء الشعراء هم : أبو عبد الله ابن خميس، المتوفى سنة 708هـ، وأبو عبد الله الثغري، وأبو عبد الله التلالسي وهاذان الأخيران كانا معاصرين للمؤلف، وكانا من مشاهير شعراء بلاط السلطان أبي حمو الثاني. انظر : بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص116-121؛ المقري، نفح الطيب، ج 9، ص327-335، 336-340؛ نفس المؤلف، أزهار الرياض، ج2، ص322-340؛ ابن مريم، م. س.، ص 222-223؛ محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص124-142، 177-191؛ Abbé Bargès, Complément..., pp. 22, 24, 218-20

21- ويخص المؤلف من بين بني عبد الواد فصيلة بني القاسم، التي ينتمي إليها أمراء بني عبد الواد. أما باقي القبيلة، فقد اجتمع رأي النسابة على أنهم من زناتة. ويرى يحيى ابن خلدون أن زناتة من أصل عربي نزاري. وقد أخذ التنسي بالآراء التي ذهب إليها يحيى بن خلدون، وخصَّصَ فصولا عديدة للحديث عن إدريس الأكبر وأجداده. انظر : بغية الرواد، ج1، فيما يلي ص 170-172؛ التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 109-110.

22- لم يختص بنو عبد الواد وعلماء بلاطهم بهذه الرغبة في إلحاق نسب قبيلة بربرية ، أو فصيلة منها، بالنسب العلوي الشريف، أو العربي. فقد سبقهم في ذلك، مثلا، الموحدون، حيث إن المهدي ابن تومرت ادّعى أنه من نسل علي بن أبي طالب. وكذلك الأسرة المومنية، التي زعم بعض النسابين أنها تنتمي إلى قيس عيلان. ولاّ شك أن هذه المزاعم تمتّ أساسا إلى اعتبارات سياسية. فالانتماء إلى الأسرة الشريفة يضفي على الشخص أو الأسرة أو القبيلة مسحة من النبل والحرمة، تؤهلها للسموّ إلى الإمارة أو السلطنة، وحتى إلى الخلافة، كما كان الأمر بالنسبة إلى الخلفاء الموحدين. عن الأدلة التي أوردها يحيى بن خلدون لتأييد صحة انتماء الزيانيين إلى النسب العلوي الشريف، راجع : بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص170-172.

23- وهم أبو زيان وأبو حمو الأول وأبو تاشفين الأول.

24- ويختتم هذا الباب بقصيدة أبي حمو الشهيرة في وصف حركته إلى تلمسان. ويلاحظ أن يحيى بن خلدون لا يورد في هذا الباب أخبارًا كثيرة عن حياة أبي حمو الثاني وأبيه، قبل سنة 760 هـ بل يكتفي بذكر الأخبار التي وردت في كتاب أبي حمو : واسطة السلوك في سياسة الملوك "، ص 12-19.

25- عن ابن ظفر الصقلي، انظر، مثلا، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، رقم 48، ص 141-142.

26- وكذلك الأمر بالنسبة لعدد كبير من تراجم العلماء والأولياء المعاصرين للمؤلف، في الفصل الثاني من الباب الأول من القسم الأول. راجع : بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص 103-149.

27- راجع : ابن الزيات، ا لتشوف إلى معرفة رجال التصوف، ص1-2. عن هذا الحديث وما وقع من اختلاف في روايته وأهم المصادر التي روته، انظر، فيما يلي، ص 89، 90 وهامش 1.

28- يلاحظ، في هذا الصدد، أن يحيى بن خلدون لم يعتمد على " نزهة المشتاق " للإدريسي، وربما لم يتصل بهذا الكتاب. وعلى كل، فإن وصف تلمسان، عند الإدريسي، لا يفيد كثيرًا فيما يخص موقع المدينة وحياتها الاقتصادية، وهو لا يقول شيئًا عن مساجدها وآثارها. راجع : الإدريسي، وصف إفريقية والصحراء الشمالية، ص 54-55.

29- نذكر، مثلاً، التراجم رقم 29، 95 (عن التكملة)، 8، 28 (عن الذيل والتكملة) ، 1، 22، 24، 99 (عن التشوف).

30- يلاحظ أن المؤلف لا يشير إلى رأي ابن حزم في الموضوع، بينما يعتمد عليه أخوه عبد الرحمن، كما أنه لا يولي أي اهتمام لإقوال النسابة البربر، مثل ابن حمادو البرنسي، وصاحب كتاب " مفاخر البربر".

31- ويبدو أن صاحب كتاب " مفاخر البربر " قد مال إلى هذا الرأي الأخير. انظر : مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 1، 49، 65. راجع أيضًا : الإدريسي، م. س.، ص 35؛ ابن الفقيه، كتاب البلدان، تحقيق الحاج صادق، ص 39 والهامشين 64-65.

32- ينفي ابن حزم النسب العربي للبربر، ويعتقد أن ما قيل حول بر بن قيس عيلان ليس إلا أسطورة. ولعل هذا الموقف ذاته يفسر إهمال يحيى بن خلدون لذكر ابن حزم، والتعرض لرأيه، وذلك أن غرضه هو إثبات النسب العربي للأمراء العبد الواديين. راجع أيضا : مفاخر البربر، ص 76.

33- حول تراجم العلماء المذكورين في موضوع أصل البربر، انظر، فيما بعد، ص أما مالك بن المرحل، فهو مشهور كشاعر. راجع : بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص 161-162.

34- ومن المؤسف أن هاذين الكتابين مفقودان. وهما، من دون شك، أقدم من " بغية الرواد "، إذ أن ابن الأصفر أبا عثمان سعيد بن عيسى توفي سنة 460 هـ بينما كانت وفاة ابن هدية أيام السلطان أبي تاشفين الأول. وقد ورد ذكر الكتابين في الإحاطة لابن الخطيب، ج1، ص 64. انظر أيضا : حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص289.

35- ولم يصلنا، من هذا الكتاب إلا الجزء الثاني منه، حول تاريخ الدولة الزيانية خلال السنوات الخمس الأولى من عهد أبي حمو الثاني، وهو من تأليف كاتب مجهول، يبدو أنه كان معاصرًا لهذه الفترة. وقد ورد ذكره في كتاب " نظم الدر والعقيان " لأبي عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعياد، ص 47-48.

36- لم يرد، مثلاً، في بغية الرواد، ذكر بعض آثار تلمسان المشهورة، الراجعة إلى عهد أبي تاشفين الأول، كالمدرسة التاشفينية، والصهريج الكبير الواقع إزاء باب كشوطة، وشجرة الفضة، وقد ذكرها أبو عبد الله التنسي في " نظم الدر والعقيان ". راجع : التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 140-141.

37- عن نظرية العلماء المسلمين في التاريخ، راجع : **H. A. R. Gibb, art. Tarikh, dans E. I. Suppl., p. 250.**

38- بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص 88.

39- بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص 89.

40- لقد انتشر تأليف التواريخ المحلية والسلطانية في الإسلام انتشارًا كبيرًا، وخصوصًا في القرنين السابع والثامن للهجرة. ويفسر المستشرق جيب هذه الظاهرة بانقسام العالم الإسلامي، في المشرق والمغرب، وقيام كثير من الدول التي تسعى، قبل كل شيء، إلى الحفاظ عن كيانها، وتحذر من محاولات التوسع التي تأتي من الدول المجاورة لها. عن التواريخ السلطانية المحلية عند العرب، انظر: **H. A. R. Gibb, op. Cit., p. 256.**

41- يرى عبد الرحمن بن خلدون، فيما يتعلق بالغرض من التاريخ، أنه " خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلب للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة من الأحوال " (المقدمة، ج1، ص 409). راجع في هذا الموضوع: **M. Talbi, Ibn Haldun et le sens de l'histoire, dans Studia Islamica, XXVI, 1967, pp. 74-75 ; B. Tlili, La**

notion de Umran dans la pensée coloniale précoloniale, dans Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n° 12, 2° sem. 1972, pp. 134-41.

42- انظر: بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص 89-90.

43- ذكر عبد الواحد المراكشي أن سبب نكبة ابن رشد هو عدم امتثاله لهذه التقاليد، وتقصيره في مدح يعقوب المنصور الموحدي حيث إنه عندما ذكر الزرافة في شرحه لكتاب الحيوان لأرسطاليس، قال : " وقد رأيتها عند ملك البربر، يريد الخليفة الموحدي " (المعجب، ص305-307).

44- انظر: بغية الرواد، ج2، ص 103-104، 127-128، 164-165، 173-174.

45- من بين هذه الهزائم، التي مني بها يغمراسن في حربه ضد بني مرين، معركة إيسلي (سنة 647 هـ)، وأبي سليط (سنة 655 هـ)، وكلدامان (سنة 657 هـ)، وتلاغ (سنة 666 هـ)، ووادي إيسلي(سنة 670 هـ). انظر: بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص182-183؛ العبر، ج7، ص171، 174، 176-178، 365-381.

46- ينطبق هذا النقد على سائر التواريخ السلطانية. راجع: **H. A. R. Gibb, op. cit., p. 256.**

47- وفي هذا المجال، يبدو أن كتاب " بغية الرواد " يختلف شيئًا ما عن " المغرب في حلى المغرب " لابن سعيد، و " الإحاطة " لابن الخطيب، لما فيهما من مزيد من التعمق في معالجة الموضوع المطروق، ومن استطرادات متنوعة، ويقترب كثيرًا من كتاب " اللمحة البدرية " لابن الخطيب، في تاريخ دولة بني الأحمر.

48- انظر، مثلاً : عبد الواحد المراكشي، م. س.، ص 5-16، 346-376؛ لسان الدين ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 12-30.

49- يعني قبيلة بني عبد الواد.

50- يعني المكان (تلمسان) والزمان (أي الظروف التاريخية التي أدت إلى تأسيس دولة بني عبد الواد).

51- بغية الرواد، ج1، فيما يلي، ص88.

52- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج1، ص410.

53- وقد يكون هذا راجعًا إلى تأثير تكوين يحيى ابن خلدون الفقهي، الذي لا يقبل الحكم الفردي ونقد النصوص الداخلي، ولا يرتضي إلاّ النقد الخارجي، أي النظر في صحة الإسناد.

54- انظر: **H. A. R. Gibb, op. cit., p. 258**

55- انظر: **H. A. R. Gibb, op. cit., p. 258.**

56- انظر: **F. Krenkow, art. Sadj', dans E. I., IV, p. 45 b**

57- لا شك أن يحيى بن خلدون تأثر بمعظم إنتاج الأدباء السابقين والمعاصرين له، مثل أدب المقامات، وأدب سياسة الملوك، وخصوصًا كتاب " سلوان المطاع " لابن ظفر الصقلي، وكتب التراجم، والمراسلات الدبلوماسية والخاصة. راجع نماذج من المراسلات الرسمية المغربية في: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 79-115.

58- يمكن اعتبار أن كتاب " ريحانة الكتّاب " لابن الخطيب، قد أفاد كثيرًا يحيى بن خلدون في انتهاج طريق الكتّاب المعاصرين له، وكذلك كتاب " الإحاطة " لابن الخطيب أيضًا. وقد أشاد هذا الأخير بمواهب يحيى بن خلدون الأدبية في الرسالة التي بعثها إليه بمناسبة تعيينه كاتبًا لأبي حمو الثاني. راجع: المقري، نفح الطيب، ج 9، ص 99-103.

59- عن أسلوب يحيى بن خلدون، انظر: **Bargès, Complément…, pp. 150-52 ; A. Bel, art. Ibn Khaldoun (Yahya), dans E. I. 2, III, p. 856.**

60- يمكن المقارنة بين كتاب " بغية الرواد " والإنتاج المعاصر له، مثل " وإسطة السلوك في سياسة الملوك " للسلطان أبي حمو موسى الثاني، وكتاب " زهر البستان " لمؤلف مجهول. وفي هاذين الكتابين، يعمّ السجع الكتاب من أوله إلى آخره.

61- عن شعر يحيى بن خلدون، انظر، فيما قبل، ص 46 وهامش 1.

62- انظر، فيما قبل، ص 64-68.

63- وهي مقطوعة صغيرة، تشتمل على ثمانية أبيات، لمهيار الديلمي، لم ترد إلا في نسخة الأسكريال، ولم تثبتها نشرة ألفرد بل، في ج 1، ص 103.

64- ومما يؤيد هذا الرأي أن هذه النسخ هي أكثر النسخ أخطاء و نقصًا.

65- من بين تلك المصادر نخص بالذكر كتاب " التشوف " لابن الزيات التادلي، و" التكملة " لابن الأبار، و" الذيل والتكملة " لابن عبد الملك المراكشي، التي مكنتنا من تصحيح أخطاء عديدة في بعض تراجم العلماء والصلحاء.

محمد بن عبد الله التنسي

(ت899هـ/1494م) الفقيه التاريخي.

أ. محمد بوشقيف*

مقدمة: يُعد القرن التاسع الهجري (15م) ببلاد المغرب الأوسط أوفر انتاج الجزائر في المجال الفكري والعلمي، وأزهى عصورها، ومَرَدُ ذلك يعود إلى كثرة العلماء الذين نبغوا فيه، وكذا المؤلفات التي أثروا بها سوق العلم، حيث أن عدد هؤلاء العلماء المنتجين خلال هذا القرن يفوق عدد الذين سوف يظهرون في القرون اللاحقة[1]. هذا على الرغم بما امتاز به هذا القرن من انحطاط سياسي ميز دولة بني زيان من تفكك وصراع على السلطة، وكذا استمرار الهجومات الحفصية عليها، أما عن الحياة العلمية فكانت مزدهرة ويظهر ذلك كما أشرنا سالفا إلى ظهور هؤلاء العلماء دفعوا بها إلى الأمام الذين ذاع صيتهم في مختلف أمصار العالم الاسلامي آنذاك كسعيد العقباني (ت811هـ/1408م)، وابن مرزوق الحفيد (ت842هـ/1439م)، وأبي عبد الله الحباك (ت867هـ)، وعبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ/1470م)، وأبي زكريا المازوني (ت883هـ/1478م)، أحمد بن زاغو (ت845هـ/1441م)، ومحمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1490م) وعبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1503م)، وأحمد بن يحي الونشرسي (ت914هـ/1508م)، ومحمد بن عبد الله التنسي (ت899هـ/1494م) بفضل ما ألفه في علم التاريخ هذا العلم الذي حظي باهتمام علماء الإسلام الأوائل اهتماما كبيرًا، ويعود سبب ذلك إلى اعتباره من العلوم النقلية الشرعية نظرا لارتباطه الوثيق بعلم الحديث من جهة، وميلهم للاطلاع على ماضي الأمم وحوادث الزمان من جهة ثانية، إضافة إلى عنايتهم بعلم الأنساب.[2] وبعد هذا بدأ علم التاريخ يستقل بأسلوبه ومنهجه الخاص عن علم الحديث حتى أصبح علما قائما بذاته، فألف علماؤه في الأخبار وأكثروا في جمع تواريخ الأمم والدول فبرز فيه مؤرخون أجلاء كابن جرير الطبري (ت310هـ/923م)، وابن الأثير (ت620هـ/1233م).[3]

*- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ - جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان.

وبعد هذا ظهرت مؤلفات لها صلة وثيقة بعلم التاريخ ككتب السير، والمغازي، وكتب الأنساب، والأمم، والملل والنحل، والتراجم، والطبقات، والحوليات والتواريخ المحلية والخطط والمناقب والفهارس والوفيات وغيرها من المؤلفات ذات الصلة بعلم التاريخ.[4]

وانطلاقا من هذا سار مؤرخوا المغرب الاسلامي في بداية الأمر على نفس نهج مؤرخوا المشرق في مجال تدوين التاريخ إلى أن ظهرت مدرستهم الخاصة بهم مع ابن عذاري المراكشي (عاش في القرن 7هـ/13م)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1406م) الذي نقد المؤرخين السابقين له.[5] وكان بداية نشاط هذه المدرسة بشكل واضح مع مطلع القرن الثامن الهجري (14م). حيث برز فيها مؤرخون كبار في كل من الأندلس ولمغرب الأقصى والأدنى وفي خضم هذا أنجب المغرب الأوسط (الجزائر) هو الآخر مجموعة من المؤرخين الذين سجلوا تاريخ هذا العصر، والذين سنتطرق إلى واحد منهم عد من أساطين الكتابة التاريخية في الجزائر إلى جانب كل من عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحي وابن مرزوق الخطيب ألا وهو محمد بن عبد الله التنسي الذي سنسلط الضوء على حياته ومؤلفاته في هذه المداخلة باعتباره أحد أعمدة الكتابة التاريخية في الجزائر خلال العصر الوسيط (القرن 9هـ/15م). نظرا لمؤلفه الذي تركه في هذا العلم والذي غطى به أحداث هذه الفترة؛ فمن هو محمد بن عبد الله التنسي؟

هو محمد بن عبد الله بن عبد الجليل[6]، التنسي[7]، الأموي[8] المعروف بالحافظ والأديب والشاعر،[9] والفقيه التاريخي.[10]

أما تاريخ ولادته فإن كتب التراجم المتوفرة لدينا لا تذكره تماما، إلا أن الباحث المرحوم محمود بوعياد في تحقيقه لكتاب نظم الدر والعقيان لصاحب الترجمة، رجح تاريخ ولادته الى سنة (820هـ/1418م) [11]، معتمدا في ذلك على ما أورده السخاوي في ضوئه.

التكوين العلمي للتنسي:

لا تمدنا كتب التاريخ بمعلومات عن طفولة التنسي، إلا أنه ولد وعاش بتلمسان في ظل الدولة الزيانية التي كانت في قمة ازدهارها العلمي وبداية انحطاطها السياسي الذي ميزها بداية من العقد الثاني للقرن 9هـ/15م، كما أننا لا نعرف شيئا عن حالته العائلية وهذا يبين أن أباه كان من عامة الناس. إلا أن ابنه تمكن كغيره من أبناء عصره من الدخول والتدرج في نمط التعليم

السائد آنذاك، وأخذ العلوم والمواد التي كانت تدرس بالمراكز التعليمية كالكتاتيب والمساجد والمدارس التي انتقل إليها لاستكمال تكوينه العلمي.

هذا وقد تطرق أصحاب كتب التراجم خاصة ابن مريم في البستان إلى ذكر أهم العلماء الذين أخذ عنهم الحافظ التنسي وهم مجموعة من العلماء البارزين الذين قادوا الحركة العلمية بالمغرب الأوسط خلال القرن التاسع عشر الهجري، الخامس عشر الميلادي، ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم نورد:

-محمد بن مرزوق الحفيد (842هـ/1498م)، أخذ عنه الحافظ التنسي علوما كثيرة خاصة الدينية كالتفسير والفقه، وأصول الفقه والحديث التي اشتهر بتدريسها في تلمسان.[12]

-أحمد بن زاغو التلمساني (ت845هـ/1441م)، أخذ عنه التنسي كغيره من علماء ذلك العصر العلوم الدينية من فقه، وتفسير وتصوف وحديث التي كان ابن زاغو بارعا في تدريسها آنذاك.[13]

-محمد بن إبراهيم بن الإمام(846هـ/1442م)[14]، هو الإمام محمد بن إبراهيم بن الإمام أبي الفضل، كانت له قدم راسخة في البيان والتصوف والأدبيات، والشعر، والطب.[15] ونقل عنه الونشريسي في معياره الكثير من وفتاويه [16].

-الحسن بن مخلوف أبركان: أخد عنه التنسي خاصة تلك العلوم التي أتقنها، كالتصوف، والحديث والفقه [17].

تلامذة التنسي: لا يمكننا بالضبط تحديد متى انتقل التنسي من مرحلة التحصيل العلمي إلى مرحلة التصدر للإقراء والتأليف. حيث كان يدرس بالجامع الأعظم بتلمسان وكذا مدارسها المشهورة خاصة التاشفينية واليعقوبية. إضافة إلى حضوره مجالس السلاطين العلمية التي امتازت بمناظرات العلماء في قضايا ذلك العصر وكذا التباري بنظم الشعر والنثر في هذه المجالس.

-لهذا تتلمذ على يديه الكثير من طلبته المشهورين كما سنبين ومرد ذلك يعود أساسا إلى ما امتاز به التنسي من التضلع في العلوم والآداب خاصة علم الحديث والتاريخ. ولا يمكننا استقصاء جميع هؤلاء الطلبة لذا سوف نقتصر على أشهرهم الذين يمكن القول أنهم شكلوا أهم علماء المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن 9هـ/15م ومنهم:

-أحمد البرنسي الشهير برزوق (ت889هـ/1484م) أخذ عن الحافظ التنسي، خاصة في العلوم ذات الصلة بالتصوف والحديث. (18)

-أحمد بن داود الأندلسي (19)، فقيه وكاتب، إرتحل مع أبيه علي القلصادي صاحب الرحلة من غرناطة إلى تلمسان بعد سنة (890هـ/1485م)، فأخذ عن شيوخها منهم الحافظ التنسي، وبعد ذلك رحل إلى بلاد المشرق، ولم تذكر كتب التاريخ والتراجم تاريخ وفاته.

-محمد بن صعد (ت901هـ/1496م)، صاحب كتاب"النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب" "وروضة النسرين". (20)

-محمد بن العباس الصغير (21)الفقيه المتصوف الذي برع في العلوم معقولها ومنقولها، الذي قال "لازمت مجلس الفقيه العالم، الشهير سيدي التنسي عشرة أعوام وحضرت إقراءه تفسيرا، وحديثا، وفقها وعربية وغيرها"(22) .

مكانة التنسي العلمية بين علماء عصره: أما مكانته العلمية بين معاصريه فكانت مرموقة، وذلك بشهادة تلاميذه الذين أخذوا عنه، فهذا ابن داود الاندلسي السالف الذكر قد وصف شيخه التنسي بـ"بقية الحفاظ وقدوة الأدباء" وذكر التنبكتي، ما قاله ابن داود الأندلسي كذلك في حق شيخه التنسي، قائلا:"لقد ذكر عن الشيخ أحمد بن داود الأندلسي، أنه سئل حين خرج من تلمسان، عن علمائها، فقال: "العلم مع التنسي، والصلاح مع السنوسي، والرئاسة مع ابن زكري." (23)

هذا ووصفه أحمد بن يحي الونشريسي في وفياته "بالفقيه التاريخي الحافظ الأديب الشاعر ..". (24)

أما المقري صاحب نفح الطيب فقد أشار إليه بقوله "بشيخ شيوخنا"، ونعته كذلك بحافظ عصره (25).

وذكره الروداني صاحب كتاب "صلة الخلف بموصول السلف"، ضمن سلسلة، الرواة الذين أخذ عن أسانيدهم الحديث النبوي الشريف (26).

الإنتاج العلمي للحافظ التنسي: ساهم التنسي كغيره من علماء عصره في إثراء الحركة العلمية بمختلف المؤلفات وفي مختلف العلوم التي عرفت انتشارا واسعا آنذاك، فقد شارك في العلوم الدينية واللغوية والاجتماعية ومن أهم المؤلفات التي تركها التنسي أو التي ذكرتها الكتب التي ترجمت له نذكر ما يلي:

*في علوم القرآن الكريم: أثرى التنسي هذا الجانب من العلوم وخاصة علم القراءات بمؤلفات ما زالت مخطوطة إلى يومنا هذا منها "رسالة في القراءات" (27)، كما إعتنى برسم أحرف القرآن، فكتب كتاب "الطراز في شرح الخراز"(28)، وهو شرح لكتاب مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن "الذي كان من أهم كتب القراءات المتداولة بالمغرب الأوسط، وهو عبارة عن أرجوزة تتكون من 608 بيت في ضبط القرآن ورسمه، نظمها عبد الله بن إبراهيم الشريشي المعروف بالخراز سنة 703هـ/1303م ، ومن هذا الكتاب اقتصر محمد التنسي على شرح قسم من هذه الأرجوزة التي تشتمل على 454 بيت في رسم أحرف القرآن، و154 بيت للضبط. انطلاقا من هذا قام التنسي بشرح الجزء الخاص بالضبط، كما يدل عنوان تأليفه، ومن خلال تصفحنا لمخطوط الطراز رقم 391 الموجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، لاحظنا أن التنسي بدأ شرحه بعد الحمد والصلاة على الرسول بقوله: "فإني لما رأيت من تكلم على ضبط الأستاذ عبد الله الشريشي الشهير بالخراز، وجدتهم بين مختصر اختصارًا مخلاً، ومطول تطويلاً مملا فتاقت نفسي إلى أن أضع عليه شرحا متوسطا يكون أنشط لقارئه وأقرب لفهم طالبه، فشرعت فيه مستعينا بالله تعالى وسميته "الطراز في شرح الخراز"(29).

وقد بدأ التنسي شرحه لهذه الأرجوزة بتعريف علمي الرسم والضبط، والتمييز بينهما فقال: "وهو (يعني الخراز) يتكلم عليها (أي مصاحف القرآن) بوجهين أحدهما ما يرجع إلى بيان الزائد، والناقص، والمبدل وغيره، والموصول وغيره(30)، وهو المسمى بعلم الرسم وفيه نظم المؤلف ما تقدم، والوجه الثاني ما يرجع إلى علامة الحركة والسكون والشد والمد والساقط والزائد، وهو المسمى بعلم الضبط وفيه نظم المؤلف هذا الذي تكلم عليه"(31).

ونجد أن التنبكتي لما ترجم للتنسي لم يذكر هذا الكتاب كاملا بل اقتصر قائلا على أن له تأليفا في الضبط(32).

*في علم الحديث الشريف: لقد احتل في هذا العلم محمد بن عبد الله التنسي قصب السبق فعرف لدى علماء عصره بالحافظ(33)، لأنّه كان حافظا لكتب الحديث مثل معجم أصحاب الصدفي للحافظ ابن الأبار، وكذا لكتب أخرى في هذا العلم(34)، كما ذكره المقري في نفح الطيب ضمن مسندي كتب الحديث التي أخذها عن ابن مرزوق الحفيد التي نبغ فيها وقد مدحهما بأبيات شعرية هذا مطلعها:

وقد أجدت جامع البخاري   ومسلم عن حائز الفخار

عمي سعيد وهو من يُدعى بالتنسي قد أفاد الجمعا

عن حافظ الغرب الرضا أبيه   عن ابن مرزوق عن النبيه[35]

ومما يدعو للتساؤل أن التنسي لم يترك أثرًا في هذا العلم رغم اعتباره عمدة فيه، اللهم إلا كتابا مخطوطا يوجد بمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا رقم 1340 بتركيا عنوانه "شرح نبذة من أحاديث الرسول" وعدد صفحاته 20 صفحة[36]. هذا وشكل التنسي حلقة من حلقات الإسناد لكتب الحديث في عصره[37].

*في علم الفقه: شارك التنسي في الفقه فقد ذكرت له كتب التراجم "تعليق على مختصر ابن الحاجب"[38]، كما له أيضا فتوى"جواب في قضية يهود توات"[39]، التي أبان فيها عن سعة باعه في الحفظ والتحقيق[40]، وهي عبارة عن فتوى استفتاه فيها الشيخ عبد الكريم المغيلي القاضية بتهديم بيع وكنائس اليهود التي أحدثوها في منطقة توات وهو ما يتنافى والشريعة الإسلامية، وقد انتصر التنسي في هذه الرسالة وشاطر عبد الكريم المغيلي في ثورته على هؤلاء اليهود وتهديم كنائسهم[41].

*في الأدب والشعر:كان التنسي من كبار كتاب عصره وشعراءه، بل هو من أعظم كتاب تلمسان الزيانية وشعراءها خلال القرن 9هـ/15م. وقد بلغ في النظم، كما بلغ في النظر درجة التفوق التي لم يضاهيها فيها أحد في النصف الثاني من هذا القرن. وقد برز التنسي بالأخص في ضرب النثر والشعر الذي حواه كتاب الدر والعقيان وراح الأرواح. ورغم تراجع سوق الشعر في هذه الفترة بالمغرب الأوسط بشكل ملحوظ تاركا المجال لهيمنة العلوم الدينية إلا أن التنسي ترك بصماته فيها بتأليفه لكتاب شمل شعر من سبقه خاصة السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني والذي "راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح وما يوافق ذلك على حسب الإقتراح"[42] وتوجد قطع شعرية من قصائد هذا الكتاب في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري الحفيد.

*التنسي وعلم التاريخ: لقد تراجعت مكانة هذا العلم خلال الفترة السابقة فاسحة المجال لهيمنة العلوم الدينية تعليمًا وتأليفا حتى كاد هذا القرن ينقضي دون وجود مؤلفات في التاريخ لولا ما تركه التنسي الذي يُعد كتابه أهم ما وصلنا من القرن التاسع الهجري المسمى "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، وذكر ملوكهم الأعيان، ومن ملك منهم في سالف الزمان" والذب عُدَّ من أهم آثاره.

دوافع تأليف نظم الدر والعقيان: يعود سبب تأليف هذا الكتاب من قبل التنسي هو تقديمه إلى السلطان محمد المتوكل (866-873هـ)[43]، على عادة شعراء وعلماء تلك الحقبة كان التنسي يكن لهذا السلطان كل عبارات الاحترام والتقدير، نتيجة ما امتاز به هذا الأخير من الحزم والشجاعة، والكرم وعنايته بالعلم والعلماء، وقد أثبت ذلك في مقدمة مؤلفه هذا قائلا "ولما كنت من جملة من غمرته آلاؤه، وتواترت عليه نعماؤه وألبست منها حللا صافية، وأوردت منها مشارع صافية، نهضت في خدمته بقدر طاقتي، واستعملت في ذلك ما رجوت أن يكون نافقا من بضاعتي، جاهدا في مرضاته خاطري ولساني، وأعملت فيما يزلف لديه ناظري وشأني، جاهدا في ذلك بما في الوسع لدي، عسى أن أقوم ببعض واجب حقه علي..." إلى أن قال: "وسميته نظم الدر والعقان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان"[44].

مضمون كتاب نظم الدر: قسم التنسي مؤلفه "نظم الدر والعقيان" إلى خمسة أقسام ثم جَزَّءَ كل قسم إلى أبوابٍ، فكان محتوى الكتاب على النحو التالي[45]:

القسم الأول: عرف فيه المؤلف بنسب السلطان الزياني محمد المتوكل، كما تطرق بالذكر لأسلافه وبين شرفهم المنتهي لآل البيت خاصة فرع الأدارسة الأشراف، وحوى هذا القسم سبعة أبواب تناول فيها:

الباب الأول: تطرق فيه إلى ذكر نسب السلطان محمد المتوكل.

الباب الثاني: بين فيه فضل وشرف العرب، خاصة قبائل المضرية منهم.

الباب الثالث: ذكر فيه شرف قبيلة قريش، خاصة بيت آل عبد مناف منها.

الباب الرابع: تطرق فيه إلى شرف بني هاشم، خاصة آل عبد المطلب منهم.

الباب الخامس: بين فيه شرف علي رضي الله عنه وبنيه، خاصة منهم الحسن والحسين رضي الله عنهما.

الباب السادس: ذكر فيه شرف عبد الله الكامل وبنيه، خاصة الأدارسة منهم[46].

الباب السابع: تطرق فيه إلى بيان شرف آل زيان وتتبع سلاطينهم الواحد بعد الآخر إلى أن وصل إلى السلطان محمد المتوكل، ويعد هذا الباب أهم هاته الأبواب وهو "بيان شرف بني زيان" الذي كان محل اهتمام من المستشرقين [47]، لما احتوى عليه من أخبار وتفاصيل ذات

أهمية انفرد بها هذا الكتاب عن تاريخ بني زيان، وهذا الباب هو الذي حققه المرحوم محمود بوعياد ونشر بتعاون المكتبة الوطنية الجزائرية والمؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1985 (48).

القسم الثاني: عالج فيه ما ينفرد من الخصال وما يليق به من السيرة الحسنة، والأخلاق الحميدة، وهذا القسم يتكون من ثلاثة أبواب هي:

الباب الأول: تناول فيه السياسة وما يتعلق بها في تدبير شؤون الدول.

الباب الثاني: تطرق فيه إلى الصفات التي بها يكتمل الملك، وهي الجود، والشجاعة، والحلم.

الباب الثالث: تكلم فيه عن أهم ركيزة يستند عليها الملك وهي العدل.

القسم الثالث: هذا القسم ذكر فيه التنسي المِلح، والنوادر المستطرفة التي رويت عن الأقوام المختلفة (كالعرب والفرس والهنود، والروم...)، واشتمل هذا القسم على ستة عشر باب:

الباب الأول: ذكر فيه ما روي عن الطرفاء والملوك والخلفاء.

الباب الثاني: تطرق فيه إلى النزر القليل من طرف العلماء.

الباب الثالث: تطرق فيه إلى ذكر محاسن الشعراء والأدباء.

الباب الرابع: تناول فيه بعض طرف المحبين والعشاق.

الباب الخامس: خص فيه بذكر نوادر الأعراب على بداوتهم.

الباب السادس: ذكر فيه بعض الأخبار المتعلقة بأهل الكهانة.

الباب السابع: ذكر فيه بعض من أخبار المغنين.

الباب الثامن: ذكر بعض أخبار النسابين.

الباب التاسع: تناول فيه شيء من أخبار الفقهاء.

الباب العاشر: ذكر فيه شيء من أخبار الطفيليين.

الباب الحادي عشر: ذكر فيه أخبار النساء.

الباب الثاني عشر: ذكر فيه شيء من أخبار الصبيان.

الباب الثالث عشر: تناول فيه أخبار الظرفاء المجانين.

الباب الرابع عشر: ذكر فيه شيء من أخبار الثقلاء.

الباب الخامس عشر: تناول فيه أخبارالمغفلين.

الباب السادس عشر: خص هذا الباب للمضحكات.

القسم الرابع: تناول فيه محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم، ويحتوي هذا القسم على ثمانية أبواب هي:

الباب الأول: ذكر فيه فضل الشعراء وأبرز شيء من فوائدهم.

الباب الثاني: تناول فيه التشريع.

الباب الثالث: خصه للتجنيس.

الباب الرابع: جعله للتوجيه.

الباب الخامس: في الطباق.

الباب السادس:في فراغات النظر.

الباب السابع: في العكس وربما سمى قلبا.

الباب الثامن: في الإقتباس وحقيقته.

القسم الخامس: خصه لذكر المواعظ والحكم الواردة عن مختلف الأمم، وهذا القسم يحوي أربعة أبواب هي:

الباب الأول: تناول فيه الحكم النبوية.

الباب الثاني: تطرق فيه للحكم غير النبوية.

الباب الثالث: جعله للمواعظ النبوية.

الباب الرابع: خص به المواعظ غير النبوية.

-وختم التنسي كتابه هذا برسالة في أصل العرب وبسبع قصائد للسلطان أبي حمو (707 هـ/1307-1308م) [49]

أهمية كتاب نظم الدر في تاريخ الجزائر في العصر الوسيط: لا يمكن للباحث في تاريخ الجزائر في العصر الوسيط أن يستغني عن كتاب نظم الدر في دراسته لأن هذا المؤلف يعد أحد الأركان الثلاثة لدراسة تاريخ هذه الفترة إلى جانب كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون والبغية لأخيه يحي[50]. فقد عالج التنسي في كتابه هذا فترة سبعين سنة في تاريخ دولة بني زيان أي ابتداءًا من سنة 764هـ/1363م، وتاريخ توقف يحي بن خلدون عن كتاب "بغية الرواد" سنة 777هـ/1376م، نهاية أخبار العبر عن دولة بني زيان عند عبد الرحمن بن خلدون، أي حوالي سنة 796هـ/1393م إلى أن يصل التنسي في كتابه النظم إلى سنة 868هـ/1464م، فلا نجد مصدر آخر تطرق بعد هذا لهذه الفترة وما أعقبها إلا بعض الإشارات لكتب المتأخرين

عن هذا العصر كالمقري صاحب "نفح الطيب والأزهار الرياض"، وما كتبه الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل في كتابه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" الذي أشار إلى بعض الأحداث بالمغرب الأوسط بعد زيارته له[51].

كما يدخل هذا الكتاب ضمن كتب التاريخ التي تؤرخ للسلاطين والحكام، وهذا النوع من المؤلفات عرف انتشارا واسعا بالمغرب الاسلامي خاصة بعد التفتت السياسي الذي عرفه بعد انهيار الدولة الموحدية، وظهور الحفصيين بالمغرب الأدنى، وبني زيان بالمغرب الأوسط، والمرنيين في المغرب الأقصى، وبني الأحمر في الأندلس، وانطلاقا من هذا ألف لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1373م) لسلاطين بني الأحمر بغرناطة كتاب "اللمحة البدرية في الدولة النصرية"، ويحي بن خلدون الذي ألف كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، لسلاطين بني زيان، وابن قنفذ القسنطيني الذي ألف "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، وابن الشماع الذي ألف " الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية" والزركشي مؤلف "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية" أما سلاطين بني مرين فقد ألف في أعمالهم ومفاخرهم "كل من ابن الأحمر" روضة النصرين في دولة بني مرين" ... إلخ، ومن هذا المنطلق في التاريخ الخاص بالسلاطين ألف التنسي "نظم الدر والعقيان"، ليبين مناقب السلطان محمد المتوكل، ويساهم هو الآخر في إبراز مآثر سلاطين أجداده من بني زيان[52].

وبهذا يكون التنسي من المؤرخين الجزائريين الذين وضعوا اللبنة لبناء المدرسة التاريخية الوسيطية. إضافة إلى هذا أنه غطى بكتابه هذا فترات زمنية من تاريخ الدولة الزيانية، خاصة تلك التي لم يعرج عليها يحي بن خلدون صاحب البغية، ويعد نظم الدر أيضا الكتاب الوحيد الذي سلط الضوء على الوضع السياسي لبلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني خاصة في القرن التاسع الهجري/15م.

هذا وشارك التنسي كذلك في علم التراجم الذي يعد أحد فروع علم التاريخ بمؤلف "في إسلام أبي طالب"[53] وقد ذكر السخاوي في الضوء اللامع قائلا عنه: "وقيل أنه صنف في إسلام أبي طالب جزءا كما هو مذهب بعض الرافضة"[54]. ولكن ما يؤسف له أن هذا الكتاب هو الآن في حكم المفقود. وإضافة إلى ما سبق كتب التنسي "فهرسة"[55]، ذكرها المرحوم عبد الحي الكتاني حين ترجم للتنسي قائلا: "وله فهرسة نرويها بأسانيدها إلى أبي العباس المقري[56]، وسعيد قدورة[57] كلاهما عن عم الأول سعيد المقري التلمساني، عن أبي عبد الله

محمد بن محمد بن عبد الجليل، عن أبيه"[58] وهذه الفهرسة هي في حكم المفقود اليوم أيضا.

وفاته: هذا وبعد حياة حافلة بالعلم توفي محمد التنسي في جمادى الأولى، سنة(899هـ/1494م)، حسب ما ذكره أحمد بن يحي الونشريسي في وفياته حيث قال: "وفيها (أي سنة 899هـ)، في جمادى الأولى منها توفي الفقيه التاريخي الحافظ الأديب، الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجليل المزالي شهر بالتنسي "[59]. كما أكد تاريخ وفاته هذا كذلك ابن القاضي في كتابه لقط الفرائد.[60]

خاتمة: نرى مما تقدم أن المؤرخ محمد بن عبد الله التنسي شخصية، لها قيمتها في تاريخ المغرب الأوسط، وهي في حاجة إلى دراسة أعمق وأوسع ويستشف ذلك من قيمة ما تركه في تاريخ هذه البلاد بمؤلفه نظم الدر والعقيان الذي عالج فيه مدة سبعين سنة من تاريخها ابتداءا من سنة 764هـ/1363م، وينتهي سنة 868هـ/1464م، وهو بهذا أثرى المكتبة التاريخية العربية الاسلامية عامة والمكتبة التاريخية الجزائرية خاصة، كما أننا نضع هذا الرجل إلى جانب فطاحل العلماء الذين خدموا سوق العلم خاصة التاريخ كعبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحي، والزركشي، وابن الأحمر خلال القرن التاسع المجري /15م.

الهوامش:

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981، ج1، ص28- محمد بوشقيف: تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين (14-15م)، أطروحة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ و علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010-2011، ص27

2- يسرى عبد الغني عبد الله: معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991، ص.11

3- عبد الرحمن بن خلدون المقدمة، اعتنى به مصطفي شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2005، ص211.

4- السيد عبد العزيز سالم: التاريخ و المؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت 1971، ص-ص66-71.

5- إبراهيم حركات مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن (9هـ/15م)،دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،ط1، 2000، ج1، ص-ص245-256.

6- أنظر ترجمته: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (د-ت)، ج8، ص120-أحمد بابا التنبكتي: نيل الإبتهاج بتطريز الدباج، إشراف و تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ط1، 1989، ص 572- و كيافة المحتاج لمعرفة من ليس في الدباج، علق عليه أبو يحي عبد الله الكندري، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت ط1، 2002، ص 453-القرافي بدر الدين: توشيح الدباج و حلية الابتهاج، تحقيق و تقديم أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1، 1983، ص270- ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبولنوار، المكتبة العتيقة، تونس، ودار التراث، القاهرة ط1، 1971، ج2، ص143- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شلب، و قدم له عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص248- مخلوف: شجرة النور الزكية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1349هـ،ص267-الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، تح، محمد أبو الأجفان وعثمان بطيح، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت و المكتبة العتيقة، تونس، 1982، ج1، ص164-165- المقري: نفح الطيب من غسن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ، محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث و الدراسات في دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت ط1، 1998، ج3، ص178. الونشريسي : الوفيات ،

تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط، 1976، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، ص153. و قد ورد اسمه عنده باسم محمد بن عبد الله المزالي.

7- نسبة إلى مدينة تنس و تنس: بفتحتين و التخفيف و السين المهملة، و هي مدينة من أقدم مدن المغرب الأوسط تقع على شاطئ البحر المتوسط و قد تم تأسيسها من قبل بعض التجار الأندلسيين سنة 272هـ/875م، عنها أنظر: أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، نشره البارون دي سلان، الجزائر 1857م، ص-ص 61-63، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985، ص186، عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان 1975، ص138.

8- المقري : المصدر السابق ج6 ص 178؛ محمد بوشقيف: العلوم الدينية ببلاد المغرب الأوسط خلال القرن 9هـ/15م،مذكرة ماجيستر في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2003-2004، ص-ص 173-176.

9- التنبكتي : المصدر السابق ، ص572- الونشريسي : المصدر السابق ، ص .153

10- الونشريسي: المصدر السابق، ص153.

11- محمد بن عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، حققه و علق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب و المكتبة الوطنية، الجزائر 1985، ص12 من مقدمة المحققة.

12- ابن مريم : البستان ، ص 204-.206

13- القلصادي : رحلة القلصادي، دراسة و تحقيق، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص102- ابن مريم : المصدر السابق ، ص 42.

14- القلصادي : المصدر السابق ، ص 108- التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص .521

15- ابن مريم : المصدر السابق ، ص.221

16- الونشريسي : المعيار المعرب، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف محمد حجي، وزارة الأقاف و الشؤون الإسلامية الرباط، 1981،ج2، ص 515- ج7 ، ص 69- ج9 ، ص 232-ج10 ، ص 327

17- ابن مريم : المصدر السابق ، ص87

18- مخلوف : شجرة النور ، ص 267 - ابن مريم : البستان ، ص 45-50

19- انظر مصادر ترجمته : التنبكتي : نيل الابتهاج :، ص .511

20- ابن مريم : المصدر السابق، ص 251-252 - مخلوف : المرجع السابق ، ص .267

21- عنه انظر : ابن مريم : المصدر السابق ، ص 263 - مخلوف : المرجع السابق ، ص 268 .

22- التنبكتي : المصدر السابق ، ص .354

23- التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص 354-356- ابن مريم : البستان ، ص 248-.249

24- الونشريسي : الوفيات ، ص .153

25- السخاوي : المصدر السابق ، ج1 ، ص 303.

26- الرداني محمد بن سليمان: صلة الخلف بموصول السلف، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1988،1، ص 22.

27- توجد نسخة منها في خزانة يوسف بمراكش بالمغرب، رقم .372

28- توجد نسختين مخطوطتين من هذا الكتاب بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحمل الأولى رقم 390 و الثانية تحمل رقم 391، كما توجد نسخ أخرى من هذا المخطوط بالمكتبة العامة و المحفوظات بتطوان بالمغرب، و عدد النسخ الثلاثة الأولى تحمل رقم 316م و النسخة الثانية رقم 148م، والثالثة لم يشر إلى رقمها، كما توجد نسخة أخرى في الجامع الكبير بمكناس رقم .336

29- محمد بن عبد الله التنسي: الطراز في شرح الخراز، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 391، الورقة 140ظ ؛ حاجي خليفة، كشف الضنون عن أسامي الكتب و الفنون،دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، مج2، ص 1109 ؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين،مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993، ج3، ص 381 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 85.

30- ابن خلدون: المقدمة، ص .455

31- التنسي: الطراز في شرح الخراز، الورقة 140ظ ؛ محمود بوعياد: مقدمة تحقيق كتاب نظم الدر، ص 25-26؛ محمود بوعياد: آثار محمد التنسي، مجلة الثقافة، العدد 47، السنة الثامنة 1978، ص 42-43 ؛ رضا كحالة: المرجع السابق، ج3، ص 381.

32- التنبكتي: المصدر السابق، ص 573 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 86.

33- المقري: نفح الطيب، ج6، ص 354 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 92-93.

34- عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس و الإثبات و معجم المعاجم و المشياخات و المسلسلات، إعتناء إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2، 1982، ج2، ص 618 ؛ عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2002، ج2، ص .444

35- المقري: المصدر السابق، ج6، ص 352-354 ؛ و القصيدة من البحر الكامل.

36- محمد بن عبد الكريم: مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1972، ص 15-.16

37- الروداني: المصدر السابق، ص .22.

38- التنبكتي: المصدر السابق، ص573-ابن مريم،البستان،ص248، محمود بوعياد: آثار التنسي، مجلة الثقافة العدد47، السنة1978، ص41 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص15.

39- عبد الكريم المغيلي:مصباح الارواح في اصول الفلاح، تقديم و تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1968، ص71.

40- ابن القاضي:درة الحجال، ج2،ص143 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 115.

41- عبد الكريم المغيلي:المصدر لسابق،ص71-محمود بو عياد:المقال السابق،ص45-49.

42- المقري: نفح الطيب، ج6، ص 213 ؛ البغدادي اسماعيل باشا: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الضنون، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ج1، ص 545 ؛ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نوهيض الثقافية، بيروت ط1983،3، ص .85

43- حكم الدولة الزيانية ما بين 866هـ إلى 873هـ /1461-1468م ؛ التنسي: نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، حققه و علق عليه محمود بوعياد، المكتبة الوطنية الجزائرية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص 107-108 ؛ المؤرخون الجزائريون... التنسي: مجلة تاريخ و حضارة المغرب، كلية الآداب، الجزائر، العدد 05، السنة جويلية 1968.

44- أبو عبد الله التنسي: نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 2536، الورقة 4 و، أبو عبد الله التنسي: تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان) تحقيق و تقديم عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص19 من مقدمة المحقق.

45- محمود بوعياد: مقدمة تحقيق كتاب نظم الدر و العقيان، ص-ص 38-.53

46- قام الدكتور عبد الحميد حاجيات بتحقيق هذا الباب و عنونه بتاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان).

47- من المستشرقين الذين اهتموا بهذا الباب من نظم الدر و العقيان للتنسي المستشرق الفرنسي الأب برجيس الذين ترجمه إلى اللغة الفرنسية و نشره بعنوان:
Barges :histoire des béni-zeiyan, rois de tlemcen

48- محمود بوعياد: آثار محمد التنسي مؤرخ بني زيان، مجلة الثقافة، العدد 47، السنة نوفمبر 1978، ص .40

49- خص الجانب الأدبي من كتاب نظم الدر و العقيان لمحمد بن عبد الله التنسي بالدراسة و التحقيق و التعليق بوطالب محي الدين و نشره تحت عنوان نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان (الجانب الأدبي) و نشره سنة 1993م ضمن منشورات دار دحلب.

50- عبد الحميد حاجيات: من مقدمة تحقيق الفصل الخاص بالأدارسة، ص24.

51- نفسه، ص24.

52- نفسه، ص26.

53- محمود بوعياد: آثار محمد التنسي مؤرخ بني زيان، مجلة الثقافة، العدد 47، السنة نوفمبر 1978، ص40.

54- السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص .120

55- ابن مريم: المصدر السابق، ص 284 ؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج1، ص 194 ،عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 85 ؛ محمود بوعياد: مقال آثار محمد التنسي مؤرخ بني زيان، ص 41 ؛ ومقال الحافظ التنسي مؤرخ المغرب الأوسط، ص .14

56- صاحب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

57- من علماء الجزائر العثمانية، ولي الإفتاء بالجزائر العاصمة وتوفي سنة 1066هـ-1656هـ، عنه انظر: المقري: رحلة المقري إلى المغرب و المشرق، تح محمد بن معمر، منشورات مكتبة الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر 2004، ص 74.

58- الكتاني: المصدر السابق، ج1، ص .194

59- الونشريسي : الوفيات ، ص .153

60- ابن القاضي : لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب للتأليف و الترجمة والنشر، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، الرباط 1976، ص 274.

دور ابن القنفذ القسنطيني في تأريخ الحياة السياسية والثقافية والدينية للجزائر الحفصية

أ. عبد القادر قوبع*

انتعشت الكتابة التاريخية في المغرب الإسلامي كما كانت عليه نظيرتها في المشرق، وظهرت أقلام كثيرة شكلت مصادر للتأريخ للدويلات الإسلامية في الأندلس والمغرب، ولعل المؤرخ ابن القنفذ القسنطيني أكثر من ارتبط بالتأريخ للدولة الحفصية، وبخاصة إطارها الجغرافي الواقع في الجزائر اليوم كقسنطينة وبجاية... بحكم انتمائه إلى مدينة قسنطينة حياة ونشاطا ومماتا، لا ينافسه في ذلك سوى المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون.

وهو ما سنحاول تسليط الضوء عليه من خلال حياته ومؤلفاته المتنوعة لتبيين أهميته التاريخية ومكانته بين غيره من المؤرخين، واعتباره رمزا في تشكيل المدرسة التاريخية الجزائرية عبر العصور.

التعريف بابن القنفذ القسنطيني: هو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي المعروف بابن القنفذ والمشتهر بابن الخطيب، نسبة إلى تولي جدّه الخطابة طيلة ستين عاما، وكذلك والده من بعده[1].

نشأ ابن القنفذ في قسنطينة، في عائلة علم ودين وتصوف؛ فوالده درس على يد علماء من المشرق والمغرب، كما ترك مؤلفين اثنين هما: المسنون في أحكام الطاعون، والمسائل المسطرة في النوازل الفقهية، أما جدّه لأبيه فقد تولى الخطابة، كما تولى القضاء طيلة ثلاثين سنة[2].

ويركز ابن القنفذ في مؤلفاته على إبراز تأثره بعائلة أمه، وبخاصة جدّه لأمّه يوسف بن يعقوب الملاّري الذي ارتبط به، وعاش معه حيث كفله بعد وفاة والده؛ فاستفاد من نزعتها الصوفيّة متصلة السلسلة بأبي مدين شعيب، ومن قربها من الحفصيين، كما استفاد في كتابته

* – أستاذ مساعد أ في التاريخ الإسلامي الوسيط– قسم التاريخ– جامعة محمد بوضياف– المسيلة.

من وجود كثير من الرسائل والمخطوطات التي اكتسبتها العائلة الملاّرية من تعاملها مع الحكام الحفصيين وعلماء ذلك الوقت(3).

ولد ابن القنفذ في قسنطينة حوالي سنة 740هـ/1339م كما ذهب إلى ذلك أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج وغيره من بعده اعتمادا على بيتين شعريين لابن القنفذ أوردهما في كتابه الفارسية:

مضت ستون عامًا من وجودي وما أمسكت عن لعب ولهو

وقد أصبحت يوم حلول إحدى وثامنة على كسل وسهو(4)

ويبدو أن ابن القنفذ لم يكن يعلم تاريخ ولادته بالضبط، فقد ذكر تاريخ ولادة والده 694هـ/1294م، وأفراد من عائلته بضبط اليوم والشهر والسنة؛ فلا يمكن أن يغفل ذكر تاريخ ولادته وهو المعروف بتدقيق الأخبار.

درس ابن القنفذ على والده وعلى جده لأمه، ثم على علماء قسنطينة مثل حسن بن خلف الله بن ميمون بن باديس القسنطيني (707-784هـ/1307-1382م)، وحسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس ابن عمّ الأول وابن خالته، اللذين درس عليهما علم الحديث(5).

ولما بلغ سن التاسعة عشرة انتقل إلى المغرب الأقصى حيث قضى ثمانية عشرة سنة أخذ فيها عن علماء كثر في علوم متعددة كالفقه والحديث والمنطق والفلك والحساب؛ فأخذ عن الشريف التلمساني (710-771هـ/1310-1369م) العلامة الشهير بشارح الجمل، وابن مرزوق التلمساني (615-781هـ/1315-1379م) صاحب شرح العمدة، وعبد الله الزّكندري (ت768هـ-1366م)، وأبو زيد عبد الرحمن ابن الشيخ أبي الربيع سليمان اللّجائي (ت773هـ/1371م)، وأبوعمران موسى بن محمد بن معطي العبدوسي (ت776هـ/1374م)، وأبو محمد عبدالله الوانغيلي (ت779هـ/1377م)، وأبو العباس أحمد القباب (ت779هـ/1377م) الذي أخذ عنه أصول الفقه والحديث في فاس، كما أخذ عن أبي عبد الله محمد بن حياتي (ت781هـ/1379م)، وأحمد بن محمد الخزرجي الشهير بابن الشماع الذي أخذ عنه المنطق(6).

وعند عودته من المغرب، لم يبق ابن القنفذ بقسنطينة سوى سنة واحدة ليمر إلى تونس، أين أخذ الفقه على محمد ابن الشيخ أحمد البطرني الأنصاري بتونس(703-793هـ/1303-

1390م)، وأبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي(716-803 هـ/1316-1400م) أشهر علماء تونس في وقته[7].

وتولى ابن القنفذ وظائف متعددة كالقضاء بدكالة بالمغرب الأقصى، والخطابة والإمامة والإفتاء والقضاء بقسنطينة مما أفاده في التقرب من دوائر السلطة الحفصية[8].

ويبدو أن وفاة ابن القنفذ كانت سنة 809هـ، وليس كما ذكر ابن القاضي صاحب درة الحجال، وأيضا أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج، بل الصحيح هو ما رجحه المؤرخ المحقق الأستاذ محمد الشاذلي النيفر أي رواية الزركشي في تاريخ الدولتين، لأنه ذكر الليلة والشهر والسنة مما يوحي بأنه اطّلع على سجلات الدولة الحفصية التي تثبت تاريخ وفاة ابن القنفذ باعتباره قاضيا لديها[9].

تأثيرات عصر ابن القنفذ على شخصيته ومنهجه: ولد ابن القنفذ والدولة الحفصية لم تتخلص من آثار الهزات السياسية التي تعرضت لها؛ فبعد توحيد الدولة على يد أبي يحي أبي بكر سنة 718هـ/1318م لم تلبث أن انقسمت عن نفسها، ما أغرى المرينين باحتلالها وإزالة ملك الحفصيين الذين بقيت قسنطينة ملاذهم الأخير وحصنهم الوحيد أين استقر الأمير أبو العباس الحفصي، ورغم تعرض قسنطينة لحملة مرينية جديدة، وأسر أبي العباس نفسه إلا أنه تمكن من الفرار بعد مقتل السلطان المريني أبي عنان، وتحالف مع أبي سالم المريني الذي تنازل له عن قسنطينة في761هـ/1359م، واستعاد الحفصيون عزّهم انطلاقا من قسنطينة، حيث استطاع بعدها السيطرة على تونس وبعث الدولة من جديد، وهذه النقطة ستشكل المؤثر السياسي الأهم في كتابات ابن القنفذ.[10]

أما في الجانب العلمي والثقافي فقد عرفت بلاد المغارب في القرن الثامن الهجري حركة علمية كبيرة عكستها حركة التأليف والتواصل العلمي وتنقلات الشخصيات العلمية التي سنأتي على ذكرها، وإن كان عصر ابن القنفذ أقل إشعاعا من سابقه.

ففي تونس تفاعلت مدارس كثيرة كالمدرسة الأندلسية والمشرقية والمغربية ومدرسة القيروان ومدرسة المهدية في الأدب والتاريخ والحديث والفقه والتفسير والمنطق.

ويكفي أن نذكر ممن عاصرهم ابن القنفذ من العلماء ابن عرفة صاحب المختصر في الفقه وعبد الرحمن ابن خلدون وابن البراء وأبو العباس الغبريني ويحي بن خلدون في التاريخ، والبطرني وابن جماعة التونسي وأبو محمد التجاني وأبو علي المشدالي وابن غريون البجائي

وابن عبد النور وابن عبد الرفيع وابن قداح وأبو الحسن بن عسيلة القفصي وابن راشد وأبو الحسن المنتصر... [11].

أما بالمغرب الأقصى فقد تأثر ابن القنفذ بانتشار دراسة الفلك (العلوم السماوية)؛ فأخذه عن اللّجائي تلميذ ابن البناء(721هـ/1321م)، والمنطق الذي كان مبتدأ كثير من العلوم، كما تأثر بالتصوف الذي ظهر جليا في كتابه أنس الفقير.

فنرى إذن كيف تنقل ابن القنفذ بين حواضر العلم الكبرى قسنطينة وفاس وتلمسان وتونس واستفاد منها بل وتأثر بها في موسوعيته وتصوفه.

أهم مؤلفاته: قلنا فيما سبق بأن عصر ابن القنفذ مثّل عصر الموسوعية حيث يندر الاختصاص والاكتفاء بعلم أو فن واحد، وهو ما انعكس في تآليف ابن القنقذ الكثيرة؛ فهي تتوزع على الحديث والفقه والأصول والمنطق، وعلى التاريخ كالتراجم والسير ولأنساب والوفيات، وعلى الطب والتوقيت والفلك، وعلى اللغة والقواعد والبلاغة...، وقد ذكر أغلب مؤلفاته في ثبتٍ كتبه سنة 807هـ، لكنه ألف بعده كتبا أخرى، رغم ضياع أغلبها[12].وسنحاول تصنيفها كالتالي:

أ- ففي الفقه والحديث والتوحيد:

- تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد: وموضوعها حول إفتاء مجموعة من فقهاء بجاية بصحة امتداد الشرف (النسب إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم) عن طريق الأم، حيث يبين ابن القنفذ خطأ من يقر بذلك من الفقهاء، وهو موضوع فقهي سياسي لارتباطه بالخلافة عند أهل السنة.

- شرف الطالب في أسنى المطالب: وهو شرح لقصيدة في أنواع الحديث النبوي ألّفها ابن فرح الإشبيلي(625-699هـ)

- أنوار السعادة في أصول العبادة: وهو شرح لحديث "بني الإسلام على خمس".

- بغية الفارض من الحساب والفرائض.

- معاونة الرائض في مبادئ الفرائض: شرح المنظومة التلمسانية في الفرائض.

- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب(570-646هـ/1174-1248م): ألفه سنة 770هـ/1368م بفاس.

– تقريب الدلالة في شرح الرسالة: لأبي زيد القيرواني(310-386هـ/922- 996م) في الفقه المالكي.

– اللباب في اختصار ابن الجلاب: والقاسم بن الجلاب فقيه مالكي توفي 378هـ/988م.

– علامة النجاح في مبادئ الاصطلاح: في علم الحديث.

ب- وفي المنطق والحساب والفلك والطب:

– تسهيل المطالب في تعديل الكواكب: وهو في علم الفلك كما يظهر من عنوانه، وفي ثبت ابن القنفذ بالخزانة العامة بالرباط: تيسير المطالب في تعديل الكواكب.

– تحصيل المناقب وتكميل المآرب: وهو شرح لتسهيل المطالب.

– حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب: وهو شرح لكتاب التلخيص في الحساب لابن البناء المراكشي.

– شرح منظومة أبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني: وهي المعروفة "المنظومة الحسابية في القضايا النجومية"، وقد ذكر الأستاذ محمد النيفر أن شرح ابن القنفذ موجود منه مخطوطان بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم466 و512 مكرر.

– سراج الثقات في علم الأوقات: وهي أرجوزة في المواقيت، في أربع صفحات.

– إيضاح المعاني وبيان المباني: وهو شرح لأرجوزة في المنطق.

– تلخيص العمل في شرح الجمل في المنطق: للخونجي (590-664هـ/1193-1265م).

– تسهيل العبارة في تعديل الإشارة.

– القنفذية في إبطال الدلالة الفلكية: وهي في علم الفلك كما يظهر من عنوانها.

– وقاية الموقت ونكاية المنكت:

ج- وفي البلاغة والنحو والعروض:

– التخليص في شرح التلخيص: قد يكون شرحا أو تنقيحا لكتاب تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (666-739هـ/1267-1338م) في البلاغة.

– الإبراهيمية في مبادئ علم العربية.

– بسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية: لضياء الدين أبي محمد عبد الله بن محمد الخزرجي الأندلسي.

- هداية السالك في بيان ألفية ابن مالك: الطائي الأندلسي النحوي (600-672هـ/1203-1273م).

د- وفي التاريخ والسير والتراجم والرحلات:

- طبقات علماء ثسنطينة: وهو في ذكر علماء قسنطينة إلا أنه مفقود، ويذكر المؤرخ المحقق محمد الشاذلي النيفر بأن المستشرق الفرنسي شربونو ذكر بأنه عند تحقيقه الفارسية اطّلع على مخطوط يتحدث عن علماء قسنطينة لعله هو، كما ذكر عادل نويهض بأن هذا المخطوط وقع تحت يديه في مدينة الجزائر وأنه بصدد تحقيقه[13].

- المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية: وهي اختصار لرحلة العبدري الذي حجّ من المغرب سنة 688هـ/1289م مرورا بباجة وتونس والقيروان والقاهرة.

- وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام: وهو من أجلّ الموضوعات في السير لاختصاره.

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.

- أنس الفقير وعز الحقير.

- الوفيات.

هـ- كتب أخرى:

- أنس الحبيب عند عجز الطبيب.

- مبادئ السالكين في شرح رجز ابن الياسمين: هذا الكتاب لم يذكره ابن القنفذ في ثبته، ولم يذكره أحد من المحققين ماعدا محقق كتابه شرف الطالب الذي ذكر بأن نسخته موجودة بالمكتبة الصبيحية بسلا بالمغرب تحت رقم :6/237[14].

منهج ابن القنفذ التاريخي وإسهاماته: إن الزاوية التي يتوجب علينا النظر منها إلى شخصية ابن القنفذ هي الزاوية التاريخية لأننا كما رأينا فقد كانت أعماله موسوعية لتأثره بتكوينه وشيوخه، ولتأثره بروح العصر، ومن الجانب التاريخي سنتناول أعماله التالية:

أولا- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية: يعد أشهر تآليف ابن القنفذ التاريخية حيث أرّخ فيه للدولة الحفصية منذ تأسيسها إلى آخر سنة 805هـ، وفرغ من كتابته في أوائل 806هـ كما يقول: "وههنا انتهى الغرض فيما تعلق بالدولة الحفصية العمرية، من مبدئها إلى هذا التاريخ الذي هو آخر سنة خمس وثمانمائة- أدامها الله رحمة للإسلام..."[15].

وقد قدم الكتاب هدية إلى السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز، الذي من اسمه أخذ عنوانه، والغرض الرئيس من تأليفه كما يبدو هو إبراز مكانة بلاد ابن القنفذ (قسنطينة) ودورها في تدعيم وبعث الدولة الحفصية، حيث أن أبا العباس انطلق منها لاسترجاع تونس واستعادة الدولة بعد زحف المرينيين عليها، كما أن السلاطين الثلاثة كلهم ولدوا وترعرعوا فيها (الأمير أبو عبدالله محمد بن السلطان أبي بكر، وأبو العباس، وأبو فارس عبد العزيز، وأبناؤه الثلاثة)، وفيه يؤكد على دور عائلته وولائها الدائم للحفصيين مستشهدا بالمواقف والرسائل الكثيرة.

ولعل الدافع الأقرب لتأليفه هو تبرئة قسنطينة وأهلها من نقض بيعة السلطان إثر تمرد والي الحفصيين بقسنطينة على السلطة، رغم أن السلطان اقتنع بحياد أهل قسنطينة، وأعاد ابن القنفذ إلى منصبه قاضيا بعدما عزله القائد الحفصي نبيل بعد الفوضى المذكورة.

تناول كتاب الفارسية سير السلاطين الحفصيين (19 سلطانا) من ولاية الإمام المهدي أبي عبد الله إلى أبي فارس عبد العزيز؛ فذكر ولاية كل سلطان، وأهم الأحداث التي عرفتها الدولة على عهده من حروب ومآثر كحروبهم مع المرينيين وحصار مدنهم بجاية وقسنطينة...

فكتب عن الأمير أبي زكرياء قائلا: "وجمع بعدله وسياسته أموالا لا تحصر إلا بالبيت- والبيت عبارة عن ألف ألف، وذلك مائة ألف عشر مرات- ذكر بعضهم أنه ترك سبعة عشر بيتا وستة وثلاثين ألف سفر من الكتب، وبلغ جيشه سبعين ألف فارس، وكان أكثر لباسه جبة من صوف وإحراما من صوف "[16].

وفيما يتعلق بإنجازاته في قسنطينة يقدم هذا التفصيل مثلاً: "وهو الذي وسّع في جامع خطبة قسنطينة وأصلحه وجدده، واشترى دورًا من الحضر وزادها في القصبة حتى أصلح بذلك سور القصبة وطرقها، وكان ملكه لها في أواخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وكان الأمير أبو زكرياء يقسم السنة بين البلدين بجاية وقسنطينة، وكان يفضل أهل قسنطينة على غيرهم"[17].

ويفصّل قمع السلطان أبو البقاء خالد لتمرد ابن الأمير في قسنطينة سنة 704هـ واصفًا الاستعداد العسكري، ثم دخول قسنطينة عبر القنطرة، ثم عقد مجلس مع كبار البلد وتبريرهم تمرد ابن الأمير بغفلة السلطة عنه: "ولما استقر بمجلسه من القصبة، وجلس معه وجوه البلد- وفي المجلس قاضي الجماعة ببجاية الفقيه المحدث أبو العباس أحمد الغبريني- عرض لهم السلطان باللوم على ما وقع من نفاق ابن الأمير؛ فأجابه الجد والد والدي- رحمه الله- قال له: "أنتم- نصركم الله- تمكنون بلدكم لمن تغفلون عنه، وتتركونه يزيد في الرجال والعدة، وفي

جمع المال واختزان الطعام ولا تعيبون عليه؛ فإذا أعجبته نفسه وزيّن له الشيطان عمله وقع فيما وقع فيه، وتعلمون أنه لا قدرة للحضري على مدافعة من هذه صفته"؛ فوافق السلطان على ذلك، وانفصل المجلس على رضا منه"[18].

كما تطرق لأحداث في المناطق المجاورة لقسنطينة، لكن تركيزه على ولاية السلطان أبي فارس ومآثره أكثر؛ فذكر مثلا نقض أهل بجاية وقسنطينة وبسكرة وعنابة بيعته..

كما يشير إلى المعارك والأحداث العسكرية، وبخاصة قمع التمردات التي تعكس بطولة أمراء وقادة الدولة كقوله: "وفي هذه السنة (يقصد سنة 800هـ)كانت وقيعة أوراس بوصول أمير المؤمنين إلى مكان لم يصله ملك غيره، وهو أقصى الجبل"[19].

ويفصّل في ذكر تمرد قسنطينة وحصار أبي فارس لها: "...فنزل أمير المؤمنين على البلد في يوم السبت الخامس والعشرين لشهر شعبان من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، وقرر–أبقاه الله– ما عنده من الخير...، ودام الحصار مدة تزيد على عشرين يوما...، ولما انتهى أمر الحصار...، ودخل أمير المؤمنين ومن تبعه من باب الحمة، وذلك في ليلة الثامن عشر لشهر رمضان من عام ثمانية وتسعين وسبعمائة "[20].

كما ذكر أخذ النصارى لبلاد العناب وتدلس، بل حتى أخبار مصر والمشرق وتلمسان والمغرب الأقصى والأندلس نجدها في كتابه رغم عدم تدقيقها وتفصيلها مقارنة بمصادر مشرقية وحتى مغربية كابن خلدون مثلا؛ فيتحدث عن نزول الفرنسيين بدمياط سنة 647هـ: "وفي سنة سبع وأربعين وستمائة نزل العدو– دمره الله– بعين دمياط، وهو الفرنسيس الذي نزل قرطاجنة، وتوفي بها في سنة ثمان وستين وستمائة– وكان حين نزوله دمياط قبض عليه وأمكن الله منه"[21].

كما تكلم عن طرد المصريين للنصارى سنة 648هـ: "وفيها أمكن الله تعالى أهل الديار المصرية من الطاغية الفرنسيس النازل على دمياط، وهو الذي نزل بعد ذلك على تونس وأراح الله منه"، وغير ذلك من أخبار الأيوبيين وملوكهم[22].

ورغم أن الغرض الأساسي من الكتاب هو الجانب السياسي إلا أن أخبار العلماء والفقهاء والشعراء وبعض آثارهم ووفياتهم تتناثر داخله بمناسبة أو بغيرها، رغم أنه في كتابه الوفيات سيكرر هذه الأخبار، كذكر الشاعر ابن عربية ت659هـ، والأديب الكاتب أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي658هـ، ومقتل الفقيه أبي عبد الله بن الأبار بالسياط ثم الرماح، ووفاة الفقيه القاضي أبوزيد بن الصائغ، ووفاة الفقيه المحدث أبو بكر بن سيد الناس في 659هـ[23] ، ووفاة

الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني ثم السوسي في 602هـ، وكذلك أبو عبدالله محمد بن الأبار، ووفاة الهسكوري في 664هـ بتونس[24]، فمثلا كتب: "وفي جمادى الأخرى من سنة ثلاث وثمانمائة توفي الإمام الحجّة بو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي، وخلفه في مكانه بجامع الزيتونة للصلاة بالناس والفتيا به القاضي أبو مهدي".

ونأخذ من أخبار العلماء مثلا نظام الإجازة وطريقة التدريس ومجالس العلم؛ فيحدثنا عن درس حضره بقوله: "وفي سنة اثنتين وثمانين (782هـ) حضرت مجلسه- نصره الله- في العلم بقصبتهم السعيدة في الحضرة العلية في التفسير والحديث والفقه، والقائم حينئذ برسم العلم في مجلس الأمر قاضي الجماعة بالحضرة الإمام الحافظ أبو مهدي عيسى بن أبي العباس أحمد الغبريني، وهو شيخ نال من المعارف ما اشتهى، وحاز من العلوم الغاية والمنتهى، وهو في درسه حسن العبارة، لين القول قريب الإشارة، شاهدت المفيدَ درسه..." [25].

وأرّخ للأوبئة مثل حديثه عن الوباء الذي ضرب تونس عام 805هـ: "وفي هذه السنة وقع الوباء بتونس وجهاتها، وبسببه رجع الخليفة من حركته إلى الحضرة ومكانتها"[26].

* أهمية كتاب الفارسية: إن اتباع ابن القنفذ لنظام الحوليات في سرد الأحداث التاريخية جعله ينتمي إلى مدرسة الطبري والمسعودي وغيرهما من أئمة التاريخ الإسلامي، ولكن إهداءه الكتاب إلى السلطان أبي فارس، وقصر أخباره على ما يرضي الدولة الحفصية، وإغفال ذكر أسباب تمردات الرعية ومدى خطرها، وكل ما يغضب السلطان ويشوه الدولة، جعل الكثير من المؤرخين يعتبرون منهجه هو منهج حوليات السير أو تاريخ السير، إضافة إلى أنه يشتت ذكر الحادثة الواحدة أو الموضوع الواحد على عدة سنوات مما يفقدها معناها التاريخي خاصة مبدأ السببية والترابط فيها [27].

ولعل إقبال المؤرخين على كتاب الفارسية يعود إلى اعتماده على الوثائق الأرشيفية الحفصية لقربه منها، واطلاعه عليها سواء عند عائلته (والده وجده وجدّه لأمه) أو من خلال توليه منصب القضاء، إضافة إلى قربه من مصادر الخبر معاصرة أو معاشرة أو مشافهة للسلطان والوزراء والعلماء والحجاب... كما يذكر في كتبه.

وتزداد هذه الأهمية التوثيقية إذا علمنا بأن الوثائق الحفصية قد تعرضت للتلف خاصة أثناء المعارك الإسبانية العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي وطيلة عهد الحكم العثماني في العصور الحديثة؛ ففي تونس لم يبق سوى عدد يسير من الوثائق المتعلقة بالأوقاف والأحكام

القضائية، أما ما بقي من الوثائق الحفصية فهو موجود في الأرشيفات الأوربية، ولا يغطي سوى الجانب الديبلوماسي والتجاري مع الممالك والإمارات الأوربية، ليظل الاعتماد في الجانب السياسي والاجتماعي والثقافي والديني مرتكزا على ما كتبه المؤلفون المسلمون كابن خلدون وابن القنفذ وابن الشماع والزركشي[28].

لهذا يعتبر ابن القنفذ المصدر الأول للدولة الحفصية ولمدينة قسنطينة وضواحيها، لأنه ركّز على ذكرها متفاخرا بها (بلدنا)، ورغم ما يشوب كتابه من ذاتية وإطناب وحشو إلا أنه يدرج مع تاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي الذي اعتمد عليه في مواضع عدة، والأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية لابن الشمّاع الذي اعتمد عليه أحيانا اعتمادا حرفيا وكذا المؤنس لابن أبي دينار[29].

يقول المؤرخ روبار برانشفيك **Brunschvig(R)** المتخصص في التاريخ الحفصي عن "الفارسية" الذي اعتمد عليه اعتمادا كبيرا في استسقاء المعلومات في مجالات مختلفة: "بالرغم من إيجازه المفرط أحيانا لا يخلو من القيمة، وقد ألف حسب الاحتمال بالاعتماد على تواريخ مضبوطة وثابتة في الظاهر، ومعلومات مقبولة حول أهم الأحداث السياسية باستثناء الأحداث المؤلمة التي يمر عليها مر الكرام وحول رجال الدولة، كما يتضمن على وجه الخصوص عددا كبيرا من المظاهر الخاصة بقسنطينة"[30].

أما العالم المحقق الجزائري محمد بن شنب الذي نشر منه أجزاء مترجمة إلى الفرنسية فقد حصر أهمية الكتاب في ذكر أخبار قسنطينة[31].

بينما يُعرض المؤرخ المصري المعاصر حسين مؤنس عن ابن القنفذ لمبالغته في المدح والولاء[32].

ويعد المستشرق الفرنسي شربونو **(cherboneu)** أول من نشر أجزاء من الفارسية مع ترجمتها، والتعليق عليها في المجلة الآسيوية ابتداء من سبتمبر1848م، ثم جاء بعده محمد بن شنب الذي نشر جزءا منها في مجلة هيسبريس1928م[33].

ثانيا- أنس الفقير وعز الحقير: وهو كتاب في التاريخ الثقافي والديني، وقد أضاف أمامه ابن القنفذ عبارة "في رجال التصوف أبي مدين وأصحابه" كشرح ربما لموضوع الكتاب، حيث قال في مقدمته: "رغب إليّ من يكرم عليّ من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام

الشيخ أبي مدين، نفع الله به وبأمثاله المسلمين، وذلك في شهر رمضان المعظم من عام سبعة وثمانين وسبعمائة بقسنطينة المحروسة؛ فحركني ذلك إلى ذكر هذا الشيخ والتعريف به"[34].

ولعله اقتبس عنوان الكتاب من معنىً ذكره في متنه، رواه عن رحل حضر جنازة لأبي مدين شعيب قال: "فما رأيت أعز من الفقراء في ذلك اليوم"، أو من قوله هو: "ولنختم كتابي هذا بنكت تنفع الفقير وتعز الحقير"[35].

فالكتاب موضوعه الأساس هو حياة المتصوفة، وبخاصة ممن ثبت اتصالهم بطريقة أبي مدين شعيب عن طريق التلمذة عنه أو عن تلاميذه.

ورغم أن ابن القنفذ اتخذ من المتصوف أبي مدين إطار عمله ومبدأه إلا أن زياراته إلى صلحاء وعلماء ومتصوفة المغرب وأضرحة رموزهم جعلت كتابه مصدرا لا غنى عنه لدارس التصوف وأقطابه في المغرب؛ فقد جمع التخصص في التصوف والسبق فيه مع ابن الزيات التادلي.

كما يعد أنس الفقير مصدرا لدارس الرحلات؛ فرغم أن ابن القنفذ لا يفصل السنوات ويرتبها إلا أنه يذكرها في كل مناسبة من مناسبات زياراته ولقاءاته بالمتصوفة المغاربة، كما يسجل ما تسجله الرحلات من أوضاع وأوصاف للمدن والمناطق التي زارها مثل: فاس ودكالة وسلا وآسفي وتاغية وسسكاوة و أزمور وصفروي...

ولا يخفى اعتماده على مؤرخ سبقه في التعريف بأبي مدين شعيب والتصوف في تلمسان والمغرب، وهو ابن الزيات التادلي في كتابه التشوف إلى رجال التصوف إلا أن اعتماده عليه لا يتعلق سوى بحياة أبي مدين ومشايخه وكراماته ومقولاته وبعض مبادئ التصوف، ونسوق مثلا قول ابن القنفذ: "ولم يذكر التادلي أبا محمد صالح ذكر استيفاء، وإنما أشار إليه في بعض المواضع من كتابه فمنها في أوله حيث قال: "وقد شرعت في تصنيف هذا الكتاب في شهر شعبان سنة سبع عشرة وستمائة..."[36].. وخطأه في ذكر إمامة أبي الحسن بن حرزهم بالشام، والصحيح هو أن عمه أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم هو إمام المسجد، رغم أن التادلي ذكره صحيحا[37].

فنجد أخبار أبي يعزى وأبي الحسن بن حرزهم وأبي الحسن بن علي بن غالب وأبي عبد الله الدقاق، وحتى إخوان أبي مدين يقصد رفقاءه في الطلب أمثال: أبي علي يعزى وأبي زكرياء يحيى بن أبي علي الزواوي وأبي جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي وأبي عبد الله التاودي وأبي الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي وأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي إلى أبي مسعود بن عريف[38].

كما نجد أخبار الكتب وشروحها ونساخها فيكتب قائلا: "ووقفت أنا بآسفي عند بعض أحفاد الشيخ أبي محمد صالح، على كتاب مجموع، فيه المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وبداية الهداية، والرسالة القشيرية بشرحها وعقيدة الجبراني، وفرائض الصلاة للصقلي، كل ذلك بخط الشيخ أبي محمد صالح، وكتب في آخر الكتاب ما نصه: "وكان الفراغ من ذلك على يد العبد الضعيف... عشية يوم الاثنين وهوالتاسع من شهر شعبان عام أربعة وثمانين وخمسمائة"[39].

وتظهرأهميته أيضا في تدقيقه للأحداث؛ فيؤرخ لتعليم وسيرة ووفاة المشايخ، مثل العبدوسي الذي ذكر أنه تتلمذ عليه، ووصف مجلسه ودروسه، يقول: "وتوفي شيخنا العبدوسي، رحمه الله، في أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة، وكان في مجلسه يشير لنا بذلك، وكان مجلسه أعظم المجالس بفاس يحضره الفقهاء والصلحاء والمدرسون وحفاظ المدونة، وتحضر من نسخها بيد الطلبة ما يقرب من الأربعين، وكان له إدلال عجيب في إقراء التهذيب، سمعته يقول: لي أربعون سنة نقرئ المدونة"[40].

ويُخصص ابن القنفذ جزءا من كتابه لجده لأمه لتبيين اتصاله بأبي مدين بواسطة أبي مسعود بن عريف فيقول: "وبه يتصل سند جدي للأم يوسف بن يعقوب البويوسفي شُهِر الملاري إلى الشيخ أبي مدين، رضي الله عنه، بمشيخته عن والده عن أبي مسعود هذا، وأبو مسعود عن أبي مدين؛ فكان بينه وبين أبي مدين رجلان؛ فسمعت ذلك عن جدي للأم سنة ثمان وخمسين وسبعمائة"[41]. كما يُفصّل في ذكر إخوان جده لأمه (يقصد رفقاءه في التصوّف) واتصالهم بسند أبي مدين شعيب، ليتوقف عند أبي عبد الله محمد بن يحي الباهلي المسفر، لأن الغرض هو: "تبيين بركة أبي مدين وانتشارها في تلاميذه من بعده"، كما يقول ابن القنفذ[42]، رغم أنه سيعود في آخر الكتاب إلى ذكر أصحاب أبي مدين ومكاتباته ووفاته[43].

وينقل ابن القنفذ كتابا (رسالة) لأبي عبد الله المسفر بخط يده إلى جد ابن القنفذ يعكس أسلوبه المتصنع وتبنيه التصوف، كما ينقل مقتطفات من مكاتيب أخرى أرسلها المسفر إلى جده يبدو فيها التصوف أجلى[44].

ثم يخصص جزءا من كتابه لصلحاء المغرب ممن درس عليهم أو التقى بهم أو سمع عنهم مثل أبو العباس المراكشي الشماع، وعبد الرحمن الهزميري، وأبو زيد بن عبدالرحمن اللجائي، وأبا الحسن بن يوسف الصنهاجي، وأبو الحجاج بن عمر إمام جامع القرويين، ويذكر حتى

الصالحات مثل مؤمنة التلمسانية: "ورأيت منهم بفاس المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية، وتبركت بها وما زالت على ما تقرر عندي، تخصني بالدعاء في ظهر الغيب...وكانت على زهد وتقشف وعبادة وورع، وكان قُوتها في العام من غزل يديها من نصف وَسَقٍ شرعي من الزرع وهو ثمنه، ونصف بالكيل الجديد ببلدنا، لا تقبل من أحد شيئا"[45]، ومثل عزيزة السكسوية.

ونستشف مثلا أوجه نشاطهم وتأثيرهم السياسي والديني؛ فمثلا يروي طلب الفقيه الصوفي أبو هادي مصباح سعيد الصنهاجي من السلطان المريني أبو الحسن الرحيل عن قسنطينة، وكيف رفض السلطان طلبه: "وقدم على السلطان أبي الحسن ودخل عليه فقال له: "ما حاجتك؟" فقال له: "حاجتي أن ترجع وتترك البلاد لأهلها"؛ فقال له: "هذا لا يمكن؛ فاطلب غير ذلك"، وتلطف له السلطان حتى رأى أنه لا طلب له إلا هذا؛ فأعرض عنه وانفصل المجلس، وكل واحد منهما غير طيب بما وقع... ورجع الشيخ أبو هادي إلى قسنطينة، وصرف أكثر أتباعه، وتحمل في نفسه ولازم خلوته، ولغط كثير من الناس أنه متوجه إلى الله تعالى في السلطان المذكور"[46].

ومثل عبد السلام التونسي الذي أدّب والي تلمسان عندما زاره للتبرك[47].

والكتاب يصف لنا كرامات الأولياء والشيوخ ومدى اعتقاد الناس فيهم، وحتى المؤلف يسرد أخبارهم محاججا مدافعا متبنيا موقفهم، مما أبقى لنا وصفا دقيقا للحياة الاجتماعية، يقول في إحدى رحلاته في المغرب: "...ووردت عليهم أصحاب العلل المزمنة كالمقعدين وغيرهم، ورأيتهم يتزاحمون في حلق الذكر، والمريض يتضرع ويرغب في صلاح جسده كأنه يطلب قوت يومه؛ فيقوم من يأخذ بيد المريض ويصرفه، وقد رجعت إليه صحته، ومنهم من يضربه بطرف كسائه فيقوم كأنه حل من عقال، ثم يختلط الرجل الذي يفعل ذلك بالقوم ولا يعرف شخصه، وهذا كنت أسمعه حتى رأيته..."[48].

ثالثا- الوفيات: وهو معجم لتأريخ وفيات الصحابة والمحدثين والمفسرين والفقهاء مرتب حسب القرون وسنين الوفاة، استهله بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة 11هـ، وصولا إلى سنة 807هـ حيث ترجم لشيوخه والعلماء الذين عاصرهم.

وهو في أصل تأليفه ذيل لكتاب شرف الطالب في أسنى المطالب، ولكن تركيز المحققين والمؤرخين على الأخذ منه والاعتناء به جعل منه كتابا منفصلا مستقلا.

ولأهمية الكتاب فقد وضع أبو العباس بن القاضي له تذييلا، بدأ فيه من المئة الثامنة الهجرية إلى غاية المئة العاشرة وسمّاه: لقطُ الفرائد من حقائق الفوائد[49].

ورغم أن ابن القنفذ يدّعي بأنه لم يسبق إلى مثله في قوله: "ولنذكر في هذا الكتاب ما حضرني من وفيات الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين، ورتبته على المئين من السنين بوجه لم أسبق إليه"[50]، إلا أن المؤرخين المسلمين ألّفوا في هذا الغرض، وبالعنوان ذاته أو في معناه...لكنهم مالوا إلى ترتيب أعلامهم على حروف المعجم بدل ترتيب السنين مُتعمدين؛ فابن خلكان برّر ترتيب شخصياته على حروف المعجم بدل ترتيب السنين بتسهيل الوصول إليها رغم علمه بأن الاعتماد على الحروف يخلط ويقدم ويؤخر: "فرأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين؛ فعدلت إليه، والتزمت فيه تقديم ما كان أول اسمه همزة... ليكون أسهل للتناول، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر في العصر، وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين، لكن المصلحة أحوجت إليه"[51].

وقد جمع كتاب الوفيات أخبار علماء المغرب والجزائر وتونس وغيرها؛ فترجم لعلماء البلاد الجزائرية (أكثر من عشرين عالما) مثل ذكر وفاة الفقيه الولي أبو زكرياء يحيى بن يحيى الزواوي ببجاية سنة ست مئة وإحدى عشرة، ووفاة القاضي أبو عبدالله محمد بن عبد الحق التلمساني صاحب "المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار"سنة 625هـ، ووفاة القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن حماده صاحب "النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة" سنة 628هـ[52]، ووفاة الفقيه الراوية أبو الحسن علي بن الراوية أبي نصر من أهل بجاية سنة 652هـ[53]، ووفاة المحدث حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ (يقصد جده) سنة ست مئة وأربعة وستين، ووفاة الفقيه عبد الحق ابن ربيع البجائي ببجاية سنة 675هـ، والفقيه المحدث القاضي أبو محمد بن كحيل البجائي سنة 685هـ، والمحدث الخطيب بجامع بجاية أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي سنة 699هـ[54]، ووفاة أبي العباس أحمد بن محمد الغبريني القاضي ببجاية صاحب كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من أعلام المائة السابعة ببجاية سنة 704[55]، ووفاة كل من الفقيه أبي علي ناصر الدين منصور بن أحمد المشذالي البجائي وخطيب قصبة بجاية أبو عبد الله محمد بن محمد بن غريون البجائي في بجاية سنة 731هـ[56]، والشيخ الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن يحي الباهلي المفسر البجائي ببجاية سنة 744هـ، والفقيه أبو عزيز محمد بن علي البجائي ببجاية، والشيخ أبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي بقسنطينة سنة 747هـ[57]، والخطيب حسن بن علي والد ابن القنفذ، وأبو عبد الله الصفار سنة 750هـ بقسنطينة، والفقيه أبو موسى عيسى بن أبركان في بجاية سنة

753هـ، والفقيه أبو علي بن حسين صاحب "شرح على المعالم" ببجاية سنة 754هـ، والفقيه أبو القاسم بن الحاج عزوز من بني علناس بقسنطينة سنة 755هـ[58]، وجده للأم يوسف بن يعقوب الملاري سنة 764هـ بقسنطينة، والشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن يحيى الشريف الحسني التلمساني بتلمسان سنة 771هـ[59]، والفقيه الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد بن مروزق التلمساني سنة 780هـ بالقاهرة، والفقيه القاضي الخطيب حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس القيسي القسنطيني في قسنطينة 784هـ، والفقيه المفتي أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي في بجاية سنة 786هـ، والفقيه القاضي المحدث أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس بقسنطينة سنة 787هـ، والمحدث المميز المقرئ المدرك قاضي الجماعة ببجاية أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن أبي عمار المسيلي سنة 789هـ[60].

وانتهى الكتاب بوفاة: "الفقيه الحافظ الأستاذ الجليل المفتي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير من أهل بلدنا ببونة في آخر ذي الحجة تكملة سنة سبع وثمانمائة"[61].

فجمع الكتاب تواريخ محددة وأخبار دقيقة، وإن كانت مختصرة عن العلماء والفقهاء والمحدثين والصلحاء المتصوفة، وبخاصة من التقى بهم ابن القنفذ أو عاصر تلاميذهم من بعد وفاتهم.

وتظهر أهمية كتاب الوفيات في اعتماد من جاء بعد ابن القنفذ عليه رغم اختصاره؛ فأحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج، وابن مريم التلمساني في البستان، وأبو القاسم الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف، والزركلي في الأعلام كلهم اعتمدوا عليه[62].

يظهر لنا من استعراض أعمال ابن القنفذ موسوعيته، حيث كتب في أغراض متنوعة كالأدب واللغة والمنطق والفلك والحساب والحديث والتصوف والتراجم والسير والتاريخ، كما تبرز لنا أهميته التاريخية في انفراده بكثير من أخبار الدولة الحفصية وحياتها السياسية ورجالها حيث وثّق أخبارها بدقة متناهية، رغم ما يؤخذ عليه من انتقائية للأحداث وإطناب في الأخبار.

كما أرّخ ووثّق أخبار العلماء والصلحاء وجوانب كثيرة من الحياة العلمية والدينية في مناطق وحواضر كثيرة في قسنطينة وبجاية وبونة وتونس وفاس ومراكش وسلا ودكالة...، وبخاصة أخبار التآليف والعلوم، وظاهرة التصوف التي أصبحت في وقته عاملا هاما في مختلف أوجه الحياة، ولعلّ هذا ما يفسر لنا اعتماد المؤرخين والمحققين ممن عاصره أو جاء بعده عليه بدرجات مختلفة.

الهوامش:

1 – ابن القنفذ أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1968، ص40.

2- ابن القنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، الوفيات، معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين من سنة 11-807هـ، حققه وعلق عليه عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط4، 1403هـ1983م، ص356.

3- ابن القنفذ، الفارسية، ص49. و ابن القنفذ، الوفيات، ص362.

4- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية الليبية، ط1398،1م. 1989هـ ص110/ابن القنفذ، الفارسية، ص53،52.

5-انظر ابن القنفذ، الوفيات، ص376.

6- حول شيوخه بالمغرب انظر ابن القنفذ أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965م ص25 وما بعده/ابن القنفذ، الوفيات.

7-نفسه، ص378، 379.

8- انظر ابن القنفذ، الفارسية، ص198. وابن القنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص71.

9- ابن القنفذ، الفارسية، ص64/الزركشي أبو عبدالله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تعليق وتحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، د.ت، ص123/ابن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، 1390هـ.

10- ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1421هـ، 2000، ج6 صص517، 560/ج7، صص386-396/برنشفيك روبار، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 الميلادي، ج1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988.

11- انظر الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، حققه وعلق عليه عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1979م/نيل الابتهاج للتنبكتي/فوات الوفيات للصفدي للوقوف على تراجم العدد الكبير من العلماء في مختلف المجالات.

12- اعتمدنا على الثبت الذي كتبه ابن القنفذ في آخر كتابه الوفيات وأيضا على تحقيق الأستاذ النيفر في: ابن القنفذ ،الوفيات، صص83،68 وغيرهما.

13- ابن القنفذ، الوفيات، ص17.

14- ابن القنفذ أبو العباس أحمد بن حسن الشهير بابن الخطيب القسنطيني، شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق عبد العزيز صغاير دخان، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة لأولى، 1424هـ، 2003م، ص45.

15- ابن القنفذ ،الفارسية، ص200،199.

16-المصدر نفسه، ص113.

17- نفسه، ص148.

18- نفسه، ص158.

19- نفسه ، ص195.

20- الفارسية، صص194،191

21- نفسه، ص110.

22- نفسه، صص112 ،113.

23- نفسه، ص123،122.

24- نفسه، ص126، 127.

25- نفسه، ص197.

26- نفسه، ص 199.

27- نفسه، ص7، 8.

28- برونشفيك روبار، مرجع سابق، ص11.

29- انظر ابن الشماع أبو عبد الله أحمد بن محمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م/ابن أبي دينار أبي عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1286هـ

30- برنشفيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 الميلادي، ج2، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، صص414، 415 .

وللوقوف على دقة معلومات الفارسية ومدى تطابقها أو تضاربها مع غيرها من الكتابات المعاصرة لها انظر الجزء الخاص بالتعليقات (التحقيق) في ابن القنفذ، الفارسية، ابتداء من ص203.

31-ابن القنفذ، الفارسية، ص20.

32- مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ج2، العصر الحديث للنشر التوزيع ، ط1 ،1992 ، ص215

33- Ben Cheneb Mohamed.la Farisiya ou la Dynastie hafside par Ibn Qunfud Constantine. Hespéris.1928.t 6.p40

وأيضا: ابن القنفذ، الفارسية، ص.9

34- ابن القنفذ، أنس الفقير، صص1، 2. أبو مدين شعيب: هو أبو مدين شعيب الأنصاري، ولد باشبيلية، ثم انتقل إلى بجاية وعاش فيها زمنا، وتوفي في طريقه إلى مراكش سنة 594 أو 588هـ، ودفن بالعبّاد في تلمسان حيث ضريحه اليوم، اشتهر بزهده وتصوفه حتى لقب بالقطب، وصار مدرسة في التصوف. للمزيد انظر: ابن القنفذ، أنس الفقير. وابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997، صص319 ، 320.

35- ابن القنفذ، أنس الفقير، صص104و109.

36- المصدر نفسه، ص62.

37-نفسه، ص 13، و ابن الزيات التادلي، مصدر سابق، صص94، 96

38- ابن القنفذ، أنس الفقير، صص27، 40.

39- المصدر نفسه، ص63.

40- نفسه، ص25.

41- نفسه، ص42.

42- نفسه، ص53.

43- ابن القنفذ، أنس الفقير، ص90.

44- المصدر نفسه، صص54، 60

45- نفسه، ص80.

46- نفسه، ص51.

47- نفسه، ص108.

48- نفسه، ص71.

49- ابن القنفذ، شرف الطالب، ص44.

50- ابن القنفذ، الوفيات، ص21.

51- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ص20، والصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2000، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي.

52- ابن القنفذ، الوفيات، صص306، 311.

53- المصدر نفسه، ص321.

54- نفسه ،صص330 ، 335

55- نفسه، ص339

56- نفسه، ص344،345

57- نفسه، صص354،349

58- نفسه، صص355، 358

59- نفسه، صص362، 368

60- نفسه، صص 373، 378

61- نفسه، ص382

62- انظر مثلا: ابن مريم أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة نصه محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1336هـ1908م/الحفناوي أبو القاسم محمد ابن الشيخ أبو القاسم الديسي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324 هـ1906م.

أبو العباس الغبريني البجائي(ت704هـ/1304م) ومنهجه من خلال كتابه: "عنوان الدراية"

أ. مغزاوي مصطفى*

—

مقدمة: تقاسم المغرب الأوسط الوزن الحضاري الإسلامي مع المغربين الأدنى والأوسط، وكما كان للقيروان علماؤها وفقهاؤها، ولمراكش فلاسفتها ومفكروها، ولقرطبة صنّاعها ومُبدعوها، كان لبجاية وتيهرت وتلمسان نُبغاؤها وصلحاؤُها، وحتى لا نكون أمة تصنع التاريخ ولا تجُيد تدوينه كان لزاما علينا الاعتناء بتاريخنا عامة وتاريخ الجزائر خلال الحقبة الإسلامية تدوينًا وتحقيقًا ونشرًا، حتى يتصحح المفهوم الذي شاع بين طلبتنا بأن الحضارة الإسلامية في المغرب الوسيط أهلّت في المغرب الأدنى ثم انتقلت إلى المغرب الأقصى والأندلس، ولم يكن المغرب الأوسط سوى تابع ومتأثر بما يأتيه شرقًا وغربًا، وفي هذا المسعى نتقدم بهذه الأسطر للتعريف بالمؤرخ البجائي أبي العباس الغبريني وكتابه "عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، الذي عكس لنا صورا من ازدهار الحياة الفكرية والعلمية ببجاية خلال القرن 7هـ/13م.

مولده ونسبه: بقيت بجاية تُنجب الفقهاء والنبغاء وتحتضن العلماء والصلحاء طيلة العصر الإسلامي، تبعثرت أخبارهم بين المخطوطات والمصادر وكتب المناقب والتراجم، وجاء كتاب "عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" ليجمع لنا أخبار علماء المدينة خلال قرن من الزمن (القرن 7هـ/13م)، وصاحب الكتاب هو المؤرخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد البجائي مولدًا ونشأةً ووفاةً[1]، المشهور بالغبريني نِسبة إلى "بني غبرين" إحدى بطون قبيلة زواوة الأمازيغية بالمغرب الأوسط[2]، وإلي "بني غبرين" يُنسب الفقيه أبو مهدي عيسى بن أحمد الغبريني ت810هـ/1407م[3]، والفقيه المحدث أحمد بن أحمد أبو سعيد الغبريني[4] وشقيقه الفقيه مفتي تونس أبو القاسم الغبريني[5] وهما ابني أبي العباس الغبريني، توفيا بعد سنة 770هـ/1368م[6].

* – أستاذ مساعد أ في التاريخ الإسلامي الوسيط- جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف.

وُلد أبو العباس أحمد الغبريني سنة 644هـ/1315م، ونشأ في طلب العلم مرتحلاً بين بجاية وإفريقية في المغرب الأدنى الذي كان يشهد حركية علمية وثقافية خلال القرن 7هـ/13م، لذا لا نجد للغبريني رحلات إلى المشرق والمغرب، ويكفي أن الغبريني عدَّد في مشيخته أزيد من سبعين شيخاً تتلمذ عليهم بين فقيه ومحدث ومفسر ولغوي ومتصوف[7].

بيئته السياسية: عاصر الغبريني سقوط الدولة الموحدية، إثر هزيمة "حصن العقاب"[8]، وثورات بني غانية التي نجحت في طرد الموحدين من بجاية واتخذتها مقرا لها لبُعدها عن عاصمة الدولة الموحدية مراكش[9]، وتوالي هجمات النصارى على السواحل المغربية، فكان لأسطول بجاية حينها دور في التصدي لتلك الهجمات[10]، واستقر الوضع سياسيا بتراجع الموحدين وسيطرة الزيانيين على المغرب الأوسط (633/962هـ/1235-1554م)، والحفصيين على المغرب الأدنى (627-982هـ/1229-1574م).

عاش الغبريني في ظلِّ الدولة الحفصية، وهي الدولة الإسلامية الرابعة التي تولَّت الحكم في المغرب الأدنى وأجزاء من المغرب الأوسط، ودام حكمها ثلاثة قرون ونصف، والملاحظ أن الاعتناء بالحركة العلمية ميزة عُرفت بها كل من الدولة الحفصية والمرينية والزيانية "فكانت مُنافستهم في تقريب العلماء من مجالسهم تساوي منافستهم في ضخامة السلطان وامتلاك الأوطان فعمت المعارف المدن والقرى... وجعلوا من مجالسهم حظا لمناظرة العلماء بين أيديهم، واتخذوا الأطباء والمفاتي والشعراء فنهضوا بجميع فنون العلم وظهرت المؤلفات في مختلف المواضيع"[11]، فقدِّم العلماء وأُكرم الفقهاء لاسيما من عُرف منهم بمسالمة النظام، كأبي العباس الغبريني الذي لا تُشير المصادر إلى انخراطه في إحدى الحركات المعارضة للدولة، كما لا نجد ما يجعله ضمن علماء البلاط المتميِّعين للسلطة، ولعل أبا العباس الغبريني بخلفيَّته المذهبية المالكية كان يرى ما يراه الإمام مالك ت197هـ/812م بأنَّه: "حقٌّ على كل مسلم أو رجلٍ جعل الله في صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل على ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر"[12].

وفي ظل هذه التحولات السياسية المتسارعة حافظت بجاية على سمعتها الحضارية ومكانتها السياسية التي استمدَّتها من مساجدها المتعددة[13]، وتجارتها الرائجة[14]، واستقبالها الفارين من محاكم التفتيش بالأندلس[15]، ويشهد لهذه الاستمرارية الحضارية المشاهد التي

نقلها الغبريني نفسه في كتابه "عنوان الدراية" من وفود العلماء ورواج المصنفات المشرقية والمغربية التي كانت تُدرس في مساجد بجاية[16].

عوامل نبوغه: إن الحديث عن أبي العباس الغبريني هو حديث عن شخصية موسوعية التكوين، فهو المؤرخ والأديب[17]، والقاضي الفقيه[18]، الذي جمع مع الفقه الأصول[19] والتفسير[20] والحديث[21]، وسلك مسلك التصوف[22]، وأخذ من علوم الفلسفة والمنطق[23]، ومما أسهم-أيضا- في صقل شخصيته الموسوعية سعة اطلاعه ونهمه العلمي، وبيئته البجائية العلمية، بالإضافة إلى تنوع مشاربه وتتلمذه على كبار شيوخ عصره.

وبتفحُص مشيخة أبي العباس الغبريني التي ذيَّل بها كتابه "عنوان الدراية"، نتلمس جليا هذا التنوع العلمي الذي انحصر في بيئته البجائية، ولا يخفى علينا موقع مدينة بجاية التي كانت معبرًا للتيارات الفكرية والعلمية الوافدة من المشرق والزاحفة من المغرب، لذا قال عنها الشريف الإدريسي ت560هـ/1164م "مدينة بجاية قطبٌ لكثير من البلاد"[24]، وجعلها شهاب الدين العُمري ت749هـ/1349م صاحب الاستبصار "قاعدة ملك ثانية"[25]، وهي عند الحِميري ت900هـ/1494م "قاعدة الغرب الأوسط، مدينة عظيمة"[26].

ونلمس ذلك -أيضا- من كلام الغبريني الذي أشار إلى جملة من مشايخه الذين حظي بالجلوس إليهم والأخذ عنهم "لتكررهم على بجاية" كالفقية أبو عبد الله بن يعقوب[27]، والفقيه أبو القاسم من أهل إفريقية الذي تكرر حضوره إلى بجاية وقال عنه الغبريني: "لمحة من الفاضل تكفي، وإشارة منه تُغني،...فكيف وقد تكرر ذلك"[28]، كما درس على مشايخ لم تتكرر زيارتهم إلى المدينة بل كانوا من"المجتازين على بجاية"[29].

وفي مشيخة مؤرخنا الغبريني نتلمس عوامل النبوغ، فنجد الفقهاء والمحدثين واللغويين، فالمؤرخ شاهد على مجتمعه، يكتب لعلمائه وعوامه، وملوكه وعبيده[30].

من الفقهاء الذين ذكرهم الغبريني في مشيخته أبو محمد عبد الحق بن ربيع ت675هـ/1276م الذي أكثر الاستفادة منه، والفقيه أبو القاسم بن زيتون ت691هـ/1291م، والفقيه أبو محمد عبد المجيد ت686هـ/1287م، والفقيه ابن عجلان ت678هـ/1279م، والفقيه عبد الله ين بعقوب وكانت "الاستفادة عن هؤلاء بالمذاكرة والمباحثة ويكثر ذلك ويقل"[31].

وفي مشيخة الغبريني نجد فقهاء استمع إليهم أضعاف ما قرأ كأبي محمد عبد العزيز القيسي[32]، وأبي محمد عبد الله بن عبادة القلعي[33]، كما ارتحل الغبريني إلى إفريقية للاستفادة

من مجالس الفقيهين: أبو العباس بن عجلان ت678هـ/1279م، وأبو محمد عبد المجيد 686هـ/ 1287م [34]، فانتفع برؤيتهم وتبرك بمشاهدتهم [35].

تزود الغبريني -أيضا- من علوم الأصول والتفسير والحديث، وهي علوم من شأنها أن تمرِّن المؤرخ على تأصيل المسائل وإرجاعها ببصيرة إلى أصولها ومنابعها، ومن ثمَّ تفسيرها وتحليها من غير إفراط ولا تفريط، وهي ميزة نجدها عند من جمع بين التأريخ وعلم أصول الدين كشيخ الإسلام ابن تيمية ت728هـ/1328م وتلميذه الإمام الذهبي ت748هـ/1347م في المشرق، ولسان الدين بن الخطيب ت 776هـ/1375م في الأندلس، وابن مريم التلمساني ت792 هـ/1389 م في المغرب.

فقد درس الغبريني على المُقرئ أبو العباس أحمد بن محمد الشاطبي ت674هـ/1286م ... "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي ت427هـ/ 1035م [36]، كما درس عن الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد الصدفي كتاب "أحكام القرآن" لصاحبه أبو الحسن علي بن محمد الطبري [37]، وعدَّد الغبريني كتبًا أخرى انكبَّ عليها أيام تتلمذه منها: كتاب "الكشاف" للزمخشري ت 538هـ/1143م [38]، وكتاب "التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل" لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي ت440هـ/ 1048م [39]، وكتاب "الوجيز في شرح كتاب الله العزيز" للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي ت541هـ/1146م [40].

أما علوم الحديث فيذكر الغبريني أنه قرأ موطأ الإمام مالك بسند يصل إلى الإمام مالك نفسه، بالإضافة إلى "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم" و"سنن أبي داود" و"جامع الترمذي" و"جامع النسائي" [41]، كما أخذ ودرس كتب محدثي المغرب ككتاب "التمهيد والاستذكار" لابن عبد البر (ت463هـ/1070م) وكتاب "المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار" للفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان التلمساني ت625هـ/1227م [42].

كما كان للغبريني تكوينٌ على يد كبار اللغويين كأبي عبد الله التميمي الذي لازمه طويلا فقرأ عليه النحو واللغة والأدب والتصريف، فانتفع به الغبريني وقال عنه "ما رأيت في علم العربية مثله" [43]، بالإضافة إلى ذلك درس الغبريني الإعراب على الشيخين أبي الحجاج بن سعيد وأبي عبد الله الكناني ت699هـ/1297م [44]، كما درس كتاب "الجمل" للزجاجي ت337هـ/ 948م على يد الفقيه النحوي أبو عبد الله الأديب [45].

وللغبريني بعض القصائد الشعرية لاتزال مخطوطة في مكتبات المغرب الأقصى من نَظمه أو مَنسوبة إليه[46]، وذكر الغبريني نفسه أنه كان قد نظم أيام شبابه قصيدة صوفية من نحو أربعين بيتا[47]، بينما أورد له النباهي بيتين من الشعر[48].

وكان لدراسة الغبريني لعلم الكلام والفلسفة والمنطق إسهام – ولاشك- في صقل شخصية الغبريني المؤرخ، فلا سبيل لمؤرخ الحضارة الإسلامية أن يُصْفِحَ عن هذه العلوم التي فرضت نفسها على حيثيات التطور الفكري والحضاري والمذهبي في تاريخ المسلمين، وهو ما قرره مالك بن نبي بقوله: "قد ارتبطت الفلسفة بالتاريخ ليس فقط من حيث هو تاريخ الفلسفة أي رصد تاريخ الفكر البشري وتقلباته بل من حيث هو فلسفة التاريخ أي التفكير في تطور التاريخ وحركته ومحاولة البحث عن قانون يحكم هذا التطوّر ويصف هذه الحركة"[49].

فقد قرأ الغبريني المنطق والفلسفة على "طريقة الأقدمين كأبي نصر الفرابي وغيره"[50] وطريقة "الأوسطين كابن سينا وغيره"[51]، وطريقة " المتأخرين كمحيي الدين وغيره"[52].

كان للغبريني – إضافة إلى ما سبق- إحاطة بعلوم "التصوف والتذكير"، فدرس عن الشيخ أبو جعفر أحمد بن محمد الصدفي، رسالة في فضائل مكة للزاهد أبي الحسن البصري ت110هـ/ 728م بسند يتّصل إليه، وعن الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد المكتّب درس كتاب "قوت القلوب ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب" لأبي طالب محمد بن علي المكي ت386هـ/ 995م[53]، ورسالة القشيري ت465هـ/1072م عن الخطيب أبي عبد الله بن صالح[54].

– مذهبه أصولا وفروعا وسلوكا:

لاشك أن التوجه العقيدي والقناعة المذهبية ومنهج التعبُّد خصائص تميز شخصية المؤرخ وتُوجِّه أهدافه وتطغى على كتاباته، وهي حقيقة حاضرة في الكتابات القديمة منها والحديثة وإن تنادى أصحابها بالمثالية والحيادية، ولعلنا نُنقِّبُ في صفحات "عنوان الدراية" وبين المصادر ما يُشكل لنا صورة عن تمذهب الغبريني أصولا وفروعا وسلوكا.

والمصادر لا تحدثنا شيئاً ذا بال عن تمذهب الغبريني، كما أننا لا نملك نصوصا من كلام الغبريني تُفصح عن شيء من اعتقاده، وما بين أيدينا إلا سلسلة من التراجم كان للغبريني في بعضها تعاليق وتعقيبات، والغالب على اعتقادنا أن الغبريني تمذهب بما غلب –حينها- على أهل بجاية والمغرب الأوسط من التمسك بعقيدة السنة أصولا، ومذهب الإمام مالك فروعا، متأثرًا بطريقة الصوفية سلوكا[55].

فقد عاش الغبريني في بيئة سنِّية بعيدا عن انحرافات الخوارج وغلوِّ الشيعة وتأويلات المعتزلة ورموز الباطنية، كما أننا لا نجد ضمن شيوخه من أُشتهر بخلاف السنة، وبتفحُص تعقيبات الغبريني على من تَرجم لهم نسجل له إعجاباً وإكباراً لعلم الكلام وأهله[56]، ما يجعلنا نعتقدهُ -تحفظٍ- ضمن متكلمي أهل السنة، وما يُعزز لدينا هذا الاعتقاد أن الغبريني نهل في مسيرته التعليمية من كتب أهل الكلام[57]، لاسيما وأن هذا العلم عَرف انتعاشا نسبياً خلال العصر الموحدي، فرُسِّم وأُطلق له العنان بعد تقييده وتضييقه خلال العصر المرابطي[58].

وفقهيا تظهر مالكية الغبريني بجلاء من خلال تكوُّنه في مجالس المالكية[59]، وإحاطته بالموطأ الذي سمعه مرتين[60] "على إتقان، وتحصيل وجودة وبيان، بتفريع وتأصيل وإجمال وتفصيل وإيراد الأسئلة والجمع والفرق وغير ذلك مما جرت العادة بإيراده عند أفاضل الفقهاء، وأكابر العلماء"[61]، كما أنه قرأ "المدونة"[62] و"التهذيب" و"الرسالة" و"الجلاب" و"التلقين" و"مختصر بن أبي زيد" [63] وهي أمهات الفقه المالكي بالمغرب، كما أننا نتحدث عن فترةٍ (ق7هـ/13م) خرج منها المذهب المالكي منتصرًا بعد جولة خاضها ضد المذهب الظاهري خلال العصر الموحدي[64].

وباستقراء تراجم الصوفية من خلال كتاب "عنوان الدراية" يبدو أن الغبريني سلك مسلك الزهاد وتأثر بالمتصوفة السُنِّية، فقد أورد أبو الحسن النباهي في ترجمته للغبريني أنه "لما ولي خطة القضاء، ترك حضور الولائم، ودخول الحمام، وسلك طريق اليأس من مداخلة الناس"[65] على طريقة الصوفية.

وفي ترجمته لكبار متصوفة عصره أشاد طويلا بنبوغ شيخ الصوفية أبي مدين شعيب الغوث وأنه "الواصل القطب"[66]، وأورد بعضا من كراماته "ما يدل على علو مقامه وبديع قصده ومرامه"[67]، غير أنه أعرض عن التفصيل خشية الاستطالة حسب قوله، إلا أن الذي نعتقدهُ أن الغبريني أعرض عن الاسترسال في ذكر كرامات الشيخ أبي مدين تجنُباً لإثارة حفيظة الفقهاء الذين اصطدموا طويلا مع المتصوفة في موضوع الكرامات بين مُكذب لها ومُشكك فيها[68].

كما أظهر الغبريني إعجابه بقطب التصوف الفلسفي ابن عربي الحاتمي الطائي ت638هـ/1240م الذي ترجم له "بالجليل الحافظ المتصوف المحقق"[69]، وأبو الحسن علي بن أحمد الحرالي التجيبي ت638هـ/1241م صاحب التأويلات الباطنية[70]، ترجم له الغبريني "ببقية السلف وقدوة الخلف"[71]، أما الصوفي المتفلسف أبو الحسن الششتري ت668هـ/1270م فقد ترجم له

الغبريني بـ "الشيخ الفقيه، الصوفي الصالح العابد، الأديب المتجرد"[72]. وفي موضع آخر من كتابه اعتبر الغبريني "العلم اللدني" - الذي يعني علم الباطن عند الصوفيه - اعتبره "فرضا على الكفاية حينا، ومتعينا في الحال"[73]. ونظفر من كلام الغبريني دائما ما يدل على تصوفه فقد ذكر أنه نظم قصيدة من أربعين بيتاً في التصوف تُعرف بالقصيدة الهمزية ذكرها الغبريني دون أن تصلنا[74]. كما أن الغبريني افتتح كتابه بترجمته لأبي مدين 573هـ/1177م وأبي علي المسيلي ت580هـ/1180م وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي ت581هـ/1158م رغم أنها هؤلاء المتصوفة غير محسوبين على المائة السابعة وإنما افتتح بهم كتابه "للتبرك بذكرهم، ولانتشار فخرهم"[75].

- منهجه من خلال كتاب "عنوان الدراية":

لم يبتعد الغبريني في كتابه "عنوان الدراية" عن المعالم التي تنبني عليها -عادة- كتب التراجم، وبتصفح الكتاب المرة والمرتين تتضح لنا بعض الخصائص التي ميَّزت الكتاب وصاحبه، فمن الناحية الشكلية استخدم الغبريني في كتابه السجع والجمل "القصيرة والتزيينات اللفظية"[76]، فبدأ كتابه بمقدمة سجعية من حوالي أربعين سطرا[77] من غير تكلُّف، ولا شك أن السجع يجذب الرعاية ويلفت العناية ويمنع التشتت ويمسك الفكر عن التلفت.

كما نجد الغبريني التزم -بما ألزم به نفسه- في كتابه بالحيز الجغرافي لبجاية[78]، وهو ما يعرف بالتراجم الجغرافية (المكانية) التي تُترجم للأعلام في حيز جغرافي معين، وهي من أقل الأنواع تأليفاً في التراجم العربية والإسلامية القديمة بسبب عدم وجود التقسيمات الحديثة[79].

وما ميز الكتاب -أيضا- شموليته في التعريف بمن ترجم لهم الغبريني ممن تتلمذ عليهم أو عاصرهم أو أدركهم أو سمع بهم، ذاكراً رحلاتهم وشيوخهم ومواطن تعلمهم "حافظا لنا صورة صادقة عن الحياة العقلية في مدينة بجاية في مدة قرن كامل ... ولو لا هذا الكتاب لظلت أكثر هذه الصفحات من تاريخ الحركة العلمية الجزائرية مجهولة"[80]، ففي ترجمته للفقيه أبي الطاهر عمارة بن عمارة الشريف الحسني المتوفى بعد585هـ/1189م راح يصف أسواق بجاية وما يفد إليها من سلع[81]، وأرَّخ الغبريني لفئات المجتمع الفقيرة منها خاصة مما يسمح لنا بتشكيل صورة عن الأوضاع الاجتماعية ببجاية في المائة السابعة، فرغم أنه ترجم للعلماء والصلحاء والفقهاء إلا أننا نجد صورا عن حياة الغسالين[82] والمكاسين[83].

لم يكتف الغبريني بترجمةٍ مجردةٍ لأعلام عصره بل حاول إثبات بعض النماذج الشعرية والنثرية المنسوبة للمترجَم لهم، مثل نقله لأكثر من أربعين قولا لأبي مدين شعيب الغوث[84]، ونقل خمسة عشر بيتا من قصيدة لأبي محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري ت675هـ/1285م[85]، وضِعْفُهاَ للفقيه اللغوي أبي عبد الله محمد بن الحسن التميمي ت673هـ/1274م[86]، وأكثر من أربعين بيتا لأبي الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي ت633هـ/1235م[87]، وأورد النص الكامل لإجازة الفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن حسين الخشني (ت في النصف الأول من القرن 7هـ/13م) للفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني، ثم أورد نص رسالة هذا الأخير يُثني فيها عليه[88].

ومما يلاحظ أن الغبريني تساهل في توزيع الألقاب والرتب فنجد معظم من ترجم له حظي بلقب: الفقيه المجتهد المحصل المتقن الصالح الزاهد الورع "دون تمييز بين أديب وشاعر ومحدث ومؤرخ"[89]، كما ترددت كثيرا عبارات "الولي"[90] و"الفاضل"[91] و"الجليل"[92] و"المبارك"[93]، إلى درجة قد تدفع القارئ -لأول مطالعته للكتاب- أن يصنِّفه ضمن كتب المناقب لكثرة ما أورده الغبريني من المناقب والمكارم.

ولعل التكوين المتنوع للغبريني انعكس على كتابه فراح يُترجم للفقهاء واللغويين والمحدثين دون تفضيل طائفة عن أخرى.

ومما لُوحظ -أيضا- أن الغبريني يتحرج من نقد من يُترجم لهم، ويتغاضى عن ذكر ما يقدح فيهم، وقد صرَّح بذلك في ترجمته لأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الأصولي فقال: "وما زلت أنقد على من يذكر أهل العلم ثم يغمز في شأنهم، ويشير إلى القادح فلا أريد أن أذكر إلا الخير"[94]، ثم ذكر في هذا السياق الآية الكريمة: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت"[95] وكأنه يستدل على تحفظه من النقد بالآية.

وللمحقق عادل نويهض انتقادٌ على الطريقة التي اتبعها الغبريني في تراجمه التي -حسب قوله- "كانت غير ذاتية في معظمها، فهو لم يعتمد على انتاجهم من حيث قيمته الفنية، ولا على الحياة الشخصية، أو العوامل التي ألهمتهم هذا الأدب أو الإنتاج، مع أنه كان واسع الإلمام بما كتبوه، متتبعا مراحل حياتهم مرحلة مرحلة، ولذلك لم يعكس -في بعض تراجمه- صورا واضحة على ضوء فن كتابة السير والتراجم، مما كان يساعدنا في يومنا هذا على معرفة

على ما كانت تنطوي عليه أحاسيسهم ونزواتهم ، ومقام كل واحد من هؤلاء...ومدى تجاوبهم مع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى المجاورة لهم"[96].

وما لاحظناهُ بدورنا أن الغبريني لم يعتمد في تراجمه على مصادر ملموسة إلا نادرا، وما ذُكر منها لم يصلنا[97]، بل كان يعتمد على ما شاهد وسمع بالاتصال المباشر مع المترجَم له، أو السماع ممن عايش المترجَم لهم مع ذكر سند هذا السماع بطريقة تُشبه إلى حد بعيد طريقة رواة الحديث.

ويبقى كتاب "عنوان الدراية"-بشهادة المحقق عادل نويهض صاحب معجم أعلام الجزائر-"هو أصدق وأشمل سجل طُبع عن الحياة العقلية في المائة السابعة للهجرة لا في بجاية وحدها إنما في المغرب الأوسط أيضا"[98].

ولا نجد وصفا أجمل لغة وأعمق معنى من وصف العلامة الأديب الجزائري محمد بن أبي شنب رحمه الله تعالى إذ يقول عن كتاب عنوان الدراية -سجعا على طريقة الغبريني- في مقدمة تخريجه للكتاب ما نصه: "كتاب تلوح أنوار الحقائق من سبل عباراته، ويعبق شذا عرف المعارف من بيان إشاراته، أورد فيه مؤلِفه من تراجم عصره، وأخبار أحبار مَصره، ما يحتاجه المتشوق إلى فرائد الفوائد، والمتشوق إلى أوابد العوائد، مع ذكر وفياتهم ومؤلفاتهم، وسيرهم في مذاهبهم وعاداتهم، واستطراد الأحاديث الشريفة، والآثار الصالحة المنيفة، والمباحث الفقهية، والفتاوى الشرعية، وغير ذلك مما لا يُحصى ولا من غيره يستقصى"[99].

وبحق يُعتبر الكتاب مصدرا هاما يؤرِّخ قبل كل شيء للجزائر وحضارتها الإسلامية انطلاقا من البيئة البجائية الأمازيغية التي رأى أعداء الجزائر في أمازيغيتها طَعما لزرع بذور الفتنة والشقاق.

خاتمة: توفي الغبريني مقتولا في إحدى سجون بجاية سنة714هـ/1315م على الأرجح[100]، وانفرد ابن خلدون بالرواية التي تتضمن مقتل الغبريني، ولم يذكر ابن خلدون أسباب واضحة لمقتله غير أن خصوم الغبريني دسوا له مكيدة عند أمير بجاية أبي البقاء خالد بن يحي الحفصي "فأغروه به"[101] لما أشاعوا أنه حرض قومه "بني غبرين" على السلطة[102].

توفي الغبريني وخلَّف ما يُحيي ذكره كما أحيا بكتابه "عنوان الدراية" ذكرى فقهاء وصلحاء، وعلماء وفضلاء كاد الزمان أن يأتي على ذكرهم فتنْدَرس أخبارهم وتتوارى أنباؤهم، فنُحرم أنوار أقوالهم وعظيم أفعالهم.

إن الحديث عن أبي العباس الغبريني هو حديث عن مؤرخ أمين، وأديب رصين، وفقيه مكين جمع بين الفقه والحديث، فاصطبغت شخصيته بالموسوعية انعكست على مُصَنَّفه "عنوان الدراية"، وهو ما انتهى إليه أبو القاسم الحفناوي ت1360هـ/1943م إذ يقول عن الغبريني وكتابه عنوان الدراية: "وكتابه كتاب رجل خبير بما يقول ودليل على أنه من الفحول"[103].

هذا قليل من كثير عن"العلامة المحقق والفهامة المُدقِقْ الجامع بين الدراية والرواية، قاضي القضاة ببجاية"[104] أبي العباس أحمد الغبريني، في انتظار أقلام المتخصصين للتنقيب في شخصية الغبريني مؤرخاً وفقيهاً وأديباً، فها هو أبو القاسم الحفناوي – صاحب موسوعة تعريف الخلف برجال السلف– بعد ترجمته للغبريني يقول بحسرة وحُرقة: "يا ليتني أقف على ترجمته أو أسمع بها في كتاب فأستعيره لأطالعها فيه أو أنقلها منه"[105].

الهوامش:

1– أنظر ترجمته: ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة 02، دار الفكر، بيروت، 1408 هـ – 1988 م، ج: 6، ص: 462. وابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1389هـ، 1969م، ج: 3، ص: 526. و ابن العماد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، الطبعة 01، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، 1406 هـ – 1986 م، ج:9، ص: 322. وأبو الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة 05، دار الآفاق الجديدة – بيروت/لبنان، 1403هـ –1983م، ص: 132 و133. والمقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، دار صادر، بيروت ،لبنان، 1968م، ج:2، ص: 185. وابن قنفذ القسنطيني، الوفيات (معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين)، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403 هـ – 1983 م ، ص: 12. وعبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، 1982م، ج: 2، ص: 883. والزركلي خير الدين ،الأعلام، الطبعة 15، دار العلم للملايين، أيار / مايو 2002 م، ج:1، ص: 90. وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، د.ت.ط، ج:1، ص: 151. وأعادل نويهض، في مقدمة تحقيقه لكتاب: عنوان الدراية فيمن عرُف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، بيروت، لبنان، منشورات دار الآفاق الجديدة، د.ت.ط، ص: مقدمة الكتاب ص:9 – 15. ومقدمة رابح بونار في تحقيقه لنفس الكتاب، ص:12 – 15.

2 – ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 169 و 445.

3 – ابن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1418هـ، ص: 11.

4 – ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج:3، ص: 536.

5 – ابن مخلوف، شجرة النورالزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1349هـ/1930م، ص:.284

6 – أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله، الطبعة 01، منشورات كلية الدعوة، طرابلس، ليبيا، ص: 107.

7 – أُنظر فهرست شيوخ الغبريني التي ألحقها في ذيل كتابه : عنوان الدراية ، ص: 357 إلى ص: 401.

8 – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972، ص ص 238 – 239.

9 – المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، الطبعة 01، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ / 2006م، ص: 195.

10 – خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن بن زيان، دراسة تاريخية وحضارية، 633-681 هـ/1235-1282م، الطبعة 01، المكتبة الوطنية للفنون المطبعية، مطبعة تلمسان، الأولى، 1426هـ/ 2005م ، ص:37 .

11 – الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت.ط، ص: 490 و 491.

12 – ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص:195.

13 – رابح بونار، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 7.

14 – إسحاق بن الحسين المنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، الطبعة 01، عالم الكتب، بيروت، 1408 هـ/ 1987م، ص: 13.

15 – علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م، ص: 179-180. محمد الأمين بلغيث، فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي، الطبعة 01، أنتير سيني، الجزائر1428هـ/2007م، ص:68.

16 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 357 وما بعدها.

17 – تلقى الغبريني تكوينا على فقهاء اللغة والنحو، كما كانت له محاولات شعرية، وأسلوبه الأبي والسجعي التي طغى على كتابه "عنوان الدراية" شاهد أيضا على براعته الأدبية.

18 – تولى الغبريني القضاء "في مواطن عدة آخرها مدينة بجاية فكان في حكمه شديدا مهيبا".أنظر: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص: 132. ثم ترقى إلى منصب قاضي القضاة وبقي يشغل هذا المنصب الكبير إلى مقتله. أنظر: ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.ط، ص: 149 و158، وابن فرحون، المصدر السابق، ص: 80.

19 – الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 355.

20 – الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 360 – 363.

21 – الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 364 – 374. وقد وصفه تلميذه ابن قنفد القسنطيني ت 810هـ/ 1407م بـ " شيخنا المحدث الحافظ الرواية". أنظر: ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، مقدمة المحققين: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، ص: 56.

22 – الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 392 – 394. والطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين / 12و13 الميلاديين – نشأته – تياراته– دوره الإجتماعي والثقافي والفكري والسياسي)، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2004م، ص: 216.

23 – الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 358 – 359.

24 – الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة 01، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1409هـ/ 1988م، ج:1، ص:260.

25 – شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الطبعة 01، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1423هـ/ 2002م، ج:4، ص:145.

26 – الحميرى، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 02، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م، ص:80.

27 – الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 357.

28 – الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 357.

29 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 357.

30 – أنظر بحث: بحث الدكتور: السياسة والدين بين المبادئ والتاريخ، ندوة الفقه السياسي للأقليات المسلمة بأوروبا، إسطنبول/ 4– 6 يوليو2006م، ص: 13 – 19.

31 – الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 357.

32 – نفسه، ص: 375.

33 – نفسه، ص: 357.

34 – نفسه، ص: 357.

35 – نفسه، ص: 109.

36 – نفسه، ص: 360.

37 – نفسه، ص: 361 و 362.

38 – نفسه، ص: 364.

39 – نفسه، ص: 362.

40 – نفسه، ص: 363.

41 – نفسه، ص: 367.

42 – نفسه، ص: 375.

43 – نفسه، ص: 358.

44 – نفسه، ص: 358.

45 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 389.

46 – عادل نويهض، تحقيق عنوان الدراية، ص: 13 و14.

47 – ذكرها الغبريني في ترجمته لأبي زكريا يحي بن محجوبة السطيفي ت 677هـ/ 1278م (ص: 104) ومطلعها:

واحيرة العشاق بالرقباء *** حرموا الوصول لطيبة الوسعاء

48 – جاء في البيتسن: لا تنكحن سرك المكنون خاطبه*** وأجعل لميته بين الحشا جدثا

ولا تقل نفثة المصدور راحته *** كم نافث روحه من صدره نفثا

أنظر: النباهي، المصدر السابق، ص: 132.

49 - سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة الإسلامية عند مالك بن نبي، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، عن المعهد العالي للفكر الإسلامي، د.ت.ط، ص:27،32.

50 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 358.

51 - نفسه، ص: 359.

52 - نفسه، ص: 359.

53 - نفسه، 393.

54 - نفسه، 394.

55 - استقر الغرب الإسلامي منذ العصر الموحدي على ذلك. أنظر: السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا ، تحقيق : جعفر الناصري و محمد الناصري الطبعة01 ، الدار البيضاء، دار الكتاب ،1418هـ / 1997 م، ج : 1، ص: 63، والطاهر بونابي، التصوف في الجزائر ن مرجع سابق، ص: 89. ومبارك رضوان، المذهب المالكي بالمغرب في عهد المرابطين والموحدين، المغرب، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ،كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ،1987م، ص: 206 .

56 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 73 و84 و180 و193و210 و212 و223 و233 و229 و317 و318.

57 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، 358 - 359.

58 - يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبد الله عنان، الطبعة 02، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، 1377هـ / 1957م، ص : 301،

59 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 375، 379، 381، 383.

60 - نفسه، 364 - 366.

61 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 356.

62 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 375.

63 - نفسه، ص: 356.

64 - المغراوي محمد، صمود المذهب المالكي في العصر الموحدي، مجلة دعوة الحق، العدد: 391، السنة 50، صفر 1430هـ / فيفري 2009م، مجلة تصدرها وزارة الأوقاف والشؤو الإسلامية بالمملكة المغربية، ص: 103.

65 - النباهي، تاريخ قضاة الأندلس (مصدر سابق)، ص:132 .

66 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 22.

67 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 30.

68 - محمد الشريف (محقق)، المستفاد من مناقب العباد للتميمي، القسم الأول: دراسة للكتاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، ص: 243 .

69 - نفسه، ص: 156.

70 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة 03، الرسالة، 1405 هـ / 1985 م، ج:23، ص: 47.

71 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 143.

72 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 239.

73 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 19.

74 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 104.

75 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 19.

76 - عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 12.

77 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 19 و 20.

78 - كما التزم بما ألزم به نفسه من الترجمة لأعلام المائة السابعة، ولم يستثن منهم إلا المتصوفة الثلاث الذين افتتح بهم كتابه تبركا بذكرهم كما قال الغبريني، وأربع ترجمات توفي أصحابها أواخر المائة السادسة.

79 - ترجم الغبريني للبجائين ، كما ترجم للوافدين عليها من الأندلسيين والغرباء.

80 - عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 15.

81 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 45، 46.

82 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 178.

83 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 191.

84 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 30 و31 و32.

85 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 59.

86- الغبريني، عنوان الدراية، ص: 70 - 71- 72 .
87- الغبريني، عنوان الدراية، 274-.278
88- الغبريني، عنوان الدراية، ص: 252 - 253.
89- عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 12.
90- الغبريني، عنوان الدراية، 109. 123. 125. 127.
91- الغبريني، عنوان الدراية، ص:111. 183. 186. 188. 190. 192. 197. 202. 231. 325.
92- الغبريني، عنوان الدراية، 119. 180. 185. 186. 188. 190. 192. 207. 226. 317.
93- الغبريني، عنوان الدراية، 133. 137. 199. 205.
94- الغبريني، ص: 211.
95- نفسه، والآية من سورة :هود ، الآية رقم:88 .
96- عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 15.
97- مثل كتاب : "المنتخب المقرب في ذكر بعض صلحاء المغرب"، عنوان الدراية، ص: 50.
98- عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 15.
99- كلام محمد بن أبي شنب رحمه الله تعالى " مقدمة الطبعة الأولى لعنوان الدراية" ص: 16.
100- محمد الشاذلي النفير، وثيقة تاريخية من العصر الحفصي، المجلة الزيتونية، المجلد 04، العدد 10، جويلية 1941م، ص: 316.
101- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج: 6، ص: 462.
102- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج: 6، ص: 462.
103- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، طبع بمطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1334هـ/ 1906م، ص: 26.
104- كلام محمد بن أبي شنب رحمه الله تعالى " مقدمة الطبعة الأولى لعنوان الدراية" ص: 16.
105- أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ص: 26.

ابن مرزوق الخطيب وكتاب المناقب المرزوقية

أ. نوال بلمدني*

عرفت مدينة تلمسان بيوتات وأسر كان لها شأن عظيم بالمنطقة، وبخاصة في مجال العلم، ومن أشهرها أسرة المرازقة التي تميز أفرادها بالعلم والدراية والدين والولاية[1]، "وكانوا نزلاء الشيخ أبي مدين بالعبّاد، ومتوارثين خدمة تربته، من لدن جدهم خادمه في حياته"[2]، تركوا صيتا ذاع بالمشرق والمغرب، وخلفوا مؤلفات نفيسة، فمنهم العم والجد والأب والأبناء والأحفاد، كلهم رجال خير وعلم؛ كان أبو بكر بن مرزوق التلمساني(520هـ-594هـ) خادما للعارف الكبير أبي مدين، واشتهر محمد بن محمد بن مرزوق (629هـ-681هـ) بالعلم، إذ كان فقيها ومحدثا ومتصوفا كبيرا، توفي بتلمسان، ودفن في دار الراحة من الجامع الأعظم قرب ضريح أبي يحيى يغمراسن بن زيان، اتبع ابنه أبو العباس أحمد - والد مؤلف المناقب المرزوقية(681هـ-741هـ) منهج آبائه في طلب العلم والتصوف، ومن والده تلقى ابن مرزوق صاحب هذه الترجمة مبادئ العلم، خصوصا في مجال الفقه واللغة، ورغم ابتعاده النسبي عن مسار أسلافه خلال مرحلة شبابه المفعمة بالسياسة والرياسة، إلاّ أن تأثره بالبيئة الصوفية بقي ليظهر بصورة جلية خلال المراحل الأخيرة من حياته[3].

إن الاسم الكامل لمؤلفنا هو محمد بن أحمد بن محمد ابن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين[4]، الشهير بالخطيب[5] ، وتعرّفه بعض المصادر على أنه "...طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار السلاطين والأمراء، يسحرهم بخلابة لفظه،....غاص المنزل بالطلبة، منقاد الدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر، غير جزوع ولا هيابة..."[6].

---

* - أستاذة مساعدة أ في التاريخ الإسلامي الوسيط- التاريخ- جامعة معسكر.

ولد مؤلفنا سنة احدى عشرة وسبعمئة بتلمسان[7]، وقيده بعضهم سنة اثني عشر وسبعمائة[8]، ويشير ابن خلدون إلى أن مولد صاحب الترجمة -على حسب ما أخبره- كان عام عشرة وسبعمائة[9]، وكانت وفاته عام احدى وثمانين وسبعمائة[10].

أما النسب فيفيدنا عنه ابن مرزوق قائلا: "أما النسبة: محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر، ابن مرزوق"[11]، ويعود أصل أفراد هذه الأسرة إلى القيروان، وكانت مواطنهم وأملاكهم بجبل بظاهر القيروان، يسمى "ويسلات"، هاجر جدّ العائلة مرزوق رفقة أخويه، وكان ورودهم على تلمسان أيام محاصرة المرابطين لها[12]، حيث زحف جيش الأمير يوسف بن تاشفين على تلمسان سنة 468هـ[13]، واشتغل مرزوق الذي ذكره مؤلفنا بالفلاحة والحرث، وابتنى دارا بتلمسان، بالموضع المسمى بمرسى الطلبة[14]، مع العلم أن تلمسان من "أحسن مدائن المغرب ماء وهواء"[15]، "منجبة للحيوان والنبات، كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة"[16].

المسار العلمي لإبن مرزوق: نشأ ابن مرزوق بتلمسان، وتعلم بها خلال مراحله الأولى، فقرأ على مشائخها كالشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن يعقوب بن علي، وعلى الخطيب أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي، والفقيه أبي عمر ميمون بن سعيد السرغيني، وقرأ أيضا كتاب الله على والده[17]، كما أخذ عن الشيخين ابني الإمام، وقاضي القضاة بتلمسان أبو عبد الله ابن هدية، والشريف أبو علي حسن بن يوسف بن يحيى الحسني، والشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي المعروف بابن إسحاق الخياط وغيرهم[18]، فابن مرزوق يقول "رأيت من الأولياء في صغري بتلمسان خلائق"[19].

بعد المرحلة الأولية يستعد ابن مرزوق لخوض غمار الرحلة من أجل طلب العلم خارج تلمسان، بخاصة وأن ذلك مشهورٌ داخل بيت المرازقة؛ كانت الرحلة الأولى سنة "724هـ"، في ركب يضم عددا من الفقهاء، على رأسهم الشيخ أبو زكريا يحيى بن جدار العبد الوادي[20]، فدخل مدينة بجاية دار العلم وحضرة الفقه والدين كما يصفها[21]، فلقي بها من الأولياء أبي علي ناصر الدين المشدالي وقرأ عليه[22]، وأبو موسى عمران المشذالي، أعرف أهل عصره بمذهب مالك[23]، ثم توجه نحو قسنطينة، وسمع من عدد آخر من أعلام القضاة والحفاظ والعلماء بتونس وبجاية والزاب وتلمسان[24]، وتشير بعض المصادر إلى أن أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، وروى عنهم الحديث مذكورون في مشيخته المسماة: "عجالة المستوفى

المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز"[25]، ومنهم من يقدر عددهم بنحو ألفي شيخ[26].

ثم دخل تونس، ولقي من صلحائها أبا عبد الله الزبيدي، وأبي الحسن الخطاب، وغيرهم من الفقهاء[27]، وبطرابلس الخطيب أبا محمد جابر بن عبد الغفار[28].

وبثغر الإسكندرية جماعة منهم أحمد المرادي بن العشاب، وأبو القاسم ابن علي بن البراء، والناصر المنير[29]، وأبو عبد الله الفاسي، وأبو الحسن العربي، وأبو زكريا الزواوي، وغيرهم من الفقهاء[30]، ثم وصل إلى القاهرة، وأقام بها يباشر مشيختها، منهم علاء الدين الغزنوي، وجماعة من العلماء والمحدثين كقاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة [31].

واصل ابن مرزوق رحلته رفقة والده باتجاه مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج، وكانت فرصة لمجالسة أهم المشايخ هناك، إذ جاء على لسانه ما نصه: "فأقمنا بمكة بعد وقفنا وقفة الثلاثاء، سنة كاملة، ثم رحلنا إلى المدينة، فأقمنا إلى آخر سنة ثمان وعشرين، نحج فيها كل سنة، وأدركت بها خلائق نفع الله بهم. فوقفنا يوم الجمعة، وبعد تمام الحج، توجهنا إلى بيت المقدس، فلقيت بها أعلاما"[32]، فلقي بالمدينة المشرفة العلامة عز الدين محمد أبو الحسن بن علي بن اسماعيل الواسطي، صاحب خطتي الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي الكريم، والشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي، وشرف الدين أبو عبد الله عيسى بن عبد الله الحجية المكي، خادم الوقف بالمسجد الكريم، ونائب الإمامة والخطابة به، والشيخ المعمر شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي، والشيخ مقرئ الحرم برهان الدين ابراهيم بن مسعود بن ابراهيم الآبلي المصري، وأبو محمد عبد الله بن أسعد الشافعي الحجة، والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني[33]، ومن أهل الشام جلس إلى البرهان بن الفركاح، والشمس بن مسلم قاضي الحنابلة[34]، وغيرهم كثيرون، فالرحلة العلمية عامة أتاحت الفرصة للتلاقح الفكري ودعم الروابط الثقافية بين علماء تلمسان، ونضرائهم من حواضر المشرق والمغرب والأندلس.

وبعد هذه الرحلة العلمية، عاد صاحب الترجمة إلى المغرب سنة تسع وعشرين "729هـ" على بلاد الجريد، مرورا بمصر فأقام بتلمسان إلى سنة أربع وثلاثين "734هـ"[35]، ليشد الرحال من جديد رفقة والده إلى الحجاز، فأقام في القاهرة إلى آخر سنة ست وثلاثين "736هـ". وفي

سنة سبع وثلاثين "737هـ"، عاد إلى المغرب، فأقام بتلمسان يلازم علمائها ومشايخها حتى اكتملت شخصيته العلمية، واكتسب من العلوم ما يؤهله للخطبة، فخطب بجامع العباد[36]، لينتقل إلى قسنطينة فتونس ليعود إلى تلمسان[37]، ثم يرحل عنها سنة 750هـ نحو الأندلس وينزل عند سلطانها أبي الحجاج الذي أنزله حضرته وقلده خطابة الحمراء وجامع غرناطة، ليرحل بعدها إلى مالقة، فخطب في جامعها، ثم استدعاه السلطان أبي عنان إلى فاس[38]، فانصرف إليه ابن مرزوق "عزيز الرّحلة، مغبوط المنقلب"، وكان ذلك في أوائل سنة 754هـ[39]، وأصبح من كبار المقربين والمستشارين، ولكنه تعرّض لمحنة السجن بعد الصراع الذي عرفه البيت المريني إلى غاية سنة 764هـ، ليتجه نحو تونس ويتولى الخطابة والتدريس حتى سنة 772هـ[40]، ومن تونس كانت وجهته نحو الإسكندرية، ومنها نحو القاهرة حيث استقبل وأنزل المنزلة الرفيعة.

ابن مرزوق معلما وخطيبا: تمكن ابن مرزوق من تحصيل معارف غزيرة في شتى أصناف العلوم، وهذا ما أهلّه لأن يكون معلما، فدّرس بداية بمدرسة العباد، وهذا بعد سنة 735هـ، وهو لازال يغترف من علم ابني الإمام والآبلي، ومحطته التالية في التدريس كانت بعد رحلته إلى الأندلس، حيث درسّ بغرناطة في الفترة الممتدة من 753هـ إلى 754هـ[41]، من غرناطة ينزل إلى مدينة فاس ليتولى التدريس عند السلطان أبي عنان سنة 754هـ، وفي الفترة الأخيرة عند السلطان أبي سالم من 760هـ إلى 762هـ بعدها كانت وجهته تونس، حيث كلّفه السلطان أبو إسحاق بالتدريس بمدرسة الشمّاعين وتسمى المدرسة الشمّاعية[42]، وبقي يعلم بها من سنة 765هـ إلى سنة 772هـ، أي إلى غاية رحلته إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة فكرّمه سلطانها الأشرف وولاه الوظائف العلمية ورشحه لمنصب القضاء[43]، وعينه في هيئة التدريس بأشهر مدارسها، ودرس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية[44].

بدأ مؤلفنا يبرز بفصاحة لسانه وبيان خطابه وجزيل عباراته، إذ تولى بعد عودته من المشرق في رحلته الثانية إلى المغرب سنة 737هـ الخطابة بمسجد العباد بتلمسان، وكان أبو الحسن قد عينه مكان عمه بعد وفاته فسمعه "يخطب على المنبر، ويشيد بذكره، والثناء عليه، فحلي بعينه، واختصه، وقربه..."[45]، ويصفه صاحب البغية قائلا: "الخطيب المصقع ذو وجاهة عند السلطان"[46]، أما إقامته فكانت بتلمسان إلى غاية سنة أربعين "740هـ"، ليرحل إلى فاس[47]، أما

عن تونس فيقول مؤلفنا: "ووليت خطابة جامع ملكها، والتدريس بأم المدارس فيها، وهي المعروفة بمدرسة الشماعين، كل ذلك تحت رعاية وملازمة لمجلس ملكها..."[48] .

أما عدد المنابر التي خطب عليها فيحددها صاحب الترجمة في كتابه "المناقب المزوقية" قائلا: "لقد ارتقيت خمسين منبرا من حواضر الإسلام"[49]، ويذكر صاحب نفح الطيب أن ابن مرزوق خطب في "ثمانية وأربعين منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا"[50]، لهذا لقبه الكثير "بالخطيب"، ومنهم أبو عبد الله المرشدي الذي ناداه "يا خطيب...كن خطيبا، أنت الخطيب"[51].

كما أشرنا سابقا أن ابن مرزوق خطب بمسجد العباد، ومدح السلطان أبي الحسن في خطبته، فقربه وجعله من خاصة مجلسه، فأصبح مؤلفنا يتعاظم نفوذه ومكانته لدى المرينيين، وسلطانهم أبي الحسن على الخصوص، وشارك معه في موقعة طريف التي انهزم فيها المرينيون سنة 741هـ، والتي قال عنها: "...ثم رحلت أيضا سنة إحدى وأربعين، فشهدت واقعة طريف في خدمة السلطان المرحوم أبي الحسن، رحمة الله عليه، وباستدعائه ثم عدت إلى تلمسان، فأقمت فيها أشهرا فاستدعاني أيضا رحمة الله عليه لخدمته؛ فأقمت في خدمته أتولى الخطابة، والنظر في الشكايات في أوقات، وألازم مجلسه وحضرته، وعاملني بما يثيبه الله عليه في الآخرة"[52]، وعلى ما يبدو أن ابن مرزوق كان يفتخر لهذه المكانة التي وصلها، الأمر الذي دفع به لتقديم تشكراته للسلطان المريني وبطريقته الخاصة[53].

كما تم تكليفه بمفاوضات مع القشتاليين، لإبرام معاهدة صلح، وفداء الأمير تاشفين بن أبي الحسن، الذي وقع أسيرا في معركة طريف[54]، وعند عودته من سفارته متجها إلى تونس، وصلته أنباء هزيمة أبي الحسن في معركة القيروان في محرم 749هـ، فانتقل ابن مرزوق من مدينة قسطنطينة صحبة زوجة أبي الحسن إلى فاس[55].

وبعد رجوعه إلى تلمسان، كلفه الأمير الزياني أبو سعيد عثمان بمهمة إبرام اتفاقية صلح مع السلطان أبي الحسن المريني، ويفيدنا ابن مرزوق بما دار من أحداث في ذلك قائلا: "رغب مني سلطانها أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمراسن بن زيان، وأخوه أبو ثابت، محاولة الصلح مع السلطان أبي الحسن؛ فأقمت بتلمسان، ووجهت له، فجاء من تونس إلى الجزائر عازما على الصلح، فسعى في نقضه وفي إذايتي من باء بإثمه فثقفوني، فأقمت في

ثقافهم وسجنهم تسعة أشهر..."[56]، ثم أخرج منه ليرحل إلى الأندلس سنة 752هـ أين استقبله سلطانها بكل حفاوة.

ونظرا للشهرة التي اكتسبها، ولدهائه وثقافته الواسعة، ومهارته في خدمة الملوك، استدعاه السلطان أبو عنان المريني سنة 754هـ بعد استرجاعه تلمسان، وقربه منه حتى أصبح من خواصه ومن كبار أعضاء مجلسه، حتى أنه بعثه لتونس ليخطب له بنت السلطان أبي يحيى فردت الخطبة ووشي لأبي عنان أنه مطلع على مكانها[57]، وقد قيل لأبي عنان أن السبب في هذا الفشل هو ابن مرزوق نفسه الذي قصّر في الأمر، فثار أبو عنان ثورة لم يستطع معها أن يقبض على زمام أمره، وعاتبه قائلا: "لم تضع اليد فيها حين ذهبت لتخطبها لي؟ فقال: بنت ملك يخطبها سلطان كيف أضع يدي فيها؟ فأبقاه بسبب ذلك في الثقاف ستة أشهر"[58]، ثم أطلقه قبل موته[59].

فانغماس ابن مرزوق في شحون السياسة ودسائس البلاط، جعله يدخل السجن بعد النعيم والمجد والحظوة التي اكتسبها وقوة النفوذ، ويصف لنا الموقف الحرج الذي وضع فيه بسبب هذا الإخفاق، وبسب كثرة المنافسين له قائلا: "...ثم رحلت صحبة السلطان أبي عنان رحمه الله تعالى إلى قسنطينة، ووجهني منها إلى تونس، وأمرني فيها بمحاولات أنتج بعضها، وخاب بعضها؛ فوجد الحسد سببا لما كانوا عاملين عليه من الطعن في جهتي، فلما عدت إلى تونس على الوجه المعروف، أدركني خدامه على مرحلة من تلمسان فثقفوني، ووصلت إلى حضرته، فحضرت بين يديه، فقابلني بالإذاية وبقيت في ثقافه إلى أن رضي، وقابل بالجميل وعزم عليه، فاخترمته المنية"[60]، وعلى ما يبدو أن الحظ لم يسعفه كثيرا أمام كثرة خصومه، ويرى أن ما حدث له من محن كان بسبب ابتعاده عن سيرة سلفه، إذ يقول: "لكن فيهم من خالف مثلي، طريق سلفه وتخلف، فدخل في نمط العمالة والولاية، لطف الله بنا أجمعين، وردنا إليه بفضله...."[61].

ولعل هذا من احد الأسباب الرئيسية التي دفعت به لتأليف كتاب "المناقب المرزوقية"، إذ يقول في ذلك ما نصه: "إن ذنوبي كثيرة، وزلاتي خطيرة، ووحاتي هذه شديدة، إلا أن اللطف أعظم، والرحمة أوسع، والكرم أكبر، وباب القبول مفتوح"[62]، كما لم يخفي مدى تأثره بالشدة التي مر بها، وهذا يتضح من خلال الأدعية التي ذكرها في هذا الكتاب، إذ نذكر منها:

"...اللهم أجرني في مصيبتي، واعقبني خيرا منها، بفضلك يا من مرجو سواه، ولا كاشف لما نزل في إلا إياه، ياحليم، يا رحيم، يا الله، وسيلتي إليك..."[63].

"اللهم ردني إليك، ودلني عليك، وارحمني يوم وقوفي بين يديك، وخلصني خلاصا جميلا وانقذ وحلتي، واسترني وذريتي، يا رحيم"[64].

"...اللهم ارجعني إليك، وعجل بتوبتي وصلاح حالتي، يا من لايعلم كيف هو إلا هو، ...تداركني بعاجل فرجك ورحمتك، واستعملني باقي عمري في خدمتك، ياالله، يا رحمان يا رحيم"[65].

وكل هذه الأمور كان والده قد حذره منها، ولم يتردد في اسداء النصح له، لكن ابن مرزوق لم يستوعب ذلك إلا بعد دخوله مجال السياسة ومخالطته لمجالس الحكام؛ ومن بين تلك النصائح يذكر: "...كان يقول لي: يا بني؟ ما لك والسلطان؟ أخوف ما أخاف عليك مخالطة السلطان. يكاد يكرر هذا الكلام كل يوم، وأنا أعجب من هذا، لصغر سني، وبعدي من هذا. فكان ما قال رحمه الله تعالى. فها أنا في بحر الوحلة مرتبط، وفي خصرها مشتبك، وبسببها ممتحن، ..."[66]، ويضيف: "يا بني. إنك تبتلى بمخالطة السلطان، فإياك أن تضر أحدا، وأنا قد سألت الله ألا يضرك أحد إلا وترى فيه الأمل، ويعجل الله عقوبته، وتكفلت لك بذلك[67].

ويوصيه أيضا قائلا: "يا بني. أوصيك بتقوى الله وبالخمول، وإياك والدنيا، واشتغل بنفسك، وتسبب بالحراثة والتجارة، ولا تترك طلب العلم والتمسك به، وعليك بالاقتصاد في أحوالك، وقد عرفت طريق من سلف لك، وإياك وخطة القضاء، فإنك إن قبلتها مختارا كنت غير راض عنك، وإذا دعيت إلى الخطابة فاقبل...إلى غير ذلك مما أوصاني به. وتركت الجميع، فكيف لا أعاقب بمثل هذه الشدائد "[68].

مؤلفات ابن مرزوق: ترك الخطيب ابن مرزوق مصنفات في شتى أصناف العلوم والفنون، الأمر الذي جعل المهتمين بتراثه يعتبرنه شاهدا استثنائيا على عصره، وأن مؤلفاته هي أصدق مرآة للمجتمع الذي عاش فيه[69]، ونذكر منها ما يلي:

– شرح الشفا في التعريف بحقوق المصطفى لم يكمل، عجالة المستوفي المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز، شرح الجامع الصحيح للبخاري وسماه المتجر الربيح والمسعى الرجيح، لم يكمل، إيضاح السالك على ألفية ابن مالك في النحو، تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام[70].

- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا.
- المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، هذا المؤلَّف مكمل للمسند، ويمكن من خلاله رسم صورة حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية ببلاد المغرب عامة، والمغرب الأوسط خاصة.

تأليف كتاب المناقب المرزوقية: قبل الحديث عن محتوى الكتاب، وجب التعرض إلى تاريخ التأليف والدافع إليه، فبعد عرض الأخبار والمادة التاريخية التي كنا قد أشرنا إلى أهمها من خلال الصفحات السابقة، يفيدنا صاحب المناقب فيما يخص تاريخ التأليف، وهذا بعد الدعاء والصلاة على النبي الكريم وبركة الأولياء فيقول: "...ومن اشتمل عليه هذا المجموع منهم؛ وليكن هذا آخره فقد شغلنا عن استفاء الغرض ما دهيت به من الكرب المتصل، دفعه الله... وذلك في أوائل ثلاث وستين وسبعمائة "[71]، أي انتهى من تأليفه في أوائل سنة 763هـ.

أما مكان التأليف- داخل السجن أم خارجه- فلم يشر إليه بطريقة مباشرة، لكن سلوى الزاهري محققة المخطوط، ومن خلال القرائن التي تعتمد عليها تشير إلى أن ابن مرزوق شرع في تأليف مناقبه مباشرة بعد إيداعه السجن، أو على أكثر تقدير خلال الأشهر الثلاثة التي تلت حبسه[72]، مع العلم أن المصادر لا تشير إلى المدة التي قضاها ابن مرزوق مسجونا آنذاك، ما عدا ما تشير إليه ماريا خيسوس بيغرا[73].

وتذهب المحققة إلى أنه ثمة مؤشرات قد تدل على أنه سطر كتابه وهو بالسجن، إذ أنه يشير إلى معاناته، لِمَا كان عليه من الثقاف قائلا: "اللهم إني رفعت أمري إليك، وعولت في إصلاح حالي عليك، يا من لا يعجزه شيء، فأنت موجد كل شيء، القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء، بإيجادك لكل شيء، وقدرتك على كل شيء، وتصرفك في كل شيء، خلّصني مما أنا فيه، وانقذ وحلتي وذريتي، إنك على كل شيء قدير، يالله، يالله، يالله، يا عماد من لا عماد له، ويا سند من لا سند له، ويا ناصر من لا ناصر له، وياراحم من لا راحم له، يا ذا الجلال والإكرام، يالله، يالله، يالله، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما"[74]، ونشاطرها الرأي وهذا اعتمادا على نصوص أخرى ذكرها ابن مرزوق، منها "يا من لايبلغ قدرته إلا هو، تداركني بعاجل فرجك ورحمتك..."[75]، وفي صفحة أخرى يقول بتأثر بالغ: "ورأيت بحول الله، أن أصل بذكر الجدّ،... ومن عاصره وعاشره من صلحاء وقته، وعلماء زمانه على سبيل الإختصار، وكذلك لمولاي الوالد رحمه الله، ذكرا جُمليًا، لأن معرفة

المواليد والوفيات، وتعيين الأشياخ وغير ذلك مما يجب ذكره، لم أجد لمعرفة ذلك سبيلاً، لما أنا عليه من الثقاف، ومفارقة ما كسبته من الكتب وكتبته، ومفارقة جميع الأهل وذهاب سائر ما ملكته، وأنا في حالة لا يعلمها إلا خالق الخليقة ومولاها ...."[76].

وبعد خروجه كانت وجهته الأندلس، حيث شارك في احتفالات المولد النبوي لسنة 763هـ التي شهدها البلاط الغرناطي، وأنشد بين يدي السلطان النصري قصيدة بمناسبة المولد النبوي الشريف، تتكون من مائة وسبعة عشر بيتا[77]، يؤكد أبو الحسن علي، نجل لسان الدين ابن الخطيب، أنه حضر إنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور[78].

أما دافع التأليف فيكمن في الاحتفاظ بالسيرة الذاتية لسلفه الصالح، الذين كانوا أهل زهد وأصحاب كرامات، وتميزوا بالقيم والمبادئ الدينية، ونبذ حياة الدنيا وزينتها، هذا الطريق الذي انحرف عنه ابن مرزوق ودفع ثمنه غاليا، ويتضح ذلك من خلال قوله: "وكان لي سلف صالح متجرد لطريق الآخرة ومرتفع بهمته الكبيرة عن زينة الدنيا الدنية الفانية، كما أنه كان لي قبل التوغل في هذا المقام، الذي سبق القضاء الذي لا محيد عنه ولا انفصام..."[79]، وأراد أن يحتفظ بسيرة سلفه وما كان له من انكباب على التحصيل العلمي قبل الارتماء في أحضان السلطة، ويذكّر أبناءه بذلك فيقول: "ورزقت أبناء صغارا لا يعرفون ولا يُعرفون، ولا يألفون ولا يُؤلفون، ورأيتهم أنهم إنما عرفوا بما عرفتُ به من الظهور الدنيوي، وفي الذي تنقطع المعرفة بانقطاعه، تأكد عندي أن أثبت لهم من ذلك ما يعرفون به من سلف لهم"[80].

فدراسة سلالة المرازقة ومعرفة جذورها، وما أنجبته من أعلام، لا يمكن دون الإطلاع على هذا المصدر، ويمكن أن نعتبره كتاب تراجم أيضا، لأنه كثيرا ما يورد المؤلف أسماء وترجمة شيوخ والده وجديه.

إن ما يلفت الانتباه في كتاب "المناقب المرزوقية" هو مصدر المادة التاريخية التي اعتمدها، والتي كانت في أغلبها روايات شفوية من مصادر مختلفة، فأغلب ما دونه هو رواية لأحداث عايشها، أو سمعها أو شارك فيها، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

"أخبرني شيخنا أبو العباس ابن القطان، وعمي رحمه الله..."[81].

"أخبرني والدي، وعمي، وابن القطان، وغيرهم..."[82].

"أخبرني جماعة لا أحصيهم كثرة..."[83].

"أخبرتني خالة مولاي الوالد، وجماعة من العجز اللائي أدركت....."[84].

"حدثني غير واحد من أهل تلمسان وأهل العباد..."[85].

"حدثني شيخنا الفقيه الفاضل الكاتب.... أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي..."[86].

"حدثني الفقيه الإمام شيخنا، أبو عبد الله الآبلي..."[87].

محتوى الكتاب: موضوع الكتاب سيرة سلف ابن مرزوق ونسب أسرته وسيرة أجداده وأعمامه، وسيرته الذاتية إلى غاية 763هـ، متعرضا في ذلك إلى الرحلة السياحية والروحية والعلمية التي قام بها رفقة والده إلى الزوايا المشرقية للقيام أمام شيوخها، والتزود من معارفهم، وكذلك الرحلة في طلب العلم للاستزادة من علوم ذلك العصر في المساجد والمدارس بمدينة القاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ولقاء كبار الشيوخ والعلماء والتتلمذ عليهم، والإجازة على أيديهم، كما يذكر أهم ما حدث له سواء بالمغرب أو المشرق.

أما تنظيم الكتاب فلم يعطيه المؤلف أهمية كبيرة، إذ تشير سلوى الزاهري محققة المخطوط إلى أن العمل كتب على عجل، ولم يثبت عناوين الفصول ماعدا المقدمة والفصل الأول الذي خصصه للحديث عن "النسبة والقبيل الذي يرجع إليه"، ولم يُعنْون حتى الباب الذي خصصه لوالده أبي العباس أحمد ابن مرزوق، وهو أطول باب في الكتاب، وقد اختلف طول الفصول، فهناك ما لم يتجاوز الفقرة الواحدة، في حين أن هناك من الفصول ما زاد على عشر صفحات، واعتمادا على ترتيب المحققة يمكن تقسيم الكتاب إلى أربعة أبواب رئيسية، تندرج تحتها فصول متعددة، وهذه الأبواب هي:

الباب الأول: في النسبة والقبيل الذي يرجع إليه في فصلين.

الباب الثاني: يتناول حياة جده لأبيه محمد ابن مرزوق المتوفى سنة 681هـ في عشرين فصل متفاوتة الطول.

الباب الثالث: يتناول فيه الحديث عن أبيه أحمد المتوفى سنة 741هـ، وهو أكبر أبواب الكتاب وأطولها من الناحية التاريخية، ويضم ثمانية عشر فصلا.

الباب الرابع: خصصه للحديث عن جده لأمه إبراهيم بن يخلف التنسي المتوفي سنة 680هـ في اثني عشر فصلا.

الخاتمة: خصصها لترجمته الذاتية متناولا في ذلك مولده، نشأته، رحلته، ومن لقيه من علماء وفقهاء وأولياء صالحين*.

لا تقل قيمة "المناقب المرزوقية" عما ألف خلال تلك الفترة الزمنية-القرن 8هـ- لتاريخ المغرب الإسلامي، بخاصة وأنه يؤرخ لسلفه ومن عاصرهم من السلاطين والعلماء والأولياء مع الاستطراد في بعض التفاصيل والدقائق عن أسرته ومجتمعه، على العموم هو يزودنا بمعلومات، ومادة علمية جديدة عن التاريخ الاجتماعي والعادات اليومية والثقافة الصوفية لأعلام تلمسان، وما تعلق بشؤون الحياة اليومية من المأكل والمشرب والملبس الخاص بفئة العلماء والمشايخ، وبخاصة المتواجدين بتلمسان، حاضرة المغرب الأوسط، والتي وصفتها بعض المصادر على أنها دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك"[88]، فهو يعكس لنا البعد السياسي والثقافي والاجتماعي، وكذا الديني لبلاد المغرب.

ومن النصوص الواردة في الكتاب، تلك التي تصف طابع العلاقة بين أفراد المجتمع، المعرفون بالخير والأدب[89] كقوله: "...وكان -أبو زيد عبد الرحمن بن النجار- يتصدق في كل جمعة على ضعيف ومستتر وسائل بالقمح والدراهم، حتى لقي الله عزّ وجلّ على هذه الحالة، وكان يكسو جماعة من أهل الخير كل سنة، ويكسو عيالهم..."[90]، وكان "وجيها سريا موسعا عليه، كثير الصدقات وأعمال البر، له جرايات على الطلبة وأهل الدين والخير"[91].

أما عن العادات والتقليد المعروفة داخل المجتمع فيقول: "وحدثني والدي وعمي وخالتهما أن سيدي أبا زيد عبد الرحمن بن النجار،...لما صاهر إليه بابنته- أي زوج ابنته لأبي عبد الله ابن مرزوق توفي 681هـ- وهي جدتي أم والدي، أخرج لها حليا كثيرا وفرشا، وغير ذلك... وأخبرتني خالة مولاي الوالد انه عمل لكل بنت من بناته، وكنّ جملة، حليا بألف دينار من الذهب، عدا ما جعل لهن من الفرش والثياب؛ وأعطى لكل من بنيه نحو ذلك"[92]، أي هنا إشارة لجهاز العروس التلمسانية الذي ميزها عن غيرها من عرائس المغرب الأوسط بتكالفه الباهظة، وهي عادة معروفة لحد الآن.

كما ساعدت التراجم التي قدمها على رسم صورة عن التاريخ الاقتصادي من خلال النشاط الحرفي والتجاري والتواصل الحضاري بين حواضر المغرب الإسلامي، وبخاصة بين تلمسان وفاس، ومنها ترجمة الشيخ "أبو العباس بن القطان" الذي كان يتسبب بالخياطة وبالسفر أحيانا[93]، ومارس التجارة يبيع ويشتري، وينقل ابن مرزوق على لسانه ما نصه: "فخرجت مسافرا إلى فاس، ثم إلى سبتة، فبعت واشتريت، ولم أغب إلا مدة، ثم جئت بأحمال البز بين يدي من المتاع السبتي، قال: فبعت حتى سئمت، ووسع الله علي من حيث لا أشعر... فأمرني بالسفر

إلى بجاية، فحملت بعض المتاع، وبعت واشتريت متاعا، وجئت به، ففتح علي واتسع حالي، وكثر مالي...."[94]، وكانت الخياطة مصدر عيش لكثير من الأولياء، منهم "الشيخ أبو إسحاق ابراهيم بن علي الخياط"، وكانت له حانوت يجلس فيها لذلك[95].

كما كانت تلمسان "دار مملكة يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحرّرات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكلكلة وغير ذلك. ولقد يوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواق ونحوها"[96]، وهذه الصناعة عرفت نشاطا كبيرا بسبب توفر المادة الأولية، والحرف المكملة لها كالصباغة، وكان ابن النجار سابق الذكر "يحترف بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع، التي كانت تلمسان تختص به، واختص هو بذلك، فكانت له تربيعات بموضعه من درب شاكر، وكان أكثر هذا الدرب له ولعماله وخدامه"[97]، حتى أن ملوك افريقية والمغرب كانوا يلبسون ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف، لاختصاصها بذلك[98] حتى يحيى ابن خلدون يصف هذه الحرفة كابن مرزوق فيقول: "...غلب تكسبهم الفلاحة وحوك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق، فتلفي الكساء أو البرنس عندهم من ثماني أواق، والأحرام من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحديث ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا"[99].

ويعطينا في صفحات أخرى صورة عن تأثير الكوارث الطبيعة على المجتمع فيقول: "وكان حفيده سيدي الحاج يوسف بن يحيى بن يوسف، من إخوان والدي وعمي وأصحابهما. وكان من خيار الصلحاء. وكان له أولاد انقرضوا وأولادهم، والله أعلم، في هذا الوباء الذي كان في عام خمسين ونحوه؛ ففيه انقرض وتغيرت الأحوال"[100]، فهذا يدل على انتشار فترات جفاف، والتي تؤدي بالضرورة إلى ظهور أوبئة، هذه الأخيرة نتيجة حتمية لفترات القحط والمجاعة التي عرفتها المنطقة، والتي وجدت قابلية لاستفحال الأمراض والأوبئة التي ابتلي بها إنسان العدوتين[101].

أما فيما يخص التبادل التجاري بين أقطار بلاد المغرب، فيفيدنا صاحب المناقب المرزوقية قائلا: "حدثني عمي، رحمه الله تعالى، وقد ذكر اتساع حاله- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن النجار- أن قافلة وردت تلمسان من تونس، وكانوا يجلبون ثياب الكتان، ويحملون ثياب الصوف، قال فباعوا واشتروا، وأكثروا الشراء من عنده، وخرجوا مسافرين لتونس"[102].

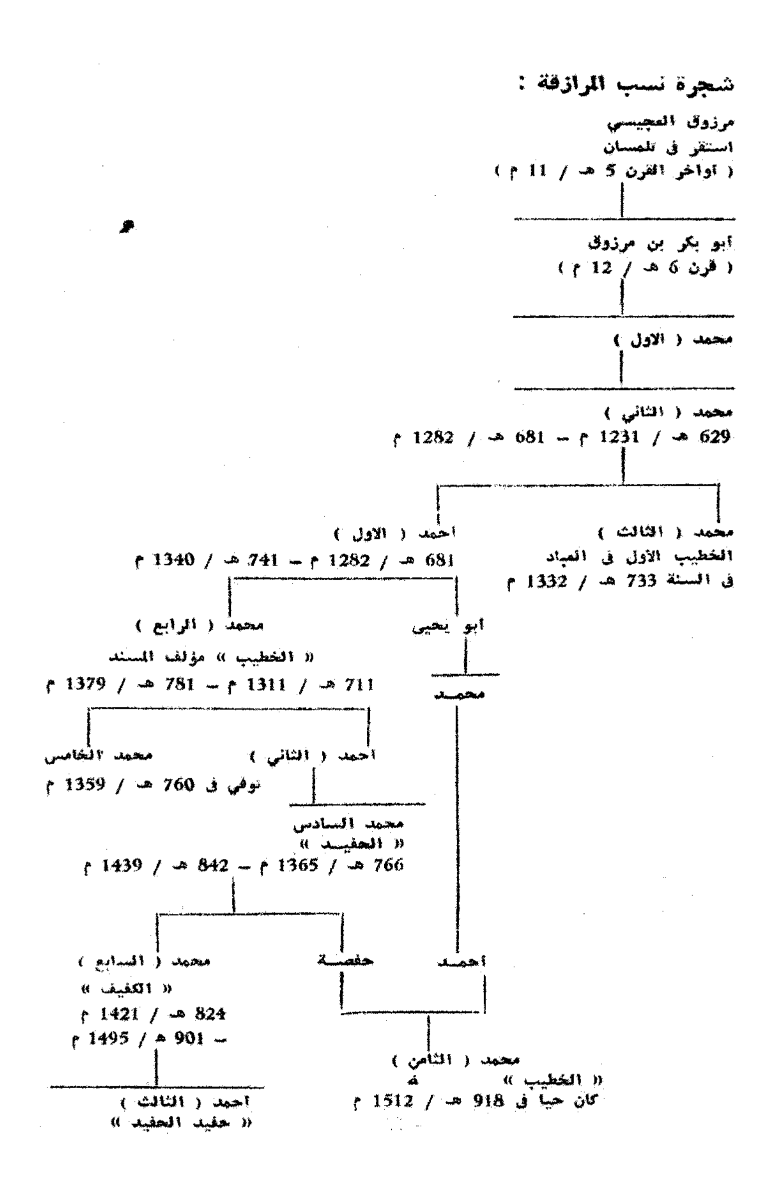
كما يشير ابن مرزوق من خلال مصدره "المناقب المرزوقية"، لحالة التفكك السياسي التي عرفتها بلاد المغرب، مع تسليط الضوء على بعض الأحداث، كتلك التي وقعت في المغرب الأوسط، ومنها حصار تلمسان الطويل الذي بلغ حوالي تسع سنين، والتدخل المريني، كما يذكر وقائع أخرى، والتي تفصح عما كانت عليه الأحوال في تلمسان وغيرها، بخاصة وأن عصر المؤلف (ق8هـ) تميز بالفوضى وعدم الاستقرار بسبب تدهور الأوضاع الأمنية، كموضع مسجد إيلان الذي يشير إليه وإلى ما كان يطلع منه كل يوم من حمل للبضائع من عمل الصوف، ثم يقول عنه: "فانظر هل تجد اليوم في ذلك الموضع، أو ما يجاورهم، عمارا، أو في البلد كلها ما يشترى به بأقل عدد، فسبحان مبيد الجميع"[103]، دون أن يهمل الأنشطة الدينية والثقافية لفقهاء تلمسان وفاس، وانتشار ظاهرة التصوف، وما كان لرجالاته من أدوار داخل المجتمع، وعلاقاتهم بالسلطان وأعوانه، وكذا سيادة بعض التقاليد والعادات، كزيارة الأضرحة والتبرك بها، خاصة في فترات المحن والمجاعات.

كما يقدم معطيات حول أسماء المنشآت العمرانية لبلاد المغرب عامة وللمغرب الأوسط خاصة، كالأبواب (باب الجياد، باب الدرب، باب العقبة...)، الحارات والدروب (حارة الرماة، درب ملالة، درب شاكر)، وغيرها من المنشآت ذات صلة بالجانب الاقتصادي من تجارة وزراعة وصناعة.

ومن خلال الوقفة السريعة مع مشواره العلمي والسياسي، تتجلى لنا شخصيته العظيمة التي لعبت دورا ثقافيا كبيرا، حيث شغلت في المغرب مناصب سامية لم تكن تسند إلا لمن برهن على كفاءة ومقدرة علمية كبيرة، كما لعبت إلى جانب ذلك، دورا خطيرا في ميدان السياسة والتدبير.

هكذا نرى أن الخطيب بن مرزوق كان من أعظم الشخصيات المغربية التي ربطت بين دول المغرب العربي والمشرق برباط ثقافي متين، فهو نموذج من نماذج الهوية المغربية في حقبة معينة من تاريخها، لقد أخذ ابن مرزوق من هذه البيئة وأعطاها، واتصل بعلمائها وفقهائها، فأفاد واستفاد منهم قبل أن يغادرها بصفة نهائية إلى الجناح الآخر من العالم الإسلامي ليفيد هناك أيضا بعلمه وثقافته وتجربته في الحياة.

شجرة نسب المزارقة نقلا من مقدمة كتاب المسند...ص16:



شجرة نسب المرازقة :
مرزوق العجيسي
استقر في تلمسان
(أواخر القرن 5 هـ / 11 م)
أبو بكر بن مرزوق
(قرن 6 هـ / 12 م)
محمد (الاول)
محمد (الثاني)
629 هـ / 1231 م – 681 هـ / 1282 م
محمد (الثالث)
الخطيب الأول في العباد
في السنة 733 هـ / 1332 م
أحمد (الاول)
681 هـ / 1282 م – 741 هـ / 1340 م
أبو يحيى
محمد (الرابع)
« الخطيب » مؤلف المسند
711 هـ / 1311 م – 781 هـ / 1379 م
محمد
أحمد (الثاني)
محمد الخامس
توفي في 760 هـ / 1359 م
محمد السادس
« الحفيد »
766 هـ / 1365 م – 842 هـ / 1439 م
أحمد
حفصة
محمد (السابع)
« الكفيف »
824 هـ / 1421 م
– 901 هـ / 1495 م
محمد (الثامن)
« الخطيب »
كان حيا في 918 هـ / 1512 م
أحمد (الثالث)
« حفيد الحفيد »

الهوامش:

1- مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص340.

2-ابن خلدون عبد الرحمان: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق ابن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م، ص60- المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج5، دار صادر، بيروت، ط1، 2004م، ص242، ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق أبي سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة، ط1، 2001م، صص140-141.

3- التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ص451 وما بعدها.

4- لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة: تحقيق د. يوسف علي طويل، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص75- ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ج2، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، 2005م، ص228.

5- التنبكتي: المصدر السابق، ص450- أحمد التادلي الصومعي: المعزى في مناقب أبي يعزى: تحقيق علي الجاوي، 1996، ص261.

6- لسان الدين ابن الخطيب: المصدر السابق، ص75، ابن فرحون، ج2، ص229.

7- ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2008م، ص298- يحيى ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م، ص115.

8-ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص298

9- ابن خلدون: المصدر السابق، ص61.

10-مناقب أبي يعزى: ص261-ابن خلدون: نفس المصدر، ص199

11-المناقب المرزوقية: ص145.

12- المصدر نفسه، ص146.

13-البيان المغرب ج4، ص29.

14- ابن مرزوق: مصدر سابق، ص147.

15- المقري: المصدر السابق، ص133.

16- المقري: نفسه، ج7، ص135.

17-ابن مرزوق: المصدر السابق، ص298- ص300.

18-المقري: مصدر سابق، ج5، ص395.

19-ابن مرزوق: المناقب، ص300.

20-المصدر نفسه: ص301.

21-نفسه: ص302.

22-نفسه: ص301- المقري: مصدر سابق، ج5، ص395.

23- التنسي محمد بن عبد الله: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان -مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المكتبة الوطنية الجزائر، 1985م، ص141.

24-لسان الدين ابن الخطيب: المصدر السابق، ج3، ص76.

25-ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص229.

26-ابن فرحون: المصدر السابق، ص231- مخلوف: المصدر السابق، ص340-341.

27- ابن مرزوق: المناقب، ص302- المقري: المصدر السابق، ج5، ص395.

28-المقري: نفسه، ج5، ص395.

29-نفس الصدر: ص395.

30-ابن مرزوق، مصدر سابق، ص303.

31-نفسه: ص304.

32-نفسه: ص304.

33-لسان الدين ابن الخطيب: مصدر سابق، ج3، ص76.

34-المقري: مصدر سابق، ج5، ص395.

35- ابن مرزوق: مصدر سابق، ص304.

36-ابن مرزوق: مصدر نفسه، ص304- التنبكتي: المصدر السابق، ص451.

37-ابن مرزوق: نفسه، ص309.

38-نفسه: ص307- التنبكتي: مصدر سابق، ص452- المقري: مصدر سابق،ج5، ص403.

39-لسان الدين ابن الخطيب: مصدر سابق، ج3، ص77.

40-المقري: مصدر سابق، ج5، ص408.

41-المصدر نفسه، ج5، ص392.

42- الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص24، 32، 17.

43- التنبكتي: مصدر سابق، ص452.

44- المصدر نفسه: ص453.

45- ابن خلدون: مصدر سابق، ص 61.

46- يحي ابن خلدون: مصدر سابق، ص115.

47- ابن مرزوق: المناقب، ص304 .

48- المقري: مصدر سابق، ج5، ص408.

49- ابن مرزوق: مصدر سابق، ص139- 140.

50- المقري: مصدر سابق، ج5، ص 415.

51- ابن مرزوق: مصدر سابق، ص.269.

52- نفسه: ص295.

53- نفسه: ص305. ابن مرزوق: المسند، ص92.

54-ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص467، 495.

55-ابن مرزوق: المناقب، ص305- 306.

56-نفس المصدر، ص307.

57-التنبكتي، مصدر سابق، ص451.

58-الزركشي: مصدر سابق، ص98.

59-التنبكتي: مصدر سابق، ص451.

60-المناقب المرزوقية: ص309- الزركشي: مصدر سابق ص97.

61-ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص 174.

62-المصدر نفسه: ص198.

63-نفسه: ص240.

64-نفسه: ص270.

65-نفسه: ص238.

66-نفسه: ص240.

67- نفسه: ص252.

68- نفسه: ص252.

69-د. سلوى الزاهري: المناقب المرزوقية لابن مرزوق التلمساني، مجلة عصور، جامعة وهران، عدد 6- 7، جوان ديسمبر 2005، ص174.

70-التنبكتي: مصدر سابقن ص455. رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، دمشق، 1975م، ص748.

71- ابن مرزوق: مصدر سابق، ص311.

72-نفسه (مقدمة المحققة): ص115 وما بعدها.

73- ابن مرزوق: المسند، ص28.

74- ابن مرزوق: المناقب، ص221.

75- المصدر نفسه: ص238.

76-نفسه: ص143.

77-المقري: المصدر نفسه: ج5، ص397- ص402.

78-المصدر نفسه: ص397 .

79-ابن مرزوق: المناقب، ص140.

80- المصدر نفسه: ص140.

81- نفسه: ص150- 153.

82-نفسه: ص 156 وغيرها.

83-نفسه: ص151.

84-نفسه: ص160.

85-نفسه: ص163.

86-نفسه: ص292.

87-نفسه: ص296.

*أنظر تفاصيل أكثر في مقدمة المحققة، ص98- 100.

88-البكري: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص260- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر، المغربية الدار البيضاء، ص177.

89-الزهري: كتاب الجعرافية: تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، د/ط، د/ت، ص114.

90-ابن مرزوق: مصدر سابق، ص 163.

91-المصدر نفسه: ص188.

92-نفسه: ص 163.

93-نفسه: ص161.

94-نفسه: ص162.

95- نفسه: ص180.

96-الزهري: مصدر سابق، ص113.

97-ابن مرزوق: المصدر السابق، ص188- 189.

98- نفسه: ص189. ابن مرزوق: المسند، ص129.

99- المصدر السابق، ص92.

100-ابن مرزوق: مصدر سابق، ص187.

101-د. البياض عبد الهادي: الكوارث الطبيعية الطبيعة وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6- 8هـ /12- 14م)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008م، ص43.

102-ابن مرزوق: مصدر سابق، ص190.

103-نفسه: ص190.

التاريخ والمؤرخون في وارجلان الاباضية على عهد الموحدين: أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني نموذجا

أ.حميد زيدور*

عرفت حواضر المغرب الأوسط الكثير من المؤرخين الذين ألفوا حول مدنهم، ومناقب مشايخهم، ورؤساء مذاهبهم وفرقهم، ناهيك عن رحلاتهم، ومن هذا المنطلق، ارتأينا الكتابة حول مؤرخي وارجلان الاباضية، الذين قاموا بعملية التأريخ للمذهب الاباضي، بالمغرب منذ دخوله، والتعريف برجالاته، بذكر مناقب مشايخه وعلمائه، وهو الأمر، الذي يجعلنا نكتشف عملية سير الكثير من الميادين، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية كطرق التعليم بوارجلان الاباضية، وطرق تسيير المدينة، ناهيك عن الكشف عن الظاهرات الاجتماعية بها، كالعلاقات بين الفرق والمذاهب، وبين القبائل والعشائر، ثم عن العلاقات الاقتصادية داخل المدينة، وطرق التجارة التي تربطها بغيرها من المدن، وغيرها من الظاهرات، التي تتيح للباحث، فهم حواضر المغرب الاسلامي، في العصور الوسطى.

ويعود اختيارنا لوارجلان، على عهد الموحدين، وبالضبط في الفترة ما بين 516هـ/1121م إلى غاية 570هـ/1174م، إلى أسباب عديدة، منها أن وارجلان قد عرفت في هذه الفترة، حركة علمية كبيرة، أفرزت الكثير من العلماء، الذين ألفوا في مختلف المجالات، الدينية والتاريخية والعلمية والفلسفية، وغيرها من العلوم والفنون، وهي تعتبر الفترة الذهبية بالنسبة للاباضية.

من بين أسباب الاختيار كذلك، انتماء وارجلان من الناحية السياسية إلى الموحدين، ولو بشكل صوري- لأن علمائها، باركوا هذه الدولة ووالوها، بل إن البعض منهم كان من رجالاتها، متولين مناصب عالية كمستشارين ووزراء، ودراسة وارجلان ضمن كيان سياسي واحد، يساعد الباحث على فهم المعطيات التاريخية وتفسير أسبابها، وخلفياتها، وبخاصة أن المذهب الاباضي في هذه الفترة، لم يعرف أدنى اضطهاد، من طرف الموحدين، وفي ظل الأمن والاستقرار، الذي عاشه الاباضيون، يمكننا فهم التطور العلمي والفكري، لعلماء الاباضية

---

*- أستاذ مساعد ب في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة الوادي.

بوارجلان، بعد حقبة طويلة من الاضطهاد الذي عرفته فيما قبل وهذا منذ، سقوط تيهرت بأيدي الفاطميين، سنة 296هـ/908م.

إضافة إلى هذا، فإن هذه الفترة، قد عرفت وجود العديد من العلماء الأفذاذ، الذين كتبوا في التاريخ، والتراجم والسير[1]، ومناقب رجالات المذهب الاباضي بحواضر المغرب الأوسط، ومن هذه المنطلقات، كان اختيارنا لأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، كأهم مرجع من مراجع الاباضية عبر العصور، ولغاية اليوم، وهذا لتأثيره الفكري والديني، على أتباع المذهب، ثم كمؤرخ بارز، بحكم تآليفه وكتاباته التاريخية.

ثم إن اختيارنا لأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، سيمنحنا فرصة الكشف عن مؤرخ من مؤرخي المغرب الأوسط، ومن الذين أبرزوا في مؤلفاتهم، تاريخ مناطقه وحواضره، التي تتواجد بها الاباضية، وبشكل أكبر الجنوبية، كوارجلان ووادي أريغ ووادي سوف ووادي ميزاب، أين احتفظ الاباضيون بتواجدهم وبمذهبهم.

وبالرغم من أن كتب، أبو يعقوب يوسف الوارجلاني التاريخية، هي في عداد المفقود، – لأنها موجودة بأوربا– فإن الكثير من المعطيات والمعلومات التاريخية موجودة في ثنايا كتبه الكلامية والفلسفية، مثل الدليل والبرهان، وكذلك في دواوينه الشعرية، مثل القصيدة الحجازية التي دون فيها رحلته إلى الحج، ولعل ذكر سيرة هذا العالم والمؤرخ كنموذج، سيكشف الغطاء عن حياة العديد من المؤرخين الاباضيين، ونمط استعمالهم للتاريخ، وتحت أية أهداف كان استعمالهم لهذا الفن؟، وبخاصة من طرف رجال ملتزمين دينيا، يعيشون أفكارهم بعمق ويعملون من أجل نشرها، بكل الوسائل الممكنة، مع المحافظة على مذاهبهم، وهذا بدون أن ننسى، شرطا أساسيا، وهو طبيعة الفكر الاباضي، الديني منه والسياسي، الذي كان أساس ومرجع كل الكتابات الاباضية، الكلامية والفلسفية والتاريخية.

لم تفتقر وارجلان قبل سنة 516هـ/1122م، أي قبل وجود الموحدين، من مؤرخين، بل كان عددهم كبير جدا[2]، كالمؤرخ المعروف أبي زكريا يحي بن أبي بكر الوارجلاني (ت474هـ-1078م)، الذي عرف بكتابه، السيرة وأخبار الأئمة، والذي يعتبر من أقدم كتب التاريخ الاباضية، بل وهناك الكثير ممن سبقه وبزمن طويل، كأبي محمد عبد الله بن محمد اللواتي، وهو عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميال بن يوسف الذي كان وزيرا للإمام افلح الرستمي[3] وغيرهم. ويعود سبب وجود هذا الكم من المؤرخين الاباضين، ومنذ هذه الفترة إلى ما عرف

عن شغف الاباضية، وحبهم للسير وبالأخص حبهم لأخبار مشايخهم، وذكر مناقبهم وأخلاقهم[4]، وهذا بدون أن ننسى حب طلب العلم-بصفة عامة-، الذي توارثه الاباضيون منذ عهد دولتهم الرستمية، التي ساوت في طلبه بين المرأة والرجل[5].

الإباضية على عهد الموحدين: كان الإباضية من بين من بارك دولة الموحدين، وربما أن تاريخهم مع الدول المتعاقبة على بلاد المغرب، وبالأخص الدولة الفاطمية، ثم الصنهاجية التي حاربت المذهب الاباضي وأتباعه، إلى درجة قتلهم وتشريدهم، كما حدث بدرجين[6]، سنة 440هـ/[7]1048م، كان السبب في هذه المباركة، وتبدأ علاقة الإباضية بالموحدين، منذ مجيء ممثلا عن هؤلاء إلى وارجلان، تذكره المصادر الاباضية، باسم العتروسي[8]، داعيا إلى موالاة هذه الدولة، الأمر الذي جعل من أهالي وأعيان المدينة، يفكرون في أمر هذه الدعوة ، وفيما سيؤول إليه أمرهم، وأمر مدينتهم ومذهبهم.

قام أهالي وارجلان بمشاورة أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني[9]، الذي دعاهم إلى الدخول في هذه الدولة-ولو صوريا-، إذ أن وارجلان، لم تكن في يوم من الأيام، بعد سقوط دولة الرستميين- وهي التي عرفت المذهب الاباضي، قبل تأسيس الدولة الرستمية[10]- منتمية إلى أية دولة، وهذا لانتماء أهلها للمذهب الاباضي، ثم لبعدها عن مركز الدول، التي تعاقبت على بلاد المغرب.

مع العلم، أن الاباضية في هذه الفترة، أي فترة ما بعد سقوط تيهرت، قد عاشت مرحلة الكتمان، وهي مرحلة تكون فيها علاقة الاباضية مع مخاليفهم غير ثابتة أو مستقرة، أي بين حالتي تقارب أو تباعد، وهذا على حسب الظروف السياسية، وطبيعة الدولة المتعامل معها، وفي حالة وجود بعض التوتر بين الطرفين، فإن الاباضية كانت تركن نحو العزلة والانطواء، وهو الأمر الذي أدى بهم للالتجاء إلى مواطن ومواقع بعيدة ومنعزلة،[11]كمناطق جنوب المغرب الأوسط.

تذكر المصادر الاباضية، أن أبا يعقوب يوسف، طمأن أهالي وارجلان، ووعدهم بالخير والازدهار، تحت ظل هذه الدولة[12]، وهو الأمر الذي يمكننا فهمه، بأنه دعوة منه، لموالاتها، ولعل السبب يكمن في جانبين اثنين: أولا، في تلك المسائل العقدية، والفكرية، التي تجمع بين فكر الموحدين وفكر الاباضية، وثانيا إلى طبيعة مرحلة الكتمان، وعلاقة الاباضية خلالها بمخالفيهم، وقبل ذكر العلاقة التي تجمع بين الاباضية والموحدين، لابأس أن نفتح قوس، حول

بداية العلاقة بين الطرفين، التي لم تعتني بها المصادر الاباضية، التي جاءتنا بمعطيات جد واهية، لم نتمكن خلالها، من تبيان سنة هذه البداية، وهذا بالرغم من خدمة الكثير من أعلام وعلماء الاباضية، كوزراء ومستشارين، في بلاط الموحدين، مثل أبي يحي زكرياء اليراسيني،[13] وغيرهم ممن ساهموا في ارساء وتمتين العلاقة بين الجانبين.[14]

ومن خلال هذه العلاقة، نستطيع أن نستشف المكانة الاقتصادية، والتجارية والعلمية لوارجلان، فمن الناحية العلمية، نجد أن أكبر علماء وأعلام الإباضية، قد تكونوا في هذه الفترة، مع اهتمامهم الشديد بالسفر في طلب العلم، ولعل في استتباب الأمن، وبالأخص فيما بعد منتصف القرن السادس، أي ما بعد سنة 550هـ/1155م[15]، وسيطرة الموحدين على بلاد افريقية، وتحرير المهدية من النصارى، قد سمح للاباضية بهذا السفر، وطلب العلم بمدن إفريقية والأندلس.

أما من الناحية الاقتصادية، فيمكننا اعتبار تأسيس بجاية من طرف الحماديين، ثم استلاء الموحدين عليها سنة 547هـ/1152م، قد حول وارجلان إلى مدينة أكثر أهمية، باعتبارها أضحت معبر طرق، وسوق تجارية كبيرة، إذ أن طرق المواصلات بين الشمال والصحراء، قد تحولت إلى الطريق الشرقي، لبلاد المغرب الأوسط، عوض المغرب الأقصى، رابطة تجارة ما وراء الصحراء الكبرى، بميناء بجاية، مرورا بمدينة وارجلان[16]، وهذا بدون أن ننسى الدور، التجاري والديني، الذي قام به إباضية وارجلان في إفريقيا السوداء.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد بقيت وارجلان تسير من طرف مجلس العزابة، الذي يعتبر أعلى سلطة في المدينة، إذ كان هذا المجلس يمثل الاباضية بعيدا عن أي تدخل خارجي، وقد كان رجاله، "بمنزلة السلطان العادل"[17]، لا يختلف أهل وارجلان عما يقولونه، ويأمرون به، مع العلم، أن نظام العزابة لا يكون إلا في مرحلة الكتمان، وبالرغم من هذا، فإن العديد من الاسئلة تبقى عالقة، وبخاصة حول هذه الفترة، ومن بين هذه الأسئلة: هل مدينة وارجلان، كان تسير بوجود نواب، وبعض أشياخ الموحدين، ممن وضعهم عبد المؤمن بن علي، على رأس حواضر المغرب الأوسط، وهذا بعد غزوه له، في سنة 549هـ/1154م[18]؟، أم أنها بقيت تسير، بدون تأثير دولة الموحدين، وهذا بالرغم، من موالاة الإباضية لها؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة، لابد من الرجوع، إلى الفكر الديني والسياسي المعتمد عليه عند الإباضين، وبخاصة في مرحلة الكتمان، التي تتميز مقارنة بالمراحل الأخرى، بالعديد من

الخصائص، حيث يعتمد فيها الإباضية، على السلبية المطلقة، إذ لا يقومون بأي حراك سياسي أو عسكري، بل يكتمون أمرهم وينعزلون، وسط تنظيم خاص، يمثل عجز الاباضية عن تأسيس دولة جديدة[19].

ومن ناحية أخرى، فإن الاباضية في هذه المرحلة، يوجهون كل جهودهم، نحو جانبين اثنين، أولا: الجانب الديني والاجتماعي والأسري والتعليمي، وكذلك الاقتصادي، وثانيا: العلاقات بين المجتمع الاباضي وغيره من الطوائف والمذاهب، كما أن الحفاظ على الدين، هو أكبر مبدأ يعتمد عليه الاباضية، في هذه الفترة[20]، ومن هنا، وما يمكننا التأكيد عليه، أن أبا يعقوب الوارجلاني، قد طبق تعاليم الاباضية، التي استحدثوها بعد سقوط دولتهم الرستمية، ووظفها تماما مع دولة الموحدين الجديدة، ناهيك عن نقط الاشتراك الدينية والكلامة والعقدية، التي تجمع بين فكر الاباضية وفكر المهدي بن تومرت، والموحدين بصفة عامة.

أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني: يعتبر أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، في فترة الموحدين، أحد أكبر علماء الغرب الاسلامي، سواء بالمغرب أو الأندلس، وقد كان بالنسبة للإباضية، علما من أعلامهم ومرجعا من مراجعهم، ومن الممكن القول، أن يوسف بن ابراهيم، كان يعتبر أجل عالم عند الاباضية، كيف لا، وهو من الذين عرفت أوربا، مؤلفاتهم العلمية والكلامية، حتى أنهم اعتبروه- أي الأوربيون- أعظم عالم رياضي بشمال افريقيا.

ومما يمكننا قوله، أن أبا يعقوب الوارجلاني، قد ترعرع في فترة، عرف فيها المغرب الاسلامي، حركة علمية قوية، والتي تمثلت أكثر، في تطور العلوم العقلية، كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام، ناهيك عن الطب والحساب، وهذا بتشجيع دولة الموحدين، في طلب هذه العلوم والمعارف، لتتأثر بذلك حواضر الغرب الاسلامي ككل، سواء بالمغرب أو الأندلس، وستكون الحواضر الاباضية، بجنوب المغرب الأوسط، مثل نظيراتها، متأثرة بهذا المناخ العلمي والفكري، في ظل دولة الموحدين.

وقد كان أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم، أحد أكبر المتكلمة، والجغرافيين، والمؤرخين، والفقهاء الأباضيين، والفلكيين، وحتى الرحالة، في هذه الفترة، ولابأس حتى نختصر شخصية الوارجلاني العلمية، أن نذكر نص الدرجيني، الذي صرح قائلا: "وهذا الشيخ له يد في علم القرآن، وفي علم اللسان، وفي الحديث والأخبار، وفي رواية السنن والآثار، وعلم النظر والكلام، وعلم الشريعة، عباداتها والاحكام وعلم فرائض المواريث، ومعرفة رجال الأحاديث،

ولم يخل من اطلاع على علوم الأقدمين، بل حصل مع ملازمة السنة، قطعة من علم الحكماء المنجمين.."[21]، وبالتالي فإنه يمكننا القول أن الوارجلاني، كان من الموسوعيين، مثل أغلبية علماء عصره.

تنسب المصادر الإباضية، أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم، إلى سدراتة أو وارجلان، فتذكره بالوارجلاني أو السدراتي، والمصادر تتفق في ذلك، لأنه ولد بسدراتة، القريبة جدا من وارجلان[22]، التي ترعرع فيها، إلا أن ما نراه يحمل الكثير من الجدل، هي سنة ولادته التي تتداولها المراجع، وهي سنة، 500هـ/1106م[23]، وهو الأمر الذي نختلف فيه معها، ويعود اختلافنا، لعوامل عديدة، كانت نتيجة تحليلنا، لنصوص المصادر الاباضية، التي مست شخصية أبو يعقوب الوارجلاني، ومقارنتها بالأحداث، التي وقعت ببلاد المغرب الاسلامي، وبالمغرب الأوسط بالخصوص، وكان اختيارنا لنص الدرجيني، لأنه أقدم نص قدم لهذه الشخصية، والذي عليه اعتمدت، باقي المصادر.

يقول الدرجيني: "وحدثنا أهل وارجلان، أن أول داع، وصل وارجلان، من دعاة الدعوة المهدية، العتروسي، وصلها في خيل، فلما قدم إليهم، دعاهم إلى إجابة الدعوة"، ويضيف بعد ذلك: "فقال عقلاؤهم: ما ضرنا، أن نصل إلى الفقيه أبي يعقوب اعلمه بما وقع في نفوسنا، ونأخذ ما عنده"[24]، وأول ما يطرح كسؤال هو، ما المقصود بالداع؟، هل هو مبعوث المهدي بن تومرت؟، أم أنه قدم في فترة عبد المؤمن بن علي525-558هـ؟، لأن بمعرفة فترة هذا الداع، يمكننا النفي أو التأكيد على سنة ولادة أبي يعقوب الوارجلاني في 500هـ/1106م.

في حالة ما إذا كان الداع، قد وصل في فترة المهدي بن تومرت، فإن سن الوارجلاني هوبين 15و25 سنة، لأن المهدي بن تومرت، بدأ دعوته سنة 515هـ1121م، وتوفي سنة 525هـ/1130م، وهذا إعتمادا على سنة 500هـ/1106م كسنة ولادته، وفي هذه الحالة، هل كان الوارجلاني يملك، في هذه السن، المكانة الروحية والدينية، في مدينة كوارجلان، العامرة بالمشايخ؟، والأكثر من ذلك، في قضية مصيرية، وإذا ما علمنا أن العزابة، هي من كانت تقود المجتمع الاباضي، فهل يعني هذا، أن الوارجلاني كان أحد أعضائها، وهو في هذه السن؟.

ثم إن شيخ أبي يعقوب الوارجلاني، وهو أبو سليمان أيوب بن اسماعيل، توفي سنة524هـ/1130م، ولقد رثاه تلميذه أبو يعقوب، في قصيدته البائية، مما دل على عمق الصلة بينهما، وبالتالي ألم يكن من الجدير، أن يستشار ويستفتى بدلا عن تلميذه، وهذا حتى، وإن

كان طريح الفراش، جراء الشلل الذي أصابه، أم أن مكانة الرجل، قد أخذها أبو يعقوب الوارجلاني؟ بالرغم من أن المجتمعات الاسلامية، من الناحية الأخلاقية، والأدبية، لم يكن من المستساغ، أن يأخذ التلميذ مكانة شيخه، وهو على قيد الحياة، مما يعني أكثر، أنه ولغاية سنة 524هـ/1130م، لم يكن من المفروض، أن يرد أبو يعقوب يوسف، وهو في هذه السن، على أهالي وارجلان، وشيوخه، مثل أيوب بن اسماعيل، وأبو عمار عبد الكافي التناوتي، كانوا لا يزالون أحياء.

نجد أن الدرجيني يضيف، في نصه قائلا: "ودعاهم إلى إجابة الدعوة"، وهذا يعني أن الدعوة الموحدية كانت جديدة، ولم يسبق للإباضيين وأن سمعوا بها، بالرغم من أن الاباضيون كانوا منتشرين في ربوع المغرب الاسلامي، إضافة إلى هذا وكما هو معلوم، فإن الإباضية، كانوا تجارا، ووصلوا بتجارتهم، إلى أعماق إفريقيا السوداء، فكيف بحواضر الشمال، ثم إن مدينة وارجلان في حد ذاتها، كانت معبر طرق، وسوقا تجاريا كبيرا، يلتقي فيه تجار الشمال بالجنوب، وبالتالي فكل الأخبار، كانت تصل إلى أهالي وارجلان، ومن الممكن القول، أنهم كانوا ممن تصل إليهم الأخبار، قبل غيرهم، وهذا مايجعلنا نحتمل، أن الدعوة وصلت إلى أهالي وارجلان مبكرا.

بل وحتى نوضح أكثر، على أن وصول دعوة الموحدين، إلى وارجلان كانت في وقت مبكر، ومن طرف المهدي بن تومرت، نستدل بما يضيفه الدرجيني قائلا: "فتشاوروا فيما يأتون وما يدرون، فأجمع رأي أكثرهم، على قتله-أي العتروسي- وأصحابه، حتى لا يظهر لهم ذكر"، من هذه الفقرة نتساءل، هل كان باستطاعة أهالي وارجلان، أن يملكوا الجرأة ويفكروا، في قتل العتروسي، لو كان ممثلا عن عبد المؤمن بن علي، وأحد دعاة دولته؟ وعبد المؤمن بن علي، قد قضى على دولة المرابطين، ووصلت أخبار فتوحاته، في كل مكان من المغرب الاسلامي؟، بل إن أهالي وارجلان في قولهم لأبي يعقوب: "إن هذه خيل، تدعوا إلى سلطان قد ظهر"، لا تدع أي مجال للشك، من هذا السلطان، لم يكن له ذكر فيما قبل، ومن المحتمل جدا، أنه المهدي بن تومرت.

من خلال تحليلنا لنص الدرجيني، يمكننا احتمال ولادته قبل سنة 500هـ/1106م، ولعل ذكر أهالي وارجلان لأبي يعقوب، "بالفقيه"، ثم مشاورته في قضية سياسية، تمس بمستقبل

الاباضية ومذهبهم بالمدينة، تدل على أن سنه كان أكبر من 25 سنة، ومن الممكن، أنه كان ضمن حلقة العزابة.

ومن خلال النص دائما، يمكننا استخراج بعض المعطيات التاريخية، التي تمس شخصية أبو يعقوب يوسف الوارجلاني، والمجتمع الاباضي البربري بوارجلان، ومنها ظاهرة التنجيم، إذ يذكر الدرجيني أن أبا يعقوب، تنبأ لأهالي وارجلان، بأن الذي يخرب مدينتهم، هو رجل يخرج من شرق سجلماسة..، لنجد أن الوارجلاني لم يخرج عن إطار بيئته، البربرية الإباضية، التي كانت تتميز به مدينة وارجلان، ومنها الإيمان والاعتقاد بالتنجيم، حتى أن الدرجيني نفسه، في نصه هذا، يؤكد على قوة الوارجلاني في هذا الميدان، لأنه عاش ما تنبأ له أبو يعقوب في سنة 627/626هـ، وهو أن الذي يخرب وارجلان هو"هو رجل يخرج من شرق سجلماسة، ويموت في البحر.."، يقصد به يحي بن اسحق الميورقي.

وفي هذا الصدد بالضبط، يمكننا فهم المجتمع الاباضي بوارجلان، الذي كان لا يزال يحمل، نمط المجتمع البدوي، الذي يبحث عن الكرامات والمعجزات والعادات الخارقة، عند المشايخ، أكثر من بحثه عما في صدورهم وعقولهم وما ألفوه من كتب، وفي هذا يصرح الدرجيني عن أبيه قائلا: " ...رحم الله شيخنا أبا يعقوب، عمد إلى العلوم النافعة، كعلم القرآن والفقه وعلم اللسان، فحملها ابنه أبا اسحق، ووجد عندنا أفهاما، قابلة لعلم لا ينفع، يعني علم النجامة فعلمناها..."، ومن هذا المنطلق، ما يمكننا طرحه كتساؤل، هو لماذا أجاب الوارجلاني، عن أهالي مدينته، بهذه الطريقة؟، لأن رده بالنسبة لنا، يعود إلى طبيعة مبادئ مرحلة الكتمان التي كانت تعيشها الاباضية، وعلاقتهم مع الدول التي يحيون معها، أو تحت ظلها، وأولها استعمال الحياد، والاعتماد على البعد عن كل ما هو سياسي.

ولعل ما قام به الوارجلاني، من استعمال التنجيم، الذي اشتهر به، والذي نعتقد أنه كان سائدا عند مشايخ وعلماء الاباضية، كان من أجل إرضاء وطمأنة أهالي وارجلان، ومن أجل تفادي أي عمل شائن قد يقومون به، كما أنه يدل على معرفة الرجل بالمجتمع الوارجلاني، وإن كنا في الأخير نعتقد، أن الوارجلاني كان ابن بيئته، إذ لم يستطع أن يتخلص من تأثيرها في شخصيته، مما يجعل من الباحث، يعيد تجديد البحث، حول جدلية العلاقة بين العالم والمجتمع الذي يعيش في وسطه.

رحلته إلى الأندلس: لم يتوجه أبو يعقوب يوسف إلى تونس، لطلب العلم، مثل أبي عمار عبد الكافي[25]، وغيره من علماء الاباضية، ولكن كان توجهه في ذلك إلى الأندلس، وبالرغم من أن المصادر الاباضية وكعادتها، لم تذكر سنوات رحلات مشايخها، إلا أنه يمكننا إفتراض ذلك، وهي أنها كانت بعد وفاة شيخه، أبو سليمان أيوب بن اسماعيل سنة 524هـ/1129م، ولعل ما عرف عن الوارجلاني، من شهرته بلقب جاحظ الأندلس، ومعرفة كتبه وآثاره من طرف الأوربيين، وبالأخص في مجال الرياضيات، تجعلنا نفرض تنقله إلى الاندلس في سن عالية، وليست كما تذكر بعض المراجع من أنها كانت في سن مبكرة.

كما أن الرحلة كانت بمعية إباضية الأندلس، الذين كانوا يتواصلون مع إباضية المغرب الاسلامي، ومنهم إباضية وارجلان، التي كانت حاضرة من حواضر هذا المذهب، وقد يكون أبو يعقوب الوارجلاني قد توجه إلى مدينة يابسة الأندلسية التي كانت عامرة بالإباضية إلى غاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، قبل أن يتوجه إلى قرطبة، وبالنسبة لهذا التوجه، فمن المحتمل أن يكون لعلاقة أبي يعقوب يوسف، وشغفه بالعلوم العقلية والفلسفية والفلكية، وحبه للغة والشعر، دورا مهما، إضافة إلى حبه للجغرافية، وشغفه في اكتشاف المناطق والمدن[26]، مع العلم أن الاباضية شجعت العلوم الشرعية على حساب العلوم الأخرى[27] عكس ما عرفته الأندلس من رواج كبير لجميع العلوم، والذي يجعلنا نقر بهذا الاحتمال هي مؤلفات أبو يعقوب نفسه، التي اختلفت من عقلية وكلامية ونقلية وفلكية وجغرافية ورياضيات[28]، وغيرها من المعارف والعلوم، وبهذا بدون أن ننسى، أن الرحلة في طلب العلم، في المجتمعات الاسلامية ككل، كانت من أجل إتمام العلوم والمعارف، الغير متوفرة في الوطن الأم.

مما عرف عن أبي يعقوب بالأندلس، هو شهرته بلقب جاحظ المغرب لمعرفته الموسوعية وحبه للعلم، حتى أن بعض المراجع ترجح تعلمه الاسبانية واللاتينية[29]، بل أن حسن حسني عبد الوهاب يذكر أن أبا يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني يعتبر عند علماء أوربا أكبر عالم رياضيات في شمال إفريقيا[30]، وبالرغم من أن المصادر الاباضية صرحت بإنه قد مكث بالأندلس، مدة خمس سنوات[31]، إلا أنها لم تعطي أي تفاصيل عن حياته هناك، لا حول شيوخه وأماكن دراسته وتنقلاته، ولا حول آثاره وما ألفه من كتب، إن هو ألفها هناك؟ ما عدى أن وجوده كان في مدينة قرطبة[32]، وحتى عن عودته من الأندلس، ليس هناك تاريخا محددا، قد

يساعد الباحث في الكشف عن سن هذا العالم، وبخاصة عندما نعلم، أنه شارك في الكثير من الأحداث المهمة، التي واكبت وجوده بوارجلان، مع توليه منصب القضاء بها[33].

وبهذا الصدد، نفتح قوس حول الكتابات الاباضية، التي نجدها لا تهتم بالتأريخ، أو ذكر التواريخ، بل تذكر الأحداث والرحلات ضمن مجال زمني مفتوح، كالدرجيني، الذي درس سير العلماء، ضمن طبقات معينة، جاعلا كل طبقة تمثل خمسين سنة كاملة، دون تحديد تاريخ معين[34]، وهذا في واقعه لا يحمل الدقة التي يحتاجها الباحث، وبالأخص عند مقارنة الأحداث المحلية، مع تلك التي وقعت في أماكن أخرى، من المغرب الأوسط، أو المغرب الإسلامي ككل.

رحلته إلى بلاد السودان:

بعد عودة أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الى وارجلان، بقي محافظا على حبه للرحيل والسفر والمعرفة، وهذا ما جعله يسافر إلى بلاد السودان، إذ كاد أن يبلغ خط الاستواء، ومن الممكن أن يكون من الأوائل، الذين وصلوا إلى هذا الحد من افريقيا[35]، أما سبب سفر يوسف بن ابراهيم إلى بلاد السودان، فهو ربما يعود إلى إيصال الاسلام والعلم الشرعي إلى هذه البلدان، إذ أن الإباضيين، قد أوصلوا الإسلام إلى بلاد السودان إلى غاية القرن الخامس الهجري[36]، كما أن الرغبة في التجارة، من المكن أن تكون كذلك هدفا من أهداف هذا السفر.

ولكن ما نراه مهما في هذه الرحلة، هو خط الاستواء، الذي ذكره يوسف بن ابراهيم، وبالتالي، فإن الجغرافية كانت أحد أهم الميادين، التي شغف بها، وربما تكون رحلته إلى الأندلس عوض عن تونس، تدخل ضمن هذا الإطار، وهو حب الجغرافية واكتشاف المدن والتعرف على الشعوب، ناهيك عن دراسته للطقس والحيوانات بالمناطق التي كان يمر منها[37]، كما أن الدليل على حبه للجغرافية، هو عودته من الأندلس إلى وارجلان عن طريق سجلماسة.

ومن هذا المنطلق، يمكننا تصنيف الوارجلاني ضمن طبقة المؤرخين الرحالة الذين جعلهم حبهم للتاريخ، يسافرون ويغامرون كمؤرخين ميدانيين، وربما هذه العوامل كلها، أعطت لأبي يعقوب يوسف، مادة في كتابته للتاريخ، وبخاصة كتابه: "فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب"، وهكذا نجد أن الوارجلاني كان حقيقة من رواد المعرفة ومن الموسوعيين، الذين ما انفكوا يرحلون ويغامرون، من أجل طلب ضالتهم من الحكمة والعلم، ومعرفة تاريخ الشعوب، ولقد

ذكر هو نفسه في كتابه الدليل والبرهان، أن السفر إلى البلدان والتعرف على شعوبها، يعتبر علما ومعرفة.[38]

رحلته إلى الحج: بعد العودة من بلاد السودان، والاستقرار بعض الوقت بوارجلان، يجدد أبو يعقوب سفره، وهذه المرة إلى الحج، وهذا بصحبة شيخه وصديقه أبي عمار عبد الكافي، وبالرغم من أن المصادر الاباضية كعادتها، لم تذكر تاريخ السفر، إلا أنه من الممكن، أن يكون بعد 555هـ/1160م، واختيارنا لهذا الزمن، يعتمد على أساسين اثنين: إلى معرفتنا، بأن استتباب الأمر للموحدين بإفريقية، وبالضبط بتونس والمهدية، كان في هذه السنة، ثم إلى ما ذكره الوارجلاني نفسه، في قصيدته الحجازية، التي تروي رحلته إلى الحج، عن كبر سنه، أما الرحلة، فقد تمثلت أهدافها في طلب العلم، بحواضر وعواصم المشرق، إضافة إلى الحج، كركن من أركان الدين، مع هدف آخر، نراه أحد الأهداف الرئيسة، بالنسبة لإباضية المغرب الاسلامي، وهو الالتقاء بإباضية المشرق[39].

وبالنسبة لطلب العلم، فإننا نستدل على طول الرحلة التي دامت سنتين اثنتين، أما بالنسبة لما تذكره بعض الدراسات، نقلا عن بعض المصادر الاباضية، –التي لم تذكرها– أن يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، كان ينوي لقاء العالم المعتزلي الكبير، الزمخشري، بالمشرق، وهذا لمسائلته في بعض المسائل الكلامية[40]، إلا أن وفاة هذا الأخير، عجلت من عودته إلى وارجلان، فنحن نعتبرها هفوة تاريخية، قام بها الذين دونوا سيرة أبي يعقوب الوارجلاني، والهفوة بالنسبة لهؤلاء، تكمن في أن الزمخشري، كان متكلما معتزليا، والاباضية كما هو معلوم، تتفق مع المعتزلة في الكثير من المسائل الفقهية والعقدية والكلامية.

ولهذا ربطت المصادر الإباضية، وهي تعلق على رحلة أبي يعقوب يوسف الوارجلاني إلى الحجاز، وطلبه للعلم أثناء رحلته هذه، بين شخصيته العلمية، المعروفة بحب علم الكلام، والمنطق واللغة، وشخصية الزمحشري، المعروف بالاعتزال واللغة وتفسير القرآن الكريم[41]، ونحن نعارض هذا الربط، لأن الزمخشري توفي سنة 538هـ/1143م، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ولم يمت بها كما تصرح هذه المراجع، كما أن سن الوارجلاني كما يذكر هو في قصيدته الحجازية كان كبيرا إلى درجة شكواه من الصمم وتقدم العمر، والدليل على ذلك ما يذكره هو قائلا:

وفقري ووقري وانتكاسي وشيبتي وتوديع أيام الصبى والخوافر[42]

وهكذا نجد، أن أبا يعقوب الوارجلاني، لم يكتف في طلبه للعلم، والبحث عن المعرفة في سن معينة، كما أن حبه للتاريخ والعلوم الجغرافية ومعرفة الشعوب، كانت كذلك عوامل وراء رحلته إلى الحج، والمتتبع لقصيدته الحجازية، التي تروي هذه الرحلة، سيستخلص الكثير من الأفكار التي تدل على شخصية الرجل العلمية والاجتماعية، ناهيك عن الأدبية[43]، ونحن ندمج هذه القصيدة، ضمن أدب الرحلات، وربما يعود، نظم الرحلة على شكل شعر، إلى قوة الوارجلاني الأدبية واللغوية، وحبه للشعر والأدب بصفة عامة.

وقبل أن نتطرق إلى التاريخ وكتابته، بالنسبة لأبي يعقوب الوارجلاني، لابأس أن نذكر آثاره، لأنها تفيدنا في فهم شخصيته العلمية والدينية والأدبية، وبالتالي دور وقيمة التاريخ بالنسبة له كعلم، وكوسيلة اجتماعية، يخدم به المجتمع الإباضي، ويخدم به المذهب، وهو الذي يعتبر – أي الوارجلاني–، كما تجمع الكتب الإباضية، أحد أكبر أعلامه، و بالتالي فإن الكتابة التاريخية بالنسبة له، كانت تعتبر واجبا أو فرضا دينيا، أمام المجتمع، وبخاصة في مرحلة، يستجوب فيها لم شمل الاباضية، وحماية المذهب، ولابأس أن نذكر بأن الوارجلاني قد فهم حقيقة التاريخ، ودوره الحضاري والقومي، ولهذا وظفه واتخذه وسيلة في سبيل تحقيق طموحاته وأهدافه، في خدمة مجتمعه ومذهبه.

وبالرغم من أن الوارجلاني، قد خصص كتبا منفردة في مادة التاريخ، فإن الكثير مما كتبه في هذا المجال موجود في ثنايا كتبه الأخرى الفقهية والأدبية كالقصيدة الحجازية، وحتى الكلامية، مثل كتاب الدليل والبرهان لأهل العقول، وغيرها، ويعود هذا الوجود إلى موسوعية الوارجلاني، إضافة إلى أن الحديث عن الفرق والمذاهب وأصولها، والتطرق إلى علم الرجال وسيرهم، يدخل بدوره في فن التاريخ، إذ لا مناص للعلماء والفقهاء من دراسته وتوظيفه في كتاباتهم ومناقشاتهم.

آثار أبو يعقوب الوارجلاني:

العلوم النقلية:

– تفسير القرآن، تذكر المصادر الاباضية، أنه يقع في سبعين جزء، ولعل أبلغ من ذكره هو البرادي الذي أوجز في وصفه قائلا: "...وله في تفسير القرآن كتاب عجيب، رأيت منه في بلاد أريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه، وحذرت أنه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر، فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران، وحذرت أنه فسر القرآن

في ثمانية أسفار مثله، فلم أرى ولا رأيت، أبغ منه، ولا أشفى للصدور في لغة وإعراب، أو حكم مبين، أو قراءة ظاهرة أو شاذة، أو ناسخ أو منسوخ، أو في جميع العلوم..."[44]

- العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف[45]، يقع في ثلاثة أجزاء، تدور كلها حول العلوم الدينية والمذهب الاباضي، ومناقشة آراء الأشاعرة.[46]

- ترتيب مسند الربيع بن حبيب، وهو المعتمد عليه عند الإباضية في علم الحديث، حيث يعتبر الوارجلاني أول من رتب المسند، إذ لم يكن مرتبا من قبل، وعن هذا الترتيب، أخذ الشماخي وغيره من الإباضية في كتبهم[47]، وحول الكتاب يذكر البرادي قائلا: "والمسند هو الكتاب المعروف بحديث الربيع، أعني غير المرتب، الذي اشتمل على ثلاثة أجزاء، وأما المرتب، فإنما رتبه أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم وزاد فيه جزءا رابعا"[48]، مع العلم أن بعض الأبحاث، تذكر أن أبو يعقوب سمى مسند الربيع بن حبيب، بعد أن رتبه، بـ: "الجامع الصحيح"[49].

- أجوبة فقهية.

*العلوم العقلية:

- الدليل والبرهان لأهل العقول، ويسمى كذلك الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق، جمع فيه الوارجلاني معارفه من تاريخ وأخبار وفقه وعلم الكلام وفلسفة ومنطق وحتى رياضيات[50].

- مرج البحرين، وهو كتاب في علم المنطق والفلسفة[51].

- رسائل متنوعة، جمعت في آخر كتابه "الدليل والبرهان"[52].

- مروج الذهب، وهو كتاب في الفلسفة، تذكر بعض الأبحاث أنه كتاب جد مهم إلى حد أنه ترجم إلى العديد من لغات العالم[53].

*الأدب:

- ديوان شعر، وهو ديوان شعر مفقود، به القصيدة البائية التي يرثي فيها شيخه أبو سليمان أيوب بن اسماعيل[54].

- القصيدة الحجازية، وهي التي وصف فيها رحلته إلى الحج، بها أكثر من 374 بيت[55].

*التاريخ:

- رسالة في تراجم رجال المسند، ذكره الشماخي قائلا: "له كراسة في تسمية رجال الكتاب"[56].

- سير محبوب بن الرحيل في تاريخ الإباضية بالمشرق[57]، ومحبوب بن الرحيل هو أحد تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ولقد نقل عنه أبي زكريا في كتابه السيرة وأخبار الأئمة.[58]

- فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب.

من خلال هذه الآثار، نجد أن التاريخ كان له نصيبه ضمن تآليف الوارجلاني، فهو قد كتب في تاريخ الاباضية بالمشرق، الشيء الذي يجعلنا نكتشف تلك الروابط الدينية وغيرها بين إباضية المشرق والمغرب، إذ أن التأليف لم يقتصر عن مناقب مشايخ إباضية المغرب فقط، بل تعداه إلى إباضية المشرق، وكذلك رجالات المذهب الأوائل من التابعين، ومع هذا يمكننا القول أن الاباضية اهتموا بالكتابة أكثر عن سير مشايخهم ورؤساء مذهبهم، والتأليف حول مناطق الإباضية بالمغرب، وبالأخص الجنوب منه، أكثر من كتابتهم في تاريخ المغرب الاسلامي برمته، وبالأخص التاريخ السياسي لدول المغرب الاسلامي، أو تاريخ دولة من دوله خارج اطار الاباضية.

ومما جاء مذكورا في ثنايا الكتب، وهو متعلق بتاريخ المغرب الاسلامي، فنجده يدخل ضمن الخلافات العقدية والمذهبية، وما كان بين الفرق من الاختلافات، وقد كتب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني الكثير من ذلك في كتبه الكلامية والفلسفية، بالإضافة إلى ذلك، نجد أن كتابه فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب يعتبر من أحسن التآليف التي كتبت في تاريخ مناطق الجنوب بالمغرب الأوسط.

وتذكر المراجع التاريخية التي بين أيدينا أن الكتاب كان موجودا في إحدى المكتبات أو الخزائن الألمانية[59]، وهو الآن مفقود، وبالرغم من أن فحوى الكتاب مجهول، فيمكننا أن نطرح العديد من الأسئلة لنستشف ما بداخله، وهذا من خلال العنوان الذي يذكر فيه المغرب، فهل الكتاب يدور حول تاريخ الاباضية بالمغرب، وذكر مناقب مشايخها؟ أم أنه عام يشمل تاريخ المغرب الاسلامي ككل؟ ثم تاريخ أي مجال تناوله الكتاب؟ فهل شمل التاريخ السياسي، لأنه ذكر فتوح المغرب، أم أنه تناول العديد من المجالات، بحكم أن الوارجلاني كان موسوعيا؟.

ولعل الذي يجعلنا نلح في هذه الأسئلة أن الكتاب لم يحمل مصطلحات السير أو المشايخ، أو حتى مصطلح الطبقات التي عودنا عليها الإباضية في عناوين كتبهم، بل في حقيقته يشبه ولحد كبير عناوين الأندلسيين، وبخاصة أنه جاء بصيغة السجع، فهو يشبه على سبيل المثال، في عنوانه، كتاب المغرب في حلي المغرب لابن سعيد المغربي، أو كتب ابن حيان من مثل المقتبس في رجال الأندلس، وغيرها من المصادر التاريخية الأندلسية، مما يدل على تأثر الوارجلاني بالبيئة العلمية بالأندلس.

الحقيقة أننا لا نستطيع الإجابة، لأن المستشرقين يذكرون أن الكتاب يحمل عنوانا آخر، وهو: التاريخ الكبير لوارجلان وسدراتة ووادي ريغ،[60] ومن خلال هذا العنوان يمكننا من جديد طرح أسئلة أخرى، وهي: هل العنوان يعكس محتوى الكتاب، أي أنه يؤرخ فقط للمناطق الجنوبية للمغرب الأوسط، وهي المذكورة في الكتاب، أي وارجلان وسدراتة ووادي ريغ؟ أم يذكر بموازاة ذلك مناطق أخرى؟ وعندما نعلم أن هذه المناطق معروفة عبر تاريخها، كونها اباضية، فهل يعني هذا أن الكتاب ما هو إلا تعريف وتأريخ للإباضية بالمنطقة[61].

وبالتالي هل هو ذكر لسير المشايخ، مثل مؤلفات أبي زكريا يحي بن أبي بكر من قبل، ومن بعده مثل الدرجيني والشماخي؟ على كل، تبقى هذه الأسئلة مطروحة ما دام الكتاب مفقودا، ومع ذلك فإن ملاحظة جد مهمة نستخلصها من صاحب غصن البان، وهي أن الوارجلاني قد جمع في كتابه هذا كل شاردة وواردة[62]، وهو الأمر الذي نستشف من خلاله معنى عنوان الكتاب الذي ذكره المستشرقون باسم التاريخ الكبير.

بالرغم من الأسئلة التي طرحناها، إلا أن أسئلة عديدة أخرى تبقى تراود الباحث حول الكتابات التاريخية عند الوارجلاني، والاباضية بصفة عامة، ومنها: هل كانت كتابات الوارجلاني تقليدا للكتابة التاريخية عند الاباضية، وهذا بالرغم من طلبه للعلم بالأندلس المعروفة بكثرة مؤرخيها؟ بالمعنى هل تناولت فقط سير مشايخ الاباضية ومناقبهم؟ أم أنها خرجت عن التقليد والمألوف؟ وإذا ما كانت الكتابات التاريخية عند الاباضية بهذا الشكل، تدور فقط حول الاباضية دون سواهم؟ فهل نستطيع تصور المجتمع الاباضي بالمنعزل، أم أنه يمثل ويعكس معنى وصورة الفترة أو المرحلة التي كان يعيشها، وهي مرحلة الكتمان التي كان لها خصوصياتها ومميزاتها المذكورة آنفا.

الخاتمة: من خلال التعريف بأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، نجد أن الاباضية، قد قاموا، بكتابة سير علمائهم ومشايخهم، وبكتابة تاريخ مدنهم، وبالأخص مدن المغرب الأوسط وهذا ما يدفعنا إلى القول أن كتب تاريخ الاباضية، تعتبر من الكتب الرئيسة، وهذا بدون مبالغة، التي احتفظت لنا بتاريخ مدن الجنوب وبالأخص الشرقي للمغرب الأوسط بما فيها المدن المندثرة كسدراتة وغيرها.

كما أن التعريف بأبي يعقوب الوارجلاني كنموذج للمؤرخ بالمغرب الأوسط، كشف لنا عن كيفية الكتابة عند هؤلاء المؤرخين، إذ كان الكثير منهم من الموسوعيين، كما أن كتابتهم كان لها أهداف محددة، وبالنسبة للإباضية، فقد كانت من أجل الاحتفاظ بنقاوة المذهب، إضافة إلى تقديم سير مشايخ المذهب من أجل الاقتداء بهم، مع ملاحظة هامة، وهي أن الكتب الفقهية والكلامية لم تكن تخلو هي الأخرى من صفحات تاريخية.

نجد مع ما ذكرنا، أن الأباضية لم يكتبوا– من خلال المصادر التي بيننا– حول تاريخ المغرب الإسلامي أو المغرب الأوسط في الميدان السياسي، أي حول الدول المتعاقبة عليه، بل اكتفت بذكر تاريخ المدن الاباضية وتاريخ رجالاتها، ومن الممكن أن يكون ذلك من أجل تحقيق الأهداف التي ذكرناها آنفا، إضافة إلى طبيعة المرحلة التي عاشتها.

كما أن المصادر التاريخية الاباضية، فيما بعد سقوط تيهرت، قد عكست حقيقة الفكر الإباضي، السياسي منه والديني، ولقد مثلت هذا الفكر مدينة وارجلان كأكبر حاضرة من حواضر الإباضية عبر التاريخ، معطية بذلك صورة حقيقية لمجتمعها في مرحلة من المراحل، التي عاشتها الاباضية عبر تاريخها بالمغرب الأوسط، ومعطية صورة أخرى عن مؤرخيها الذين وظفوا التاريخ من أجل المذهب والمحافظة على مبادئه، كما وظفوه من أجل بناء مجتمع يبقى الخلف فيه محافظين على ميراث السلف مما خلفوه من آثار وقيم.

الهوامش:

1–يراجع كتاب تادوس ليفيتسكي، المؤرخون الاباضيون في افريقيا الشمالية، ترجمة: ماهر جرار وريما جرار،الغرب الاسلامي، ط1، 2000م.

2– يعتبر علماء هذه الفترة، ومن الذين عاصروا ابو يعقوب الوارجلاني، أكبر علماء الإباضية، لأنهم أثروا في مسيرة المذهب الأباضي، وتأثيرهم لا يزال إلى غاية اليوم، ومن بين هؤلاء أبو عمار عبد الكافي التناوتي(ت 570هـ)، و من بين الذين كتبوا في التاريخ ، على سبيل المثال لا الحصر: أبو عمرو عثمان بن خليفة المارغني السوفي(ت 530هـ)، حول أبي عمار عبد الكافي، يراجع: الدرجيني، ج2، ص306، الخروصي سالم، أبو عمار عبد الكافي، حياته وأفكاره، ط1، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1423هـ/ 2003م، حول بن خليفة المارغني السوفي، يراجع الدرجيني، ج2، ص303، وتادوس ليفيتسكي، ص69

3–الشماخي، سير المشايخ، طبعة حجرية، ص337.

4– أعزام ابراهيم صالح، غصن البان في تاريخ وارجلان، نسخة من المخطوط موجودة بمكتبة سليمان بومعقل، بمدينة ورقلة، ص177.

5– تالية سعدو، الحركة الفكرية بالدولة الرستمية واسهام المرأة الاباضية فيها، مجلة عصور جديدة، مخبر البحث التاريخي– تاريخ الجزائر– العدد1، 1432هـ/2010م، ص63.

6- "درجين، هي آخر البلاد الجريدية، مدينة قديمة، بقرب نفطة، وهي كبيرة " الحميري، روض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، ص236.

7- بوعصبانة عمر لقمان، معالم الحضارة الاسلامية بوارجلان- من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراتة- ط1، ورقلة، الجزائر، 1429/ 2008، ص61.

8 - الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تح: ابراهيم محمد طلاي، ط2، ص315.

9- الشماخي، مصدر سابق، ص444، تعود أسباب عدم موالاة الاباضية إلى أية دولة، بسبب الفكر السياسي الاباضي، الذي يعتمد في تاريخه على أربعة مراحل وهي: الظهور، الدفاع، الشراء، ،أخيرا الكتمان، فمرحلة ما بعد سقوط تيهرت، تسمى عند الاباضية، بمرحلة الكتمان، بوعصبانة، المرجع السابق، ص61، عدون جهلان، الفكر السياسي عند الاباضية، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ط3، سلطنة عمان، 1431هـ/2010م، ص 207/194.

10- عدون جهلان، المرجع نفسه، ص197/196.

11 - الدرجيني، ج2، نفسه ، ص326.

12 -الدرجيني، نفسه، الصفحة نفسها.

13 - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ط2، المطبعة الملكية، الدار البيضاء، المغرب، ص332.

14 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2007م، ص325

15- أبو عمار عبد الكافي، سير أبي عمار عبد الكافي، تح: مسعود مزهودي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان،1416/ 1996م، ص18.

16- عبد الله العروي، المرجع نفسه ص320

17- الدرجيني، مصدر سابق، ص313، ينظر كذلك الشماخي، مرجع سابق، ص443 .

18- عدون جهلان، المرجع السابق، ص 195 .

19- الدرجيني، المصدر السابقن ص315 .

20- حول سدراتة، يراجع مسعود مزهودي، الإباضية في المغرب الأوسط، جمعية تراث القرارة، الجزائر، 1417هـ/2010م صص38/27 .

21- المراجع، أعوشت، أبو يعقوب الورجلاني والمدارس الكلامية الاسلامية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، د، ن، ص39ن بوعصبانة، المرجع السابق، ص،61 .

22- الدرجيني، المصدر السابق، 315 .

23- حول حياة أبي عمار عبد الكافي، يراجع، الدرجيني، ص306 .

24- أعوشت، المرجع السابق ص39 .

25- الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تح : يحي بهيون، ط1، غرداية، الجزائر 2006م ص17.

26- تادوس ليفيتسكي، المرجع السابق، ص129.

27- بوعصبانه، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

28- أعوشت، نفسه، ص39

29- تادوس ليفيتسكي، ص129.

30 - يراجع: الدرجيني، وكتابه: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب.

31- حول هذا، يراجع كلا من المرجعين، أعوشت، مرجع سابق، بوعصبانة، مرجع سابق.

32- الخروصي، مرجع سابق، ص86

33- أعوشت، مرجع سابق، ص75.

34- رحلة الوارجلاني، مصدر سابق، ص19.

35-رحلة الوارجلاني، المصدر نفسه، ص19.

36- الخروصي، مرجع سابق، ص86.

37- بهيون، المرجع السابق، ص41.

38- الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، ط8، القاهرة، مصر، 1423هـ/2004م، ج 1، ص305.

39- بهيونن رحلة الورجلاتين المرجع نفسه ص41.

40- بالنسبة للقصيدة الحجازية، ينظر رحلة الوارجلاني، ص88/37.

41- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص444، يتضمن مؤلف الربيع بن حبيب البصري، الأحاديث المنقولة عن ابن عباس وباقي الصحابة بواسطة أبي عبيدة وشيخه جابر بن زيد، نشر الكتاب بفضل الشيخ محمد اطفيش الذي استعان بترتيب الوارجلاني، يراجع تادوس ليفيتسكي، دراسة شمال إفريقية، ترجمة أحمد 2008م، صص34/33، والكتاب طبع بالجزائر في1326هـ/1908م، ينظر عدون جهلان، المرجع السابق ص135، يراجع كذلك البرادي، المصدر السابق، صص221/220، تذكر بعض المراجع، بدون ذكر مصادر معلوماتها، إن جزء واحد من هذا التفسير، يوجد في إحدى المكتبات الألمانية، أعوشت المرجع السابق،ص47.

42- البرادي، مصدر سابق، ص220.

43- حققه عمرو خليفة نامي، ينظر بهيون، مرجع سابق، ص13.

44- البرادي، مصدر سابق، ص220، تادوس ليفيتسكي، دراسات شمال إفريقيا، صص 24/23.

45- البرادي، مصدر سابق، ص172.

46- أعوشت، المرجع السابق،ص47.

47- البرادي، مصدر سابق، ص220، قام عمار طالبي، تحقق الكتاب، تحت عنوان: آراء الخوارج الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م، أما طبع الكتاب لأول مرة فقد كان بمصر سنة 1306هـ/1888م، تادوس ليفيتسكي، المؤرخون الاباضيون، ص130.

48- أعوشت، مرجع سابق، ص47، وقد شرحه عبد العزيز الثميني، في كتاب تعاظم الموجبن في شرح مرج البحرين، يراجع بهون، مرجع سابق، ص13.

49- بهون، ص14.

50- تذكر بعض الأبحاث أنه عثر على قسم منها، بمدينة غرداية، بهون، نفسه، ص13.

51- أعوشت، مرجع سابق، ص14.

52- تراجع القصيدة في رحلة الوارجلاني، مصدر سابق.

53- الشماخي، ج2، 344.

54- تذكر الأبحاث أنه مفقود، بهون، ص 14.

55- الخروصي، مرجع سابق، ص86.

56- يراجع كلا من بوعصبانة، أعوشت.

57- تادوس ليفيتسكي، مرجع سابق، ص130.

58- حتى بالنسبة للجماعة التي تكونت بالبصرة، للدعوة الاباضية، كانت من مناطق الجنوب للمغرب الاسلامي، فقد كان منهم، أبو درار اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو درار القبلي النفزاوي من جنوب تونس، وعاصم السدراتي من سدراته، قرب وارجلان، وعبد الرحمن من القيروان، باستثناء أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري من اليمن، عدون جهلان، مرجع سابق، ص54.

59- أعوشت، مرجع سابق، ص 48

60- تادوس لايفيتسكي، مرجع سابق، ص130.

61- يذكر الشيخ أبو اليقظان ابراهيم أن حسن حسني عبد الوهاب ذكر أن كتاب فتوح المغرب كان قد رآه في تركة مونتيسكيو، ولكنه لم يقتنيه لقلة يده، فقد اختار فقط كتاب ابن الصغير المالكي في أئمة بني رستم، وأن كتاب فتوح المغرب يوجد في ألمانيا، عن أعوشت، ص48، مع العلم أن أبا اليقظان ابراهيم له رسالة غير منشورة- مخطوطة- في ترجمة أبي يعقوب الوارجلاني، يراجع أحمد محمد فرصوص، الشيخ أبو اليقظان ابراهيم كما عرفته، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د-ت.ص37.

62- أعزام، ص 186، بوعصبانة، مرجع سابق، ص140، يراجع تادوس ليفيتسكي، ورأيه حول هذا مع ملاحظة هامة، وهو أن تادوس ليفيتسكي، في كتابه حول المؤرخين الاباضيين ينفي وجود هذا الكتاب، إلا من خلال كما يذكر خير حصل عليه جوزيف شاخت في مزاب في سنة 1952م/1953م، ويضيف قائلا :"ويبدو لنا مشكوكا فيه"، ص130.

المداخلات

في التاريخ الحديث

التدوين التاريخي في الجزائر خلال العصر العثماني، خصائصه وموضوعاته

أ. د محمد دادة*

إن التطرق إلى موضوع التدوين التاريخي في الجزائر خلال العصر العثماني يتطلب دراسات متعددة ومتكاملة لا تخلو من صعوبات منهجية ومسائل علمية تحتاج إلى الكثير من التحليل والتقويم. ولعل أول ما يبادر ذهن الباحث في الحركة العلمية بالجزائر هو ندرة المراجع التاريخية المعاصرة للعصر العثماني، فاغلبها لم ير النور بعد، فهي لا زالت مخطوطة ومبعثرة في المكتبات الجزائرية والعربية الإسلامية، والأوروبية. فقد أصبحنا لا نعرف عن بعض هذه المخطوطات إلا ما يذكره عندها المستشرقون الأوروبيون والمستشرقون الفرنسيون بصورة خاصة.

ولعل السبب في ذلك راجع إلى تسرب الكتب التاريخية من الجزائر. والمؤرخ أبو القاسم سعد الله الذي درس هذا العهد من الناحية الثقافية وتتبع آثار التاريخ الثقافي الجزائري، يؤكد هذا السبب، فيقول" فهل نستغرب بعد ذلك أن نقرأ في الأخبار أن الصناديق المتعلقة بالآداب والفنون والتعليم قد ضاعت من أرشيفات العهد العثماني التي كان يملكها الفرنسيون؟ وكما ضاعت هذه الوثائق الأساسية لدراسة الحياة الثقافية ضاعت أيضا المخطوطات التي تركه علماء الجزائر أثناء نبش وبعثرة المكتبات الخاصة والعامة في الحروب التي رافقت الاحتلال الفرنسي للجزائر. فقد أصبحنا لا نعرف عن بعض هذه المخطوطات إلا ما يذكره عنها المستشرقون الفرنسيون وضباط المكاتب العربية والمترجمون، والذي لم يذكروه وحملوه معهم إلى بلادهم أعظم "[1]

ويشير الكتاب نفسه إلى سبب آخر لتسرب الكتب التاريخية من الجزائر بسبب التطورات السريعة التي نزلت بالجزائر مع مطلع القرن التاسع عشر بعد احتلال فرنسا للجزائر، جعلت الكثير من العلماء يهاجرون إلى البلاد العربية والإسلامية ويحملون معهم كتبهم، وفي ذلك

* – أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر– قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة وهران.

يقول: "أما الآثار الأخرى التي حملها العلماء الجزائريون المهاجرون معهم إلي البلاد العربية والإسلامية بعد الاحتلال فما يزال بعضها محفوظا ولكن اغلبه قد اشتراه المستشرقون أيضا من ورثة هؤلاء العلماء الذين كبا بهم الزمن فأصابهم الفقر بعد الغنى الذل بعد العز. وهكذا تفرقت مصادر تاريخ الجزائر الثقافي في عواصم أوروبا، برلين ولندن، والفاتيكان، وميونيخ ومدريد وباريس وغيرها، بالإضافة إلى تفرقها في مكتبات العالم الإسلامي."(2)

ولهذا لا يمكننا القول بوفرة المصادر العربية التي هي قليلة في العصر العثماني، بحيث لا يمكننا أن تنافس أو تزاحم التآليف الأوروبية الخاصة بالجزائر في هذه الفترة. فالمؤرخون الذين عاصروا حوادث القرن السادس عشر أوالسابع عشر قليلون. والفنون المساعدة للتاريخ كالرحلات والتراجم آوى أصحابها إلى تونس أو إلى فاس. ولم يظهر سوى نخبة قليلة مثل ابن مريم وابن ميمون وابن سحنون وغيرهم في حزب الكتاب.(3)

فهذا مما يؤكد تدهور علم التاريخ في العصر العثماني. فما هي الأسباب التي أدت إلى هذا التدهور؟

وبالإضافة إلى الحقيقة السابقة في تسرب الكتب التاريخية من الجزائر هناك عدم اهتمام العصر بكتابة ودراسة التاريخ. يقول أبوراس النصر في هذا الصدد: "إني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده، وقلت دياره ومراسمه وعفت أطلاله ومعالمه، لاسيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب، وقد طرحت في زوايا الهجران ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرقت شمسها على الأفول واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل ويتأسفون من انعكاس أحوال الاذكياء والأفاضل.."(4)

ولم يكن ابو راس وحده يشكو من ذلك. فهناك الحسن اللورتلاني صاحب كتاب "نزهة الأنظار" كان يشكو من ظاهرة تدهور علم التاريخ، فيقول:"إن الاهتمام بالتاريخ أمر مضحك، لا يدرسه أهل الجد والدين بل هو عند البعض ضد الدين والأخلاق...فعلم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء واشتعال بما لا يعني..."(5)

وبلغ تدهور هذه الحالة مبلغه في هذا العصر، فتدهور علم التاريخ كان يعكس في الحقيقة تدهورا عاما في الحياة العلمية ولاسيما فيما يسمى بالعلوم العقلية. والحقيقة أن العثمانيين عملوا على مساندة هذه الوضع تدعيما للعقيدة الإسلامية، وكانت النتيجة إهمالا كاملا للعلوم العقلية، ومنها التاريخ، فجمدت القرائح وانحطت الآداب عموما، وسادت الثقافة الفقهية التي

ترتكز على الشروح والحواشي والمختصرات. وهذا ما تؤكده الإجازات التي كان يمنحها العلماء لطلبتهم. فأغلبية هذه الإجازات يتعلق بقراءة المصادر الفقهية الكبرى مثل البخاري ومالك والشافعي والغزالي وخليل أو شروحها كالزمخشري والعسقلاني والثعالبي والقاضي عياض وغيرهم.(6)

ومن هنا، لم يتحرر الكتاب الجزائريون من طريقة أسلافهم القدامى في المشرق والمغرب على السواء. فقد ظل هؤلاء الكتاب يستقون معلوماتهم ومادة تواريخهم من المؤلفات السابقة لعهدهم، سواء أكان أصحابها من الإخباريين أو من كتاب التراجم، دون ذكر للتطورات التاريخية الكبرى، أو عناية بربط الأحداث بعضها مع بعض بغية اكتشاف الصلة بينها، ومدى التأثير والتأثر بالواقع فيها، مما يساعد على فهم التاريخ والنظر إلى أحداثه في إطارها الواسع الشامل. وتتألف هذه التواريخ كذلك من قصائد شعرية ومقامات وأراجيز ذات تحيزا كثيرا أو قليلا، ولا تكاد تصلح إلا للغرض التعليمي. فقد جرت كتابة التراجم على نفس أصولها مثل بقية العالم الإسلامي، تراجم رجال الدولة والعلماء والصلحاء والأعيان. أما حياة الشعب الاجتماعية، فلا نكاد نجد له أثرا إلا في النزر اليسير.

ومما لاشك فيه أن الحكم العثماني الذي قام في الجزائر على قاعدة بقاء الأوضاع بصورة عامة على ما كانت عليه قبل مجيء العثمانيين ساعد على جمود الحياة الفكرية والمؤسسات العلمية. فقد ورثت الجزائر العثمانية أغلب مظاهر الحياة من العصر السابق لدخول العثمانيين. فالحكم العثماني حكم عسكري إقطاعي من نوع خاص، لم يكن له تأثير ملموس في الحياة الفكرية والعقلية رغم بقاءه ما يقرب ثلاثة قرون، ذلك أن طبيعة الإدارة العثمانية لم يدخل في مضمونها سوى جمع الضرائب والدفاع عن البلاد وإقرار الأمن في الداخل. وما سوى ذلك كالإشراف على التنمية الاقتصادية والنهوض بالتعليم والصحة والمرافق العامة.. فلم يكن يدخل أصلا في طبيعة واجبات الدولة في ذلك الوقت.(7)

وهذه الحقيقة إلى جانب العزلة التي فرضت على المجتمع الجزائري سواء من قبل العثمانيين أو بسبب الظروف الدولية في غرب البحر الأبيض المتوسط، أثرت على الجزائر، كل هذا جعل من الجزائر منطقة راكدة لم تتأثر بالتيارات الحضارية التي كانت تجتاح أوروبا في هذه الفترة.(8)

وإذا كان الحكم العثماني بطريق مباشر أو غير مباشر، بفعل الوجود العثماني، أو بسبب الظروف الخارجية التي أحاطت بالجزائر، قد أدى إلى تدهور البلاد سياسيا واقتصاديا وبخاصة في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، فإلى أي حد أثر هذا الوجود في الحياة الفكرية والعلمية في القطر الجزائري. والحقيقة أن التأثير العثماني في هذا المجال ضعيف لا يكاد يذكر. والسبب الرئيس لذلك ما ذكرناه من شكل الحكم العثماني، فالدولة لم يكن لها وجود في المجالات الاقتصادية والثقافية، كذلك احتفظ المجتمع الجزائري في هذا العهد بمقوماته السابقة من حيث انقسامه إلى جماعات تقوم كل منها برعاية شؤون مصالحها فيما بينها، وبذلك ارتفعت يد الدولة عن الجماعات المشكلة للمجتمع وتحددت العلاقة بين هذه الجماعات والدولة في حدود طبقية للغاية. فالتعليم، وهو ما يمس مباشرة الحياة العقلية، كان حرا قبل مجيء العثمانيين، بمعنى أنه لا تتولاه ادراة حكومية. وهكذا استطاعت المؤسسات التعليمية أن تعمل بعيدة عن الدولة، فلم تتأثر بالتدهور السياسي الاقتصادي الذي اجتاح العصر العثماني.

وقد ساعد على سلبية الحكم العثماني في المجتمع الثقافي أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضاري يقدمونه للحياة العلمية في الجزائر. فلم تنتشر اللغة التركية بين الجزائر إطلاقا، ولم تدخل في المؤسسات التعليمية، وظل التعليم في المساجد والمدارس والزوايا يعتمد على دراسة الفقه والحديث مستندا على المصادر الأصلية العربية كما ذكرنا سالفا. والحق أن العثمانيين عملوا على نطاق واسع على دعم العقيدة الإسلامية وتقوية المذهب الحنفي والمالكي، ولكن هذا الموقف لم يؤثر في المجتمع الجزائري لأنه كان بعيدا عن التطاحن المذهبي الديني. ولكن العثمانيين كانوا يعرفون أن الإسلام هو رصيدهم السياسي وهو مصدر قوتهم. وقد أقاموا دولتهم ونظامهم على الجهاد منذ ظهورهم ومحاربتيهم للدول المسيحية.(9)

ويهمنا أن نسجل هنا، أن طبيعة الحكم العثماني، وطبيعة تكوين المجتمع الجزائري في العصر العثماني من أهم الأسباب التي ساعدت على بقاء الحياة العلمية والمؤسسات العلمية بصفة عامة كما كانت في العهد السابق للعثمانيين. وثمة سبب آخر على جانب كبير من الأهمية في هذا الوقت وهو بقاء على نظام الأوقاف المحبوسة على معاهد العلم والمؤسسات الدينية. ولذلك ظل المجتمع الجزائري في العهد العثماني يحتفظ بالكثير من التقاليد الأخلاقية والعلمية. وفي مقدمة هذه التقاليد ظهور العلماء كفئة متميزة في المجتمع ونفوذها لدى

السلطات الحاكمة العثمانية، وقيام هذه السلطات على تعيين العلماء في مجالات معينة في المجتمع مثل الإفتاء والقضاء والتعليم والإمامة والخطابة. ورغم تعدد هذه المجالات فإنها كانت ضيقة ومحددة، ولذلك كثر التنافس عليها بينهم. وكان هذا التنافس بدوره سببا في إضعاف دورهم الثقافي، لآن مصالح العلماء كانت إذن في إرضاء الحكام العثمانيين وكسب ودهم وليس في خدمة الشعب والتقرب منه ورفع مستواه العلمي.[10]

ويبدو أن طبيعة الحكم العثماني وممارساته ساهمت إلى حد كبير في هبوط أخلاق بعض العلماء وضعف المستوى العلمي والثقافي لديهم بصورة عامة. وللمؤرخ أبو القاسم سعد الله تفسير لذلك، فيقول:"وهذا الوضع قد أدت إليه السياسة العثمانية التي كانت لا تريد أن ترى فئة العلماء متماسكة وقوية فيؤدي تماسكها إلى الإطاحة بالنظام وتداخل الدين والسياسة أو الشريعة والحكم. فقد كان العثمانيون دائما يخشون من العلماء سواء كانوا في الجزائر أو غيرها، وقد نجحوا في إبقائهم تحت نفوذهم بالوسائل التي ذكرناها وبتشجيع الخلاف بينهم والبحث عن الضعفاء منهم والتخلص من الأقوياء وتجنب إعطاء النفوذ لعلماء البلاد المتصلين بالأهالي".[11]

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بعض العلماء كانوا غير راضين عن هذا الوضع، فحاربوا هذه الصورة الحالكة وحافظوا إلى حد كبير على المقاييس الأخلاقية التي عرف بها العلماء الحقيقيون عبر العصور. ومن هؤلاء، يحيى الأوراسي الذي قاد ثورة في منطقة الأوراس. وفر بعضهم إلى التصوف بعد أن كانوا أهل العلم والتدريس، ومنهم من أختار طريقا آخر، وهو الخروج من الجزائر تماما والعيش في الأقطار الإسلامية الأخرى.[12]

ومهما يكن من أمر فان الجماعات الإسلامية في الجزائر تبنت قضاياها الثقافية بنفسها، وحاولت أن تعوض النقص أو الإهمال باعتماد الروح العلمية التي كانت جانبا من التقاليد الإسلامية التي عرفتها المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى وبقيت في العصر العثماني. وكان يدفع إليها طبيعة الحال أن العلم في ذلك الوقت كان دينيا بصفة أساسية، فتشجيع العلم والثقافة مظهر من مظاهر التقوى والورع، لهذا يمكن القول بأن الحياة العلمية لم يمتد إليها يد التلف كما امتدت إلى الحياة السياسية والاقتصادية، والعلم كان يؤدي وظيفة اجتماعية في المحافظة على كيان المجتمع الإسلامي من التدهور الذي تعرض له المجتمع الجزائري.[13]

والأمر الواضح أن هذه الحياة العلمية لم تكن جمودا وانكماشا بالقياس إلى عدد المدارس والمدرسين والأوقاف المحبوسة على المؤسسات التعليمية، ولكن بسبب تدهور المستوى العلمي نفسه. وركود، كان مخيما على الحياة العقلية والعلمية، ولما جاء العثمانيون لم يحركوا الأجواء العلمية الساكنة، ولم يشجعوا العلم. وليس الذنب ذنب العثمانيين وحدهم فهم لم يقفوا في وجه العلم والتعليم ولم يحولوا دون الابتكار والتأليف، بل تركوا الحياة الفكرية تسيير في مجراها القديم المألوف. ولذلك نقول بأن الوجود العثماني لم يكن وحده المسؤول عن ضعف الحياة العقلية، وإنما النزعة النقلية المحافظة، وفقدان روح الابتكار، والخلق هما السبب في ضعف المستوى العلمي والعقلي. ومن مظاهر هذا اضعف انتشار الطرق الصوفية وزحفها على الحياة العقلية والاجتماعية حتى تحولت أفكار المتصوفة من السمو الفلسفي الروحي إلى طقوس الدراويش وكرامة الأولياء، وأصبح الناس يعتقدون بالشعوذة والخرافات.[14]

ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية أيضا التركيز بصفة مطلقة على العلوم النقلية (الدينية) دون العلوم العقلية (الدنوية). والواقع أن العثمانيين عملوا على مساندة هذا الوضع مادام يخدم المؤسسة السياسية العثمانية التي كانت تعاني من أزمة حادة بفعل عوامل ترتبط بالوضع الدولي العام من ناحية وبالمقاومة العنيفة التي تزعمتها الطرق الصوفية من ناحية أخرى. ولهذا بدأ يظهر الاتجاه إلى صياغة الشرعية الإيديولوجية ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وهنا ظهرت الحاجة لدى السلطة العثمانية الى تجنيد العلماء لصياغة شرعية تقر وجودها وتصوغ نفوذها على المجتمع الجزائري. وفي هذا الإطار نبه الباحث محمد غالم إلى أخطاء بعض الباحثين الذين عزوا إحياء التدوين التاريخي إلى حدث مهم تمثل في فتح وهران على يد الباي محمد بن عثمان الكبير، ونسوا عن قصد أو غير قصد الاهتمام بالتاريخ المرتبط بحاجة المؤسسة العثمانية الى كسب شرعية، لأن غالبية التو اليف التاريخية التي كتبت بمناسبة فتح وهران كان قاسمها المشترك تعظيم وتمجيد أعمال الباي محمد الكبير، وهو الذي اهتم بنفسه بهذا المشروع، وشجع الكتاب والعلماء بتدوين الأحداث التاريخية الخاصة بتاريخ مدينة وهران. ولذا نلاحظ تقرب هؤلاء الكتاب إليه والتاريخ لعهده. ومن هؤلاء الكتاب أحمد بن هطال التلمساني الذي كان مستشارا للباي وكاتبة الخاص والمبعوث له في عدد من المهام الخارجية، وكان قد رافق الباي محمد الكبير في رحلته التي سجل أحداثها عام 1199هـ/1785م في مؤلفه "رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي". وكذلك محمد بن

رقية التلمساني صاحب كتاب "الزهرة النائرة...". وكان أيضا قد أمر أحد كتابه وهو المصطفى بن عبد الله بن زرفة "بتدوين الأحداث التاريخية المتعلقة بالجهاد التي كان قد دون بضعها والبعض الآخر نقله عن الرواة في مؤلفه "الر حلة القمرية في الأخبار المحمدية".(16)

ونتج عن ذلك عناية الكتاب والعلماء بالتاريخ، وهذا يعني عدم توقف حركة التأليف التاريخي لأن الدولة كانت ما تزال توظف التاريخ لصياغة شرعية إيديولوجية تستند اليها. وأكدت الدولة غلى فكرة الجهاد ضد الدول المسيحية بالمعنى التقليدي للكلمة الذي يوفر الأمن والسلام من جهة والتلاحم بين السلطة السياسية والجماعة الإسلامية من جهة أخرى. ولكن ما يأخذ على حركة التأليف أنها لم تنعش الحياة الفكرية لأن أساليب الكتابة التاريخية لم تتطور، فهي لا تختلف عنها لدى كتاب التاريخ أو كتاب التراجم في الشرق الإسلامي أو في الأندلس بالعصور الوسطى. وهناك استثناء للمغرب الأقصى، حيث انقرض المؤرخون في هذا القطر العربي بمعالجة موضوعاتهم، وكانت حالتهم أفضل نسبيا في ظل حكم السعديين والعلويين، من رجال البلاد المغربية الثلاثة في شرقها. فقد نشطت فيها حركة التأليف التاريخي أكثر من جميع فروع الآداب الأخرى. وكان في المغرب ما يشبه وظيفة المؤرخ الرسمي للدولة، رغم أن التاريخ فيه كان يقتصر على الملوك والحكام.

وعلى الرغم من ذلك، فان القرن الثامن عشر قد أخرج العديد من المؤرخين الجزائريين، وكانوا جميعهم تقريبا فد آمنوا بتمجيد السلطة العثمانية التي في نظرهم هي التي كانت تقود الجهاد وتحمي الغقيدة. ونذكر على سبيل المثال، أبو راس الناصري"ت1238هـ1823م" "عجائب الأسفار..."' وأحمد بن سحنون "الثغر الجماني..." ومحمد بن زرفة "الرحلة القمرية" ومسلم بن عبد القادر"أنيس الغريب،.." ومحمد بن يوسف"دليل الحيران..." والمشرفي "بهجة الناظر..." وابن رقية "الزهرة النائرة ..." وغيرهم.

لاشك في أن غالبية كتاب التاريخ خلال هذه الفترة لم يكونوا من المختصين. كان معظمهم من العلماء الذين حملوا على عاتقهم مهمة إحياء التاريخ. ومهما يكن من أمر فانه يصعب علينا أن نتناول جميع المؤلفات التاريخية في العصر العثماني ولذا سنقتصر على ثلاثة منهم. وكان أبرز هؤلاء ابو راس الناصر الذي عاش في النصف الثاني من القرن 18 والربع الأول من القرن 19 الميلادي. وقد عاش ابوراس فترة قلقة، حيث حضر فتح وهران الثاني واستعادة هذه المدينة من الاحتلال الاسباني وكان لهذا الحادث اثر كبير في نفسه، فألف فيه كتابه (عجائب

الأسفار ولطائف الأخبار). وذكر أنه قسمه إلى جزأين، وقد انهي الكتاب بتاريخ فتح وهران وهو سنة 1206هـ/1791م.

قدم الكتابه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة على التاريخ وتاريخ التدوين التاريخي عن المسلمين غيرهم، وعن الدافع الى التأليف وهو عودة وهران الى الجزائريين على يد الباي محمد الكبير، وعن الغرض من الكاتب، وهو تسجيل فتح وهران ومدح من فتحها. وكان الباي محمد الكبير قد أنعم عليه وقدر عمله، ولذلك خصه أبوراس من جهته بالشعر والدعاء والتأليف.

أما عن طريقة أبي راس في الكتابة التاريخية، فإنها لم تخرج عن الطريقة القديمة في سرد الأخبار دون انتقاد المصادر ومقارنتها. وقد اهتم أبو القاسم بكتابه، حيث يقول:"ولعله أراد أن يكون في الجزء الأول مؤرخا بينما أراد أن يكون في الجزء الثاني مادحا للباي محمد الكبير على مواقفه فأسعفته في الأول الأخبار والذاكرة والنقول، أما في الثاني فقد أسعفته الأشعار والعواطف والقلب المعجب".[17] ويحسم بنا أن نسجل أن ابا راس كان متأثرا بما جرى للمسلمين منذ ضياع الأندلس ومحاولة غزو الأسبان لشمال إفريقيا، ولذا تغلب عليه العاطفة الدينية في سرد الأحداث التاريخية. كما يكشف محتوى الكتاب عن موقف مؤيد للعثمانيين عامة، فهو يشيد بهم ويذكر شجاعتهم ومواقفهم في سبيل الدين، رغم أنه لم يكن منهم. ومن جهة أخرى، يمكننا القول بأن كتابه له قيمته التاريخية نظرا للمعلومات الوفيرة فيه لاسيما ما يخص أحوال شمال إفريقيا خلال العصر العثماني قلما نجده في غيره، بالإضافة إلى أنه ابتعد قدر الإمكان عن السجع والصناعة اللفظية، وجاء أسلوبه بسيطا وواضحا يقترب من العامية في كثير من الحالات.

أما المؤرخ الآخر الذي يمثل القرن الثامن عشر فهو محمد بن ميمون الجزائري صاحب كتاب "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية". وبجدر الإشارة إلى أن المعلومات التي لدينا عن هذا المؤلف قليلة للغاية، فلا نعرف زمان ولادته ولا وفاته. والمؤكد لدى الباحثين أنه كان معاصرا للداي محمد بكداش (1707–1710م). ولهذا تناول في هذا الكتاب سيرة هذا الداي إبان توليه الحكم، كما خص جل الكتاب لقصة الفتح الأول لمدينة وهران على يد الداي محمد بكداش وصهره أزن حسن. وقد وصف الكاتب المعارك التي دارت رحاها بين الجزائريين والاسبانيين، حسب الأيام والشهور والسنوات. وما ينفرد به

أنه يمدنا بمعلومات إحصائية حول عدد القتلى والأسرى والغنائم التي غنمها المجاهدون، وقد قصد أبي ميمون من هذا التأليف التقرب من الداي والتزلف إليه والإشادة بأعماله(18).

حرص ابن ميمون من هذا التأليف على انتهاج عمل المؤرخ من حيث التعبير عن الأحداث والوقائع، ويبدو أنه اختلط عليه، كما فعل بعض السابقين، التاريخ والأدب، حيث استخدم كثيرا القصائد الشعرية والأراجيز النظمية التي أغلها انشدها ونظمها من أجل الجهاد. ولهذا نلاحظ أنه لم يحيد عن السجع إلا نادرا في نصوصه، واتبع أسلوبا أدبيا فيه متانة اللفظ وقوة التعبير. غير أنه هو الآخر كان متأثرا بأحداث عصره وظهرت قيه نزعة الدين.(19)

والمؤلف التاريخي الثالث لمسلم بن عبد القادر (ت بعد سنة 1248/1832م) باش دفتر بايات وهران، هو(أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر). تناول فيه فترة مهمة من تاريخ مدينة وهران والناحية الغربية عامة لمدة تستغرق نحو 37 سنة، تبتدئ من سنة 1192هـ/1778م وتنتهي باحتلال الفرنسيين لوهران سنة 1248هـ/1832م. وهي تبتدئ بتاريخ الباي محمد الكبير فاتح مدينة وهران سنة 1206هـ/1791م. ونلاحظ أن مسلم لم يتحدث كثيرا عن الباي، وجاء بأخبار مختصرة عنه وذكر أهم مآثره العمرانية والحربية والعلمية، واستطرد إلى الحديث عن ولده عثمان الذي خلفه على الحكم بعد وفاته بعد أيام من فتح وهران. فهو يحتوي على معلومات قيمة عن الأحداث الأخيرة التي كانت وهران مسرحا لها، وأهم هذه الأحداث، ما وقع من حروب عنيفة بين البايات العثمانيين والدرقاويين منذ أوائل القرن 13هـ/19م. وإنما نلاحظه هو أن مسلم ابن عبد القادر كان متحيزا للعثمانيين في مواقفه ضد الدرقاويين، فهو يقول في هذا الصدد:"نحن في مقابلتهم وبحول الله ونصرته نحارب كل واحد وحده، والنصر معنا لا علينا لأننا نريد الإصلاح، وهم يريدون الفساد، فكان الاتفاق على هذا الأمر...".(20)

ومما يؤكد أن مسلم بن عبد القادر لم ينفعل بالأحداث الخطيرة التي كانت تمر بها الناحية الغربية، ولم يسجلها كما وقعت فهو يكتب عنها دون التدقيق فيها وتفصيلها وتفسيرها. كما نسجل عناية قليلة أو معدومة بالحياة السياسية والاجتماعية التي عايشها وهو في بلاط الباي الأخير، فهي مدة إحدى عشرة سنة امتدت من 1237هـ/1821م إلى 1248هـ/1832م. ويرجح رابح بونار محقق هذا المخطوط من أن سكوت المؤلف عن ذلك، يعود إلى عدم رضاه عن

حياته في البلاط بعد أن تغير سلوك الباي، وساءت معاملته للناس عامة، وللعلماء ورجال الدين خاصة.[21]

وأهم ما تنوله مسلم بن عبد القادر في هذا الكتاب أخبار عن المجاعات والأوبئة التي فتكت بالآلاف السكان وأخبار عن سير البايات المؤخرين منذ عهد الباي محمد الكبير إلى آخرهم وهو حسن بن موسى. ويذكر مواقف هؤلاء البايات من رجال الزوايا بعد اندلاع ثورة درقاوة. ويظهر من محتوى الكتاب أن عصر ممد الكبير هو العصر الذهبي لبايات وهران، وبعد عصره يأخذ العهد العثماني في التراجع والتدهور.

أما عن أسلوب الكاتب فهو يتميز بالبساطة القريب من العامية. بالإضافة إلى كثرة الأخطاء النحوية والصرفية المتعددة. وما ذكرناه عن القصائد الشعرية لدى الكتاب الجزائريين الآخرين، ينطبق على مسلم بن عبد القادر الذي انشد بعض القصائد الشعرية التي كانت قريبة إلى العامية.

وهكذا يتضح أن من أسباب تدهور علم التاريخ في الجزائر خلال العصر العثماني هو عدم اهتمام الخاصة بكتابة ودراسة التاريخ ونظرة عدم التقدير إلى هذا النوع من المعرفة. ولعل ذلك راجع إلى ضعف الحياة العلمية والتركيز بصفة خاصة على العلوم النقلية دون العلوم العقلية. بالإضافة إلى السلطة الحاكمة عملت على مساندة هذا الوضع الذي أدى ركود الحياة الفكرية والعلمية، آلة نقص كبير في المؤلفات التاريخية. ولابد أن ننتظر القرن الثامن عشر وفيه بدا الكتاب والعلماء يعتنون بكتابة التاريخ، والسبب راجع إلى الأحداث الخطيرة التي شهدتها الجزائر والتي أضعفت المؤسسة السياسية العثمانية. ومن هنا ظهرت الحاجة والضرورة لدى الحكام إلى تشجيع العلماء على تدوين الأحداث التاريخية، وذلك تدعيما لسلطتهم وتقوية وجودهم في المجتمع الجزائري.

وتميزت الكتابة التاريخية في هذا العصر بأنها لم تتحرر من الكتابات السابقة، فالكتاب لم يميزوا بين التاريخ والقصص والأدب والتراجم وإنما ظلوا يجمعون بين فن الكتابة التاريخية وبين غيرها من الدراسات الأدبية والتصانيف المتنوعة من ذلك مثلا أن معظمهم كانوا يمارسون نظم الشعر ويوردونه في تضاعيف مؤلفاتهم التاريخية في شتى المناسبات. وهذه الظاهرة المشتركة بين الكتاب وبين تواليفهم تحملنا على معرفة منهج الكتابة لديهم. فجميعهم تقريبا كانوا مقلدين لأسلافهم، فهم يجمعون الأخبار والحوادث دون محاولة لتعليلها تعليلا عقليا أو

محاولة ربط حادثة بما قبلها وما بعدها. وقليلون أولئك الذين أفلتوا من هذا التقليد، فانتقدوا أو قطعوا برأي واضح فيما جرى حولهم. وأخيرا فلابد من الإشارة إلى سقم الأسلوب العربي الذي كتب يه بعض مؤرخي العصر العثماني مؤلفاتهم، إذ تنطوي كتاباتهم على تعابيير وجمل ركيكة لا تمت للعربية الفصحى بصلة، وهي قريبة إلى العامية ولعل ظاهرة الضعف الأدبي كانت عامة في هذه الفترة التي كانت تمتاز بالتدهور الأدبي والعلمي في القطر الجزائري عامة.

الهوامش:

1. ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى لقرن الرابع عشر الهجري (16 . 20م)، ج1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 22
2. المرجع نفسه، ص 23
3. مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائير، 1979، ص14
4. ابو راس الناصري، عجائب الاسفار ولطائف الاخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 1632، ورقة 2
5. الحسين الورتلاتي، نزهة الانضار في فضل علم التاريخ والاخبار (الرحلة الورتلانية) تحقيق محمد بن ابي شنب، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1908، ص 379
6. محمد غالم، التاريخ والمؤرخون في الجزائر خلال القرن الثمن عشر، وحدة البحث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 1988، ص4
7. احمد طربين، التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1970، ص 8
8. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص 159
9. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص ص 185، 399
10. نفسه، ص ص 396 . 414
11. نفسه، ص 415
12. نفسه
13. عبد المجيد مزيان، الانضمة لثقافية في الجزائر قبل الاستعمار، مجلة الثقافة العدد 90، 1985، الجزائر، ص36
14. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص ص 487 . 501
15. محمد غالم، المرجع السابق، ص 10
16. صالح فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية بياليك الغرب الجزائري مجلة الثقافة العدد 71 الجزائر 1982 ص ص 24 . 25
17. أبو القاسم سعد الله، مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي: أبو راس الناصري، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 12، 1974، الجزائر، ص 31
18. محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ش و ن ت، الجزائر، 1981، ص85
19. المصدر نفسه، ص 84.
20. مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر، تحقيق وتقديم رابح بو نار، ش و ن ت، الجزائر،1974، ص 82
21. نفسه، ص 47.

منهجية التحقيق عند محمد بن عبد الكريم: "التحفة المرضية في الدولة البكداشية" نموذجا

أ. بوشريط أمحمد*

مقدمة: كان من الطبيعي أن يعنى مؤرخو الجزائر بتراثهم الوطني، وكان من الطبيعي أيضا أن تكون البداية في هذا الصدد، هو تحقيق هذا التراث حتى يتمكن هؤلاء من إزالة الغبار على بعض المخطوطات والتي لازالت قابعة في درج المكتبات ودور الأرشيف، ولتحقيق هذا الغرض، كان لزاما على كل محقق أن يبدل قصارى جهده لإنقاذ هذا التراث الدفين ليرى النور من جديد، فكان هذا العمل من أوجب واجبات كل باحث غيور على هذا الكنز الثمين ليحفظه من عاديات الدهر وأيدي العابثين.

ومن هؤلاء الغيورين على تراثهم الوطني، الباحث المحقق محمد بن عبد الكريم، فما انجازاته في هذا الميدان إلا دليل على حرصه لإنقاذ هذا التراث من الضياع.

مجهوداته في التحقيق: لقد كان لباحثنا هذا، مجهودات في عملية تحقيق تراثنا الوطني، وليسعنا في هذه الورقة إلا ذكر ما جادت به قريحة هذا الباحث في هذا الميدان، والتي أحصيت منها سبعا، وهي على التوالي:

أ- التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لمؤلفه محمد بن ميمون الجزائري.

ب-رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الصحراوي الجزائري لمؤلفه: أحمد بن هطال التلمساني.

ج- أتحاف المنصفين والأدباء لمؤلفه: حمدان خوجة.

*- أستاذ مساعد "أ" في التاريخ الاسلامي الوسيط-قسم التاريخ - جامعة معسكر.

د- وشاح الكتائب لمؤلفه: قدور بن رويلة. هـ- القول الأوسط فيما حل بالمغرب الأوسط لمؤلفه: أحمد الشقراني. و- رحلة أحمد باي. ي- بهجة الناظر لمؤلفه: عبد القادر المشرفي.

منهجيته في التحقيق: يجب عل كل محقق إذا ما رام الخوض في هذا الميدان أن يتبع عدة خطوات حتى يتمكن من إخراج المخطوط في صورته النهائية، ويقدم للقارئ نصا صحيحا يطابق الأصل، وفي هذا الصدد لا يخامرنا الشك أن محققنا قد اتبع في عمله القيم مثل هذه الخطوات التي استلهمها من المبادئ الأساسية التي يعتمدها علم التحقيق، ولذلك قسم عمله إلى مرحلتين رئيستين وهما: تحقيق النص والتعليق عليه، ثم تليها قسم الدراسة.

المرحلة الأولى: وحتى يأتي النص المحقق على النحو الذي أراده له مؤلفه، أو في صورة تقرب من الأصل، فكان لزاما على المحقق أن يعتمد على عدد من النسخ، فالاعتماد على نسخة واحدة قد تحرم المحقق من عملية المقارنة وتصحيح الأخطاء الواردة فيها، أو إكمال نقص، وبخاصة إذا كانت النسخة مبتورة أو غير واضحة، فهذا في حد ذاته يصعب من مهمة المحقق، وفي حالة تعدد المخطوطات، فمن الضروري أن يقوم المحقق بتصنيفها إلى مجموعات.[1]

ولتكون نتائج هذا التحقيق موثوق بها، فلابد من الاطلاع على الفهارس العامة لدور الكتب التي تتوفر عنها معلومات، فمن هذه الموسوعات، موسوعة كارل بروكلمان والموسومة بـ: "تاريخ الأدب العربي" وعلى غرارها "تاريخ التراث العربي" لفؤاد سزكين.[2]

يبدو أن الحظ حالف محققنا هذا، إذ اعتمد على نسختين، الأولى: مخطوطة توجد بمكتبته الخاصة، وأما الثانية: فتوجد بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة تحت رقم 1625.[3]

وبناء على ما تقدم ذكره، فإن المحقق باعتماده على نسختين تسمح له بمقارنتهما والمقارنة بينهما وبخاصة إذا كانت إحداهما هي الأصلية، فهذا قد يجنبه الاعتماد فقط على النسخة المصورة، لأن أكثر النسخ أصالة ودقة هي النسخة التي خطها المؤلف بنفسه.[4]

لقد شملت هذه المرحلة على محطتين، وهما:

التحقيق: إن هدف التحقيق هو اجتهاد المحقق في جعل النصوص مطابقة لحقيقتها في النشر، كما وضعها صاحبها من حيث اللفظ والمعنى، وعليه فالتحقيق قد ينقسم إلى عدة

أنواع، منها: أن يركز المحقق على أصول كاملة، وهي الطريقة الشائعة، وآخر يعتمد على جمع آثار جماعة أو قبيلة أو فن من الفنون.[5]

فمن القواعد التي يستلزم إتباعها من طرف المحقق، هي تقطيع النص وتوزيعه على شكل فقرات، وهو ما يعرف في أدبيات علم التحقيق بتنظيم مادة النص.[6] إذ لم يكن المؤرخون الأوائل ولا النساخ يعنون بهذا التنظيم، كالاهتمام بوضع الفقرات والنقط والفواصل والنقطتين وغيرها. وهذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال المنهجية التي اتبعها المحقق في تحقيقه هذا، وان كان قد التزم بهذا المنهج.

ففي ما يتعلق بتقطيع النص وتوزيع فقراته، وهو ما يعرف في علم التحقيق بتنظيم نصوص المخطوط، فما من شك أن المحقق قد اتبع هذا المنهج، وهذا ما سنستشفه من خلال هذه النماذج.

ص أ-11 من المخطوط وما يقابلها من المطبوع ص123. قسمها إلى فقرة واحدة.

ص أ-31 من المخطوط وما يقابلها من المطبوع ص138. قسمها إلى فقرتين.

وفي أحايين أخرى نجد عدة صفحات تقريبا تحتوي على فقرة مطولة دون الالتزام بتقطيعها إلى عدة فقرات وهذا ما نلحظه في:

من ص أ-114 و ص أ-118 من المخطوط وما يقابلها في المطبوع صص221- 224 لم يقم بتقسيمها إلى فقرات، بل شملت فقرة مطولة.

ص أ-123 إلى ص أ-126. وما يقابلها من المطبوع صص229- 231. يقسمها إلى ثلاث فقرات.

يبدو أن عدم الالتزام دائما بنظام الفقرات مرده إلى طبيعة موضوع هذا المخطوط، إذ قسمه صاحبه إلى مقامات[7] أضف إلى ذلك أن نصه كثيرا ما تتخلله قصائد شعرية مما يصعب على المحقق الالتزام دائما بنظام الفقرات.

أما فيما يتعلق بالنقطة والفاصلة والنقطتين، فقد التزم المحقق بكل ذلك، فما نكاد نطالع صفحة من صفحاته إلا والتزم بها هذا الأخير.

وفي هذه الخطوة من خطوات التحقيق، فقد التزم التزاما كاملا بقواعد الرسم الإملائي الواردة في المخطوط، إذ حافظ على أصل النص، ولم يغير كلمة من كلماته ندت عن المعنى

المراد، فيقول في هذا الصدد: "ولم نبذل حرفا قد وضعه قلم الناسخ في غير موضعه دون أن ننبه على ذلك في هامش الكتاب".[8]

كما قام المحقق بوضع القوسين المزهرتين ﴿ ﴾ لحصر آي القرآن الكريم[9]، كما التزم بوضع الشولتين « » عند اعتماده على الأحاديث النبوية الشريفة.[10] إلا أنه لم يلتزم بوضع القوسين عند ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكذا عند استعماله- رضي الله عنهم أو عنه.[11]

لقد كان اعتناء المحقق بوضع الخط المائل (/) في متن الكتاب لتحديد صفحات المخطوط، فتارة يضع الخط المائل في وسط الصفحة ثم يشير إلى صفحة المخطوط على يمين الصفحة المطبوعة، وأخرى على يسار المطبوع ثم يقوم بترقيم المخطوط.

وفي أحايين أخرى يضع الخط المائل والصفحة على يسار النص المطبوع، وتارة أخرى يضع الخط المائل على يسار المطبوع ورقم صفحة المخطوط على يمين النص المطبوع[12]

يبدو أن المحقق كان دقيقا في تحديد صفحات المخطوط، إذ كان شديد العناية في توجيه القارئ من أين تبدأ الصفحة بالتدقيق وأين تنتهي، ولهذا نجده لا يلتزم بوضع صفحات المخطوط إما على يمين النص المطبوع أو على يساره.

أما الخطان العموديان، وهو ما يعرف في بعض المراجع التي عنيت بالمنهجية بالقوسين المركبين [ ] فيوضعان عندما يضطر المحقق إلى وضع كلمة أو عبارة لإكمال نقص وقع – لأسباب أو أخرى – .[13] [14]

لم يكن محققنا هذا ملزما بهذا المنهج، باعتبار أنه صرح في مقدمة الكتاب أنه احتفظ بالنص كما هو، ولم يدخل عليه أي تعديل، وإنما أشار إلى ذلك في الحواشي.

وحتى يخرج هذا المخطوط في صورته النهائية، فعلى المحقق أن يجتهد في وضع عناوين له حتى يمكن – ممن يتعامل مع النص- أن يتعامل معه بكل سهولة إلا أن محقق مخطوط "التحفة" لم يشر إلى أنه وضع عناوين له، لأن المخطوط نفسه يحتوي على مثل هذه العناوين.

إن من عادة النساخ لا يضعون عناوين مستقلة لكتاباتهم، وهذا ما نلحظه في بعض المصادر، فهذا يحي بوعزيز يذكر في مقدمة كتاب "طلوع سعد السعود" "ليس للمخطوط عناوين مستقلة" وإنما "له عناوين على هوامش الصفحات" إلى أن يقول: "وكل عناوين الكتاب من وضعنا نحن."[15]

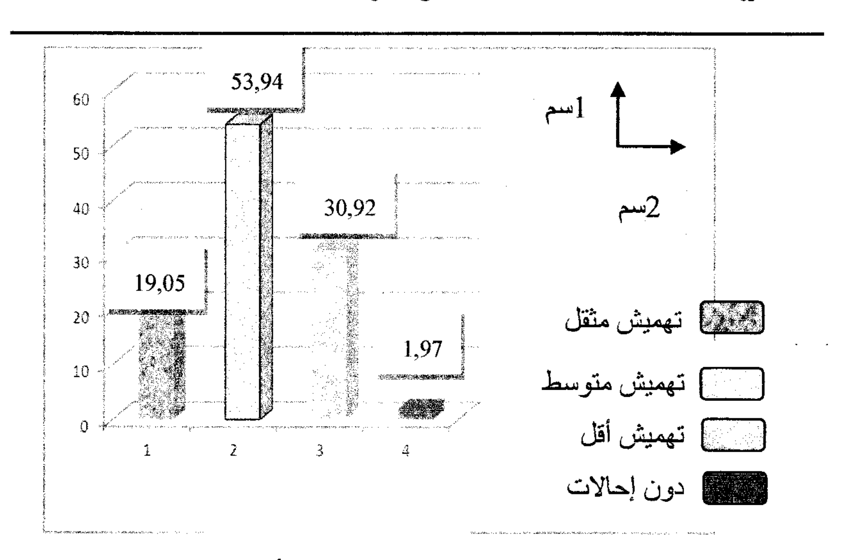
التعليق:

يعتبر التعليق متمما للتحقيق، فهو يأتي في المرتبة الثانية بعد إتمام المحقق من ضبط النص، ولذا فقد اعتبره البعض عملا نقديا يتطلب مهارة، فالحواشي لا غنى عنها، ففيها يقوم المحقق بشرح مفصل لبعض الأعلام الجغرافية والشخصيات الواردة في النص[16] إضافة إلى شرح بعض الألفاظ الغريبة والمصطلحات، وبالاستعانة ببعض المصادر التي تتناول الفترة ذاتها، يمكن للمحقق أن يقارن الأحداث التاريخية بما ورد في المخطوط ومصادر أخرى، كما لا ننسى تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة[17].

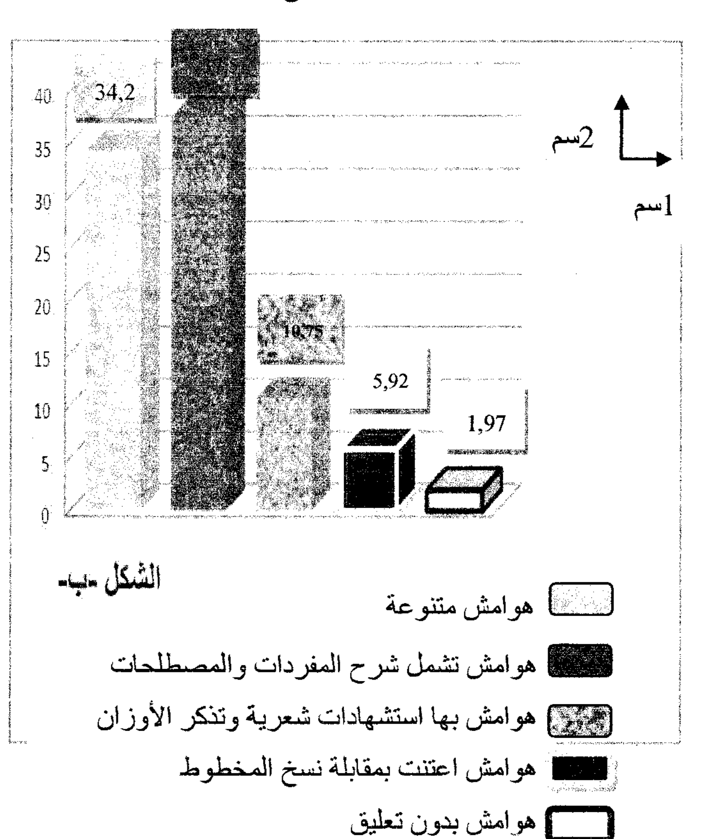
لن يكتمل عمل المحقق، إلا إذا نظر بعين الشك لكل ما ورد من حقائق وردت بالمخطوط، وحتى يكون تحليله لها تحليلا موضوعيا بعيدا عن التحيز لطرف على حساب طرف آخر، وعليه فعند تحديد المحقق للوقائع اعتمادا على المعطيات المصدرية مباشرة يستطيع بواسطتها اتخاذ قراره بشأن قبول معلومات محددة أو رفضها[18]، فتكون بذلك تعليقاته تتسم بالأمانة والدقة.[19]

فلا مناحة من القول أن الهوامش تضفي على عمل المحقق مصداقية أكثر تدل على سعة اطلاعه ومقدرته الفائقة في التعامل مع هذا الكم الهائل من المعلومات من خلال تعامله مع المصادر الأولية والثانوية والاستفادة مما احتوته هذه الأخيرة من إفادات تفيد المحقق في تعليقاته.[20]

وحتى تتضح لنا الصورة أكثر عن المنهج المتبع من طرف المحقق في تعليقاته، سنعتمد على هذا الرسم البياني والذي سيوضح لنا بدقة الطريقة التي اتبعها محقق كتاب "التحفة".




الشكل ـأـ



الشكل -ب-

يمثل هذا الرسم أعمدة بيانية توضح بما لا يدعو للشك مدى اهتمام المحقق بالتهميش لما له من أهمية في عملية التحقيق، ويمكن لنا تقسيم اهتمامه على هذا النحو.

فالشكل -أ- يمثل ذلك التفاوت النسبي الموجود بين ثنايا الكتاب المحقق، وذلك نظرا لأهمية المادة المعالجة بهذه الحواشي، وقد توزعت هذه النسب على النحو التالي:

فالعمود الأول والممثل بنسبة 19,05 % فهي تمثل هوامش مثقلة بالمعلومات لأن النص كان في حاجة إلى شرح وتوضيح حتى يجعل القارئ على بينة مما يطلع عليه وتتوضح له الصورة أكثر.

أما العمود الثاني ويشمل نسبة أكثر من الأول بـ 53,94 % ، فهي تحتل الوسط، فإن كانت الأولى تتراوح عدد أسطرها 10 فما فوق، فإن الثانية، تتراوح عدد أسطرها ما بين 9 إلى 5 أسطر.

أما العمود الثالث، فهو أقل من الثاني وأعلى نسبة من الأول والمقدرة بـ30,92 %، والتي قدرت عدد أسطرها من 4 إلى سطر واحد.

هذا من الناحية النظرية، أما الجانب التطبيقي لهذه الهوامش بما تحمله من معلومات عن النص المحقق وهذا ما يتوضح لنا جليا من الرسم البياني الثاني والممثل في:

الشكل -ب- ويمثل ما احتوته هوامش الكتاب من إحالات اختلفت مضامينها من هامش لآخر، وهذا ما نستشفه من خلال تعاطينا لهذه النسب والتي تتفاوت عدد صفحات الكتاب المحقق.

فأما العمود الأول والذي يمثل لنا نسبة 34,2 %، فقد احتوت على هوامش تنوعت مضامينها، فالهامش الواحد منها قد يحتوي على عدة إحالات احتوت على عدة شروح لأعلام وأماكن جغرافية، وشرح لنسب بعض الشخصيات وغيرها.

أما العمود الثاني والذي يمثل لنا نسبة 37,5 %، وهي أعلى النسب في هذا الرسم البياني، فقد احتوت على شرح المفردات والمصطلحات الواردة في النص، وبخاصة تلك الواردة في القصائد الشعرية.

أما العمود الثالث والممثل بنسبة 10,75 %، فقد مثل لنا بعض تلك الاستشهادات الشعرية الواردة في التعليق مع ذكر لأوزانها.

وفيما يتعلق بالعمود الرابع والذي مثل لنا مقابلة نسخ المخطوط ببعضها البعض، مع إيراد الاختلافات الموجودة بينها.

وأما آخرها والتي تمثل لنا نسبة ضعيفة قدرت بـ 1,97 % فهي تمثل لنا صفحات قليلة من دون تعليق.

من حصاد هذا التحليل، يتضح لنا جليا مدى اهتمام المحقق بالركن الثاني ألا وهو التعليق، فيظهر لنا من الوهلة الأولى أنه لم يخل بمنهجية التحقيق، والتي يجب أن يلتزم بها المحقق، وهذا ما يؤكده في مقدمة دراسته لهذا الكتاب حين ذكر بأنه وجه عنايته لشرح بعض المفردات اللغوية والتي يستعصى فهمها إضافة إلى توجيه عنايته بالأبيات الشعرية، وتفهمه لما ورد من الأحاديث وغيرها. (21)

بعد هذا العرض الموجز لما ورد من تعاليق في هذا الكتاب المحقق، يجدر بنا التعرض لنماذج منها لنتبين بشكل أوضح منهجية محققنا في هذا الجانب.

تراجم الأعلام:

ص112 – هامش4 – يترجم فيه المحقق لشخصية "بكداش، فيحيط إحاطة شاملة بها بدءا بسبب تسميته بهذا الاسم ثم التطرق إلى أصلها التركي ثم معناها – الحجر الصلب–(22) ثم رحلته من جزيرة العرب متجها نحو الجزائر، والمنصب الذي تولاه بها إلى غاية وفاته. معتمدا في ذلك بعض المصادر المهمة، وعليه نخرج بالملاحظات التالية:

يذكر اسم المؤلف ويرفقه بعنوان الكتاب والمحقق، ومكان الطبع وسنتها والجزء والصفحة، وعند اعتماده على المخطوط يذكره على هذا النحو: شرح أرجوزة الحلفاوي مع تحديد الصفحة لاعتبار هذا المؤلف مخطوط، وعند اعتماده على بعض المراجع الفرنسية، لا يذكر مكان الطبع ولا السنة.(23)

ص124 –هامش3– وفيه يترجم المحقق لشخصية الداي حسين خوجة، وهي ترجمة لا تتعدى السطرين، إلا أنه لا يحيل إلى مصدر ترجمته، كما هو الحال في الهامش أعلاه.(24)

وتتكرر نفس العملية في بعض المواضع، مثل: ص144– ها5–وص172–ها5.

هذه بعض الاستثناءات التي احتوتها بعض هذه الهوامش، إلا أن المحقق يلتزم بالمنهجية التي يتطلبها التحقيق، وهذا ما نلحظه في ترجمته لبعض الشخصيات ففي:

ص163 - هامش 2. حين يترجم لسيدي الهواري، يذكر مصدر الترجمة وهو البستان مع الالتزام التام بالمنهجية التي يتطلبها التهميش.[25]

تراجم الأعلام الجغرافية:

وما ذكر بخصوص الأعلام ينسحب الكلام على الأماكن الجغرافية الواردة في تعاليق المحقق، ولنا في ذلك عدة أمثلة.

ص137- هامش4. ورد فيه مدينة اطرابلس، وقام بذكر ما يراد منها، فقال: ويقال لها طرابلس، وكانت تلك التفاتة طيبة من المحقق، ثم يقوم بتعيين موقعها، وكل ذلك اعتمادا على مصدر جغرافي، وهو مراصد الاطلاع، مع الالتزام بالمنهجية في مثل هذا النوع من التراجم.[26]

وفي مواضع أخرى يتبع نفس المنهجية في شرحه للأماكن والمدن، وهذا ما سنلحظه في هذين المثالين.

ص191- هامش3. وفي هذا المقام يشرح نهر شنيل الذي أسهب في التعليق على موقعه وما يحتويه من رياض وبساتين غناء، فهذه الإحاطة بجوانب متعددة لهذا النهر قد تفيد القارئ إذا ما رام الاستفادة من المعلومات المتوفرة في هذه الحاشية، ثم لا يكتفي بذلك، بل يحيل إلى مصادر ترجمته، منها النفح والإحاطة.[27]

لقد اعتمد المحقق في هذه الترجمة على مصادر أندلسية، وهذا هو المعمول به، لأن خير من يعرف الأندلس هم أصحابها، إلا أنه كان على المحقق عند ترجمته لهذا النهر أن يتعرض للاختلافات الواردة في رسم هذه الكلمة "شنيل" منها: "شلير" ويطلق عليه كذلك جبل الثلج، فنكون بذلك قد أفدنا القارئ بعدة تسميات لهذا العلم.[28]

وهذا الكلام ينسحب على مدينة غرناطة - هامش2 - ص191. الذي فصل في ترجمتها من الناحية الجغرافية، كما أرفق هذا التهميش بإفادة تاريخية تتعلق بسقوطها إلا أنه لا يشير إلى المصادر التي استقى منها هذه المعلومات.[29]

تفسير ما غمض من ألفاظ ومفردات ومصطلحات.

من الضروري على المحقق أن تكون له وقفة عند بعض ما ورد في النص من ألفاظ قد يصعب علينا فهمها، وهذا ما يؤكده المحقق بقوله: "شرحنا لبعض المفردات اللغوية التي يستعصى فهمها."[30]

لقد احتوى المخطوط على بعض الألفاظ والمفردات الصعبة، وبخاصة إذا علمنا بأن الكتاب يحوي في مضانه 795 بيتا شعريا، إضافة إلى وجود كلمات ذات أصول تركية وفارسية، ولذا فمن الضروري الرجوع إلى معاجم الألفاظ التي يستعصى فهمها.[31]

فمن الألفاظ الصعبة التي قام بشرحها المحقق نذكر.

بكداش: ص201. وقد قام بإرجاعها إلى معناها في الأصل الفارسي والتركي، وهي التفاتة طيبة من المحقق، ويشير إلى أن معناها هذا، قد ورد عند ابن ميمون في ص146 من كتابة التحفة.

السندس: ص156. نبه على أن الكلمة فارسية وقام بشرح معناها – الديباج –

شاوش: ص124. قام بشرح معناها، وأن أصلها فارسي تركي.

من خلال هذه الأسماء ذات الأصول التركية والفارسية التي اعتمدها المحقق في هوامشه وأفادنا بمدلولاتها، إلا أنه لم يحل إلى المصادر والمراجع المتخصصة التي تقوم بشرح مثل هذه الأسماء والألقاب، فكان من الممكن الرجوع إلى المصادر والمعاجم المتخصصة[32]، أضف إلى ذلك الرجوع إلى أصل كتابة مثل هذه الأسماء، فمثلا: "شاوش" تكتب "جاويش" ومنها تأتي كلمة "الجاويشية".

أما باقي المفردات العربية، فقد نالت حظها في تعاليق المحقق، سنتعرض لبعض منها، لأننا لو ذكرناها بأكملها لكان لنا في ذلك غنية.

فمن الشروح التي اعتمد فيها على المصادر نذكر.

المقامات: ص111– ها1. قام بشرحها وأفادنا بمعناها، وهنا التزم بالمنهجية التي تقتضيها الهوامش. وذلك باعتماده على الشريشي في شرحه لمقامات الحريري.[33]

المن: ص133– هامش1. قام بشرح معناها ويربطها ببني إسرائيل، وقد اعتمد في شرحها على معجم القرآن لعبد الرءوف المصري.[34]

المهارق[35]: ص154– هامش7. قام كذلك بشرحها، إلا أنه لم يحل إلى مصادر ترجمتها كما عهدناه منه في الأمثلة السالفة الذكر، وهذا الكلام ينسحب على عدد كبير من المفردات والألقاب والمصطلحات التي قام بشرحها دون ذكر للمصدر أو المرجع الذي استعان بها لشرحها.

ضبط الأنساب: قام بضبط بعض الأنساب، نذكر منها:

النكداني: ص144- هامش4. ويرجع نسبتها إلى قرية قديمة بالأناضول.

بنو عامر: ص203- هامش4- قام برفع نسبهم إلى عامر بن صعصعة و أفاض في الشرح مما يدل على اطلاعه الواسع، معتمدا في ذلك على مصدر مهم، وهو بهجة الناظر، إلا أن دراسة النسب قد يحتاج منا الرجوع إلى المصادر المتخصصة كجمهرة أنساب العرب لابن حزم.[36]

تخريج الآيات والأحاديث وضبط القصائد الشعرية:

لقد قام المحقق بتخريج الآيات الواردة في المخطوط، وقام بتشكيلها فمن أمثلة ذلك.

ص139- قوله تعالى:﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (سورة آل عمران الآية.160)

ص239- قوله تعالى: ﴿وَما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا اَنْ هَدانَا اللهُ﴾ (سورة الأعراف، الآية.43).

وفي أحايين أخر يذكر آي القرآن الكريم، ويكتب في الهامش على أنها اقتباس من آي الذكر الحكيم، وهذا ليس بالاقتباس، فالاقتباس أن نأخذ الآية لنوظفه في النص، فمن أمثلة ذلك

صص231- 232. قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، ثم يشير في الهامش رقم 1 – هذا اقتباس من آي الذكر الحكيم، ثم يقوم بتخريج الآية على النحو المعتاد. سورة الأحزاب الآية 23. وتتكرر هذه الطريقة في ص228- هامش رقم7. في حين كان الاقتباس في ص 199. حين أثنى على بكداش، فقال: "المجاهد في سبيل الله أبي عبد الله مولانا محمد بن علي بن بكداش، فرع الشجرة النبوية السمحاء، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهذه الجملة الأخيرة، مقتبسة من آي القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[37]

أما بالنسبة للأحاديث النبوية الشريفة، فقد التزم بالمنهجية المتبعة في مثل هذه المواضع، اذ قام بتخريجها من الصحاح، كصحيح مسلم، فمن أمثلة ذلك.

ص172. ذكره لحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) (من فرج على أخيه المؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عليه كربة من كرب الآخرة) ثم يتبعها بقوله: "الى غير ذلك من الأحاديث النبوية." ثم يقوم في هامش رقم3. بذكر الأحاديث الواردة في نفس المعنى.

أما بخصوص القصائد الشعرية الواردة في النص المحقق، فنجده قد التزم بقواعد التحقيق، ولإثبات ذلك سنعتمد على نماذج مما ورد في تحقيقه هذا.

ص120. أورد لنا قصيدة للشاعر الأندلسي أبي بكر محمد بن أحمد بن دحيم الأندلسي، فمن جملة ما نخرج به.

التزام المحقق بتشكيل الأبيات الشعرية – شرحه لما ورد فيها من مفردات وكلمات صعبة– التزامه بذكر البحر الذي تنتمي إليه هذه القصيدة – وفي الأخير يذكر المصدر الذي وردت فيه هذه القصيدة.

إلا أننا لم نلحظ ثمة مقارنة بين هذه الأبيات الشعرية، ومثيلتها في مصادر أخرى، حتى يمكن للمحقق ذكر تلك الاختلافات الواردة في رسم بعض الكلمات و كذلك الاختلافات الواردة بين كلمة وأخرى، وقد يكون عذر المحقق في أنه لم يعثر على هذه القصيدة في مصادر أخرى تسمح له بمثل هذه المقارنة وحتى عند تعرضه لبعض القصائد في التهميش، نجد المحقق يلتزم بعملية تشكيل الأبيات وذكر البحر مع الالتزام بالإحالة إلى المصدر.[38]

المرحلة الثانية:

بعد أن ينتهي المحقق من تحقيق النص، تبقى أمامه خطوة ثانية والتي تشتمل على عدة خطوات نبدؤها بـ:

المقدمة: وفيها يبرز أهمية المخطوط، وما تناوله من مادة تغطي الفترة التي عالجها صاحبه.

أ-التعريف بالمخطوط: لقد أحاط المحقق إحاطة شاملة بذلك، وهذا ما سنستشفه من خلال تعرضنا لما ورد فيه من عناصر مهمة.

فبالنسبة لموضوع المخطوط، فقد تطرق فيه إلى المحاور الكبرى الذي دار فيه موضوعه، إذ يذكر بأنه تناول فيه سيرة الداي محمد بكداش من حيث سيرته المرضية مع التركيز على سيرته إبان توليته وحكمه، ثم يضيف قائلا: بأن المؤلف قد خصص جل كتابه للفتح الأول لمدينة وهران.[39]

أما هدف هذا التأليف، فيذكر بأنه ألفه، لإعجابه بسير بكداش هذا، و حتى يتقرب إليه وينال رضاه.

وأما منهجه، فقد انتهج فيه، ترتيب الحوادث من حيث الفترة الزمنية، و أخذ بذلك نهج الأدباء من حيث اعتماده على السجع، ولكن المحقق يتدخل في هذه النقطة، فيذكر بأنه أخل بالخيال الذي يعتبر عنصر أساسي من عناصر الأدب ولاسيما في فن المقامات.

وعند تعرضه لأسلوبه، فيذكر بأنه تميز بمثانة اللفظ وقوة التعبير، وكعادة المحقق يتدخل في هذا الجانب ويدلي بدلوه، فيقول: "وقد يشوبه أحيانا بعض الغموض من حيث تركيب الجمل واستخلاص المعنى المراد."[40]

وبنوع من التفصيل يذكر ما احتواه المخطوط من مقامات قدرت بـ ستة عشر ابتدأها بالمقامة الأولى والتي احتوت على اسم والد الداي محمد بكداش و التنبؤ لولده بالرئاسة[41] وختمها بالمقامة السادسة عشر والتي احتوت على وصف عودة خليفة الداي وصهره (أوزن) حسن إلى الجزائر بعد انتصاره على الاسبان.[42]

وصف المخطوط: لقد أحاط المحقق إحاطة كاملة في هذا الجانب، إذ ذكر عدد صفحاته البالغة 155، وطول صفحته 21سم وعرضها 15,5سم ، وعدد أسطرها 12 سطرا، والخط المكتوب به مغربي، وأن العناوين كتبت بالأحمر.

هذا عن النسخة التي يملكها المحقق، أما النسخة الثانية الموجودة بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، فعدد صفحاتها تقدر بـ 187، طول صفحتها 19,5 سم وعرضها 15سم وعدد أسطرها 12 سطرا.

وينبه المحقق على أن النسخة الثانية كثيرة الأخطاء، إضافة إلى أن هناك بتر ابتداء من ص29 إلى ص42، ومن ص123 إلى ص138. وهي منقولة عن مسودة المؤلف.[43]

التعريف بالمؤلف: بعد أن ينتهي المحقق من وصف المخطوط يجب أن يعرف بالمؤلف من حيث ولادته ووفاته، وأسرته والشيوخ الذين تتلمذ عليهم وأهم مؤلفاته، والمناصب التي تولاها، وغيرها من جوانب شخصيته.

لقد أحاط المحقق إحاطة شاملة بدءا بنسبه[44]، إلا أنه يشكو من شح المصادر التي ترجمت له مما صعب عليه تحديد سنة الميلاد والوفاة، ثم بعدها ينتقل إلى التعريف به ثقافيا والعصر الذي عاش فيه منها الهجومات الفرنسية والانجليزية والاسبانية على بعض مدن الجزائر

وغيرها من الأحداث، ثم ينتقل بعدها إلى ذكر التنظيم الإداري الذي كان سائدا على عهد الأتراك، وقد وفق في ذلك أيما توفيق.[45]

أما فيما يتعلق بمؤلفاته، فللمحقق عذره في ذلك، بسبب عدم توفر معلومات إضافية عن صاحب الكتاب وذلك لسكوت المصادر عن التعرض لشخصيته.

نسبة الكتاب للمؤلف: لم يواجه المحقق صعوبة في نسبة الكتاب لمؤلفه وذلك اعتمادا على النص الوارد بالمخطوط في ص1 من نسخة "ب" جاء فيه "هذه مقامات الفقيه العلامة، الدراكة الفهامة الأديب البارع، سيدي محمد بن ميمون الجزائري رحمه الله".

إضافة إلى اعتماد محققنا هذا، على ما ورد عند الجامعي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي الذي قال في تحليته: "وقد استوفر حق تحليته بالعلوم وتحصيل المنطوق والمفهوم الأديب أبو عبد الله سيدي محمد بن ميمون...فإنه ألف في هذا السيد[46] –نصره الله– كتابا سماه المقامات، وفي الحقيقة قلائد العقبان تضم سطوره آليات دروسه نقلت سمعا حمائم البستان".[47]

الملاحق والفهارس:

لا يخامرنا الشك أن الملاحق لها أهميتها بالنسبة للمخطوط، إذ تحتوي على خرائط توضيحية، ويجب أن تكون في أخر الدراسة، وتشمل خرائط لتعيين بعض المدن والمناطق التي جرت فيها الأحداث.[48]

لقد خلت ملاحق التحفة المرضية من مثل هذه الخرائط التوضيحية عدا خريطة في آخر الكتاب مع إرفاقها بصورتين لمدينة وهران وبابها الرئيس، إضافة إلى نسختين من المخطوط، وكان من المستحسن أن تكون صورتا المخطوط في بداية الدراسة.

كما أفادنا المحقق بملاحق تستحق الثناء منها: الملحق الأول تخص الأشعار التي قيلت في مدينة وهران وثاني يتحدث فيه عن تأسيسها وثالثها: ترجم فيه لعبد الرحمن الثعالبي ترجمة وافية وشافية.

أما فيما يتعلق بالفهارس العامة، فهي تكتسي أهمية كبرى في دراستنا لأي مخطوط، فعادة أن المخطوطات هي بدون فهارس، لذا يحرص كل محقق على إلحاق دراسته لها بفهارس تضم عادة فهارس الموضوعات التي تناولها المخطوط وفهارس للأعلام وللأماكن والقبائل، والأشعار، بالإضافة إلى ذكر تبث بالمصادر التي ساعدته على التحقيق.

لقد التزم المحقق بهذه المنهجية مما سهل على كل من يروم مطالعة هذا الكتاب المحقق الرجوع إلى هذه الإحالات مباشرة دون عناء يذكر، و أولى هذه الفهارس.

قائمة المصادر والمراجع والتي التزم بها المحقق، فكانت متعددة ومتنوعة ما بين عربية وفرنسية، إلا أن ترتيبها كان من الواجب أن تكون في آخر الكتاب وقبل فهرس الموضوعات، لكن المحقق جعلها في الوسط مباشرة بعد النص المحقق، ثم بعد تناوله للملاحق ينتقل مرة ثانية لعرض أهم المصادر والمراجع باللغة العربية.

أما عن فهرس الموضوعات، فقد التزم بها وذكرها في موضعها.

وفي الأخير اعتنى بفهرس الألقاب وأوردها على حسب الحروف الهجائية، ونفس المنهجية اتبعها مع فهرس الأنساب، ثم أتبع كل ذلك بفهرس القوافي الشعرية ثم اعتنائه بفهرس آي القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وفهارس الأمكنة والبلدان.

الخاتمة: لا يخامرنا الشك أن هذا العمل الذي قام به هذا الباحث والمحقق يعد من الأعمال الجليلة التي تستحق التقدير والتثمين، فبتحقيقه لهذا المخطوط يكون قد حافظ على جزء من تراثنا الثقافي، وأضاف كتابا جديدا يضاف إلى باقي الكتب المحققة التي تمتلئ به رفوف مكتباتنا.

يدخل هذا الانجاز العلمي في إطار إعادة إحياء التراث المخطوط، وبخاصة إذا كان يتعلق بفترة غطت جزءا من تاريخ الجزائر على العهد العثماني بما حملته هذه الفترة من معلومات عن شخصيته هذه، وهي شخصية الداي محمد بكداش، مما يؤكد على أن الجزائر رغم تبعيتها للدولة العثمانية إلا أنها حافظت على استقلالها في ميادين مختلفة، فرسمت لنفسها طريقا، ونهجت لنفسها سياسة تتماشى مع الأوضاع الراهنة آنذاك منها: تكالب الدول الاستعمارية على بلاد الجزائر المحمية.

وليسعنا في الأخير إلا أن نثمن هذا العمل لإفادة كل من يروم الغوص في خبايا هذا التراث والذي يمكن اعتباره تراثا تاريخيا وأدبيا، يستفيد منه كل من أراد الغوص فيه والذي لازال الكثير منه حبيس دور المكتبات والأرشيف ينتظر من يطلق سراحه ليرى النور من جديد.

الفهارس:

1–محمد زكريا عناني وسعيدة محمد رضوان: في مناهج البحث وتحقيق النصوص – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ط1 – 1999م – ص211 – 225. فرج الله عبد الباري: مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة – دار الآفاق العربية – القاهرة – ط1 – 2004م – صص115–116.

2-فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي- مكتبة آية الله العظمى المرعشي – قم – إيران – ط2 – 1982م – ص136.

3-ابن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية – تقديم وتحقيق: د/ محمد بن عبد الكريم – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر – مقدمة المحقق – ص107.

4- بشارة عواد معروف: في تحقيق النص – أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان – ط1 – 2004م – ص266.

5-محمد زكريا عناني: نفسه – ص189 – صص207-208. ومن أمثلة هذا النوع الأخير ما قام به ليفي بروفنسال في جمع لمادة الأندلس من الروض المعطار، ووسمه بـ: صفة جزيرة الأندلس.

6-حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات – دار النهضة العربية- بيروت – لبنان – 2004م – ص147. وينظر فرج الله عبد الباري: نفسه – ص120.

7- ينظر عنها ابن ميمون: نفسه – هامش1 – ص111.

8- ابن ميمون الجزائري: نفسه – مقدمة المحقق – ص101.

9- ينظر نفسه : ص139-239.

10-نفسه – ص172-231.

11-نفسه- نفس الصفحتين و ص247.

12-نفسه: صص196-201.

13-مثل تأثير العوامل الطبيعية كالرطوبة مثلا: على المخطوط، فيؤدي إلى طمس كلمات أو جمل منه، أو تأتي عليه بعض الحشرات، فيؤدي إلى تآكل أجزاء منه.

14-حسان حلاق: نفسه – ص149. فرج الله عبد الباري: نفسه – ص121.

15-المزاري: طلوع سعد السعود "في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا" "إلى أواخر القرن التاسع عشر". تحقيق ودراسة: د/ يحي بوعزيز – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان – ط1 – 1990م – ج1 – صص15-16.

16-فرج الله عبد الباري: نفسه – ص121.

17-حسان حلاق: نفسه – ص154. فرج الله عبد الباري: نفسه – ص121. بشار عواد معروف: نفسه – ص342. أسد رستم: مصطلح التاريخ- منشورات المكتبة العصرية – بيروت – لبنان – دت – صص14-15.

18-أسامة عبد الرحمن النور: محاضرات في منهج البحث التاريخي – فاليتا – مالطا – ELGA – 2001م – ص95. وينظر وليد نويهض: المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ – دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ط1 – 1996م – ص65.

19-عبد الرحمن علي الحجي: نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي – دار ابن كثير – دمشق – بيروت – ط1 – 1420هـ/1999م – ص68.

20-ينظر فتيحة النبراوي: علم التاريخ – دراسة في مناهج البحث – دار الآفاق العربية- القاهرة – ط2 – 1996م – ص250.

21-ابن ميمون الجزائري: نفسه – مقدمة المحقق – صص101-102.

22-وتكتب كذلك بهذا الرسم "بكتاش"، ومنها "بكتاشي" وهو المنسوب إلى الطريقة البكتاشية، ويعني كذلك القرين والمكافئ. حسان حلاق وعباس صباغ – المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية و الفارسية والتركية – دار العلم للملايين – بيروت- لبنان – ط1 – 1999م – ص42. وينظر في ترجمته الجامعي: فتح مدينة وهران – تحقيق: د/ مختار حساني: مخبر المخطوطات – جامعة الجزائر – 2003 – ص50.

23-ينظر محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر – شرح وتعليق: د/ ممدوح حقي – منشورات تالة – الأبيار – الجزائر – 2007م – ج1 – صص137-138.

24-ينظر عنه عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام – ديوان المطبوعات الجامعية – بن عكنون – الجزائر – ط7 – 1415هـ/1994م – ج3 – صص206-207. وأبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي – دار البصائر – الجزائر – ط6 – 2009م – ج1 – ص418-470.

25-ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان – ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر – 1986م – ص228 وما يليها. وينظر عنه كذلك ابن صعد التلمساني – روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين – تحقيق: د/ يحي بوعزيز – دار البصائر للنشر والتوزيع – 2008م – ص35 وما يليها.

26-البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – تحقيق: علي محمد البجاوي – دار الجيل – بيروت – لبنان – ط1 – 1412هـ/1992م – ج2 – ص882.

27–المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب – تحقيق: يوسف الشيخ البقاعي – دار الفكر – بيروت – لبنان – ط1 – 1419هـ/1998م – ج1 – ص131–132–149. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة – شرحه وضبطه وقدم له: أ–د/ يوسف علي طويل – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط1 – 1424هـ/2003م – مج1 – ص16.

28–ينظر المصدرين السابقين – نفس الأجزاء والصفحات وكذلك. مجهول: تاريخ الأندلس – تحقيق: أ–د/ عبد القادر بوباية – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط1 – 1428هـ/2007م – ص47 وهامش رقم6 من نفس الصفحة.

29–ينظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية – تحقيق: د/محمد زينهم – الدار الثقافية للنشر – ط1 1425هـ/2004م – ص18.

30–ابن ميمون الجزائري: نفسه – مقدمة المحقق – ص101.

31–حسان حلاق: نفسه – ص150. فرج الله عبد الباري: نفسه – ص92.

32–من أمثال هذه المعاجم – حسان حلاق: المعجم الجامع في المصطلحات – ص42–61–121.

33–ينظر في ترجمتها: عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – دت – ص476.

34–ينظر الزمخشري: أساس البلاغة – تحقيق: أ– عبد الرحيم محمود – دار المعرفة – بيروت – لبنان – دت – صص437–438.

35–المهارق، جمع المهرق وهي من لوازم الكتابة في العهد المملوكي وهو القرطاس (الورق) الذي يكتب فيه. حسان حلاق: المعجم الجامع – ص214.

36–ابن حزم: جمهرة أنساب العرب – راجع النسخة وضبط أعلامها: عبد المنعم خليل ابراهيم – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط4 – 1428هـ/2007م – ص271 وينظر المشرفي عبد القادر: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر – تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان – دت – ص20 وما يليها – ويذكر المشرفي أن نسبهم يعود الى عامر بن ابراهيم بن يعقوب بن معروف الى أن ينتهي الى عامر بن زغبة.

37–سورة ابراهيم، الآية24.

38–ابن ميمون الجزائري: نفسه – هامش2 – ص117.

39–ينظر عن الفتح الأول لمدينة وهران، المزاري: نفسه – ج1 – ص235.

40–ابن ميمون الجزائري: نفسه – صص83–85.

41–ينظر ابن ميمون: نفسه – صص114–118.

42–ابن ميمون: نفسه – صص262–264.

43–نفسه – صص107–108.

44–ينظر الجامعي: نفسه – ص50.

45–ينظر ابن ميمون: نفسه – صص12–80.

46–يقصد به الداي بكداش.

47–الجامعي: نفسه – ص50.

48–حسان حلاق: نفسه – ص154.

الكتابة التاريخية في الجزائر: العهد العثماني نموذجا-

د. بوشنافي محمد*

سعت الجزائر بعد الاستقلال إلى إعادة كتابة تاريخها، كتابة علمية موضوعية، هادفة من وراء ذلك إلى التخلص مما ألصقه الاستعمار طيلة قرن واثنين وثلاثين عاما بهذا التاريخ من أباطيل وأكاذيب، غايته من ورائها منح وجوده في البلاد صبغة شرعية وفصل الشعب الجزائري عن مقوماته وأصالته وانتمائه العربي الإسلامي[1].

ولعل من أهم فترات تاريخ الجزائر التي تعرضت للطمس والتهميش طيلة الاحتلال الفرنسي، كانت الفترة العثمانية، فرغم طول مدتها التي تجاوزت ثلاثة قرون من الزمن، ورغم ما عرفته من انجازات سياسية وعسكرية، جعلت الجزائر تكون محورا هاما في العلاقات الدولية بمنطقة البحر المتوسط، فإن الفرنسيين اعتبروها عهدا للاستبداد والظلم سلطه العثمانيون على الجزائريين، كما بينوا أنها كانت مرحلة فوضى سياسية وصراع على السلطة مما نتج عنه ظاهرة الاغتيالات، فأولئك الذين تحكموا في مقاليد الحكم، حسبهم، لم يكونوا إلا جماعة من الأميين الذين لم يتوفر لديهم أي نصيب من الخبرة السياسية، فمعظمهم كانوا من اللصوص والمجرمين ورعاة الأغنام والأبقار الذين ابتسم لهم الحظ فأصبحوا أسيادا[2]، وقد مكنهم ذلك من الهيمنة على خيرات البلاد وثرواتها ، في وقت بقيت غالبية السكان تعاني الفقر والحرمان، وبعبارة أخرى فان الفرنسيين حاولوا من خلال هذه الكتابات أن يبرروا احتلالهم للجزائر وأن ذلك جاء لتخليص السكان من هؤلاء المحتلين كما زعموا.

ونحن هنا لا نريد أن نطنب في الحديث عما أنتجه الفرنسيون من مؤلفات عن هذه الفترة من تاريخ الجزائر، لأن ذلك ليس موضوع مداخلتنا، وإنما سينصب اهتمامنا على ما أنتجه

* – أستاذ محاضر "أ" في التاريخ الحديث– قسم التاريخ– جامعة جيلالي اليابس– سيدي بلعباس.

المؤرخون الجزائريون من دراسات، سعوا من خلالها إلى إصلاح تلك النظرة والأحكام السلبية الموروثة عن المدرسة الاستعمارية. فماهي طبيعة هذه الكتابات؟ وماهي الإشكاليات والمواضيع التي عالجتها؟ وهل استطاعت أن تؤسس من خلال ذلك لمدرسة جزائرية أصيلة غير متأثرة بمنهجية الفرنسيين الذين أرخوا لتلك الفترة؟.

إن مما يجب إبرازه في هذا المجال، أن اهتمام الجزائريين بالعهد العثماني ليس وليد مرحلة ما بعد الاستقلال، وإنما برز خلال الفترة الاستعمارية نفسها ببروز جماعة من المثقفين الذين حملوا أقلامهم للرد على ما الصقه الفرنسيون من تهم ومغالطات بتلك الفترة، وساعين إلى إبراز أمجاد وانتصارات الجزائريين آنذاك، كما عملوا على إحياء التراث الموروث من خلال تحقيق عدد هام من المخطوطات التي ألفها معاصرو ذلك العهد، وفي هذا المجال برز عدد من الجزائريين، بعضهم تخرج من مدارس فرنسية وآخرون تشبعوا بالثقافة العربية الإسلامية لما تكوّنوا في الجامعات بالبلدان العربية والإسلامية.

يعتبر محمد بن أبي شنب من الصنف الأول، وان قد ولد في يوم الثلاثاء 26 أكتوبر 1869 بمنطقة عين الذهب قرب المدية، تعلم القرآن في صغره، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في المدية أين تعلم اللغة الفرنسية، ومنها انتقل إلى الثانوية، وفي عام 1886 التحق بمدرسة المعلمين في العاصمة ليتخرج منها برتبة أستاذ في اللغة الفرنسية سنتين بعد ذلك وعمره لا يتعدى تسعة عشرة سنة، وفي 19 جوان1894 اجتاز امتحانا بجامعة الجزائر أين تحصل على شهادة في اللغة العربية، ليختم ذلك بنيله لشهادة الدكتوراه في الآداب بدرجة ممتاز، مما مكنه من الالتحاق بكلية الآداب الكبرى في العاصمة عام 1924[3]. فلا يمكننا أن ننكر فضله في إعادة إحياء الكثير من المخطوطات، ومنها ما يتعلق بالفترة موضوع دراستنا نحددها فيما يلي:

- نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبو العباس سيدي احمد عام 1902.
- البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم المليتي التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد في عام 1908.
- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار للورثلاني الحسين بن محمد في سنة 1908.
- يخبرنا المرحوم عبد الرحمن الجيلالي أن ابن أبي شنب كان قد حقق كتاب " طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار" الذي ألفه الشيخ محمد العربي المشرفي الغريسي مع مخطوطات ومؤلفات أخرى ولكنها لم تنشر[4].

وعاصر ابن أبي شنب جزائري آخر ساهم بدوره في الترجمة لعدد هام من علماء الجزائر عبر العصور، ثلة منهم عاشت خلال العهد العثماني، إنه أبو القاسم الحفناوي صاحب كتاب "تعريف الخلف برجال السلف"، الذي ألف كتابه هذا في عام 1906 معتمدا على عدد من المصادر مثل نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي وغيره.

مع مطلع الثلاثينات من القرن الماضي تزايد نشاط الحركة الوطنية، وتعددت أساليب المواجهة ضد الاستعمار، والتي كانت كلها سلمية، فأصبح الافتخار بأمجاد الجزائر وتاريخها إحدى هذه الوسائل، خاصة مع بروز جماعة من المؤرخين الذين واصلوا مشوار سابقيهم، فأنتجوا كمّا محترما من المؤلفات نصيب منها يتعلق بالعهد العثماني، رغم أن هذه الكتابات كانت تفتقر في كثير من الأحيان إلى الموضوعية، وهذا طبيعي لأنها جاءت كرد فعل عما كتبه الاستعمار وما مارسه من مظالم في حق الجزائريين، خاصة بعد الاحتفالات المئوية المخلدة للاحتلال في1930. وبالتالي فإن الغرض الأساسي منها لم يكن علميا محضا بل كان إحدى وسائل النضال ضد الاستعمار. ولكن كل ذلك لا يجعلنا نقلل من أهميتها بالنظر إلى الظروف التي كتبت فيها، فلقد كانت سلاحا هاما ضد سياسة التشويه والتغليط التي انتهجها الاستعمار في حق تاريخ الجزائر، كما كانت تذكيرا للجزائريين ببطولات سابقيهم بهدف نشر الوعي والحماسة بينهم.

في هذا الإطار نذكر نماذج لهذا الصنف من الكتابات، فالشيخ مبارك الميلي ألف كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث في عام 1929-1930، أما المرحوم أحمد توفيق المدني فكان أكثر إنتاجا حيث خص العهد العثماني بعدد هام من المؤلفات وتحقيق مخطوطاتها ومنها على سبيل المثال:

- كتاب الجزائر في عام 1930.
- محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، وكان قد ألفه في سنة 1938.
- حرب الثلاثمائة سنة بين اسبانيا والجزائر 1492-1792، أصدره بعد حصول الجزائر على استقلالها.
- تحقيق مذكرات أحمد الشريف الزهار الذي كان يتولى نقابة أشراف الجزائر في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال.

أما المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فأصدر أربعة مجلدات حول تاريخ الجزائر من القديم إلى غاية عام 1954، وخصص الجزء الثالث منه للعهد العثماني، مع ملاحظة أن الجزئيين الأخيرين لم يصدرهما ألا بعد الاستقلال، عكس الجزء الغول والثاني اللذين طبعهما في عامي 1954-1955.

وإذا أردنا أن نقيم هذه الأعمال فإننا نتوصل إلى النتائج التالية:

- إن معظم هذه الكتابات كانت ردا عما كتبه مؤرخو المدرسة التاريخية الفرنسية، فهي محاولة لتصحيح المغالطات التي ألصقت بتلك الفترة، ولهذا فكثيرا ما نجدها تعتمد على الذاتية وتبتعد عن الموضوعية والمنهجية العلمية، ولكن ذلك لا يقلل من أهميتها بالنسبة لكتابة تاريخنا الوطني.

- بعض هؤلاء المؤرخين ألفوا كتبهم بطلب وتشجيع من الفرنسيين، فمحمد بن أبي شنب حقق وألف بدعم من أستاذه رينيه باصي، أما أبو القاسم الحفناوي فألف كتابه تعريف الخلف برجال السلف، بطلب من الإدارة الاستعمارية وعلى رأسها دومينيك لوسياني الذي كان يشرف على إدارة شؤون الأهالي في مطلع القرن العشرين[5]، وحتى هذا الأخير كانت له مساهمة في تحقيق وترجمة بعض الأعمال الجزائرية، ومنها على سبيل المثال مؤلفين لعبد الرحمن الأخضري: السلم المرونق في المنطق والدرة البيضاء، والعقيدة الصغرى لمحمد بن يوسف السنوسي وكتاب "الحوض" باللغة الأمازيغية لمحمد بن علي بن إبراهيم السوسي[6] .

- إن أصحاب هذه المؤلفات كان معظمهم من ذوي التوجه العربي- الإسلامي، فلم ينبهروا بالاستعمار وأعماله، بل حاولوا جاهدين أن يبرزوا البعد الإسلامي للشعب الجزائري، فبعضهم كانوا من الأعضاء البارزين في جمعية العلماء المسلمين مثل المرحومين أحمد توفيق المدني ومبارك الميلي، فجمعوا بذلك بين النضال عن طريق السياسة والقلم.

- اضطر كثير من هؤلاء إلى الاعتماد في كتاباتهم على مصادر أجنبية لاستنباط معلوماتهم، رغم ما تحويه من دسائس ومغالطات، فأحمد توفيق المدني لما ألف كتابه عن الداي محمد عثمان باشا، اقتبس جزءا هاما من مذكرات فونتور دي بارادي التي تتعلق بحياة هذا الداي وأعماله[7]، ولكنه يبرر ذلك في مقدمة الكتاب حين يذكر بأن المصادر العربية التي تؤرخ للعهد العثماني نادرة جدا، وحسبه فإن ذلك مرده إلى حالات الحروب واللااستقرار، إلى جانب الاختلاس الذي تعرضت له المكتبات، فنتج عن ذلك فقدان العديد من المصادر، كما يبين أن

بحثه عنها استغرق عشر سنوات، وفي الأخير لم يعثر إلاّ "على بعض رسائل مقتضبة، وعلى قسم من مذكرات نقيب أشراف الجزائر...وعلى كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية"[8].

وبعد حصول الجزائر على استقلالها عرفت الكتابة التاريخية عموما، وتلك المتعلقة بالعهد العثماني خصوصا، مرحلة جديدة أهم ما يميزها وفرة الإنتاج وتنوع المواضيع المدروسة من قبل المؤرخين الجزائريين، أي أن الاهتمام بذلك العهد عرف تزايدا ملحوظا، كما أن الكتابات أصبحت تعتمد على الموضوعية والتحليل بعيدا عن السرد. جسد هذا العهد الجديد جماعة من المؤرخين تكوّن معظمهم في الجامعات الجزائرية، ومنهم من واصل دراسته في الخارج، إما في بلدان عربية أو غربية، فاكتسبوا ملكة التحليل والكتابة العلمية والمنهجية، كما أن الظروف مكنتهم من الاطلاع على ما احتوته دور الأرشيف والوثائق داخل البلاد وخارجها، فأنتجوا أعمالا أكاديمية لا تمت بأي صلة بالتقليد.

يضاف إلى ما سبق ذكره، أن هؤلاء المؤرخين جمعوا بين الكتابة باللغة العربية والأجنبية، كما ساهموا في ترجمة الكثير من المصادر الأجنبية إلى اللغة العربية تسهيلا لعملية استغلالها من قبل الباحثين والدارسين. ولا ننكر ما قامت به الدولة الجزائرية من جهود هدفها استرجاع ما سلبته فرنسا من أرشيف، وكللت جهودها باسترجاع كمّ هام منه وخاصة ذلك المتعلق بالعهد العثماني المتمثل في سجلات المحاكم الشرعية الموجودة حاليا بالمركز الوطني للأرشيف الجزائري، وهي محفوظة في مائة وثمانية وخمسين علبة، إلا أن عملية الاسترجاع لم تتم دفعة واحدة بل استغرقت فترة طويلة من الزمن، وما زال الكثير من هذا الأرشيف موجودا في فرنسا وفي كثير من الدول التي ربطتها علاقات بالجزائر خلال العهد العثماني.

كما نذكر في هذه المجال ما قام به الأستاذ أحمد توفيق المدني لما كان سفيرا في تركيا، حيث صور أكثر من ثلاثة ألاف وثيقة من وثائق خط همايون واستقدمها إلى الجزائر، ثم قام الأستاذان فكري طونا ومحمد داوود التميمي بترجمتها إلى اللغة العربية[9]. إن وفرة الوثائق كان له أثره الايجابي في دفع المختصين إلى كتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني وفق أسس علمية وموضوعية اعتمادا على هذه الوثائق.

كما أن الإنتاج العلمي للمؤرخين الجزائريين بعد الاستقلال حول الفترة العثمانية متنوع ومتعدد، فهو يجمع بين الترجمة والتحقيق والتأليف:

- ففي ما يخص الترجمة قام عدد من المؤرخين والمختصين في الميدان بترجمة عدد من المؤلفات، معظمها عاصر أصحابها الفترة، من لغات شتى إلى اللغة العربية، وما يلاحظ على هذه الأعمال أنها اتسمت بالعلمية، فلم يكتف المترجم بترجمة مضمون الكتاب بل كثيرا ما يضيف إليه تعليقات وتصويبات، وهذا ما يزيد في أهميته ويسهل على القارئ استغلاله، ويمكننا أن نبين نماذج من هذه الترجمات فيما يلي:

* ترجمة الدكتور أبو القاسم سعد الله لكتاب هام يؤرخ للجزائر العثمانية من اللغة الانجليزية إلى العربية، عنوانه الأصلي كان "ساحل شمال افريقية: الجزائر تحت الأتراك، **1500-1830**"، واختار له عنوانا يتماشى مع بعده الوطني، فأصبح "الجزائر وأوربا **1500-1830**"، أما صاحب الكتاب فهو أستاذ التاريخ الأوربي بجامعة مينيسوتا "جون بابتست وولف". وكان للدكتور سعد الله ملاحظات عديدة على هذا الكتاب، ومنها على سبيل المثال قوله "وجدت في هذا الكتاب أمورا تثير الغرابة وأخرى تصدم النفس، وأخرى تزعزع الزاي السائد"، كما بين الصعوبات التي واجهته، ومنها قضية المصطلحات ذات العلاقة بالأماكن والمجال العسكري، وأنه كانت للمؤلف نظرة أحادية، هي النظرة الأوربية-المسيحية، باعتبار أنه اعتمد على المصادر والوثائق الموجودة في الدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط، مهملا الوثائق العربية والعثمانية[10].

* مساهمة المرحوم إسماعيل العربي في ترجمة بعض المصادر الأجنبية المتعلقة بالفترة المعنية، وتشمل مذكرتين، الأولى للقنصل الأمريكي "وليم شالر" في الجزائر ما بين عامي **1816-1824**، والثانية لقنصل نفس الدولة في بلدان المغرب (الجزائر، تونس وطرابلس)، والذي كان أسيرا لدى داي الجزائر محمد عثمان باشا، حيث أسر في **25** جويلية **1785** لما كان على ظهر السفينة "ماريا" ووصل إلى مدينة الجزائر يوم **4** أوت من نفس العام. ومما يلاحظ أن إسماعيل العربي ترجم ثلاثة كتب حول العلاقات الجزائرية-الأمريكية، فبالإضافة إلى المصدرين السابقين، ترجم كتاب "العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة" لمؤلفه اروين، أما غايته من كل ذلك فكانت "توفير ما يمكن من المراجع الانجليزية والأمريكية باللغة العربية، حتى تكون قاعدة يستند عليها البحث التاريخي في المستقبل"[11]

* ترجمة المرحوم أبو العيد دودو لمصدر من اللغة الألمانية إلى العربية، لصاحبه الأسير الألماني "سيمون بفايفر"، الذي عاصر أواخر العهد العثماني بالجزائر وكان شاهدا على دخول الفرنسيين إليها[12].

* ترجمة الدكتور محمد العربي الزبيري كتاب "المرأة" لحمدان خوجة.

إن ما ذكر سابقا ليس إلا نماذج من أعمال عديدة أنتجتها المدرسة التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال في مجال الترجمة، ومما يلاحظ عليها أنها ترتكز على القواعد العلمية مما يبين تحكم أصحابها في أدوات وتقنيات الترجمة، فهم لا يتصرفون في المضمون بل يتركونه على حاله بما فيه من أخطاء تاريخية، ويكتفون ببعض التعليقات في الهوامش، والتي تكون جد مختصرة، تتضمن في كثير من الأحيان:

- شرح مصطلح وتوضيحه.
- تحديد منطقة جغرافية.
- تصحيح أسماء بعض الأشخاص والأماكن.
- تعليق مختصر على فكرة أو تصحيح أخرى.
- تعريف ببعض الشخصيات والمؤلفات.

أما فيما يخص التحقيق فإنه يتميز بالكثرة والتنوع في المواضيع، خاصة بعدما أمكن التوصل إلى كثير من المخطوطات ذات العلاقة بالعهد العثماني، داخل البلاد وخارجها، وبذلك توفرت لدى المؤرخين مادة علمية هامة برزت نتائجها في كثرة المخطوطات التي تم تحقيقها، وهناك أسماء عديدة كان لها فضل في هذا المجال نذكر بعضا منها فقط كأمثلة، فالمرحوم المهدي البوعبدلي حقق مخطوطين هامين حول هذه الفترة، الأول "دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران" للزياني محمد بن يوسف[13]، أما الثاني فكان "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" لابن سحنون الراشدي الذي يؤرخ لفتح وهران الثاني من قبل الباي محمد الكبير عام 1792 وبالتالي طرد الأسبان نهائيا منها[14]، كما لا ننكر ما قام به المرحوم محمد بن عبد الكريم حيث حقق بدوره كتاب "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" لأبي راس المعسكري الذي يؤرخ لرحلته مشرقا ومغربا[15]، وكتاب "السعي المحمود في نظام الجنود" للقاضي الحنفي في أواخر العهد العثماني محمد بن محمود العنابي، الذي دعا فيه إلى الاقتباس من نظام الجيوش الأوربية متأثرا في ذلك بالثورة الفرنسية وإصلاحات محمد علي باشا (1805-1840)[16]، إلى جانب "التحفة المرضية في الدولة البكداشية" لمحمد ابن ميمون، وجاء في شكل مقامة شعرية تمجد دور الداي محمد بكداش (1707-1710) في فتح وهران الأول عام 1708[17].

كما حقق عدد من الأساتذة الجامعيين مخطوطات عثمانية تحقيقا علميا، فالدكتور سعد الله أبو القاسم كان قد حقق مخطوط "منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية" لعبد الكريم بن الفكون القسنطيني (ت1073هـ) الذي تكمن أهميته في أنه يفضح بعض متولي الوظائف الشرعية بقسنطينة من حيث تدني مستواهم العلمي ولجوئهم إلى الرشوة لتولي هذه المناصب أو عند الحكم بين المتخاصمين[18]. كما حقق مخطوط رحلة ابن حمادوش المسماة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، معتمدا على نسخة واحدة فقط، رغم ما بذله من جهود أملا في الحصول على نسخة أخرى، حيث ربط اتصالات مع أشخاص من المملكة المغربية واسبانيا ولكن دون جدوى، كما يؤكد بأن النسخة المتوفرة لديه ما هي إلا الجزء الثاني من الرحلة بينما تبقى أجزاؤها الأخرى في حكم المفقود[19].

أما الدكتور ناصر الدين سعيدوني فنجده يحقق مخطوط "قانون أسواق مدينة الجزائر"، وهو مخطوط موجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة تحت رقم 1670 ويحمل عنوان "أوامر تركية"، ومما يجب ذكره أن هذا المخطوط يشكل مصدرا أساسيا لدراسة المعاملات الاقتصادية في أسواق المدينة وتنظيمها من خلال ما يحتويه من معلومات حول أنواع الضرائب وقيمتها وعمليات البيع والشراء وتسعير المواد المختلفة، خاصة تلك الواسعة الاستهلاك والتي كانت مدعمة من طرف حكومة الإيالة، وغيرها من المعلومات القيمة التي تعطينا صورة واضحة حول الحياة الإقتصادية للجزائر خلال العهد العثماني[20].

وإضافة إلى ذلك يقدم لنا هذا المخطوط معطيات حول المهام التي كان يمارسها عدد من الموظفين في المجال الحرفي والتجاري، ومن هؤلاء نذكر القاضي ومعاونيه، كالمحتسب الذي كان يسهر على مراقبة جودة الإنتاج ومطابقة الموازين والمكاييل لتلك التي تحددها الحكومة، كما يراقب الأسعار، ويعاقب كل شخص يخل بالقوانين، كما نجد ذكرا لشيخ البلد الذي كان يتدخل لفض النزاعات وحل مشاكل أصحاب الحرف والتجار، هذا إضافة إلى أمين الأمناء وأمناء الحرف الذين بذلوا قصارى جهودهم لتنظيم النشاط الحرفي، ومن الملاحظات التي استقيناها من هذا المخطوط، إضافة إلى ما سبق ذكره، أن الداي كثيرا ما كان يتدخل بنفسه من خلال إصدار أوامر ذات علاقة بالنشاط الاقتصادي.

كما تبرز أهمية هذا المخطوط في أنه يعطينا نظرة عامة عن المعاملات اليومية من خلال سرده لأنواع الحرف والخدمات التي كانت تمارس في المدينة، كما يحدد لنا عددا هاما من

العاملين في الحقل الاقتصادي في هذه الأسواق، فهو يعرفنا بجماعة الدلالين، والحمالين والجلابين والوزانين والتبانين والحواتين والسراجين وغيرهم، حيث يحدد لنا بوضوح ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات.

ونظرا لأهميته، فنجد أن معظم الدراسات العلمية الأكاديمية أصبحت تعتمد عليه في إستيقاء المعلومات، حيث أشاد بقيمته عدد كبير من الدارسين والباحثين، ومن هؤلاء الأساتذة غطاس عائشة من خلال رسالة دكتوراه الدولة الموسومة "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 (مقاربة اجتماعية-اقتصادية)"[21].

ولم يهمل الدكتور يحي بوعزيز تحقيق المخطوطات، فنجده يحقق على سبيل المثال مخطوط "طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود" للآغا بن عودة المزاري، ويذكر في مقدمته أن عملية تحقيقه كانت شاقة ومتعبة، لكثرة الصعوبات التي اعترضت سبيله، ابتداء بصعوبة الحصول على نسخة منه من متحف زبانة، إلى جانب الأخطاء الواردة فيه، مما صعب عملية قراءته وتصحيحه[22]. أما المخطوط الآخر فكان لمحمد الصالح بن العنتري والموسوم بـ: "فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (أو تاريخ قسنطينة)"، وهو مخطوط هام لأنه يؤرخ للبايات الذين حكموا قسنطينة خلال العهد العثماني، وأهم الأحداث التي عرفتها المدينة آنذاك[23]. أما الدكتور غانم محمد فكان له فضل تحقيق مخطوط "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" لمحمد بن أحمد أبي راس الناصر.

وفيما يخص ميدان التأليف فنجده ضخما يشمل مواضيع متنوعة، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وبلغات شتى، وأهم ما يلاحظ أن مؤرخي عهد الاستقلال بدؤوا يخوضون في مواضيع لم تدرس من قبل سابقيهم، معتمدين في ذلك على الوثائق والمخطوطات، ويندرج في هذا المجال المؤلف الضخم للدكتور سعد الله "تاريخ الجزائر الثقافي"، الذي خصص جزءه الأول والثاني للحديث عن الفترة العثمانية، فأصدر مجموعة من الأحكام على واقع الثقافة آنذاك، منها أنها شكلت عهد تقهقر وجمود فكري لم يقتصر على الجزائر فحسب بل شمل كل العالم الإسلامي، رغم بروز بعض النشاط ابتداء من القرن السابع عشر رافق قدوم عدد من العلماء إلى الجزائر ووفرة الكتب وتنوع تخصصاتها. كما يبين خصائص ثقافة العصر من حيث أنها ركزت على العلوم النقلية وانتشار الدروشة والاعتماد على الشروح والحواشي لأعمال سابقة دون أن يكون هناك ابتكار[24].

ويضاف إلى ذلك ما كتبه أساتذة تخصصوا في هذه الفترة مثل الدكتور ناصر الدين سعيدوني، والمرحومة عائشة غطاس التي لا تخلو كتاباتها من الوثائق والمرحومين مولاي بالحميسي ويحي بوعزيز وغيرهم من الجيل الجديد المتخرج من الجامعة الجزائرية.

إن تقييما موضوعيا لما كتب عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني يجعلنا نؤكد أن هناك جهودا معتبرة بذلت من قبل مؤرخينا في هذا المجال، غير أن ذلك لا ينفي وجود كثير من الإشكاليات والقضايا التي ما زالت عالقة إلى الآن، سواء بالنسبة لتلك الفترة أو الفترات الأخرى، والتي لن تجد لها إجابات إلا بتكثيف البحث في المصادر الأساسية من مخطوطات ووثائق.

وهناك إشكالية أخرى عند تناول هذه الدراسات، وهي: هل استطاعت أن تؤسس لمدرسة تاريخية جزائرية لها خصائصها ومقوماتها، أم أنها لا تعدو أن تكون تكرارا وتبعية لما يصطلح على تسميته "المدرسة التاريخية الاستعمارية"؟[25].

إن المواقف والآراء تختلف تجاه هذه القضية، فالكثير يرى أن الكتابات التاريخية الجزائرية ما زالت لم تتحرر من إرث الاستعمار، وأن أصحابها يتبنون وجهات نظر المؤرخين الفرنسيين خاصة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء مناقشتها ومحاولة دراسة هذه الوقائع من خلال نظرة جزائرية، أي ربطها بواقع المجتمع الجزائري آنذاك، وهذا لا يعني أبدا أن نعتمد الذاتية في ذلك، وإنما معالجة قضايا تاريخ الجزائر السلبية والايجابية دون خجل أو وجل. أما طرف آخر فيرى أن هذه الكتابات بالغت في الذاتية حتى فقدت طابعها العلمي، فأصحابها يغلب عليهم التحيز، وبذلك فهي تشوه تاريخنا الوطني أكثر مما تدافع عنه.

ومما يزيد في تعقيد المشكلة أن بعض الباحثين عندما يتناولون تاريخ الجزائر، فإنهم يربطون وقائعه بالخارج مهملين بذلك العامل الداخلي، فبعض الكتابات ترى على سبيل المثال "أن الزراعة مثلا ظهرت بالجزائر مع قدوم الفينيقيين وأن تطور الزراعة وتوسعها نتيجة للاحتلال الروماني وأن الجهاد البحري نتج عن قدوم الأتراك كما أن ظهور الحركة الوطنية الحديثة كان بفعل تأثير الأحزاب اليسارية بفرنسا ونتيجة لاتصال الجزائريين بالثقافة الغربية"[26]، فهؤلاء ينكرون أي دور للجزائريين في صناعة تاريخهم، أي أنهم مجرد متأثرين ومتقبلين لما يرد عليهم من الخارج، وهذه فكرة لا أساس لها من الصحة.

ولا ننسى كذلك المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق الجامعة الجزائرية تجاه البحث التاريخي، فلا بد عليها أن توجه الطلبة والباحثين إلى دراسة المواضيع ذات الأهمية الوطنية والابتعاد عن تلك الدراسات الهامشية التي لا تقدم أية فائدة لتاريخنا الوطني، هذا إلى جانب التركيز على التحليل المعمق للأحداث والوقائع مع الابتعاد عن السرد والسطحية والذاتية في معالجة قضايانا التاريخية، وبهذا يمكن أن نؤسس لمدرسة تاريخية جزائرية أصيلة.

الهوامش:

1- يبرز ذلك من خلال الكم الهائل من الكتابات خلال الحقبة الاستعمارية، مثل كتابات جوليان و غوتيي و قزال وغيرهم.

2- من ذلك مثلا أن السكان كانوا مجبرين على إبداء مظاهر الطاعة و الخضوع للعثمانيين، فإذا صادفوا أحد الجنود في الشارع يفسحون له الطريق و يحيونه بلقب "أفندي"، انظر:

Laugier de Tassy. Histoire du Royaume d'Alger (1724). Edition Loysol , Paris, 1992, p.126.3

الجيلالي عبد الرحمن، محمد بن أبي شنب حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص ص 13-20.

4- المرجع نفسه، ص 32.

5- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2005، ص 172.

6- نفسه، ص ص 72-74.

7- المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص ص 161-187.

8- نفسه، ص ص 8-9.

9- سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 75.

10 – جون بابتست وولف، الجزائر وأوربا 1500-1830 (ترجمة سعد الله أبو القاسم)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 9-11.

11- كاثكارت لياندر، مذكرات أسير الداي قنصل أمريكا في المغرب (ترجمة وتعليق و تقديم العربي إسماعيل)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص4.

12- بفايفر سيمون، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر (تقديم و تعريب دودو أبو العيد)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974.

13- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران (تحقيق و تقديم البوعبدلي المهدي)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1978.

14- الراشدي بن سحنون أحمد بن محمد بن علي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني (تحقيق و تقديم البوعبدلي المهدي)، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، قسنطينة، 1973.

15- أبو راس محمد الجزائري، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته (حققه و ضبطه و علق عليه الجزائري محمد الكريم)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص108.

16- ابن العنابي محمد بن محمود، السعي المحمود في نظام الجنود (تقديم و تحقيق الجزائري محمد بن عبد الكريم)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

17- الجزائري محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية (تقديم و تحقيق الجزائري محمد بن عبد الكريم)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1981.

18- الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية (تقديم وتحقيق و تعليق سعد الله أبو القاسم)، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1987.

19- الجزائري عبد الرزاق بن حمادوش، الرحلة- المسماة :لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب والحال (تقديم وتحقيق و تعليق سعد الله أبو القاسم)، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1983.

20- الشويهد، عبد الله بن محمد، قانون أسواق مدينة الجزائر(1107-1117/1695-1705) (تحقيق وتقديم وتعليق سعيدوني، ناصر الدين)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.

21- نوقشت هذه الرسالة بجامعة الجزائر أثناء الموسم الجامعي 2000-2001، ثم نشرت في كتاب في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

22- لمزيد من التوضيح، راجع : المزاري بن عودة الأغا، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر و اسبانيا وفرنسا (تحقيق و دراسة بوعزيز يحي) جزأين ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 .

23- أنظر : ابن العنتري محمد الصالح، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة و استيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة (مراجعة و تقديم و تعليق بوعزيز ، يحي) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1991.

24- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي...، الجزء الأول، ص ص 19-20.

25- هناك جهود معتبرة تبذل في هذا المجال من خلال التنسيق بين مؤرخي الجزائر للتوصل إلى صيغة مشتركة حول معالم هذه المدرسة، انظر العدد الخاص الذي أصدره اتحاد المؤرخين الجزائريين في عام 1998 حول " المدرسة التاريخية الجزائرية" والذي تضمن عددا من الدراسات كلها تعالج هذه القضية.

26- سعيدوني ناصر الدين، ورقات...،ص20.

إسهام العائلة المشرفية في الكتابة التاريخية

د. بلبروات بن عتو*

تمهيد: أنجبت العائلة المشرفية عددا من العلماء الأعلام، منهم من عاصر الزيانيين، ومنهم من عايش الأتراك العثمانيين بالجزائر خلال عصر الدايات، ومنهم من شهد الاحتلال الفرنسي وتفاعل مع ثورة الأمير عبد القادر، مما اضطر هؤلاء إلى الهجرة نحو فاس، عاصمة الدولة العلوية بالمغرب الأقصى.

هؤلاء العلماء المشرفيون سواء الذين سكنوا الجزائر أو المغرب، اهتموا بعلوم شتى منها الأدب والنحو والاجتماع والطب والدين والتاريخ...وتركوا لنا مخطوطات عديدة موزعة بين الجزائر والمغرب الأقصى وبلدان أخرى، وفي ظل هذا الزخم التراثي للعائلة المشرفية الجزائرية، هناك مخطوطات ذات قيمة علمية هامة ونادرة في الوقت نفسه، تتعلق بالتاريخ العام وتاريخ الجزائر والمملكة المغربية، نحاول التعريف بها قصد الوقوف على مدى مساهمة العلماء المشرفيون في الكتابة التاريخية.

أولا-التعريف بالعائلة المشرفية:

نسب العائلة المشرفية: تنسب العائلة المشرفية إلى قبيلة المشارف، وتتفرع هذه القبيلة إلى أربعة أفخاذ هي: أولاد سيدي أحمد بوجلال، وأولاد سيدي علي، وأولاد سيدي عب، وأولاد سيدي منصور. وكلهم ينحدرون من جدهم الأدنى "مشرف". وقد حظيت العائلة المشرفية بشهرة وسمعة طيبة في غرب الجزائر ولعل ما ساقها إلى هذه الشهرة هو حسبها ونسبها واضطلاعها بأدوار تاريخية في الجزائر والمملكة المغربية خلال فترات متلاحقة من القرنين 18 و19م بل ويمتد إلى القرن 20م.

وتجمع المصادر على النسب الشريف لهذه العائلة بل والقبيلة بأفخاذها الأربعة، وتؤكد على أنها إدريسية النسب من الفرع الحسني، وأنها حصلت من طرف نقابة أشراف الجزائر خلال العهد العثماني[1] ثم العلويين بفاس على عقود نسب، تعترف وتثبت صحة نسبها الشريف. وفي هذا الصدد كتب إدريس الفضيلي، في درره البهية، ما يلي: "وبأيدي هؤلاء المشرفيين رسوم عديدة وفتاوي مفيدة اشتملت على

* – أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث–قسم التاريخ– جامعة سيدي بلعباس.

عشرين عضدتها ظهائر ملوك الترك المستولين على النواحي وقتئذ. وظهائر الشرفاء أمير المؤمنين عبد الرحمان بن هشام وابنه سيدي محمد وحفيده الحسن إلى غير ذلك."[2]

ويرد الكتاب جميع المشرفيين إلى جدهم سيدي علي بن المشرف، وهذا الأخير ينحدر من ذرية عيسى بن إدريس الثاني. وبالتالي يؤكد نسب المشرفيين على أصلهم العربي المشرقي إلا أن وجودهم قد ارتبط بمنطقة غريس بأحواز مدينة معسكر التي كانت عاصمة لبايليك الغرب الجزائري خلال فترة معينة من القرن 18م. وتشير بعض المصادر إلى أن سلفهم مشرف بن عبد الرحمان بن مسعود قدم من قرية بوسمغون[3] الواقعة في الجنوب الغربي للجزائر إلى غريس حيث تم تعيينه قاضيا من طرف أحد ملوك بني زيان، وفي رواية أخرى أن يوسف بن عيسى الذي يتصل بنسب مشرف بن عبد الرحمان هو الذي قدم من بوسمغون إلى غريس وعين قاضيا بها[4].

وعليه تتضح لنا جليا أن العائلة المشرفية استوطنت بلاد الجزائر سواء كان ذلك في بوسمغون أو غريس، ثم هاجرت إلى المملكة المغربية تحت قهر الاحتلال الفرنسي مثلها مثل العديد من العائلات الجزائرية المهاجرة.

ب-علماء العائلة المشرفية:

1-ابن مشرف محمد: هو الجد الأدنى الذي تنتسب إليه قبيلة المشارف، كان مقيما في القرن 10هـ/ 16م، ببوسمغون، وكان متصلا بالعديد من العلماء والمرابطين في الجزائر والمغرب الأقصى، مثل الفقيه أبي القاسم بن عبد الجبار الفجيجي، والشيخ محمد بن علي أبهلول، والفقيه عاشور التلمساني، ومحمد بن عمرو وغيرهم، وكان قد درس في سجلماسة وتلمسان وفجيج والوطن الراشدي.

ومن أبرز تلامذته سيدي سعيد قدورة، ونعت بالإمام الفقيه الهمام، واشتغل ابن مشرف محمد بالتدريس وبث العلم كما تولى القضاء لبعض أمراء بني زيان.

2-الشيخ يوسف بن عيسى المشرفي: هو الجد الأوسط للعائلة المشرفية، أسس زاوية بالكرط وحملت اسم موضعها، وكان الشيخ معروفا بالعلم والصلاح والتأليف، وذكر الحاج محمد المشرفي (المعاصر لأبي حامد المشرفي)في كتابه السهام الصائبة، أن ذريته عرفت بالتقوى والصلاح والعلم والعدالة.

3-الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي: (ت: 1778م) ولد ونشأ في قرية الكرط بأحواز معسكر، وبها أخذ العلم عن علماء عصره فأصبح يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولما أسس الشيخ مصطفى بن المختار الراشدي، جد الأمير عبد القادر، معهده بالقيطنة، اختاره للتدريس.[5] وبعد ذلك، أسس زاوية

ومعهدا علميا في مسقط رأسه بالكرط، وذكر العربي المشرفي (أبو حامد) أن زاويته كانت لا تخلو من مائتي طالب يأخذون عنه العلم ويطعمهم من ماله زيادة على الوفود والضيوف التي تزوره.[6]

على أية حال يظهر أن الشيخ عبد القادر المشرفي قد تخرج على يديه العديد من الشخصيات المشهورة بالمنطقة مثل الباي محمد الكبير الذي تولى بايليك الغرب سنة 1779 أو 1780، والعلماء المعسكريون الذين قربهم إلى مجلسه وفي مقدمتهم الشيخ أبو راس الناصري الذي كتب في رحلته أنه تلقى العلوم على عدة شيوخ لكن يبقى المشرفي هو عمدتهم، والمقطع الآتي يوضح ما نرمي إليه: "فأول رحلتي للجزائر (العاصمة)...فلقيت بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي المفتي السيد محمد بن جعدون، فقال لي: من هو شيخك؟ قلت: المشرفي ..."[7]

وإذا اشتهر عبد القادر المشرفي بجهوده في مجال التأليف والتربية والتعليم، فإنه كذلك برز في مجاهدة المحتلين الاسبان لوهران والمرسى الكبير، واشتراكه في الفتح الأول للثغرين الذي وقعه كل من حسن أوزن من جهة البحر والباي مصطفى بوشلاغم من جهة البر سنة 1708م، وما كتابه بهجة الناظر الآتي ذكره لاحقا إلا بيانا يثبت حرص الشيخ عبد القادر المشرفي على التزامه بالجهاد وتصفية ثغري وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الاسباني. وفي يوم الخميس 10 رمضان 1192هـ/1778 م توفي الشيخ المشرفي بمسقط رأسه "الكرط" بمعسكر.

4- الشيخ محمد الطاهر بن عبد القادر المشرفي: (ت: بعد 1792م) يدعى بسيد الشيخ، ولد بقرية الكرط قرب مدينة معسكر، فأخذ العلم عن جماعة من علمائها الأجلاء، من بينهم والده الشيخ عبد القادر المشرفي وكذا العلامة الحافظ أبو راس الناصري. ثم واصل تعليمه بمدينة فاس وتمت إجازته من طرف الشيخ عبد القادر بن شقرون والشيخ الطيب بن كيران.

اقتفى الشيخ الطاهر المشرفي خطى والده فاهتم بتدريس العلوم الشرعية بقرية الكرط، ثم استدعي من طرف باي الغرب الجزائري- محمد بن عثمان الملقب بالكبير- إلى تولي القضاء بوهران- عاصمة البايليك الغربي بعد تحريرها من الاحتلال الاسباني سنة 1792- إلى أن وافته المنية.

وللشيخ محمد الطاهر المشرفي مؤلفات منها:

- إبراز المعاني في غوامض ألفاظ التفتزاني. وهو شرح على خطبة سعد الدين.
- الدرة الشريفة في أصول الطريقة. وهو شرح على منظومة والده عبد القادر المشرفي في التصوف.[8]

5- الشيخ محمد بن عبد الله المشرفي المعروف بـ "سقط": (ت: بعد 1853م.)

سمي كذلك عبد القادر زين العابدين، لكن اسم الحقيقي هو بن عبد الله، وقد عرف بسقط أو سقاط، لسقوطه من أعلى فرسه وجرحه في إحدى رجليه. وهو حفيد الشيخ عبد القادر المشرفي، ولد بغريس وأخذ العلم عن أشهر علماء المنطقة الراشدية في وقته، وفي طليعتهم الشيخ الحافظ أبو راس الناصري، والشيخ محمد الطاهر المشرفي.

ارتحل مرارا إلى المشرق حاجا أو معتمرا فلقي هناك نخبة من العلماء، أخذوا عنه وأخذ عنهم فأجازوه. ويتميز بإلمامه بعلوم عدة منها الفقه والنحو والبيان وعلم الأصول وعلم المنطق والعروض والتاريخ كما كان شاعرا وحافظا للسيرة النبوية وصحيحي البخاري ومسلم متنا وإسنادا، ودارسا للتفسير القرآني، حتى إنه كان يعرف في مدينتي معسكر ووهران بشيخ الجماعة مثل جده عبد القادر المشرفي.[9]

زاول الشيخ محمد بن عبد الله المشرفي مهنتي التدريس بمعسكر والقضاء المالكي بوهران في عهد الأتراك العثمانيين، ولما ابتليت الجزائر بالاحتلال الفرنسي وسقوط وهران في قبضته سنة 1831م، اختار الشيخ المشرفي طريق المقاومة فانضم إلى ثورة الأمير عبد القادر عقب مبايعة هذا الأخير سنة 1832م ليتولى حينها القضاء وعضوية مجلس الشورى ثم عينه الأمير عبد القادر مبعوثا دبلوماسيا له في مناسبات شتى، فكانت له عدة وفادات على السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام سنة 1252هـ/1837م، واكتسب جراء هذه البعثة الدبلوماسية مكانة مرموقة لدى السلطان حيث كان يحضر مجالسه. وقد عاد من مهمته في السنة نفسها.[10] وقد عاد الشيخ المكنى بـ "سقط" مرة أخرى إلى فاس مصحوبا بمكتبته التي كانت تحوي 1600 مجلد، وكذا أفراد أسرته بتاريخ 1262 هـ/1845-1846م.

توفي الشيخ الفقيه وهو في طريقه إلى مكناس ملبيا دعوة السلطان المولى عبد الرحمان للمشاركة في أعياد المولد النبوي الشريف، وكان ذلك بعد سنة 1270 هـ/1853-1854م ودفن خارج باب السية، أحد أبواب مكناس.

6-العربي بن عبو الغريسي المشرفي: (ت: 1844م) هو من علماء القرن 13 هـ/19م هاجر بأهله من غريس إلى مدينة فاس وبقي بها إلى أن توفي سنة 1260هـ/1844-1845م. وذكر الكتاب بشأنه أنه كان عالما ومدرسا حامل لواء المختصر، والحافظ لشروحه ومتونه، درس الفروع الفقهية وتولى القضاء.

7- عبد الله بن البشير المشرفي المشهور بالسيد عب: (ت: بداية القرن 20م) يلقب بأبي محمد، وهو من علماء وجدة المغربية خلال القرن 13 هـ/19م، لكن أصله من معسكر، هاجر بدينه وأهله، رفقة والده الفقيه السيد البشير، في حدود الستينيات من القرن 19مَ، وقد اشتهر

ببراعته في علم العربية وفي حفظ المختصر وتميز بمثابرته وجده واجتهاده وذهنه الوقاد وفهمه الثاقب. وقد توفي بمدينة وجدة في بداية القرن 14 هـ/20م.

8-أبو حامد العربي بن علي المشرفي: (ت:1895م) هو الشيخ العلامة أبو حامد بن علي بن عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد أبي جلال المشرفي الادريسي الحسني الراشدي الغريسي. ولد في بداية القرن 19م بالكرط وتعلم بها وأخذ عن الشيخ ابن عبد الله سقط المشرفي، والشيخ أحمد بن التهامي وغيرهم من علماء معسكر في زمانه، ثم انتقل إلى مستغانم ودرس على علمائها. وقد شارك في المقاومة الجزائرية في بدايتها مع والده الذي يظهر أنه كان من قادتها الكبار قبل مبايعة الأمير عبد القادر، وقام بإنشاء رباط حول وهران.

وبعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر، رحل إلى فاس واستقر بها، واشتغل بتعليم الصبيان، القرآن الكريم، أو معلم من الطبقة الثانية حسب قوله بحجة أنه كان مصنفا عند الفاسيين ضمن حزب الغرباء، ولعل هذا هو سر عدم توليته أرفع المناصب العلمية.

زار الجزائر مرتين بعد هجرته وذلك أثناء طريقه إلى الحج، وكانت الزيارة الأولى سنة 1265هـ/1848-1849م والثانية سنة 1294هـ/1877-1878م.

اشتهر الشيخ العلامة باتساع معرفته وغزارة إنتاجه في علوم وفنون عدة، وورد عنه أنه كان صاحب علم ومحاضرة ورواية وشجاعة قلب، وكانت له جرأة على الولاة، حج بيت الله الحرام خلال سبعينيات القرن 19م، وله ما يقرب من الثلاثين مؤلفا، ذكر ها في آخر كتابه: ذخيرة الأواخر والأول، وهي في الأدب والرحلة والتصوف والنحو والتاريخ والحديث والطب وبعض قضايا العصر، كما كان شاعرا موفقا، له دواوين معظمها في مدح الملوك الذين عاصرهم وخاصة المولى حسن، إذ كان يرافق السلطان في جولاته عبر البلاد، مع فئة العلماء المقربين[11].

وينتسب أبو حامد المشرفي للطريقة الدرقاوية لذا نراه يتعاطف معها في مخطوطه الحسام المشرفي الآتي ذكره، كما أنه تبنى المذهب الأشعري حيث يظهر ذلك في اهتمامه بتخصيص ترجمة لأعلام الأشاعرة في المخطوط المذكور. وتوفي أبو حامد المشرفي سنة 1313هـ/1895م-1896م بمدينة فاس وبها دفن.[12]

9-الحاج محمد المشرفي (1255-1334هـ/1839-1916م): هو الحاج محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي الحسني الإدريسي الغريسي، عاش خلال القرن 19م، أصله من غريس

وانتقل مع والده إلى مدينة فاس في حدود 1260هـ/1844-1845م، وعمره لا يتعدى خمس سنوات. كان والده عالما فاضلا، توفي بمصر عند رجوعه مع ابنه من الحج سنة 1275هـ/1858-1859م.

كان الحاج محمد المشرفي عالما في الفقه والعربية والتاريخ وعلوم أخرى، كما كان شاعرا موفقا كثير الهجاء، وأخذ العلم بفاس على عدد من العلماء الأجلاء، مثل العلامة أبو حامد المشرفي، وأبو عيسى محمد المهدي ابن سودة...وقد ترك عدة مؤلفات منها:

-الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية. وقد حققه الباحث إدريس بوهليلة، ونشر بدار أبي رقراق للطباعة والنشر، بالرباط، سنة 2005. وهذا التأليف هو في الأصل شرح على نظم الأديب الغالي بن سليمان في الدولة العلوية.

-السهام الصائبة في الرد على الدعاوي الكاذبة. وفيه يرد على قاضي غليزان ومفتي الجزائر ابن الحفاف في مسألة ثبوت الهلال إذا لم ير بعد ثلاثين يوما.

-الدر المكنون بتعريف عن الشيخ محمد الكنون الادريسي.

-التوسل بالأنبياء والأولياء. وفيه يرد على من أنكر ذلك.

تولى الشيخ العلامة القضاء بقبيلة الحياينة بأحواز فاس، وتوفي سنة 1334هـ/1915-1916م ودفن بروضة العراقيين بالقباب.

10- مصطفى بن عبد الله المشرفي (1912-1959م): هو مصطفى بن عبد الله بن مصطفى بن عبد الله سقط، ولد بمدينة وجدة سنة 1912م، توفي والده وعمره لا يتعدى السنة الأولى، فكفله خاله الذي حرص على تعليمه في الكتاتيب القرآنية بوجدة.

وفي بداية الثلاثينيات من القرن 20م ارتحل إلى مدينة فاس لطلب العلم والالتحاق بجامعة القرويين، فمكث بها ما يقرب أربع سنوات.

اشتهر بين معاصريه بعمله الوطني الدائم ومقاومته المستمرة للاحتلال الفرنسي، بجميع الوسائل المتوفرة لديه، من تخطيط للعمل المسلح أو تجنيد مستمر في الميدان التربوي والتعليمي. وكان أول من استورد السلاح في أواخر الحرب العالمية الثانية إلى المقاومة لتتمكن الخلايا المناضلة من تنفيذ العمليات المسلحة، مما أدى به إلى المثول رفقة أصدقائه أمام المحكمة العسكرية بمكناس، ليعرف بعدها ولمرات عديدة سجون الاستعمار الفرنسي بوجدة وعين العقرب وعين مومن وأغبيلة وأغبالو أنكردوس. كما عرف الإبعاد والنفي إلى

الرباط ومراكش وغيرها، وكل هذه المحن لم تقلل من عزيمته ولم تمنعه من المضي في مسيرته الكفاحية، إلى أن استقل المغرب الأقصى عام 1956م.

أما مساره التربوي والتعليمي، فكان يتميز باهتمامه بالتعليم الحر، فاستطاع في بداية سنة 1945م أن يجعل من كُتاب صغير لتحفيظ القرآن، مدرسة حرة عصرية سماها "مدرسة زيري بن عطية" جمعت في فجر الاستقلال خمس ملحقات، تمكنت من تكوين عدد من التلاميذ والطلبة كانوا أول الأطر في بداية الاستقلال المغربي.

عين مصطفى المشرفي بين 1956-1959 بوزارة الداخلية، رئيسا لدائرة فجيج، وكان يدعو الوفود الصحراوية إلى تجديد البيعة بين يدي الملك محمد الخامس. وفي 06 أبريل 1959م توفي مصطفى المشرفي فجأة، وفقدت المغرب شخصية متعلمة غيورة من أصول جزائرية.

11- محمد محي الدين المشرفي (1914-2003م): ولد محمد محي الدين المشرفي بوجدة سنة 1914، وعرف اليتم وهو لا يزال طفلا، فالتحق بالكتاب لحفظ القرآن ثم دخل إحدى المدارس الأولى التي أنشأتها الحماية الفرنسية بوجدة، وبعد ذلك التحق بشعبة تكوين المعلمين بثانوية مولاي يوسف بالرباط، ثم مارس التعليم الابتدائي بمكناس وسلا والرباط وأسفي، وخلال هذه المدة تحصل على البكالوريا، ثم على الإجازة في الآداب وعلى دبلوم اللغة العربية من معهد الدراسات العليا سنة 1939م، وتم تعيينه أستاذا بالتعليم الثانوي بوجدة.

واعتبارا لكفاءته وحنكته التربوية لم يلبث أن أسندت إليه مهمة تفتيش أساتذة اللغة العربية سنة 1945م، بمدينة وجدة ولاحقا بمدينة فاس، وفي سنة 1947 أصدر رفقة زميليه المفتشين عبد المالك السليماني ومولاي العربي المسعودي كتابا بعنوان : "نصائح وإرشادات في التربية والتعليم لمدرسي اللغة العربية".

كان المفتش المشرفي يلقي محاضرات في التربية على المعلمين ويحثهم على الاطلاع على الكتب الواردة من الشرق للاستفادة منها، فتعرض بسبب ذلك إلى المضايقة من قبل المراقبة المدنية الاستعمارية، فمنعته من مزاولة عمله بفاس وتم نقله إلى وجدة سنة 1952م.

بعد حصول المغرب على استقلاله، أسندت له مسؤولية التعليم الابتدائي، فراح يحسن برامج التعليم ويعمل على تحديثها وكذا تكوين المعلمين وإعداد الكتب المدرسية التي أعد

الكثير منها بنفسه أو بالمساهمة مع غيره من المفتشين والأساتذة. ثم أسندت إليه المناصب التالية:

-مدير الشؤون الثقافية.

-مدير عام للتعليم والشؤون الإدارية.

-مكلف بالتفتيش العام للخزانة المركزية والخزانات التابعة لها.

-مدير المركز الوطني للتعريب.

-محافظ الخزانة العامة.

-كاتب عام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وكانت وفاته بتاريخ 01 محرم 1424هـ / 05 مارس 2003م.

ثانيا- المشرفيون والتأريخ: من خلال ما سلف ذكره حول علماء العائلة المشرفية ومثقفيها البارزين سواء بالجزائر أو المغرب الأقصى، نلاحظ أن هذه العائلة التي توارثت الفكر والثقافة والعلم أبا عن جد لقرون من العصر الوسيط إلى العصر المعاصر، اشتغلت أساسا بالتدريس والقضاء والتأليف، وما يلفت الانتباه أن أغلب هؤلاء الأعلام قد ألفوا كتبا في تخصصات متنوعة، منها التاريخ الذي حظي بنصيب أوفر.

وقد يتساءل المرء عن خصوصيات الكتابة التاريخية عند العلماء المشرفيين البارزين، بإنتاجهم الفكري والثقافي، ولعل الإجابة تتطلب أولا فحصا دقيقا لمخطوطاتهم التاريخية أو الاطلاع على مجهود الباحثين فيما يتعلق بتراث المشرفيين أو المشارفة، وعلى أساس ذلك، تبين لنا ما يلي:

* جاءت بعض المخطوطات التاريخية لبعض العلماء المشرفيين، في شكل كناشات أو دواوين، بحيث إذا تصفحت الكناش، فإنك تجد بين دفتيه مادة تاريخية متنوعة المواضيع، وتتخللها أشعار متنوعة، ورسائل، وأجوبة على رسائل، فالكناش- حسب اعتقادي- كان بمثابة مفكرة بتعبيرنا المعاصر. وفي المقابل نجد بعض المخطوطات التاريخية تعالج موضوعا معينا بالوصف والتحليل وهو ما نسميه بالمخطوطات الموضوعاتية.

* عالجت المخطوطات التاريخية لبعض علماء العائلة المشرفية، مواضيع في التاريخ العام مصحوبة بمواضيع تتعلق بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني خاصة الفترة الأخيرة التي شهدت حركتي درقاوة والتجانية، متبوعة بوقائع الاحتلال الفرنسي والمقاومة الشعبية بين

1830-1832م، ثم تطورات ثورة الأمير عبد القادر 1832-1847م. كما أفردت مخطوطات المشارقة، حيزا فسيحا لتاريخ المغرب الأقصى في عهد الأسرة العلوية ورحلات سلاطينها وسيرهم وأعمالهم.

* أدرج المؤرخون المشرفيون ضمن كتاباتهم التاريخية، الأمثال والحكم والأبيات الشعرية والقصص، وكانت لغة المخطوطات سهلة وعباراتها واضحة مع ألفاظ وتعابير عامية مثلهم مثل الآغا المزاري وأحمد بن المبارك القسنطيني، وابن العنتري، ومسلم بن عبد القادر وغيرهم من كتاب القرنين 18 و19م.

* أبدى المؤرخون المشرفيون من خلال مخطوطاتهم التاريخية، تفاعلهم مع قضايا عصرهم وإحساسهم القوي بما يعانيه قومهم من ويلات التفرقة والخيانة والتخلف والانحطاط، وفي المقابل دعوا إلى التحضر والاستعداد والتمسك بأسباب الرقي لفرض التحدي ومواجهة العدو الاستعماري.

وفيما يلي بعض المخطوطات التاريخية لبعض علماء العائلة المشرفية، التي تعتبر إضافات جديدة في حقل البحث التاريخي وتوفر مادة دسمة للباحثين في التاريخ الحديث والمعاصر للجزائر والمغرب الأقصى على السواء.

أ-الكناشات والدواوين التاريخية:

1-كناشة تاريخية، لصاحبها عبد القادر المشرفي.

وفيه أخبار عن الجزائر العثمانية في عهد محمد بكداش، محرر وهران سنة 1708م، وكذا سير وأخبار نخبة من أعلام الجزائر، وشرح لبعض الأبيات الشعرية.

2-كناشة، لأبي حامد المشرفي: ويحتوي هذا المخطوط على أشعار متنوعة وتقاييد نثرية يمكن استغلالها في البحث التاريخي مثل القضاء المالكي بالجزائر في العهد الفرنسي وتحديدا خلال القرن 19م وغيره من المواضيع، ويصل عدد أوراق المخطوط إلى 409. ومسطرته متنوعة وخطوطه مغربية متنوعة كذلك ومستحسنة على العموم.[13]

3-ديوان المشرفي لصاحبه أبي حامد المشرفي: وهو مخطوط يشتمل على أخبار ملوك المغرب وأحوال الجزائر وتاريخ زلزال 1267هـ وتاريخ وفاة السلطان محمود الثاني العثماني سنة 1255هـ ومدح الأمير الأمير محمد بن السلطان عبد الرحمان بن هشام والأمير سليمان. وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم 204ك.

ب–المخطوطات التاريخية الموضوعاتية:

1–بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الأعراب كبني عامر، لصاحبه العلامة عبد القادر المشرفي.

وقد أتمه سنة **1178**هـ/**1764–1765**م وهو محقق من قبل الأستاذ المرحوم محمد بن عبد الكريم، وفيه ذكر العلامة المشرفي موبقات المتعاونين من القبائل الجزائرية بالغرب الجزائري مع الاسبان، ثم تعرض بتفصيل لأصولهم وفصولهم وحكم الله فيهم، ولخص موضوع التأليف في هذه الجمل: "...إن هؤلاء الفرق الثمانية الضالة وهم كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة وأولاد عبد الله وأولاد علي والونازرة لما اجتمعوا عند الاسبانيين وصاروا على كلمة واحدة في الدفع والجلب، اشتد بهم عضد النصارى وقويت شوكتهم وكثر بأسهم على المسلمين." ثم حدد المشرفي عبد القادر، أشكال المعونة التي قدمها هؤلاء للاسبان والتي أوجزها في معونة اقتصادية وجبائية، ومساعدة استخباراتية تجسسية على المسلمين، ومعونة عسكرية توسعية والمشاركة في قتل المسلمين وأسرهم وسبي نسائهم وأطفالهم.

ثم يستطرد المشرفي ويقول على هذه الفرق: "انقسموا على ثلاثة فرق، ففرقة منهم لجأت لحصن العدو وصارت تقاتل معه وتدافع بجهدها عنه، والحكم في هذه الفرقة إباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذراريها لمن ظفر بهم من المسلمين...وأما الصغار من الأولاد فلا يقتلون ولا يكونون فيئا للمسلمين...وفرقة لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو، غير أنها في الخفية تعلمه بأحوال المسلمين وتأمره بالثبات وتواعده بالرجوع عنده إذا وجدت السبيل، والحكم فيها أنها فرقة الزنادقة يقتل كل من اطلع عليه منها، وإلا فأمره إلى الله سبحانه وتعالى. وفرقة منهم تابت لله تعالى وأنابت من موالاة العدو ومواصلاته وتركت الإعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما صدر منها سابقا، والحكم فيها أنها واحدة من جماعة المسلمين..."[14]

2–الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس السيء الظن الكنسوس، لمؤلفه أبي حامد المشرفي: وهو مخطوط يشتمل على مقدمة حول علم التاريخ عند العرب، وثلاثة فصول، الأول في القدح في ألكنسوس –الذي وصف العربي ابن الشريف الدرقاوي برأس الفتنة– بحيث يرد فيه ويتهجم على التجانيين متهما إياهم بأنهم مجتمع رقص وليس مجتمع طريقة صوفية، وفي المقابل ينتصر للدرقاويين ويتعاطف معهم ويقف موقف الخصم للعثمانيين بالجزائر، والمقطع الآتي يؤكد ما ذكرناه حيث يقول المشرفي : "وذلك لأنه

لما اشتدت شوكة الأتراك وما لقت الناس من كثرة الظلم والعياذ بالله... دعوا الله في سواد الليل أن ينجيهم من ذلك الويل فسلط الله عليهم بسبب الظلم...شخصا من هذه الطائفة الدرقاوية من الزاوية الغريسية الشرفاوية."[15] ويتبع ذلك بمعلومات مفيدة عن ظروف الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة السكان لذلك أو كما يسميهم أعراب واسطة المغرب، كما يتحدث عن معاناة السكان جراء الاحتلال من تهجير وجوع، ومما يذكره في هذا المجال: "فتمر على جماعة الصبيان، موتى، متعانقين، في الموضع الواحد ما يزيد على العشرة."ثم يستطرد ويفيدنا بحقائق عن تلك المقاومات التي عرفتها الجهة الغربية للجزائر.[16]

والفصل الثاني هو عبارة عن ترجمة للأشاعرة، والفصل الثالث والأخير عبارة عن ترجمة لسلطانين مغربيين، وتوجد نسختين منه الأولى رقم 1207 بالخزانة العامة بالرباط، وعدد صفحاته 207. والنسخة الثانية رقم 2276 ك.[17]

3-ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول، لمؤلفه أبي حامد المشرفي: هو مخطوط في التاريخ العام من أيام سيدنا آدم عليه السلام وصولا إلى تاريخ 1299هـ/1881م، وضعه المؤلف تلبية لطلب أحد أقاربه وطلبته، أجاب فيه عن سؤال كان يشغله ويشغل بال المهاجرين الجزائريين بالمغرب الأقصى حول أوضاع الجزائر في أواخر العهد التركي وبداية الاحتلال الفرنسي، وكيف كانت معاملة الأتراك العثمانيين للجزائريين وأعمالهم بالجزائر؟ كما طلب منه أن يضع تاريخا للدولة العلوية التي تأوي عدد كبير من الأسر الجزائرية. ويتضمن المخطوط ستة أبواب هي:

* الباب الأول: في بدء الخلق وتكوين آدم.

* الباب الثاني: في أطوار الإنسان من أول خلقته إلى موته.

* الباب الثالث: في دولة آدم ومدة حياته، وكم بينه وبين كل رسول.

* الباب الرابع: في الدول التي ظهرت قبل الإسلام إلى دولة نبينا محمد.

* الباب الخامس: في دول الإسلام من دولة نبينا والخلفاء الأعلام إلى الدولة العثمانية، والوجود التركي بالجزائر، ومن لحق عليه المؤلف من ملوك الأتراك في حدود الأربعين من القرن 13هـ وبداية الاحتلال الفرنسي.

* الباب السادس: في الدولة العلوية بالمغرب الأقصى.[18]

وعليه يعتبر كتاب ذخيرة الأواخر من أهم المصادر التي تحدثت عن تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر وتحديدا خلال القرن 19م، إذ ترجم لعدد من العلماء، بعضهم غير معروفون مثل أحمد بن البشير المختاري، محمد بن أبي سيف البحيري، الطاهر بن حسن المختاري وغيرهم. كما تحدث فيه عن أهم القضايا التي كانت محل نقاش وجدل مثل الهجرة، العدل، الرحلات، والمسائل الفقهية. ولم يغفل الحديث عن ثورة درقاوة، وثورة التجانية، والاحتلال الفرنسي، ومبايعة الأمير عبد القادر ومقاومته للغزو الفرنسي، وتضمن الكتاب معلومات عن بناء مدينة الجزائر ودخول الأتراك إليها والعادات والتقاليد المحلية والتجارة والمرافق العامة بالمدينة والزراعة. ولم يخف أبو حامد المشرفي إعجابه بثورة درقاوة، كما لم ينكر اهتمام الأتراك العثمانيين بالعلماء رغم موقفه المناوئ لدولتهم. وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم 2659، ونسخة مصورة بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

4-طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار. لصاحبه أبي حامد المشرفي: تناول فيه أحوال الجزائر في عهد الأمير عبد القادر، وما جرى فيه من الأحداث والمواقف، مثل تولية الأمير والأعمال التي قام بها والمعارك التي دارت بين الجزائريين وجيش الاحتلال الفرنسي قبل المبايعة. ويبدو فيه أنه كان ضد الأمير، ويتبنى وجهة نظر مخالفة لطريقة الأمير، وجل انتقاداته مبنية على عدم الاختيار الحسن للأعوان والحكام الذين ينوبون عنه. أما في شخصه أو سيرته فلا يوجد ما يدعو المشرفي إلى مناهضته.[19]

ويشتمل المخطوط على سبعة فصول وخاتمة:

* الفصل الأول: في سبب قيام هذا الجيش من الافرنج، وهو الفرنصيص دمره الله، وخروجه للجزائر من سيدي فرج.

* الفصل الثاني: في ذكر السنة التي خرج فيها للجزائر، وما وقع بينه وبين الأتراك من حروب، وفي كم دخل المدينة وافترقت للمسلمين الحروب.

* الفصل الثالث: ذكر دخوله وهران، ومن قاده لها حتى فرق بالتشتيت أهلها، وأظلم في مدينتهم الجو، وأزعجوا من كثرة ما لقوا...

* الفصل الرابع: في ذكر نفور المسلمين أهل غريس وبني عامر ومن والاهم، واتفاقهم على قتاله بالأمير رغبة في الجهاد.

* الفصل الخامس: ذكر مبايعة الحاج عبد القادر على الجهاد لأن يكون على الجيش أميرا...وفي عدة الوقائع التي وقعت بين المسلمين والكفار حول الجزائر ووهران ومن مات فيها من الأخبار.

* الفصل السادس: في سبب استيلاء الفرنصيص أذله الله وكسر شوكته على عمالة هذه الواسطة من تونس والقيروان إلى وجدة، وسبب تشتيت هذه العربان حاضرة وبادية في الأوطان.

* الفصل السابع: في كيفية من عاير أخاه المؤمن بالتنصر في الدعوى، وهو أسير حزين مفتون بهذه البلوى.[20]

* الخاتمة: تحدث عن الإمامة وكونها واجبة كطلب العلم وزيارة الكعبة، والشروط التي يجب توافرها في الإمام أو الخليفة، ويذيل المشرفي كتابه بقصيدة من نظمه في ذم من أبغضنا أو أبغض جميع المسلمين.[21]

وتوجد نسختين بالخزانة الملكية بالرباط، الأولى تحمل رقم 1476 وتقع في 60 ورقة. والثانية مبتورة الوسط، تحمل رقم 6533 وتقع في 96 ورقة. كما توجد نسخة واحدة بالخزانة العامة تحت رقم 496 ك، ونسخة بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

5-عجيب الذاهب والجائي في فضيحة الغالي اللجائي، لأبي حامد المشرفي: ومن خلال هذا المخطوط ردّ المشرفي على الغالي بن محمد العمراني الحسني اللجائي، حيث كان يتنطع على الأمير عبد القادر، والمشرفي ينتصر له. ويبين لنا هذا المخطوط تغير موقف أبي حامد المشرفي من الأمير عبد القادر أي الانتقال من المعارضة إلى التأييد والدفاع، حيث اتضحت الصورة لديه، وأن الحقيقة التي كان عليه أن يدركها هي أن الأمير فعلا كان مجاهدا مدافعا عن دينه وشرفه وشرف بلاده، ولم يكن طالب جاه أو مال.[22]

6-ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي مجاجة، لأبي حامد المشرفي: وفيه نسب الأدارسة بالمغرب والجزائر وليبيا وأصولهم وفروعهم والسيرة النبوية وترجمة للشيخ محمد بن علي المجاجي كما ترجم لبعض أعلام الجزائر وأخبار هامة عن الجزائر.

7-الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، لصاحبه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي: ويعتبر هذا المخطوط الذي حققه ونشره الأستاذ إدريس

بوهليلة من المغرب، من الكتب التي تؤرخ لملوك الدولة العلوية بالمغرب الأقصى، وقد قدمه المؤلف هدية للسلطان المولى الحسن في أواخر سنة 1310هـ/1893م، أثناء وجوده بالقصر السلطاني بمدينة فاس، فاستحسنه السلطان وأعجب به.

وقد قسم المشرفي كتابه إلى قسمين، الأول وهو الأصل، خصصه لشرح منظومة الغالي بن المكي بن سليمان المتوفي 1317هـ/1899م، والقسم الثاني، عبارة عن تكملة، ذيل بها المشرفي كتابه الحلل البهية سنة 1321هـ/1903م وأنهى فيه ترجمة السلطان المولى الحسن، وأضاف لها معلومات تاريخية مستفيضة عن عهد المولى عبد العزيز إلى حدود سنة 1902م.

والكتاب بقسميه (الشرح والتكملة)، أفاض فيه محمد المشرفي حيث أتى بمعلومات تاريخية فريدة، ووثائق نفيسة، وأفكار مستنيرة جريئة، واستطرادات تأويلية طريفة، وكل ذلك بإتباعه لمنهجية تاريخية صارمة، في تحليل وعرض تاريخ ملوك الدولة العلوية، بدءا بالمولى الشريف وأبنائه محمد، الرشيد، إسماعيل، عبد الله، محمد بن عبد الله، سليمان، عبد الرحمن، محمد بن عبد الرحمن، الحسن، وانتهاء بالمولى عبد العزيز، مسجلا أعمالهم ومنجزاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية المدنية والعسكرية والدينية.

وقد قسم المحقق المخطوط إلى مقاصد، وجعل لكل مقصد عنوانا مناسبا، وبيان ذلك، كالآتي:

*خطبة الكتاب: وفيها تعرض المؤلف إلى دواعي التأليف.

* مقدمة: وكانت في التاريخ والمؤرخون، وقسمها المشرفي إلى مقصدين:

المقصد الأول: علم التاريخ وذكر بعض ما ألف فيه.

المقصد الثاني: التعريف بالناظم وقصيدته.

* شرح القصيدة: تركيز السلطة ومواجهة التهافت الأوربي.

المقصد الثالث: أفضلية الدولة العلوية.

المقصد الرابع: بداية تكوين الدولة العلوية.

المقصد الخامس: الدول المتعاقبة على المغرب قبل الدولة العلوية.

المقصد السادس: استكمال تكوين الدولة العلوية.

المقصد السابع: توطيد السلطة وتوحيد البلاد.

المقصد الثامن : إعادة توحيد البلاد.

المقصد التاسع: الانفتاح على الخارج.

المقصد العاشر: استتباب الأمن والمساعي الحميدة.

المقصد الحادي عشر: السياسة المرنة وبداية مواجهة الأطماع الفرنسية.

المقصد الثاني عشر: الاحتلال الاسباني لتطوان وعقد الصلح.

المقصد الثالث حشر: الإصلاح وازدياد الأطماع الأوربية.

* تذييل شرح القصيدة: ضعف السلطة والتغلغل الأوربي.

المقصد الرابع عشر: عودة إلى الأطماع الأوربية.

المقصد الخامس عشر: الاستبداد وتعميق سياسة الانفتاح.

المقصد السادس عشر: الاستيلاء الفرنسي على توات.

المقصد السابع عشر: التغييرات الحكومية.

المقصد الثامن عشر: تعدد السفارات إلى أوربا.

المقصد التاسع عشر: الموافقة على إجراء الإصلاحات الانجليزية.[23]

خاتمة: إن الهدف من هذا الموضوع هو تسليط الضوء على الأسر العلمية في الجزائر عبر مراحلها التاريخية وإبراز إسهاماتها في إثراء المعرفة في علوم وفنون عدة منها علم التاريخ من خلال الاطلاع على ما تركته من مخطوطات تاريخية سواء كانت في شكل كناشات أو دواوين أو موضوعات أو رحلات..لنخلص في نهاية المطاف إلى الأدوار المختلفة التي كانت تلعبها الأسر العلمية في تاريخ الجزائر وقضاياه الكبرى بصفتها -وقتذاك- نخبة مثقفة. ولعل الأسرة المشرفية جديرة باهتمام الباحثين لما تركته من مخطوطات، هي موزعة بين الخزائن الحكومية والخزائن الخاصة بالجزائر والمغرب الأقصى وغيرهما من البلدان، ما دامت المخطوطات قد عرفت هجرة صاحبت هجرة البشر.

الهوامش:

1- نقيب أشراف الجزائر: موظف ضمن نسيج الإدارة المحلية، مقره مدينة الجزائر، تختاره الحكومة التركية العثمانية من بين السكان الأصليين المعروفين بإلمامهم بعلم النسب، وتتجلى أبرز صلاحياته في إثبات النسب الشريف لكل فرد أو أسرة تطلب أو تدعي ذلك، من خلال تحرير وتوقيع عقد إثبات النسب الشريف.

2- بوهليلة، إدريس. مقدمة الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، لمحمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الطبعة الأولى، دار أبي رقراق للنشر والتوزيع، الرباط، 2005، الجزء الأول، ص 55.

3- بوسمغون قصر من قصور الصحراء غير بعيد عن واحات فجيج، اشتهر بارتباطه الوثيق بالمراكز الثقافية بفجيج والراشدية وتلمسان وسجلماسة.

4-وهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص 55.

5- البوعبدلي، المهدي. مقدمة الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. تأليف ابن سحنون الراشدي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، 1973. ص 33.

6-بوهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص 56.

7- أبو راس الناصري، محمد. فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته. تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 91.

8- نويهض، عادل. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. الطبعة الثانية، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1400هـ/1980م، ص 303.

9- المرجع نفسه، ص 304.

10- بوهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص ص 57-58.

11- نويهض، عادل. المرجع السابق، ص 304.

12- عبد المنعم القاسمي الحسني. "الأمير عبد القادر من خلال مخطوط نادر" مداخلة خاصة بالملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر، الحامة، الجزائر العاصمة، ماي 2005، ص 04. منشور على الموقع الالكتروني:
.org/details/el-mecherfi.http://www.archive

13- الكتاني محمد ابراهيم، التادلي صالح. فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، منشورات الخزانة العامة للكتب والوثائق، ط1، 1997، المجلد الخامس، ص 81.

14- البوعبدلي، المهدي. المرجع السابق، ص ص 31-33.

15- المشرفي، أبو حامد. الحسام المشرفي. الخزانة العامة بالرباط، رقم 2276ك، ورقة 196وجه.

16- المخطوط نفسه، ورقة 197.

17- ترمز الكاف (ك) إلى المكتبة الكتانية التي ألحقت في السنوات الأخيرة إلى رصيد المكتبة الوطنية المغربية بالرباط.

18- عبد المنعم القاسمي الحسني. المرجع السابق، ص 04.

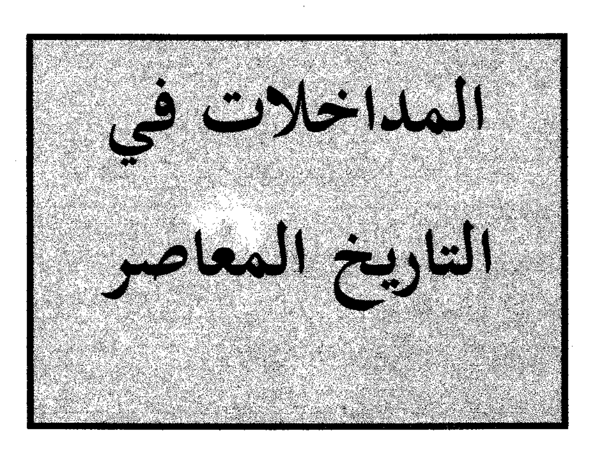
19-عبد المنعم القاسمي. المرجع السابق، ص 05.

20- المشرفي، أبو حامد . طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار. مخطوط رقم 1496، الخزانة الملكية، الرباط، ورقة01 ظ.

21- عنان محمد عبد الله، وآخرون. فهارس الخزانة الحسنية، مراجعة: أحمد شوقي، المطبعة الملكية، الرباط، 1421 هـ/ 2000م. ص ص 719-720.

22- عبد المنعم القاسمي، المقال السابق، ص ص 5-6.

23- بوهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص 23.


المداخلات في
التاريخ المعاصر

المؤرّخ أحمد توفيق المدني ومذكراته "حياة كفاح"

أ. حاج عبد القادر يخلف*

مقدّمة: ولد الأستاذ أحمد توفيق المدني ثائرا، وعاش مناضلا سياسيا، وكرّس جلّ حياته لخدمة وطنه، متسلّحا بالعلم وسيلة، للدفاع عن مقوّمات الشخصية الجزائرية (الإسلام-العروبة-الوطنية الصّادقة). وكان صاحب سبق إعلامي بما نشره من مقالات صحفية، وبما كتبه من مؤلّفات تاريخية جليلة، عرّفت الخاص والعام بالجزائر أيّام العسر الاستعماري. ومن هذه الأعمال مذكراته (حياة كفاح)، التي سنتناولها بالدراسة في هذه المداخلة.

المولد والوسط العلمي: شاءت الأقدار أن تهاجر أسرة أحمد توفيق المدني القبّي الغرناطي أرض الوطن، عقب إخماد الاستعمار الفرنسي لمقاومة المقراني سنة 1871، فولد بتونس في الفاتح من نوفمبر سنة 1899، من أبوين جزائريين هما: عائشة بويزار ومحمد المدني الذي كان به بقية من كبار علماء الجزائر، وكان جدّه لأبيه أمين الأمناء أي شيخ بلدية الجزائر العاصمة[1].وفي تونس زاول مسيرته التعليمية من الكتّاب إلى سنة 1913، حيث دخل جامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية، ليستكمل ما تعلّمه بالمدرسة القرآنية الأهلية، فيما يتعلق بالرياضيات والتاريخ العام، وتخرّج منها بمواهب جبّارة برزت بخاصّة في الكتابة الصحفية، وفي فنّ التأليف التاريخي، الذي ينسجم مع شخصيته السياسية الثائرة.

شيوخه وتلاميذه:يحدّثنا المدني عن شيوخه الذين تلقى على أيديهم العلم في الخلدونية، فيذكر لنا الأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب أستاذه في التاريخ، وفي جامع الزيتونة يذكر عددا من جلّة أساتذته منهم: الشيخ النخلي في التفسير، والشيخ محمد بن يوسف في البلاغة، والشيخ الصادق النيفر في الفقه، والشيخ محمد بن القاضي في النحو والصرف، والشيخ محمد بن شعبان في المنطق والفلسفة، والشيخ معاوية التميمي في آداب اللغة العربية. ويذكر

* - أستاذ بالتعليم المتوسط- مادة العلوم الاجتماعية، وأستاذ مستخلف بقسم التاريخ-جامعة وهران.

أنّه كان يقضي عشر ساعات من يومه في الدراسة تستمر من صلاة الصبح إلى ما بعد صلاة العشاء يتخلّلها حفظ مختلف المتون[2].

وإذا كان شيوخه كثر فإنّ تلامذته لا تكاد تحصي منهم أحدا، إذا ما أخذنا في الحسبان التدريس كوظيفة تستوجب وجود الشيخ لحضور التلاميذ الذين يأخذون عنه، فهو لم يشتغل في حقل التدريس خلال حياته المهنية، ورغم ذلك فهو من أعمدة التاريخ والمؤرخين في الجزائر، ولئن لم يكن له تلاميذ فعليين تلقوا عنه، فما من شك أنّ هناك الكثير ممّن قرأ عليه من خلال قراءة مصنّفاته وتأثر بملكته في الكتابة وصدق أخباره وروحه الوطنية التي جسّدها في مجمل أعماله.

أصدقاؤه: إنّ صداقات الرّجل لا يمكن حصرها باعتبار أنّه عاش في تونس واختلط خاصّة بالوطنيين والإصلاحيين وأصحاب القلم، فكان له حظ وافر من الأصدقاء، ثمّ دخل الجزائر وطاف بها، فما من شكّ أنّه كان له بكلّ مدينة حلّ بها أصدقاء، ولمّا دعاه الواجب إلى تمثيل الجزائر في الوفد الخارجي وبحكم منصبه أصبحت له صداقات في كلّ الدول التي تنقّل إليها وقام بزيارتها، إلاّ أنّ جلّ هذه الصداقات كانت ذات صلة بالعمل، أمّا العلاقات الحقيقية والحميمية فهي تلك التي كانت تجمعه بمن عاصره من الأصدقاء والإخوان، ويخبرنا عن بعض هؤلاء، ممّن جمعته بهم علاقة متينة في جمعية العلماء، جعلتهم يستسمحونه عرفانا بنضاله في إقامة حفل، بمناسبة مرور ثلاثين سنة على عودته إلى أرض الوطن، وكان ذلك خلال شهر يونيو من سنة 1955، فقام كلّ منهم بإلقاء قصيدة بهذه المناسبة، وكانت القصائد من المرحوم عبد الكريم العقون وأمير الشعراء أحمد سحنون، وقصيد شاعر الثورة مفدي زكريا، وقصيد شاعر الوطنية والعاطفة والإحساس أبو القاسم سعد الله[3].

نشاطه السياسي: كان للرجل حضور سياسي قويّ في تونس، حيث أدّى نشاطه المبكر ضمن لجنة صغار الثوار التونسيين التي كانت تخطّط للكفاح المسلّح لاستقلال تونس إلى تعرّضه للسجن منذ سنة 1915 حتىّ نهاية الحرب العالمية الأولى، ولم يثبّطه ذلك عن مواصلة نضاله السياسي ممّا سبّب له الإبعاد والعودة إلى وطنه الأمّ في 5 جويلية 1925، حيث سيواصل نشاطه في نادي الترقي ثم في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي أصبح أمينها العام ورئيس تحرير جريدتها البصائر لسان حالها إلى غاية سنة 1956، وفي نفس السنة عيّن عضوا في الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني، ثم وزيرا للشؤون الثقافية في الحكومة المؤقتة

الأولى سنة 1958، وتقلّد بعد الاستقلال عدّة مناصب سياسية منها منصب سفير فوق العادة مفوض في ثلاثة عواصم هي: بغداد وطهران ثم أنقرة، وفي سنة 1969 عيّن على رأس وزارة الشؤون الدينية، ثمّ أعيد سنة 1970 إلى السفارة بإسلام أباد، وفي سنة 1972 التحق بالمركز الوطني للدراسات التاريخية[4].

مؤلّفاته التاريخية: ترك أحمد توفيق المدني بعد وفاته في 18 أكتوبر 1983-رحمه الله- سجلاّ حافلا من المؤلفات التاريخية أبرزها ما يلي: "تقويم المنصور" الذي اقتحم به باب التأليف المنظم، وقد أصدره سنة 1922 ويقع في 320 صفحة، ويشمل أبوابا من العلوم والفنون والآداب والسياسة والتاريخ والجغرافية، وأتبعه بالجزء الثاني سنة 1923 والثالث سنة 1924 والرابع سنة 1925 [5]، ثمّ تلاه الجزء الخامس في أوائل سنة 1930 [6]. وأردف ذلك بتأليفه لـ"كتاب الجزائر" الذي يقع في 408 صفحة[7]، سجّل فيه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى سنة 1930، وعرّف فيه بتاريخ وطبيعة الجزائر وعناصر سكانها ونظمها وقوانينها وحالتها الأدبية وقوتها الاقتصادية، وقد صدر هذا الكتاب سنة 1931 وأعيد طبعه سنة 1984[8]. وقدّم بعده كتاب "هذه هي الجزائر" الذي يقع في 247 صفحة، للتعريف بالجزائر أرضا وشعبا وتاريخا وثورة[9]. وأعقبه بكتاب "محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766/1791"، الذي تناول فيه السيرة الذاتية لشخصية الرّجل وحروبه وأعماله ونظام الدولة والحياة العامّة في عهده، وقد صدرت طبعته الأولى عن المكتبة المصرية بالقاهرة سنة 1937 [10]. وأتبعه بكتاب يقع في 280 صفحة تحت عنوان "المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا"، الذي ذكر أنّه "اجتهد فيه بحثا واستقراء عن تاريخ صقلية الإسلامية، متوسعا في ذلك حسبما أمكنه أن يحصل عليه من مختلف الوثائق والمعلومات وبين طيّات ما وصل إليه من كتب عربية وإفرنجية"[11]. كما قدّم سنة 1948 كتاب "جغرافية القطر الجزائري" فكان أول كتاب عربي عن جغرافية الشعب الجزائري، الذي وصف فيه الجزائر طبيعيا وسياسيا واقتصاديا[12]. وألّف بعد ذلك "مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهّار نقيب أشراف الجزائر"(تحقيق في سلسلة ذخائر المغرب العربي)، الذي يعتبر وثيقة جديدة صادقة، في سجل التاريخ العثماني الطويل بالجزائر[13]، وهو يقع في 196 صفحة. ثمّ ألّف عقبه كتاب "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792"، وضمّنه الكثير من الوثائق عثر عليها في مدريد وتوبكابي[14] باسطنبول

قام بدراستها لاستخراج الحقائق الناصعة من بينها، وتحطيم ما انطوت عليه من كذب وبهتان ليستخلص في النهاية كتابا يقع في 508 صفحة[15].

وأمّا كتابه "حياة كفاح (مذكرات)"، فهو يقع في 1386 صفحة، وقد قسّمه إلى ثلاثة أجزاء، فهو يغطّي في قسمه الأول الفترة الممتدّة من 1905 إلى 1925، وأكثر ما جاء فيه نشاطه السياسي بتونس إلى إبعاده عنها، إلى جانب ما كان يجري في القطر التونسي الشقيق من أحداث سياسية خلال الفترة المذكورة، أمّا القسم الثاني فهو خاص بالفترة من 1925 إلى 1954، أين جسّد فيه على وجه الخصوص الفكر الإصلاحي في معترك نضال الحركة الوطنية، بينما تعرّض في القسم الثالث إلى مرحلة الثورة التحريرية من 1954 إلى 1962، وأهم ما انطوت عليه من أحداث.

وكان ينوي إضافة جزء رابع عن جزائر ما بعد الاستقلال لولا أنّ المنية عاجلته، ويذكر نجله محمد إسلام أنّ هذا الجزء تحت عنوان "ردّ أديب على حملة أكاذيب"، وفيه إفادات غير منشورة[16]. وقد جمع مقالات والده في كتاب بعنوان: "أبطال ورجال"، نشر ضمن السلسلة الجديدة مع مجموعة كتبه التي لم تنشر من قبل وهي: "طريق أصيل"، "اصطلاحات"، "آراء وأفكار"[17].

ثقافته: إنّ أحمد توفيق المدني يملك من الثقافة زادا كبيرا يجعله في مصاف كبار المؤرخين خلال عصره، فقد تفوّق على نظرائه وظهر ذلك جليّا منذ أوّل عهد له بالدراسة في المدرسة القرآنية الأهلية، حيث كان خطيب المدرسة وكاتبها المبرّز[18]، فقد تلقى بعمق واتساع العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ والرياضيات، كما كان له حظ من اللغة الفرنسية، صقلته أيّام السجن، ويحدثنا عن نفسه عندما كان ممتطيا القطار في أحداث 8 ماي 1945، وهو بين أربعة أوربيين، منهمكا في قراءة جريدة ECHO D'ALGER، وأنّه سمع ما حدث في الصباح الرهيب بسطيف وما حواليها من أحد المستعمرين[19]. ثم إنّه يتكلّم عن فرحات عبّاس قبل أن يلتقي به من خلال ما كتبه عن الاستعمار الفرنسي، فيصفه بـ:"الرجل الذي أقضّ مضاجع الاستعمار بكتاباته الحارّة وبأسلوبه البليغ". وهو ما يعني أنّه قرأ ما كتبه فرحات ليصدر بشأنه هذا الحكم، وبعد أن التقى به في حوار شيّق بينهما، وتبادلا أطراف الحديث حول قناعة كل منهما، وتوجه حركته وطريقته في مواجهة الاستعمار، كانت نقطة الخلاف بينهما فكرة "الجزائر قطعة من فرنسا" في نظر فرحات عبّاس، أمّا المدني فكان يعتبر ذلك من سابع المستحيلات، ويتشبّث

قناعة بأن الجزائر ليست فرنسا، ويذكر لنا هذا الأخير أنّ الحوار الذي جرى بينهما كان بلسان فرنسي فصيح لأنّ فرحات عبّاس لم يكن يتكلّم العربية إطلاقا[20]. ورغم معرفة أحمد توفيق المدني بلغة القوم أي الفرنسية فإنّ ثقافته كانت ثقافة عربية إسلامية بحكم تكوينه وتشبّعه بالأفكار الدينية، التي يعود الفضل فيها لبذرة رجال الإصلاح في العالم الإسلامي خلال هذه الفترة مشرقا ومغربا.

منهجه في التأريخ: اتبع المؤلّف في كتابته التاريخية منهج الكتابة بحسب الأحداث والمواضيع، بحيث لا يسبق عنده التاريخ لذكر الحادث المرتبط به، إلاّ أنّه غالبا ما يرتب المواضيع في شكل عناوين ويخضعها إلى الترتيب الكرونولوجي، الذي يوافق المنهج المتبع في كتابة التاريخ حسب السنين. فترتيبه لأجزاء مذكراته من الجزء الأوّل إلى الجزء الثالث يتدرّج فيه من محطته الأولى بتونس من مولده إلى إخراجه منها سنة 1925، ليحطّ الرّحال بموطنه الأصلي، ويبدأ من حيث انتهى مرحلة جديدة تنتهي عند عتبة الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر سنة 1954، ويواصل بعد ذلك المرحلة الثالثة من اندلا ع الثورة إلى استقلال الجزائر في 5 جويلية سنة 1962. وممّا تقدّم يتضح لنا أنّ التسلسل الزمني يساير أجزاء مذكراته بشكل تصاعدي، وفي نفس الوقت فإنّه يتماشى سويّا مع مراحل حياة صاحب المذكرات.

مصادره في مذكراته: أمّا مصادره في كتابة مذكراته فهي كما يقول عنها بنفسه:"لقد قدّمت ما كتبته في مذكراتي بكلّ صدق ونزاهة، بجميع ما في الواقعية والإخلاص من مفهوم دقيق، ما رأيته وما سمعته وتأكدت من صحته، وما علمته وما شاركت بضلع وافر في عمله، خلال سبعين سنة، أي من سنة 1907 إلى سنة 1977"[21]. فقد كان طرفا فاعلا في الحزب الحرّ الدستوري التونسي، وعضوا بارزا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ناهيك عن المنصب الذي كان يشغله في الوفد الخارجي الجزائري منذ سنة 1956 إلى سنة 1962، بحيث سمح له هذا المسار الحافل بالنضال السياسي أن يجمع قدرا كبيرا من الوثائق الرسمية في تعامله مع مختلف القضايا التي كان حاضرا فيها.

مكانته مؤرّخا: إنّ مكانة أحمد توفيق المدني كمؤرّخ لا ينكرها إلاّ مجحف، وما تلك المجموعة من الإصدارات التي أخرجها إلى الوجود في عالم الكتابة التاريخية إلاّ دليل حي وقاطع على جلائل أعماله، التي أضافت إلى المكتبة الوطنية والعربية عناوين جديدة تعرّف بما كتبه الرجل، وتؤكد سبقه في هذا الميدان كأحد عمالقة الكتابة التاريخية في الجزائر المعاصرة.

خصائص كتابته التاريخية: يتمتع المدني بموهبة أدبية خلاّقة، وخيال واسع، وقلم نفيس، ناهيك عن إلمامه العميق بأصول الثقافة العربية الإسلامية، وهو ما جعل خصائص كتابته أقرب إلى أسلوب العصر الإسلامي الوسيط الذي يبدو فيه الإبداع في الكلمة والعبارة والنّص ككل، ومن ذلك مثلا قوله في العدد 311 من البصائر الذي كان تحت عنوان الاعتراف الخطير:"وسيجيء يوم ليس ببعيد، تنتهي فيه هذه المحن وينبثق فيه نور الصبح الأبلج ويحمد القوم السرى، وإنّ غدا لناظره قريب"[22]. فلغته رفيعة المستوى وأسلوبه تطغى عليه مرجعيته الفكرية الصادرة عن تكوين ديني، نستخلصه فيما كان يصفه أو يستدلّ به من حين لآخر على ما يسوق إلينا من أحداث ووقائع أو حتّى تعريفه بالشخصيات، إنّه الأسلوب القرآني الذي يأتي في مقدّمة ما كان يدعم به فكرته. فقد يأتي بالآية الصريحة المطابقة لما يتحدّث في نطاقه، وقد يأتي بتعبير قرآني ضمني للدلالة على أمر معيّن، ونلمس ذلك على سبيل المثال لا الحصر في الكثير من عناوينه، ومنها مثلا: مقال نشره بعنوان "ظلمات بعضها فوق بعض"[23] وآخر تحت عنوان"أليس فيكم رجل رشيد"[24].

ويأتي الشعر في الدرجة الثانية ممّا كان يستدلّ به كلّما دعت الضرورة إلى ذلك في سياق الكلام، فهو يحفظ الكثير من الأشعار وهو نفسه كان شاعرا وكانت أول قصائده عن أيّام سجنه بتونس وهي تتألّف من تسعة أبيات مطلعها:

دأب الزمان اذاية الأحرار ورعاية الأوغاد والأشرار

حتى إذا ما قام منهم سالك سبل الرشاد يبوء بالإكدار[25]

وللمدني قصائد أخرى طويلة منها تلك التي ألقاها بمناسبة افتتاح جمعية الفلاح وهي تحتوي على تسعة وثلاثين بيتا، وأخرى ألقاها بمناسبة حفل الشبيبة الإسلامية وتتألّف من سبعة وثلاثين بيتا، وجادت قريحته في العام الموالي بنفس المناسبة بقصيدة من سبعة وثلاثين بيتا كذلك[26]. وإذا كان يطغى على أسلوبه الاستدلال بالقرآن فإنّه قلّما يستشهد بالحديث النبوي، كقوله "أمّا بقية الجماعة– وهو يتحدّث عن الانقسام الذي كانت تعرفه الحركة التونسية حينئذ– فهم في نظري على حدّ قوله صلّى الله صلّى الله عليه وسلّم:[أنصر أخاك ظالما أو مظلوما][27].

إنّ معرفة الرّجل باللغة العربية وبلسان العرب على اختلاف مناطقهم تؤكد انه عربي حتى النخاع، وهو ما جعله يتقن اختيار الألفاظ، فلا غرابة أن نجده بين صفحتين متتابعتين من

مذكراته يذكر كلمة"الطيارات" ثم يعود في الصفحة الموالية فيذكر نفس الكلمة ولكن هذه المرّة بـ:"الطائرات"[28]. وفضلا عن هذا وذاك فإنّ المدني كان ابن بيئته وعلى علم بالأمثلة الشعبية المستعملة عندنا بين عامّة الناس في الثقافة الشعبية، ومن ذلك مثلا عنوانه التالي:"حجّ وحاجة"[29]، وعبارة "بقر الله في زرع الله"[30]، التي يعلّق عليها بقوله: كما يقولون عندنا.

عقيدته وآراؤه السياسية: لم يكن أحمد توفيق المدني صاحب نظرة حزبية ضيّقة، رغم إخلاصه لجبهة التحرير الوطني التي كان يعمل سياسيا ضمن إطارها أثناء الثورة وبعدها، ذلك أنّه كان يؤمن بعقيدة سياسية واحدة اسمها الوطنية الجزائرية، ذات الأبعاد العربية الإسلامية، فكانت آراؤه السياسية تسير في هذا المنحى لخدمة ما آمن به، ومن أجله ناضل طيلة حياته لفترة تجاوزت السبعين عاما.

تعامله مع من كتب عنهم: يتعامل المدني مع الشخصيات التي يكتب عنها بدون تنزيه ولا وقوع في الأعراض مبتعدا عن الثلب ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فهو يرى" أنّ المؤرّخ يجب أن يقف من الحوادث ومن الرجال ومن المجتمع موقف الملاحظ المسجّل النزيه، الذي لا يراعي في كتابته صداقة ولا أخوّة ولا عاطفة ولا مصلحة، بل يجب أن يخترق حجب الأعماق، ويجب حتما أن يذكر الوقائع أو الأوصاف كما شاهدها، وكما اقتنعت نفسه بصحتها، إنّه المصوّر الذي يجهد نفسه لأخذ الاتجاه المناسب، حتى يضع ضمن علبة التصوير رسما حقيقيا ناصعا ناطقا معبّرا، يحفظ للمستقبل حقائق الحاضر بما لها وما عليها، وهو يعتقد أنّه قام بهذا الواجب حق القيام"[31].

حياة كفاح (مذكرات): يعتبر مؤلفه هذا من أهمّ ما ألّف من كتب تاريخية، باعتباره مصدرا في غاية الأهمية من تاريخ الجزائر ما بين 1905 و1962، نظرا لما احتواه من روايات للأحداث وشهادات حيّة ووثائق حقيقية لا يمكن الاستغناء عنها للباحث والدّارس من أهل الاختصاص على حدّ سواء، باعتبار صاحبها شاهد عيان على العصر وأحد صانعي أحداثه.

ويذكر صاحب التأليف قيد الدراسة أنّ مؤلّفه هذا" يصوّر جزئيات من حياة المجتمعين التونسي والجزائري بصفة محايدة، وأنّه يتكلّم عن الحوادث في تسلسلها الطبيعي، دون محاولة تحسين أو تقبيح، وأنّه ما تكلّم خلال ذلك عن أيّ رجل بمدح أو بقدح، إلاّ بعد أن اختلط به وعجم عوده وسبر أغوار نفسه، دون تحيّز ودون دفاع ولا هجوم، فهو يقدّم لنا

مذكراته شهادة حق وصدق واقتناع، سجّلها ساعة وقوع حوادثها، بعد فحصه واختباره للرجال الذين سجّلوا أسماءهم فوق حلبتها"[32].

الجزء الأول: يصوّر لنا فيه المجتمع التونسي مطلع القرن العشرين، ومكابدته للاستعمار الفرنسي وتسلّط المستوطنين الأوربيين، الذين ملكوا الأرض وجعلوا أهلها أذلة، ولمّا بلغ الاحتقار أشدّه ردّ عليهم أبطال تونس ومنهم: عبد العزيز الثعالبي، وعلي باشا حامية، والبشير صفر، وعلي بوشوشة، والجزائري الفحل عبد الرحمن الصنادلي، الذي قال بصراحة مدوية في أوّل عهد جريدة الزهرة: "وماذا استفادت تونس من وجود الحكم الفرنسي بالبلاد، إلاّ إباحة الخمور، وتعميم ديار الفجور"[33]. ويتحدث المؤلف عن دفعات الخرّيجين من جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية، ودورهما في بعث شعلة النهضة التي فجّرت حادثة الزلاّج، التي كانت معركة ضدّ ظلم الاستدمار وطغيانه[34]، وتدعّمت هذه الحادثة بإضراب المواطنين عن استعمال وسائل النقل العمومي، فتوجّس الاستعمار خوفا من بروز حركة ثورية مناهضة للاحتلال، فقابل ذلك بالعنف وإبعاد الزعماء وتعطيل الصحف والمجلاّت التونسية[35].

ويحدّثنا المدني عن نفسه عند قيام الحرب العالمية الأولى، كيف حاول أن يكون طرفا في مؤامرة حيكت لضرب الاستعمار، غير أنّ هذا الأخير تفطّن لذلك فباءت المحاولة بالفشل، وسيق المدني إلى سجن تونس المدني، ليقضي في زنزانة انفرادية حوالي أربع سنوات حيث التقى بالزعماء، وكان في الطليعة مع الرعيل الأوّل الذين أسّسوا الحزب الحرّ الدستوري التونسي، وأصبح فيه أمينا عامّا مساعدا مكلّفا بالقلم العربي ضمن اللجنة التنفيذية للحزب عضوا عاملا[36]، منذ منتصف ماي 1920، فكان النضال باللّسان والقلم والعمل الثوري الجريء، الذي واجهه الاستدمار بكلّ شراسة للقضاء على الحركة الوطنية التونسية النّاشئة، والتخلّص من النخبة التي أخذت تظهر للوجود، وترسّخ أفكارها في نفوس الشعب التونسي، للقيام بواجبه الديني والوطني تجاه الأرض والعرض والمقدّسات.

ولمّا وقع الخلاف الذي ساهم الاستعمار بشكل كبير في إذكاء ناره[37]، كان رابع أربعة في الوفد التونسي الثالث الذي سافر إلى باريس[38]، وقد دوّن كلّ ما حدث حفظا للتاريخ من الضياع، وواصل كفاحه خدمة لتونس إلى أن ضاق الاستعمار به ذرعا فطرده من تونس، وسلّمه إلى محافظ شرطة عنّابة.[39]

ويرى الدكتور بشير التليلي أنّ الجزء الأول من مذكرات أحمد توفيق المدني أسهم في الإجابة عن عدّة علامات استفهام، وشارك في سدّ فجوات في تاريخ تونس ما بعد الحرب العالمية الأولى في سنوات ما بين 1905 و1925، فهو يمدّنا بوثائق استثنائية لم تنشر من قبل، ويصف لنا الأحداث كما عاشها رأي العين، فيما كان يجري من نشاطات الدستوريين والإصلاحيين، وشخصيات هذا العصر بتونس. ويضيف قائلا: "إنّ هذا النّوع من التأليف جدّ سخي بالمعلومات بالنسبة للمؤرّخ، لأنّه يطلعنا على عدّة مسائل إسلامية متوسطية، خلال الفترة وتأثيرها على تونس. فهو يصف لنا أحداثا كالحرب الإيطالية التركية في طرابلس الغرب، والنشاطات الصهيونية بتونس، فضلا عن المؤتمر العربي الأول في باريس، والدستور العثماني لسنة 1908، وعن العلاقات بين الإصلاحيين الجزائريين والتونسيين وهلم جرا.[40]

ويخلص التليلي إلى أنّ هذا القسم هو بلا نزاع إسهام جدّ نفيس فيه عبرة للمعتبر، كما يسهم في إعادة النظر في معلوماتنا التاريخية وفي تصحيحها على أقلّ تقدير، وذلك فيما يخصّ ثلاث مسائل أساسية في تاريخ تونس المعاصرة:

أولا: ملف الصّلات بين القومية والنقابية في تونس في ما بعد الحرب الكبرى الأولى (1919- 1925)، بالنظر إلى وثائق المذكرات التي تبيّن خطر استخدام وثائق الأرشيفات الرسمية بدون بحث تاريخي.

ثانيا: ملف العلاقات بين الدستور وبين حزب الإصلاح التونسي لأعوام 1921-1925 بنشر محاضر اجتماعات اللجنة التنفيذية الخاصّة بهذه المسألة.

ثالثا: ملف شروط تكوين وتطوير الحزب الحرّ الدستوري التونسي ما بين (1919 و1925).[41]

الجزء الثاني: وهو يؤرّخ للفترة من 1925 إلى 1954، فقد تحدّث فيه عن كفاح الشعب الجزائري وعزّة نفسه، وتعشقه للحرّية منذ غابر العصور، ومحاربته لضيم الغزاة المستعمرين، مقدّما أرواح الشهداء الزكية ليرى نفسه حرّا سعيدا، فقال في وصفه للشعب الجزائري: " لقد رأيته رأي العين ... لا يفكّر في اللّقمة، بل يفكّر في القمّة، لا يريد الجرد، بل يريد الحرّية والمجد، لا يرضى سكن القبور، بل يتطلّع لميراث القصور... فما هي إلاّ سنوات قليلة، حتى رأيناه يهبّ عاصفة هوجاء طاغية، تحطّم الاستعمار كلّه، وتحقق المجد، وتسكنه القصور، تحت رايات الحرّية الحمراء والاستقلال العزيز".[42] ويتعرّض لبطولات هذا الشعب في ليالي

قسنطينة الزاهرة برجالها الميامين كعبد الحميد بن باديس ومبارك الميلي، ومن لفّ لفّهما، وفي تلمسان الغناء حديقة التاريخ وواحة الأدب، وفي وهران التي خالها الاستعمار مدينة ميتة ومقبرة للأحياء، فإذا بها مدينة الحياة، تتذاكر علنا في جلسات عامة حول أقرب الطرق التي يجب على الشعب أن يسلكها ليصل إلى أهدافه. كما وصفه في الجزائر العاصمة بانّه الشعب الذي يسير على سنّة أسلافه، لا خلف تلك الأقلّية من دعاة الهزيمة، أنصار الاستعمار التي أرادت أن تدفع به إلى الاندماج والتفرنس، فتصدّى لها من خلال تمسّكه بالثالوث المقدّس: الإسلام عقيدة والعروبة لغة والوطنية الأصيلة لحمة.[43]

ويعتبر المؤلّف تأسيس نادي الترقي سنة 1927 بداية النهضة العملاقة في الجزائر، ويصف كلّ ما يتعلّق به وصفا دقيقا، ينقل فيه القارئ إلى قلب الأحداث بما يشعره أنّه كان يشارك في أعمال النّادي، ثمّ ينتقل إلى احتفال الاستعمار بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر سنة 1930، وكيف ردّ الشعب الجزائري على ذلك بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931، للدفاع عن المقوّمات الشخصية للجزائريين بوسائل مختلفة، ومن ذلك تأسيس ونشر الصحف الإسلامية الوطنية، التي تتكلّم باسم الأمّة، وتحمل شعورها وتبث اليقين بين صفوف أبنائها.

وسيستمرّ تصاعد تيار الوطنية من هاتيك الفترة، حيث يصف المدني الحركات الوطنية كحزب الشعب، الذي تحوّل إلى حركة انتصار الحرّيات الديمقراطية بقيادة مصالي الحاج، وحزب البيان الجزائري مع فرحات عبّاس، وجمعية العلماء مع شيوخها وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، والمؤتمر الإسلامي وشبابه مع الأمين العمودي، والجبهة التي ضمّت كلّ التيارات السياسية الجزائرية كجبهة للدفاع عن الحرية.

ثم يذكر شيئا ممّا كان يكتبه في مجلة الشهاب من أوّل أعدادها إلى آخرها، ومن ذلك صرخته في وجه الإدارة الاستعمارية ودعاة الفرنسة والاندماج، بقوله:" إنّ هذه الأمّة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمّة بعيدة عن فرنسا كلّ البعد، في لغتها وفي أخلاقها وفي دينها. لا تريد أن تندمج، ولها وطن معيّن هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة".[44]

ويواصل الحديث عن مسيرته النضالية، بما أنتجه من كتب خدمة للعروبة والإسلام والوطنية الجزائرية إلى قيام الحرب العالمية الثانية، التي زجّ بالجزائريين فيها ظلما وقهرا، حتّى إذا

وضعت هذه الحرب أوزارها اتضح نفاق الاستدمار الفرنسي، الذي كافأ مساعدة الشعب الجزائري لفرنسا بتلك المجازر الرهيبة، التي حدثت في 8 ماي من سنة 1945، والتي راح ضحيتها خمسة وأربعين ألف شهيد جزائري، بدون رحمة ولا شفقة ولا تمييز، ومن يومها أدرك الجزائريون وتيقنوا أن لا منجى لهم من مخالب الاستعمار إلاّ بحرب ضروس، تفتح باب الحياة في الجنّة لمن يموت من الشهداء الأبرار، وتعبّد الطريق نحو فجر الحرّية لمن يعيش من الجزائريين ليرى ذلك الغد المشرق حرّا سعيدا.[45]

وجملة القول: إنّ الجزء الثاني من مذكرات أحمد توفيق المدني يقدّم لنا فيها التيار الإصلاحي المحافظ، ويعرّفنا بأهمّ رجاله ومشايخه، ويطلعنا على ثورة هؤلاء ضدّ التفرنس ودعاته، ووقوفهم في وجه مخطّطات التجنيس، في سبيل الإسلام والعروبة والوطنية. ويسلّط المؤلّف الضوء على العلاقة بين الإصلاحيين ودعاة الإدماج، ويسوق إلينا أخبار النشاط السياسي الذي قامت به الحركة الوطنية في نجم شمال إفريقيا وفي حزب الشعب لاحقا، وما قامت به جمعية العلماء، ومآثرها بعد الاحتفال المئوي الجارح، كما يخبرنا عن دور شخصية الأمين العمودي في المؤتمر الإسلامي الجزائري، وتفاصيل سياسية أخرى تتصل بباقي أحزاب الحركة الوطنية، ويقدّم لنا صورة عن واقع اليهود في الجزائر خلال هذه الفترة، ويستوقفه ذلك الحادث المهول المتمثل في مجازر 8 ماي 1945، الذي كان أفظع صفحات الاستعمار الفرنسي في كلّ عصر وفي كلّ مصر، فيصف لنا ما سمعه وما شاهده عن هذه الوقائع المخجلة. ولم ينسه الحديث عن وطنه الجريح، من تخصيص مجال معتبر للحديث عن أهمّ الأحداث التي كانت تقع حينئذ على السّاحة العربية، في كلّ من المغرب وتونس وليبيا ومصر وسوريا وفلسطين، وعلاوة على ذلك يخبرنا عن الجهاد في الهند ضد الاستعمار الإنجليزي.

الجزء الثالث: إنّ المؤلّف يؤرّخ في هذا الجزء للفترة الممتدّة ما بين 1954 و1962، أي لتاريخ الثورة وقد عنونه بـ:" مع ركب الثورة التحريرية"، فقسّمه إلى أربعة أقسام، تحدّث في قسمه الأوّل عن ركب الثورة بالعاصمة، فكشف لنا النقاب عن موقف جمعية العلماء من الثورة وعن ذلك البيان الحاسم[46]، الذي أصدرته خلال مؤتمرها السنوي في7 يناير من سنة 1956، الذي عبّر فيه العلماء بشكل جماعي عن تأييدهم للثورة وانضمامهم إليها، ورغم القيود التي مارستها الإدارة الاستعمارية، استمرّت البصائر منذ اليوم الأول للثورة تكتب عنها بعناوين نارية فيها ما فيها من الدلالات، كان أحمد توفيق المدني يحرّر افتتاحيتها، ومنها على سبيل المثال

لا الحصر العناوين التالية:"أليس فيكم رجل رشيد[47]" و"لا رجوع إلى الوراء[48]"، ثمّ "نحن لا نطلب صدقة بل نريد حقا".[49]

وفي القسم الثاني الذي كتبه تحت عنوان:"في العالم العربي"، فقد استهلّه بالحديث عن التحاقه بالوفد الخارجي، وتطوافه بمكتب المغرب العربي بالقاهرة، الذي كان يترأس مكتبه السياسي محمد خيضر، أمّا مكتبه العسكري فكان يترأسه أحمد بن بلّة، واستقرّ به المقام بمقرّ جمعية العلماء بالقاهرة، وفي غرفة البشير الإبراهيمي بالذات.[50] كما تحدث عن اجتماعات الوفد الخارجي، وما كان يعقبه من مؤتمرات صحفية بالقاهرة، وعن مقابلاته لعدد من القادة العرب خلال تحرّكاته وجولاته التي ساقته إلى البلاد العربية، وخطبه ومنها خطابه للمجاهدين الجزائريين من صوت العرب بعد إلقاء القبض على قادة الثورة الخمس في أشهر قرصنة جوّية تقوم بها الدولة الفرنسية، وقد اعتبر المدني عملية اختطاف الطّائرة خديعة وخيانة لم يرو التاريخ لهما مثيلا[51]، وخطابه الملتهب المطوّل أمام جامعة الدول العربية يوم 3 نوفمبر سنة 1957، الذي حثّ فيه العرب وجامعتهم على القيام بواجبهم المادّي نحو الجزائر في جهادها وحمّلهم مسؤولية نتيجة المعركة مع المستعمر[52]، وخطابه أمام الشعوب الأفروآسيوية في ثالث أسبوع من ديسمبر في نفس السنة بالقاهرة[53]. ويصف لنا أبرز أحداث الثورة، والمساعدات المادية والمالية من بعض الدول العربية والإسلامية لتموين الثورة بما تحتاجه لمواجهة العدو. وختم هذا القسم بحديثه عن الشهيد عبّان رمضان.[54]

أمّا القسم الثالث، فقد ضمّنه حديثا مسهبا عن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وعن الرّحلة العربية الكبرى، وعن رحلته إلى الصين الشعبية وموسكو، وعن وزارة الشؤون الثقافية التي تولّى قيادتها، وما قامت به خلال أربعة عشر شهرا (من أكتوبر 1958 إلى آخر نوفمبر 1959)، في تقرير مفصّل قدّمه إلى المجلس الوطني للثورة الجزائرية[55]ختم به هذا القسم، وممّا جاء فيه التقرير عن دراسة الشبّان الجزائريين التابعين للوزارة في المشرق العربي، وشمال إفريقيا، والبلاد الغربية، وأوربا الشرقية.

وفي القسم الرّابع خصّ الحديث عن التمثيل الدّائم بجامعة الدول العربية، وسفارة الجزائر بالجمهورية العربية المتحدة، وقد عرض فيه مسائل وقضايا سياسية بارزة، ومنها تونس والحدود وقضية بنزرت[56]، والمراحل المختلفة للمفاوضات بين الجزائر وفرنسا، ثم الاستقلال والحرية، وانضمام الجزائر لجامعة الدول العربية، وينتهي به المطاف إلى الحديث عن استقدامه للجزائر– بعد

أن كان سفيرا للجزائر ومندوبها الدّائم لدى جامعة الدول العربية- لتولّي منصب وزير الأوقاف والشؤون الدينية، يوم 28 سبتمبر من سنة 1962، بدعوة من الرئيس أحمد بن بلّة.[57]

والجدير بالذكر أنّ الجزء الثالث والأخير من مذكرات حياة كفاح، يعرض لنا صاحبها الموقف الجماعي لجمعية العلماء من الثورة، ويبرز دور مجلّة البصائر في فضح خطط الاستعمار والتصدّي لها بلا هوادة، ويصف لنا محطّات وأحداث بارزة في تاريخ الثورة، ومنها مؤتمر الصومام، لجنة التنسيق والتنفيذ، المعدمون بالمقصلة في الجزائر، ساقية سيدي يوسف، الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، التفجير النووي الفرنسي في الجزائر، ومراحل المفاوضات بين الجزائر وفرنسا.

وينتقل المؤلّف للحديث عن تطور القضية الجزائرية من المحلّية والإقليمية إلى بحر العالمية، بداية من مؤتمر باندونغ، ثم الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة، وأخيرا المؤتمر الإسلام. ولم يفوت فرصة إخبارنا على بعض الصعاب التي واجهتها الثورة، فيما أسماه بـ"النكبات" ومنها نكبة القبض على القادة الخمس، ونكبة حجز السفينة أتوس في ناحية وهران. ومثلما فعل في الجزء الثالث فهو يخصّص فضاء للحديث عن بعض القضايا العربية التي كانت تطفو على الساحة السياسية، ومنها حديثه عن تفاصيل تشييد السدّ العالي، وتأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس، والعدوان الثلاثي الفرنسي- البريطاني والإسرائيلي على مصر، كما يخبرنا عن مشروع ثورة في "دارفور" ضدّ الاحتلال الفرنسي، الذي ضمّ بلادهم إلى مستعمرة تشاد.

وللإشارة فإنّ الجزأين الثاني والثالث يعتبران مصدرا في غاية الأهمّية لجزائر ما بعد الحرب العالية الأولى إلى نهاية الثورة التحريرية الكبرى، ومن ثمّ فإنّ الرجوع إلى هذين الجزأين لفهم مجريات الأحداث في الجزائر خلال هذه الفترة يعتبر أكثر من ضرورة، نظرا لما ورد في الجزأين من شهادات حيّة رآها صاحب التأليف أو سمعها من أولئك الذين ارتبطوا بالأحداث عن كثب، فضلا عن الوثائق الرسمية التي استخدمها في كتابته للأحداث التي نقلها إلينا، مهتبلا فرصة وجوده في الوفد الخارجي، التي مكنته من الانفراد بكم ضخم من وثائق الثورة الجزائرية في الخارج، فهو بهذا يضيفَ إلى معلوماتنا الشيء الكثير عن تاريخ الثورة، ممّا يساعد المؤرّخ على رسم صورة واضحة تكمّل بعض الفراغات التي لم يتحدث عنها في المصادر الأخرى، التي كتبت عن الثورة الجزائرية، ومن أبرز الوثائق التي انفرد بها صاحب التأليف النداءات والبيانات والقرارات ومحاضر الاجتماعات والندوات الصحفية والمقابلات

مع الملوك والرؤساء، وما سجله من خطابات وما كتبه أو وصله من رسائل، علاوة على التقارير والمذكرات والمهمّات التي كان يقوم بها في إطار الوفد الخارجي الجزائري بالقاهرة.

وفي الأخير نشير إلى أن ما قد يعاب على أحمد توفيق المدني هو حديثه عن نفسه ذكره لنشاطاته السياسية والفكرية التي قام بها باستمرار أثناء مذكراته، والواقع أنّ ذلك لا يعتبر نقيصة بقدر ما يعدّ من متطلّبات هذا اللون من الكتابة التاريخية المعروفة بالمذكرات، ومن ثم فإنّ لهذا الأمر ما يبرّره، فترى صاحب المذكرات يأخذ حيزا كبيرا في مؤلّفه هذا وحجما معتبرا من الصفحات بالنظر إلى الحديث عن دوره المحوري كرجل سياسي ومفكر وكاتب وأديب وعلاقته بالأحداث سواء أكان ذلك من قريب أو من بعيد.

خاتمة: إنّ الواجب يحتّم علينا في ختام مداخلتي هذه، أن ننوّه ونشيد إجلالا وإكبارا بما قام به هذا الرجل، في جوانب متعدّدة منها فصاحة الخطابة، وكياسة السياسة، وسبق الإعلام، وتميّز الكتابة التاريخية بالحرص على صحّة الخبر وأصالة الوثيقة، وهو ما يجعلنا تفاءل خيرا بتناول شخصيته بدراسة معمّقة ومفصّلة من خلال الدراسات الأكاديمية المستقبلية اعترافا بما قدّمه لهذا الوطن، الذي عاش به وله إلى أن فارق الحياة بين أحضانه.

الهوامش:

1-أحمد توفيق المدني- حياة كفاح (مذكرات)- دار البصائر- الجزائر- 2009- ج1- ص.33

2- المصدر نفسه- ج1- ص95- 96.

3- نفسه- ج3- ص130- 145.

4- محمد إسلام نجل أحمد توفيق المدني- مقدّمة آثار الأستاذ أحمد توفيق المدني - المصدر السابق- ج1- ص13.

5- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج1- ص439- 442.

6- المصدر نفسه- ج2- ص224- .227

7- نفسه- ج2- ص287- 291.

8- أحمد توفيق المدني- كتاب الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- ط2- 1984- ص2.

9- أحمد توفيق المدني- هذه هي الجزائر- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- 1956- ص7.

10- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج2- ص382- .388

11- أحمد توفيق المدني- المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا- وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية- 2007- ص6. وقد صدرت طبعته الأولى سنة 1945 عن مكتبة الاستقامة بتونس.

12- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج2- ص548- 549.

13- مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر- تحقيق أحمد توفيق المدني- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1980- ط2- ص5.

14- محمد إسلام- المصدر نفسه- ج1- ص13.

15- أحمد توفيق المدني- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا- (1492- 1792)- دار البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر- 2007- ط1- ص5.

16- محمد إسلام- المصدر السابق- ج1- ص17.

17- نفسه- ج1- ص18.

18- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج1- ص94.

19- المصدر نفسه- ج2- ص529.

20- نفسه- ج2- ص94.

21- أحمد توفيق المدني- كتب جديدة (حياة كفاح)- مجلة الأصالة- العدد54/55- السنة السابعة- 1398 هـ-1978 م- ص93.

22- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج3- ص102.

23- أحمد توفيق المدني- ظلمات بعضها فوق بعض- جريدة البصائر- العدد 321 الصّادر يوم 3 جوان 1955. وفي المصدر نفسه- ج3- ص112-115. وهذا العنوان مقطع من الآية 40 من سورة النور.

24- أحمد توفيق المدني- أليس فيكم رجل رشيد؟- جريدة البصائر- العدد 327 الصّادر يوم 15 جويلية 1955. وفي مذكراته: ج3- ص115-119. وهذا العنوان مقطع من الآية 78 من سورة هود.

25- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج1- ص200.

26- المصدر نفسه- ج2- ص280-287.

27- نفسه، ج1- ص311. والحديث كاملا عن أنس رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((انْصُرْ أخَاكَ ظَالماً أَوْ مَظْلُوماً)) فَقَالَ رجلٌ: يَا رَسُول الله، أنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُوماً، أرَأيْتَ إنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أنْصُرُهُ ؟ قَالَ: ((تَحْجُزُهُ – أَوْ تَمْنَعُهُ – مِنَ الظُلْمِ فَإنَّ ذلِكَ نَصرُهُ)) رواه البخاري. أنظر: النووي أبو زكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين- دار الفكر – بيروت – 1421هـ –2000م- ط3- ص60.

28- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج2- ص530- السطر 10- وص531- السطر 15.

29- المصدر نفسه- ج3- ص461.

30- نفسه- ج2- ص89.

31- أحمد توفيق المدني- المقال السابق في مجلة الأصالة- ص91.

32- المقال نفسه- ص93.

33- نفسه- ص95.

34- أراد المجلس البلدي بتونس تسجيل مقبرة الزلاج، ودعا إليه عامّة التونسيين، وعيّن يوم 7 نوفمبر من سنة 1910 موعدا لإتمام العمل، وقد اخترعت الإدارة الفرنسية هذا التسجيل لفرنسة الأرض الزراعية التونسية، فكان الرفض التونسي الذي قوبل بالعنف الاستعماري. ينظر تفاصيل ذلك لدى أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج1- ص70-76.

35- أحمد توفيق المدني- نفس المقال والصفحة.

36- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج1- ص242-246.

37- ألقت السلطة الفرنسية القبض على عبد العزيز الثعالبي بباريس بدعوى التآمر عليها، وأوعزوا إلى صحفي مصري عمل بتونس مدّة إلحاق التهمة بالشيخ، فزجّ به مقيدا في ثكنة عسكرية، وبعد إطلاع التونسيين على كتاب " تونس الشهيدة "، ظهرت أقلية خشيت من نشر الكتاب، فعارضت ذلك صراحة وتبرّأت من الكتاب ومن الثعالبي. ينظر تفاصيل ذلك في حياة كفاح- ج1-ص229-235.

38- المصدر نفسه- ج1- ص246-247.

39- أحمد توفيق المدني- نفس المقال في مجلة الأصالة- ص96.

40- بشير التليلي- حول مذكرات: حياة كفاح- تعريب محمد بلقراد- في مجلّة الأصالة- نفس العدد والسنة- ص105 نقلا عن مجلّة الصحائف التونسية- كلية العلوم الاجتماعية- العدد 97-98.

41- المرجع نفسه- ص106.

42- أحمد توفيق المدني- المقال نفسه- ص98.

43- الواقع أنّ شعار (الإسلام ديننا- العربية لغتنا- والجزائر وطننا)، ينسب إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس من قبل معظم المعاصرين له. ينظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس- جريدة البصائر- السنة الثانية- العدد 83- الصادر في 30 سبتمبر 1937- ص1. : تركي رابح- الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر- ط5 مزيدة ومنقحة- المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار- الجزائر- 1422هـ/2001م- ص247. ينظر أيضا: تركي رابح- الشهاب لسان الإسلام والعروبة والوطنية في الجزائر(1925-1939) دورها في نهضة الجزائر الحديثة- في مجلّة الثقافة- السنة الرابعة عشرة- عدد 81- 1404هـ-1984م- ص193.

44- أحمد توفيق المدني- المصدر السابق- ج2-ص102-103. ينظر أيضا: بسّام العسلي- الصراع السياسي على نهج الثورة الجزائرية- ط1- دار النفائس- بيروت- 1402هـ/1982م- ص84. تركي رابح- مقاله السابق في الشهاب- ص203. الشهاب- عدد فبراير 1930.

45- أحمد توفيق المدني، المقال السابق، ص101-102.

46- نشر هذا البيان في العدد 350 من جريدة البصائر وطبع منه 35000 نسخة وصلت أيدي الناس جلّها إلا 3000 نسخة تمكنت حكومة الاحتلال من مصادرتها. وقد أعاد أحمد توفيق المدني نشر هذا البيان بكامله في مذكراته. ينظر: ج3- ص56-58.

47- جريدة البصائر- العدد 327 الصّادر يوم 15 جويلية 1955. وفي المصدر نفسه- ج3- ص115-119.

48- جريدة البصائر- العدد 332 الصّادر يوم 9 سبتمبر 1955. نفسه- ج3- ص119-121.

49- جريدة البصائر- العدد 330 . نفسه- ج3- ص123-127.

50- نفسه- ج3- ص172.

51- نفسه- ج3- ص316-318.

52- نفسه- ج3- ص478-484.

53- نفسه- ج3- ص473-476.

54- نفسه- ج3- ص 575-576.

55- نفسه- ج3- ص 685-727.

56- افتعل الرئيس الحبيب بورقيبة سنة 1959 قضية مراجعة الحدود التونسية مع الجزائر وليبيا، ليفوز ببعض آبار البترول الجزائري في الجنوب، وتلاشت دعوته هذه أمام صلابة الجزائريين، وتكرّرت هذه الدعوة في حوادث بنزرت سنة 1961 التي راح ضحيتها حوالي ستة آلاف قتيل أعزل، جعلت تونس تطالب مجلس الجامعة العربية بقرار يؤيد تونس في استرجاع أراضيها شمال البلاد وجنوبها، وبعد إلحاح الجزائر بأنّها لن تتسامح مع أيّ معتد على ترابها، ولو كان شقيقا أو صديقا، تراجع التونسيون عن مطالبهم. ينظر: المصدر نفسه- ج3- ص734-736.

57- نفسه- ج3- ص844-849.

براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي: أحمد توفيق المدني نموذجا

د. محمد غالم*

—

يعتبر المدني شخصية مؤثرة في الحياة الثقافية والسياسية الجزائرية منذ أن حلّ بالجزائر سنة 1925. وقد كان هذا التأثير يتعاظم مع الزمن، فقد شارك قبل انضمامه إلى جمعية العلماء المسلمين، في تنشيط العمل الصحفي والثقافي والتأليف. ساهم في تأسيس نادي الترقي بالعاصمة وإنشاء مدارس حرّة عبر التراب الوطني. كتب مقالات ذات أهمية في الصحف الإصلاحية تناولت قضايا سياسية تتصل ببلاد المغرب العربي والسياسة العربية والعالمية، أثناء الحرب العالمية الثانية، ساهم في تحرير جريدة الإصلاح[1] للعقبي وكان من الذين تجاوبوا مع الحلفاء ولَهُ رأى في بيان سنة 1943، وبعد الحرب، أصبح من محرّري جريدة البصائر لاسيما باب السياسة العالمية، ثم انتخب أمينا عاما للجمعية في الخمسينات ورئيس تحرير لسان حالها "البصائر". وقد حرر فيها مقالات افتتاحية هامّة أثناء الثورة الجزائرية. وفي سنة 1956، التحق المدني بالقاهرة، وكان خطيبا وداعية ومؤلفا ووزيرًا وممثلا للجزائر الثائرة..[2]

المدني المؤرخ:

مفهوم التاريخ: عتبر المدني التاريخ علما حديثا مثله مثل الميلي، فالكتابة التاريخية تتخذ من حيث الشكل، الأساليب الحديثة في الصياغة والتوثيق ووضع الإحالات والهوامش. ومن حيث المضمون: فإن كتب الأخبار والتراجم والمناقب لا تدخل في سجل علم التاريخ لأنها لا تتجاوز الأطر القصصية ولا ترتقي إلى مجال البحث بقصد فهم أعمق وإلمام أكبر بسنن الحياة البشرية.

– يؤكد قائلا :"ما التاريخ في نظري إلا عرض وتحليل وحكم. فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه حيّ الضمير يدرس الوثائق والمستندات ويستخرج الحقائق من بين النصوص ويستمع

* – أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر– قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة وهران.

بإمعان إلى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء، ثم ينظر الملابسات ويدرس المحيط فإذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعًا، أصدر حكمه عادلا، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة."[3]

– وأمَّا مادته، فلا يمكن اختزالها في وصف الأحداث الماضية.

"إنما التاريخ الحقيقي هو تجسيم العصر الماضي حتى يصبح كأنه الحاضر المشاهد وتصوير الحياة القديمة صورة حقيقية وحشر عوامل نهضتها وأسباب انحطاطها وربط الحوادث بأسبابها وبنتائجها وتأثير هاتيك الحوادث على الوسط وعلى الآداب وعلى الأخلاق، ثم إصدار حكم عام على كل عصر من العصور، وما كان له من التأثير على الحالة العامة في البلاد."[4]

– يحيل هذا التعريف إلى النظرة الوضعانية التي ميزت الأسطوغرافيا الغربية خلال القرن التاسع عشر. على الرغم من صفة الموضوعية التي تدعيها الدراسات التاريخية الوضعانية، فأن المؤرخ لا يمكنه أن يُحيي الأحداث الماضية من جديد. ما يمكن أن يقوم به هو إعادة بنائها على نحو يساعد على فهمها وتفسيرها.

– صحيح أن المؤرخ يدرس الوثائق والمستندات إذ لا تاريخ دون وثائق، يستخرج منها الحقائق التاريخية ويحلل الظروف والملابسات ليحكم على هذه الأحداث التاريخية لكن حُكْمَهُ مقيد بشروط المعرفة العلمية التي لا تنفى التوجهات الإيديولوجية. فالمؤرخ لا يمكنْهُ بأية حالة من الأحوال أن يتجرّد من تصوراته حول الإنسان والمجتمع والكون، لأن هذه التصورات كامنة في الأسئلة التي يطرحها على الماضي وفي الأجوبة التي يستخلصها من بحثه بهدف التأثير في الحاضر. إن كتابة التاريخ لا تتحكم فيها أهداف تأملية تحليلية فحسب، بل إن دراسة الماضي تنطلق كذلك من إرادة البحث عن إجابة لأسئلة قائمة في الحاضر ومن إرادة في معرفة الشروط التي تمكننا من التأثير في الواقع المجتمعي الراهن..

– ينطبق هذا الحكم على المدني –نفسه– لأن تاريخه يرمي إلى دَحْض الأحكام التي أطلقها المؤرخون الاستعماريون على ماضي الجزائر فقالوا أنه التاريخ بلا دولة ولا سيادة ولا وطن. فيرد عليهم أن للجزائر عبر التاريخ أرض وسيادة وطنية ودولة لم يتمكن الغزو الاستعماري الأوربي من طمسها. هكذا تتجلي الخلفيات الإيديولوجية في الخطاب التاريخي الاستعماري الذي يسعى إلى التأكيد على شرعية الاحتلال الأجنبي وتتجلي في الخطاب التاريخي الوطني الذي يهدف إلى تأكيد لا شرعيته.

- تسعى الكتابات التاريخية الاستعمارية إلى التأثير في الواقع المجتمعي في اتجاه القبول بالوجود الفرنسي على أرض الجزائر، أما المدني فيرمي من خلال كتبه التاريخية إلى رفض هذا الوجود وغرس فكرة الوطن والسيادة والحرية في وعي النخبة الجزائرية والشباب الجزائري.. يقول في "كتاب الجزائر" "إن قراء العربية يجهلون كل شيء عن هذا الوطن، تاريخه، طبيعته، نظمه وقوانينه.. فكأنهم يعيشون في ديار غير ديارهم" أما الشباب المفرنس " بعضهم تمزق ذهنه إلى انجذاب نحو التاريخ الدخيل ونفور من التاريخ الجزائري المشوه"[5] ويقول عنه الشيخ ابن باديس "الخدمات التي يجب تقديمها للبلاد في مثل هذا الظرف هي نظير ما آختطه المدني مما يجعل الشباب عارفين لوطنهم.. فاكتشاف كل ما كان للوطن من عز وسوء هو أول عمل مثمر، والسمو بالوطن إلى كل مكانة يحمدها له العصر الحاضر والظرف الراهن أجلّ عمل فالذي يحمل كل فكرة وطنية لا يصدق فيما يقول إلا إذا خدم الوطن من الناحية التي خدمها المدني"[6].

- يقدم المؤرخون الفرنسيون في أبحاثهم تاريخا تؤطره أهداف استعمارية واضحة. أما المؤرخون الجزائريون فيقدمون تاريخًا تؤطره أهداف وطنية بنفس الوضوح. فالجزائر في نظر المدني" عربية مسلمة لن تترقي إلا بالجزائرية والعروبة والإسلام.." إنه يكتب التاريخ بمنظور وطني وحس ديني يوظفهما لإثارة النفوس وتربية الأجيال على حب الوطن والدعوة إلى التحرر من الاستعمار..

الوطنية والتاريخ:

- في التاريخ، لا يجد الباحث نفسه أمام مجال معرفي لا نظرية له، بل إن هذا المجال تشغله جملة من النظريات الاجتماعية التي وجدت لخدمة أهداف معرفية وإيديولوجية. لقد وجد المدني نفسه، حين قرر كتابة تاريخ الجزائر، أمام نظريات صادرة عن باحثين غربيين وذلك بكل ما تحمله هذه النظريات من تقليد نظري ومنهجي وبكل ما تكون في خدمة أهداف أيديولوجية. فكان عليه، وهو المثقف المتشبع بالروح الوطنية، ألا يكتفي بتمثل ما تمده به المعارف التاريخية الصادرة عن الباحثين الغربيين، بل كان عليه أولا، أن يكشف عن خلفياتها الاستعمارية ليعيد بناءها على وجه يتماشى مع أطره النظرية وخلفياته القومية.

- يلاحظ المدني أن التاريخ الاستعماري مليء بالأحكام المسبقة، تكرر الكتابات التاريخية الاستعمارية أن الجزائر قد عرفت أنواعا من سوء الحظ - فقد كانت سيئة الحظ لأنها لم

تتمكن من تمثل القيمة الحضارية للاحتلال الروماني، وسيئة الحظ حين أقلبت على الإسلام وخضعت للغزو الهلالي،كما كانت سيئة الحظ أخيرا حين تحولت إلى قاعدة للقرصنة العثمانية.

- يرد المدني على هذه المزاعم الاستعمارية التي تسعى إلى فرض تصور معين عن الجزائر وتاريخها لأن مهمة المؤرخ الجزائري في نظره تتمثل أولا وقبل كل شيء، في نقد هذا التصور حتى ولو لم يضف جديدًا على صعيد البحث وحتى ولو كان الخلاف بينه وبين المؤرخ الاستعماري مجرد اختلاف في تأويل بعض الوقائع.

- يجد المؤرخ الجزائري نفسه ومنذ البداية أمام ضرورة جادّة: كتابة تاريخ بلاده، لا لكي يدفع عنه كل تصور خاطئ فحسب، ولكن من أجل أن يبحث ضمنه عن الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها عليه بإلحاح الرهان الوطني: رهان الحفاظ على الشخصية الجزائرية ومقوماتها التاريخية. يأخذ مادته من الكتابات الأوربية وينهج نهجها لكنه يعارضها في أحكامها ومراميها الإيديولوجية.

البربر جنس لا يقبل الذوبان أو "قرطاجة في أربعة عصور":

يؤكد المدني هذه الحقيقة التاريخية التي لا تقبل النقاش في كتابه "قرطاجة في أربعة عصور" ألّفه "لنسف خرافة المغرب اللاتيني".

فالبربر على أنواعهم جنس امتاز بخصال تقوم على المحافظة التامة على كيانهم والتصلب في الدفاع عن استقلالهم وعدم الذوبان مع أي عنصر من العناصر الوافدة من أوربا. لهم اقتدار غريب على الاحتفاظ بعوائدهم وأخلاقهم ولغتهم. عاشوا نحو ثلاثة آلاف سنة تحت احتلال الأمم المختلفة لكنهم لا يزالون محافظين على كل مميزاتهم الذاتية.

- أحتك البربر -خلال تاريخهم الطويل- بالشعوب الأخرى كاليونان والفينيقيين واللاتينيين، لكنهم أقبلوا على الحضارة الفينيقية -عبر قرطاجة- دون غيرها لأن البربر في غالبيتهم جنس شرقي مثل الفينيقيين.

أخذوا عن الفينيقيين الأساليب الزراعية والأدوات الفلاحية في تطوير الزراعة وغراسة أشجار الكروم والتين وتنمية تربية المواشي كما تأثروا بنظمهم السياسية والإدارية وتبنوا جوانب من ثقافتهم. أفضى ذلك إلى قيام ممالك بربرية قاومت قرطاجة حين كانت تتجه إلى الضغط عليهم وواجهت الاحتلال الروماني.[7]

- قاوم البربر الاحتلال الروماني "لأن حكومة الرومان استعمارية بحتة .. لا تعرف البربري إلا لاستعماره واستخدامه واستخلاص الضرائب منه وتسخيره.. ولم يكن الاحتلال الروماني مقبولا من طرف البربر.. فقد كان رغم طول مدته سطحيا إذ عاش المعمرون الرومان بجانب البربر أكثر مما اختلطوا بهم .. ولم يكن للبربر من هم أثناءه إلاّ خلع النير الأجنبي.."[8]

- فالرومان في الفترة التي مكثوا فيها بشمال إفريقيا، لم يعرفوا السلم ولا الاستقرار وآقترن وجودهم في المنطقة بالثورات والانتفاضات المستمرة .. ونظرا لقوة هذه الأخيرة، فقد آنحصر تواجد الرومان بالمناطق الساحلية.

يقول المدني في هذا الصدد: "ألف البربر حياة الاستقلال القديمة التي حرمتهم إياها روما وكان الراضخون منهم للاحتلال الروماني.. يجنحون للثورة ويتذمرون .. وانتصبت حكومة بيزنطية في البلاد وكانت حكومة ظلم واعتساف أرادت أن تنزل على البربر قهرها وجبروتها فثاروا وأعادوا الثورة... وحين وقفت طلائع العرب على تخوم البلاد، كان البربر في المغرب مستقلين استقلالاً تامًا.."[9]

- فالبربر -إذن- جنس يرفض الذوبان في الأجناس الأخرى - شرقية أم غربية، يحافظ على ذاتيته، لكنه يتفاعل مع الحضارات الشرقية، يتأثر بها ويؤثر فيها، لأنه جنس شرقي مثله مثل الفينيقيين.

إلتحام الجنس البربري والجنس العربي شكل الأمة الجزائرية:

- يفسر المدني إقبال البربر على الحضارة الفينيقية أولا ثم الحضارة العربية ثانيا بالانتماء الشرقي للبربر وأن كان يعترف بعراقتهم التاريخية وخصالهم الذاتية. يقول: أنهم من العنصر السامي قدموا من آسيا، استوطنوا مصر قبل القدوم إلى المغرب" يستند في ذلك، على تشابه الملامح الجسمية بين البربر وسكان الصعيد المصري وإلى التشابه القائم بين اللغة الأمازيغية واللغات النوبية والحبشية التي تنتمي كلها إلى عائلة اللغات السامية-الحامية.

- إن القرابة الجنسية هي التي تفسر الاندماج الذي حصل بين البربر والفينيقيين. لهذا استحكمت المدنية القرطاجية في نفوس البربر غير أن الحضارة الرومانية لم تؤثر فيهم إلا تأثيرا بسيطا".

- وعند الفتح العربي "ما الذي جعل البربر يندمجون مثل هذا الاندماج وقد عهدنا هم عند اختراقنا لتاريخهم القديم، يقاومون كل احتلال مادي أو أدبي... ووَجَدْنَا الالتحام بين العرب

والبربر يعود إلى جملة من الأسباب أهمها أن كلا العنصرين من أصل سامي ولهما من أجل ذلك عقلية واحدة"[10] لم يكن العصر العربي في شمال إفريقيا عهد ظلمات كما يصوره المؤرخون الفرنسيون بل كان عهد نور وحضارة "جاء المسلمون إلى البلاد يريدون إخراجها من الظلمات إلى النور وأصبح البربر أشد رجال الجند الإسلامي.. وعصر الفتح العربي عصر تطور وانتقال في بلاد الجزائر نزعت به صبغتها الأولى واكتسبت فيه بحلتها الإسلامية العربية الجديدة، وهي حلتها النهائية التي تقف بها اليوم وستقف بها غدًا مع شعوب الدنيا"[11]

– في العصور القديمة، اكتسب البربر وحدتهم التاريخية السياسية وفي العصر الوسيط اكتسبوا وحدتهم الثقافية – الدينية بالتحامهم بالعرب الوافدين خلال الفتح وبعده مع هجرة قبائل بني هلال.. بين العربي والبربري قواسم مشتركة، "ترى العرب ينصبون خيامهم مع خيام البربر ويعيشون معهم في سهولهم وبعض جبالهم.. وهم متحدون في طرق العيش البسيطة... أثر ذلك الاعتناء في البربر تأثيرا جسيما ورأوا أنهم عند أخذهم لدين العرب أصبحوا وإياهم سواسية لا سيد ولا مسود. فأخذوا الدين وأخذوا نصيبا واسعا من اللغة.."[12]

– عند الحديث عن هجرة القبائل العربية – بنو هلال وبنو سليم – إلى المغرب، يتهم المدني المؤرخين الغربيين بالمبالغة والتشويه. صحيح أنهم آعتمدوا على معطيات تاريخية جاءت من المصادر المغاربية مثل ابن خلدون، لكن تحليلاتهم لهذه الظاهرة التاريخية كانت تصدر أساسا عن عداء للعرب صريح.

– أصدر المدني "كتاب الجزائر" سنة1931 ردًا على الاحتفالات المئوية بالاستعمار الفرنسي، قصد فيه إبراز المقومات الثقافية التاريخية للأمة الجزائرية. فالرسالة التي يتضمنها أن هذه الأمة التي تكونت عبر التاريخ لن تتخلى عن قيمها وسيادتها وحريتها.

لا ينفى المدني النتائج السلبية لهجرة بني هلال (خراب، تراجع الفلاحة والعمران) لكنه يشير بالمقابل إلى النتائج الثقافية البعيدة المدى مثل تعريب السهول الداخلية والهضاب وما نجم عنه من توحيد ثقافي..

العصر العثماني: عهد قوّة ونظام لا قرصنة وتخلّف

– أصدر المدني كتاب "محمد عثمان باشا" سنة1937 لإماطة اللثام عن حقيقة الوجود العثماني في الجزائر وتفنيد الادعاءات الاستعمارية حول مسؤولية هذا الوجود في التخلف الاجتماعي والاقتصادي. يقول في المقدمة : "اهتمت كتابات الأوروبيين بأخبار القرصنة وبيع

العبيد والغارات المسيحية وذبح الدايات حتى أصبح قطر الجزائر من خلال تصوراتهم مغارة السفاكين وملجأ لصوصية البحر"[13] ويضيف "أعتبر الأوربيون أن الجزائر كانت تحت رحمة مليشيات النهب والفوضى والعنف بدون دفن الجثث"[14]

– تناول الكتاب في القسم الأول تسلسل الولاة العثمانيين والحوادث التي ميزت حكمهم 1516–1830 داخليا وخارجيا وتحدث عن الحركة العلمية، فعرف بمشاهير العلماء والأدباء ورجال الدين وفي القسم الثاني، عالج عصر الداي محمد بن عثمان 1766–1791 فبيّن أن الشخصية – خلافا لما تنسبه الروايات الأوروبية عن الدايات–كانت مثقفة وعادلة تتسم بالحزم في المواقف السياسية الداخلية والخارجية.

– استقرت الأوضاع في الداخل رغم بعض الانتفاضات، وعمّ الرخاء–لا بفضل أموال القرصنة بل بفضل انتعاش الزراعة والتجارة. لا مجاعات ولا أوبئة فتاكة .. حافظ على سيادة الدولة في الخارج فعقد صلحًا مع دول أوربية اعترفت بهيبته وقاوم الوجود الإسباني في وهران والمرسى الكبير. كان يشرف على القرصنة التي تقلصت مداخيلها، فلا تتعرض السفن الجزائرية في البحر إلا لسفن الدول المعادية.

– وفي القسم الثالث، نقل فيه مضامين دفتر التشريفات (هدايا الباشا للسلطان) وتوزيع غنائم البحر والهدايا الانكليزية والتنظيم العسكري في الجزائر والولايات وأموال الخزينة وسك العملة .. وفي القسم الأخير، عرض مقتطفات من مذكرات فانتوردي برادي الذي أقام بالجزائر، فوصف الحالة الاجتماعية والحياة الاقتصادية وتناول إحصاء السكان والتنظيم السياسي والعسكري... واختار خاتمة تحدث فيها عن الفظائع التي ارتكبها الجيش الفرنسي أثناء غزوه الجزائر سنة 1830 معتمدا على شهادات النقيب أحمد الشريف الزهار..

– صحيح أن الكتاب تقريظ للداي محمد بن عثمان لكنه في آخر تحليل ردٌّ للمزاعم الاستعمارية التي كانت تصف الجزائر خلال العهد العثماني على أنها بلد القرصنة والفوضى. فأبرز حقيقة القرصنة التي لا تقع إلاّ على الدول المعادية وأوضح الحالة الاجتماعية التي كانت عليها الساكنة –فقراء وأغنياء– وبين أن التعليم .. رغم تقليديته واعتماده على العلوم النقلية، كان أوسع بكثير مما آل إليه بعد مائة سنة من الاحتلال الفرنسي..

– كان تحقيقه لمذكرات "الحاج أحمد الشريف الزهار"[15] نقيب الشرفاء عرضا تاريخيا للحياة السياسية والعامة خلال الفترة 1754–1830 تناول فيه سيرة الدايات وأعمالهم...

وأخلص فيه إلى أن الدايات الذين تولوا حكم الجزائر- صالحين كانوا أم غير صالحين- هم أفضل بكثير من الحكام الأوروبيين خلال تلك الحقبة التاريخية..

- لقد أهدى المدني كتاب "محمد بن عثمان" إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس، فنوّه به هذا الأخير قائلا "هذا اسم السفر الجليل الذي ألفه المدني، لخص فيه تاريخ الجزائر في العصر التركي... عرض التاريخ بين دلائل العلم ومناهج الفن، وبروح إسلامية لا تعرف إلا الصدق، عربية.. وإذا كان الوطن هو تاريخ الوطن ولا حياة لأمة إلاّ بإحياء نهضتها"[16].

براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي: تحتل المقاومة بأشكالها العسكرية والسياسية والثقافية مكانة هامة في تآليف المدني التاريخية إذ لا يعتبرها مبحثا تاريخيا بل نموذجا إرشاديا (براديقما) يحدد تصوره لتاريخ الجزائر ويرسم نظرته إلى الجزائري. فالمقاومة هي السبيل إلى تجديد الذات والحفاظ على الشخصية وهي الوعاء الذي تبلورت فيه مقومات الأمة الجزائرية. كل التاريخ الوطني يمكن اختزاله في مقاومة الاحتلال الأجنبي.

- يرى المؤرخ الوطني، أن تاريخ الجزائر قديمه وحديثه، سلسلة مترابطة الحلقات، وحدة متكاملة ضمنها تكونت الشخصية الجزائرية بإبعادها السياسية والثقافية. وحين يتعرض لظاهرة الاستعمار يتصورها خرقا لهذه الاستمرارية التاريخية وقطيعة في الوجود التاريخي لأمته. إن يقرّ دوما أن الاستعمار يتنافى مع النمو الطبيعي للأمة الجزائرية وهو رغم طول مدته ظاهرة عرضية في سيرورة الأمة أعاقت تطور مقوماتها الاجتماعية والثقافية.

فالمقاومة المناهضة للاحتلال تجسد صمود الشعب ومواجهته للتحديات، وتسعى إلى تحقيق الوحدة والاستقلال وترمي إلى حماية المقومات الحضارية - الثقافية إنها عنوان الوجود والسيادة والحرية.

المقاومة المسلحة: إنّها الشكل الأمثل والأداة لمواجهة الاحتلال الأجنبي في القديم والحديث وفق القاعدة "ما يؤخذ بالقوة لا يستعاد إلاّ بالقوة"، يرددها في كتابه "هذه هي الجزائر". إن الذي حمل المدني على تأليف "قرطاجة في أربعة عصور" هو صمود البربر في وجه الاحتلال الغربي. يصف الاستعمار الروماني "بالداء الوبيل الذي حكم على الشعب بالمهانة والمذلة وحكم على الوطن بالرضوخ والاستسلام"[17].

- يعاتب الملك النوميدي: ما سنيسا لأنه تحول من حليف لقرطاجة في صراعها ضد روما إلى داعية لنصرة الرومان الغزاة". "فلم يخطر في باله ساعتئذ - أنه كان يحفر قبر المغرب

الكبير وأنه كان يهيء استقرار قدم الرومان بالبلاد ليمحُوا استقلالها وليستعبدوا أهلها وليستعمروا شرّ الاستعمار أرضها"[18] هكذا كانت النتيجة في نظره.

– غير أن شعب نوميديا لم يرضخ لهذا الاستعمار الذي أخذ يبدى مخالبه في البلاد. جاء يوغرطة العظيم، فوحد نوميديا كاملة واستولى عنوة على قرطة وأخذ يستعد للتخلص من نير روما فما جاءت سنة 110 ق م حتى أرسلت روما جيشا قويا لمحاربته، فتصدى له وأمعن في قتله. فكسب يوغرطة المعركة الأولى لكن الرومان لم يتقبلوا هذه الاهانة، فصمموا على القضاء على الاستقلال البربري، فأرسلوا جيشا آخر سلك سياسة القتل والسبي والتخريب وقاوم يوغرطة مقاومة باسلة مدى أربع سنوات (110-106 ق م). هكذا انتهت مملكة نوميديا بين الحديد والنار والتضحية والاستشهاد. كان يوغرطة مثالا حيا للجهاد الفاضل في سبيل الحرية والاستقلال.

– ولم تتنه المقاومة في نوميديا إذ "قام حر من أحرارها: تاكفا ريناس يشعل نار الثورة في وجه الغاصبين.. وبعد حرب سجال لا متكافئة، اندحر مرة أخرى الثوار سنة 22 ق م وخيم الظلام الأسود على الوطن وانتصب الاستعمار الروماني في بسائط القطر.. غير أن الجبال المنيعة بقيت محافظة على استقلالها.

– وانتهجت روما سياسة استعمارية قاسية، فالأرض الزراعية الخصبة كانت ملكا للدولة والمعمرين الذين أخذوا يتدفقون على البلاد. فسكنوا المدن واستحوذوا على الحكم والإدارة. وانتشرت حركات الانتفاض لكنها كانت تخمد والاضطهاد يزيد بعدها..." إن الثورة نار متأججه مقرها النفوس والصدور، تبدو أحيانا حامية مستعرة فإذا ما خبت حينا، بقيت في القلوب والصدور، نارًا تحت الرماد إلى أن تهبّ عليها من جديد رياح تحريرية فإذا بها نارا تلظى"[19]

ثم كانت الثورة العارمة التي انطلقت سنة311 م واستمرت إلى نهاية الوجود الروماني في القرن الخامس الميلادي، التحمت فيها الحركة الدوناتية بحركة السركنيسلية[20] والتحمت بهما جماعات العبيد الذين طال عذابهم قرونا... وكان الثوار يعذبون وينكلون بالذين كانوا ينكلون بهم، يقتلون دون رحمة المعمرين الرومان ويحرقون مزارعهم ويحطمون منازلهم... "هكذا وضع الأمازيغ الأحرار أسس الثورة النهائية على الرومانيين الذين أخذوا يتركون البلاد جماعات إثر

جماعات. فحرروا بذلك قسما كبيرا من أراضيهم الزراعية التي عادت إليهم ريثما يحررون الوطن كله..."[21].

انحسر الوجود الروماني على السواحل وما بقي بعدها إلاّ فترة احتضار سادتها الفوضى والاضطراب إلى أن انتهى ذلك الوجود الأجنبي سنة429 م كأنه لم يكن بعد أن مكث في ربوع البلاد نحو ستة قرون. اعتمدت الثورة العارمة على ثلاثة أسس جمعت في آن واحد: صلابة العقيدة الدينية الإصلاحية ومتانة الروح التواقة دائما إلى الاستقلال والرغبة الجامحة في استعادة الأرض..

– يحكم المدني على الوجود الروماني، معتمدا على شهادات المؤرخين الفرنسيين أنفسهم "بأنه استعمار لم يجن منه البربر أية فائدة مادية أو أدبية، إذ حافظوا على لغاتهم وعوائدهم وفضائلهم القومية عدا قلة قليلة – وعاشوا على هامشه ولم يندمجوا فيه إطلاقا".

–هكذا يكتب المدني تاريخ المغرب القديم بروح وطنية جياشة، يختزله في مقاومة البربر للوجود الروماني ورفضهم للحضارة اللاتينية. إنها رؤية يشوبها التبسيط.

لم تكن أرض المغرب خلاء ولم يكن سكانها جاهلين لما دخلها الرومان. لقد سبق للحضارة الفنيقية أن تغلغلت بعمق في شمال إفريقيا وتفاعلت تفاعلا بينا مع قيم الأهالي. وبعد تدمير قرطاجة سنة 146 ق م واستيلاء روما تدريجيا على البلاد، تفاعل قسم من الأهالي مع الحضارة الجديدة وترومنوا بدرجة متفاوتة حسب انتمائهم الجغرافي والطبقي محافظين في ذات الوقت على بعض سمات الحضارة الفنيقية وبرزت نخبة محلية متلتنتة، فليس من المجازفة أن يتحدث الباحثون عن حضارة رومانية – افريقية.

– دخل بعض الأفارقة في المسيحية وأسهموا في تطورها إسهاما واضحا يدل عليه أعمال طرتاليانوس وقبريانيوس وأغسطين هذه بعض تجليات الرومنة والتنصير لكنها لا تمثل الا وجها من أوجه تاريخ المغرب القديم ولا ينبغي أن يكون اختزالا لسياق تاريخي عرف المد والجزر، الوئام والتنافر، القبول والرفض. على أرض الواقع، عاشت البلاد عدة توترات وصراعات على مستويات عديدة ينبغي احتضارها لكتابة تاريخ شامل يبرز أيضا مواقف الفئات الاجتماعية المناوئة والثقافات المضادة والمذاهب الدينية المنشقة.

يجب التعامل مع الكتابات الاستعمارية بروح نقدية لكن بدون تشنج ولا إقصاء مسبق لأن الهدف هو تجاوزها علميا – لا السجال معها- قصد الرقي بالبحث التاريخي إلى مستوى رصين يفرض نفسه على الساحة العلمية.

– يتحدث أحمد توفيق المدني في كتابه "حرب الثلاثمائة سنة"[22] عن المقاومة المسلحة في العصر الحديث، عصر المواجهة مع الإمبراطورية الإنسانية منذ سقوط غرناطة إلى تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1792 لا شك أن العنوان بذاته يحمل هاجسا وطنيا إسلاميا على غرار حرب 100 سنة التي واجهت فيها المملكة الفرنسية الناشئة الوجود الانكليزي والاسباني على قسم من أراضها.

اختار هذا الموضوع بالذات لأنه "يتعلق بميلاد الدولة الجزائرية الحديثة. دولة ذات معالم معينة وحدود مرسومة فوق تراب تشكلت منه أرض الوطن وتكونت فوقه وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية بعد الوحدة الدينية التي كانت القاسم المشترك الأعظم"[23].

– دولة نشأت بالحديد والنار بإعانة من العثمانيين خلال عصر "تغيرت فيه موازين القوى بين الشرق والغرب... وقفت فيه المسيحية والإسلام وجها لوجه في معركة بقاء أو فناء.. فكان انبثاق دولتنا الجزائرية الأولى.. برزت إلى الوجود وشبت وشابت نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء"[24].

– اتسمت المقاومة في هذا العصر بسمة الدين، فكانت الجزائر: "دار جهاد" ترد هجمات الصليبيين الاسبان وغيرهم معتمدة على عزائم شعبها ومساعدة الأتراك المجاهدين. لم يكن للدولة العثمانية في نظر المدني، من غرض سوى حماية المسلمين المغاربة المهددين وتأمين سلامة أرض الإسلام، وكأن إستراتيجيتها اختزلها في العوامل الدينية وحدها. يعتبر الإخوة باربروس منقذين ويتصور تصفية السلطات الشرعية –زيانية وحفصية– تأديبا للخونة الذين تحالفوا مع العدو لتحقيق أغراض دنيئة[25].

– يفرد في كتابه فصولا يتعرض فيها للقرصنة وللهجمات الغربية على الجزائر العاصمة، ويصف المحاولات العسكرية العثمانية من أجل استعادة قاعدتي وهران والمرسي الكبير من أيدي الاسبان، يعرض للعلاقات بين الأستانة و الايالة وبين الايالة والدول الغربية التي كانت تسعى إلى عقد الصلح، كل ذلك للتأكيد على أن الدولة الجزائرية كانت ذات هيبة وأن أسطولها البحري مرهوب الجانب وأن قراصنتها كانوا أبطالا شجعانا.. يرى أنه يقول الحق

ويمجد البطولة ويندد بالخيانة للوطن.. يلتزم بالموضوعية[26]. غير أن شغله الشاغل هو الرد على المؤرخين الغربيين الذين اعتبروا "الجهاد البحري" لصوصية والجزائر المحروسة وكرا للمجرمين ومغارة للسفاكين والدايات قادة مليشيا النهب والفتك والفوضى والعنف.. في الحقيقة، يكتب ملحمة وطنية قائمة على تمجيد رياس البحر والجيش ورجال الدولة، يتصور المواقف التاريخية والأحداث عنوان الفخر والاعتزاز لا مادة تاريخية يعيد بناءها وفق إشكاليات هادئة ورصينة.

– يجب على المؤرخ أن يفكك الكتابات التاريخية القائمة على التبجيل. يحتاج إلى مقاربة جديدة قائمة على التحليل العميق للظواهر التاريخية وإلى مناهج فعالة تساعده على قراءة الظواهر التاريخية بموضوعية. في مطلع القرن السادس عشر، كان الخطر المسيحي جليا إذ أخذت المملكة الإسبانية تستولي على الموانئ الجزائرية الواحد بعد الأخر. ولم تتمكن السلطة الزيانية بحكم ضعفها وتفككها من مواجهة الأطماع الأجنبية. في هذه الظروف، استقبلت مدينة الجزائر الأخوة باربروس استقبال المحررين ونظرت إليهم شرائح عريضة من المجتمع (الأندلسيون ورجال الدين على الخصوص) نظرة المنقذين الذين تحركهم رابطة الدين.

– غير أن الصراع القائم بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الاسبانية لم يكن صراعا بين المسيحية والإسلام فحسب وإلاّ كيف نفسر تحالف آل عثمان مع فرنسا ضد اسبانيا ثم تحالفهم مع انكلترا ضد اسبانيا.. وكيف نفسر تحالف الاسبان بالصفويين ضد آل عثمان. إنه صراع بين دولتين عظميين تحكمت فيه جُملة من العوامل السياسية والأسباب الاقتصادية والدوافع المختلفة ولا يمكن اختزاله في شكل نزاع ديني صرف.

أما القرصنة، فلم تكن جهادا في كل المراحل التاريخية. قبل سنة **1580**، كانت شكلا من أشكال الحرب بين الدول في البحر الأبيض المتوسط وفي المحيطات. ولم تكن حكرا على الجزائر والدول الإسلامية الأخرى بل مارستها المملكة الفرنسية والممالك الغربية بعضها على البعض الآخر..

خلال القرن السابع عشر، انتعشت حركة القرصنة في الايالة الجزائرية بفضل عناية الدولة لها، فتطور الأسطور البحري، وتزايد عدد الرياس والجنود وكثرت الغارات على سفن الدول المعادية لأسباب أهمها أن القرصنة أصبحت موردا ماليا هاما للخزينة. لقد كانت عمليات اقتداء الأسرى وبيع السفن تدر أموالا معتبرة تستفيد منها مؤسسة الدولة وشرائح عريضة في

المدن الساحلية. أما القرن الثامن عشر، فقد شهد تراجعا ملحوظا للقرصنة وأصبحت تجارة الحبوب المصدر المالي الرئيسي لخزينة الدولة. عقد الدايات حينئذ معاهدات صلح مع عدد هام من الدول الغربية تنص على عدم التعرض لسفنها التجارية في البحار... وفي العقدين الأولين من القرن التاسع عشر، عاد قراصنة البحر إلى النشاط لظروف تاريخية خارجية (مثل الثورة الفرنسية والحروب الثورية في أروبا..) ثم نامت نومتها الأخيرة بسبب الضغوط الأوروبية وغيرها من العوامل...

- لم يفرد المدني بحثا خاصا بالمقاومة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي، لكنه يتحدث عنها في كتابيه "كتاب الجزائر" و"هذه هي الجزائر". ينتقد بشدة الاستعمار الفرنسي الذي "ضرب على الجزائر المذلة والمسكنة... وجعلها محكومة بغير بنيها وتوزيع ثروتها على غير ذويها وأبقاها تحت نظام هو شر أنواع الرأسمالية"[27] يصف أطوار المقاومة المعادية للاحتلال خلال القرن التاسع عشر وينوه بأبطالها: الامير عبد القادر الذي أنشأ دولة فتية وأحمد باي والمقراني وغيرهم... وينوه بالثورة المسلحة التي اندلعت في أول نوفمبر 1954. وفي رأيه "ما استقر سيف الكفاح في غَمَدِهِ يوما فهو دولة بين الأجداد والآباء والأحفاد... يمجد الماضي وينشئ الحاضر ويهيء المستقبل"[28].

المقاومة الثقافية: إنها الشكل الثاني من أشكال المقاومة، تبرز ملامحها عند إخفاق المقاومة المسلحة. يهتم بها المدني بحكم انتمائه إلى جمعية العلماء المسلمين التي جعلت من إحياء اللغة العربية وثقافتها وإصلاح الديانة الإسلامية نضالها الرئيسي.

في العصور القديمة: حافظ البربر على لغاتهم وتقاليدهم ودياناتهم وحين دخلت المسيحية أرض المغرب، اعتنقتها جماعة منهم لأنها كانت تدعو إلى العدل والفضيلة غير أنَّ السلطات الرومانية قابلت هذه الجماعة بالتعذيب والتنكيل، فزادهم ذلك قوة الايمان إلى أن أعلن الامبراطور "قسطنطين" المسيحية دينا رسميا للدولة، فتصور البربر أنهم يستطيعون بواسطة الدين الجديد أن يتخلصوا مِنْ قيد الاستعمار، لكنهم رأوا أن الكاثوليكية أصبحت غلا جديدا يستعمله الظالمون لتأبيد ظلمهم وسلطانهم، فنفروا منها واعتنقوا مذهبا جديدا -الدوناتية- "يدعو إلى إحياء السنة - سنة المسيح رسول الله وإماتة البدعة، بدعة التثليث التي هي اشتراك بالله ونقض لديانة المسيح"[29].

– يخطئ المدني حين يَعْزُو الخلاف بين الدوناتية والكاثوليكية إلى مسألة التثليث (الأب، الابن والروح القدس) ويخطئ – مرة أخرى– حين يربط بين المذهب الدوناتي والمذهب الاريوسي الذي رفض التثليث لأن الأريوسية جاءت إلى المغرب مع الغزو الوندالي..

صحيح أنه توجد بعض الفوارق الفقهية بين الأساقفة الدوناتيين والأساقفة الكاثوليك حول ظاهرة الانتحار وقضية المتخاذلين بشكل خاص، لكن الصراع الحقيقي بين المذهبين سياسي. فالكاثوليك، عن قصد أو غير قصد –كانوا يدعمون سياسة الدوِلة الرومانية لأنهم يمثلون الجانب الروحي لوحدة الأمبراطورية، يقطعون الطريق على كل انشقاق ديني في المغرب خوفا من أن يتحول إلى معارضة "وطنية" للسلطة الرومانية.

– شجعت الدوناتية طقوسا–مثل تقديس الشهداء وزيارة أضرحتهم والإقبال على الاستشهاد –أخذت صبغة المقاومة الثقافية للوجود الروماني وما نتج عنه من استغلال اجتماعي– اقتصادي واضطهاد. لكن الدوناتيين والدوارين الذين كانوا يستشهدون في المعارك مع الجيش الروماني، لم يستشهدوا لقضية المسيح بقَدْرِ مَا استشهدوا لمناهضة أوضاع الاقتصادية – اجتماعية سيئة للغاية. ذات الأوضاع حتمت حلفا غير معلن تكون بالتدريج بين الكنيسة الدوناتية وحركة سركنسيليون التي التفت حولها شرائح عريضة – فقيرة وغير فقيرة – وتقوى هذا الحلف كلما تقوى حلف الكنيسة الكاثوليكية بالإمبراطورية الرومانية.

ثم ينتقل إلى الحقبة المعاصرة: ليؤكد أن فرنسا عملت منذ احتلالها الجزائر سنة 1830 على محاربة الثقافة العربية فقضت على مراكزها وهجّرت علماءها وسخرت مؤسساتها لمحوها. يقول عن حالة التعليم "رأيتُ الشجرة الكبيرة وقد ذبلت أغصانها وتناثرت أوراقها من شدّة الظمأ واشتاقت قطرة الماء التي هي أملها الوحيد في الحياة وهي الواقية لها من الموت. تلك هي أمة الجزائر وذلك هو اشتياقها للتعلم... ناهيك لأمة تبلغ درجة الأمية فيها نحو تسعين بالمئة من مجموع أفرادها"[30].

– إنها وضعية حالكة غير حالة الحياة الثقافية والتعليمية في العهود السابقة، إذ كانت الحواضر الجزائرية مثل تاهرت الرستمية وتلمسان الزيانية وبجاية الحمادية منارات العلم تكاد تضاهي مثيلاتها في الأندلس والمشرق. صحيح أن العهد العثماني بلغ فيه الجمود الفكري مبلغا "إذ اعتكف العلماء والمتعلمون على العلوم النقلية تاركين العلوم العقلية" غير أن التعليم خلاله كان منتشرا وقلت الأمية بين الطبقات الوسطى والعامة.

– في القرن العشرين، انتبهت الأمة الجزائرية للخطر الداهم فاستفاقت من سباتها ونفضت عنها غبار الخمول، فقاومت مخططات الاستعمار الثقافي ولم تترك لغتها تتلاشى ولم تقطع الصلة بينها وبين أسلافها. قام رجال تخرجوا من جامع الزيتونة أو نهلوا من مناهل الشرق كالأزهر الشريف ومساجد الحجاز والشام بإحياء الثقافة العربية ونشروا الإصلاح الديني فأسسوا المدارس الحرة وأقاموا النوادي وأصدروا الصحف والمجلات. يقول "لقد لعبت جمعية العلماء المسلمين دورا هاما في زيادة النمو الروحي والثقافي لدى الشعب الجزائري عندما حاولت فرنسا القضاء على لغته ودينه.. وأخرجته من عزلته الثقافية وربطته بالأمة العربية"[31].

– إن مساهمة جمعية العلماء المسلمين في استعادة مكانة الثقافة العربية ومقاومة الثقافة الاستعمارية أمر لا ينكره أحد غير أن بناء الثقافة الوطنية في الجزائر ومقاومة التغريب لم يكونا حكرا على جمعية العلماء المسلمين، بل ساهم فيهما علماء ومفكرين تلقوا تعليمهم باللغة الفرنسية أو تحصَّلوا على تعليم عربي فرنسي، غير إنهم تفطنوا لأغراض الاستعمار ورفضوا الاستلاب الثقافي وساهموا في أحياء التراث الثقافي الجزائري وتمسكوا بالقيم الثقافية الوطنية.. هذا ما أغفله المدني...

المقاومة السياسية: برزت المقاومة السياسية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، على إثر فشل الانتفاضات الشعبية واستمرت بعد الحرب العالمية الثانية. من العوامل التي ساعدت على ظهورها :

الجالية الجزائرية في المهجر التي تأثرت بالحركات العمالية الفرنسية التي كانت تقاوم الاستغلال الرأسمالي. تبنت الحركة السياسية الجزائرية منذ نشأتها وسائل النضال الحديث وأساليبه

تأثر النخبة الجزائرية بالوعي الإسلامي والتحرري في العالم

رفضت الحركة السياسية الحديثة إيديولوجيا الاندماج ودعت إلى الاعتراف بالشخصية الجزائرية على لسان الأمير خالد الذي يعتبرهُ نموج المناضل الوطني "فالرأي العام الإسلامي في الجزائر قد تكون بصفة لا يمكن إنكارها وهو شاعر كل الشعور بكيانه وهو يريد أن يتمتع بسائر حقوقه ويريد أن يقوم بكل واجباته شأن الشعوب والأمم"[32].

نفهم من تحليلاته أنه لا يعترف بشرعية "دعاة التجنيس والاندماج" لأنهم لا يمثلون في نظره الشعب الجزائر الذي يرفض الذوبان ولا يؤمن بأسطورة "الجزائر فرنسية".

- خلال الثلاثينيات والاربعينان من القرن العشرين، تطورت المقاومة السياسية وساهمت في نشر الوعي الوطني بين شرائح المجتمع الجزائري، فأصبح الجزائري ينادي بكل صراحة، بوجوب المساواة السياسية دون التخلي عن القيم الوطنية. يقول في هذا الصدد : "إن المسلمين الجزائريين يريدون أن يتحصلوا على الحقوق وعلى الحريات إنما مع بقائهم مسلمين يحتكمون في أمورهم الشخصية بما أنزل الله"[33].

لا يولي المدني في كتاباته التاريخية عناية كبرى للكفاح السا ي وإن كان يعترف بإسهامه في بلورة الوعي الوطني وفي تكوين مجموعة عن الإطارات السياسية التي أشرفت على قيادة ثورة التحرير سنة 1954. يُفضِّل المقاومة المسلحة ثم المقاومة الثقافية على النضال السياسي ورغم أنه كان من بين إطارات جمعية العلماء الأكثر تسَيُّسًا وقد كان باديسيا في أغلب لحظات نضاله، فإنه كان لا يؤمن كثيرا بجدوى العمل السياسي في مقاومة الاستعمار الفرنسي.. إنها مفارقة نلمحها في شخصية المدني الذي كرس حياته لتدوين مقالات سياسية نارية ضدّ السياسة الاستعمارية في الجزائر والعالم العربي والعالم بشكل عام.

الخاتمة: ولد أحمد توفيق المدني بتونس سنة 1899 من أب وأم جزائريين. هاجرت الأسرة إلى بلاد تونس بعد فشل ثورة 1871. في تونس تكون المدني تكوينا تقليديا وإصلاحيا في المدرسة الأهلية ثم جامع الزيتونة كما درس التاريخ واللغة الفرنسية والرياضيات في المدرسة الخلدونية.

في تونس، اقتحم العمل الصحفي أولا ثم النشاط السياسي إذ كان من الأعضاء المؤسسين للحزب الدستوري الحرّ. وعند نفيه من تونس سنة 1925، استقر بالجزائر العاصمة، فكان يكتب في صحفها الإصلاحية حول مواضيع تتعلق بحركات التحرر في إرلندا والهند وفلسطين والريف المغربي.

وبعد فترة، انخرط في جمعية العلماء المسلمين "لأنها كانت قاعدة لنمو الشعور الوطني والإسلامي" وتقلد مناصب قيادية فيها. خلال سنة 1956، التحق بجبهة التحرير الوطني وعمل في سلكها الديبلوماسي خلال فترة الحرب (1954-1962)، وعند الاستقلال، تقلد مناصب رسمية مثل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وسفارة الجزائر في العراق وباكستان، ثم أنعكف على البحث في التاريخ إلى أن توفي بالجزائر العاصمة 18أكتوبر1983 عند عهد يناهز 84 سنة.

يحدد المدني مفهومه للتاريخ قائلا: "ما التاريخ في نظري إلاّ عرض وتحليل وحكم. فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه، حي الضمير، يدرس الوثائق والمستندات ويستخرج الحقائق من بين النصوص ويستمع بإمعان إلى ما يقوله هؤلاء وما يقوله أولائك، ثم ينظر في الملابسات ويدرس المحيط. فإذا ما أسفر وجه الحق ناصعًا، أصدر حكمه عادلا، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة" (حرب 300 سنة ص8).

– يحيل هذا التعريف- رغم صفة الموضوعية المزعومة- إلى الرؤية الوضعانية التي سادت التأليف التاريخي خلال القرن 19. وتتجلى وطنيته في نظرته إلى الماضي "إنما التاريخ الحقيقي هو تجسيم العصر الماضي حتى يصبح وكأنه الحاضر المشاهد وتصوير الحياة القديمة صورة حقيقية وحشر عوامل نهضتها وأسباب انحطاطها وربط الأسباب والنتائج..." (قرطاجة ص 8). يهدف الخطاب التاريخي إلى إبراز حقيقة الأمة وعبقريتها. فالبربر جنس متميز لا ينحدر من أصول جرمانية أولاتينية كما يزعمه المفكرون الاستعماريون. أنفتح البربر حضاريا على الفينيقيين ورفضوا الوجود الروماني، خاصة والغربي عامّة، لأنه وجود غريب عنهم ويتنافى وذاتيتهم.. إلى أن جاء العرب الفاتحون فامتزجوا بهم دون أن ينصهروا فيهم – وانتهى إلى الحضارة العربية – الإسلامية فتأثر بها وأثر فيها،..

– تكمن أهمية المقاومة التي طغت على الكتابة التاريخية لدى المدني في أنها السبيل الأمثل للدفاع عن الهوية والاستقلال. فإنها ترمز إلى الاستمرارية التاريخية وهي التعبير لعبقرية القوى الحيّة في الأمة. إنها تهدف إلى الحرية والسيادة والاستقلال: قيم وطنية ما أنفك الشعب الجزائري يتمسك بها.

– تتخذ المقاومة أشكالا متعددة عبر العصور: مقاومة مسلحة، مقاومة سياسية حين تقتضي الظروف ومقاومة ثقافية دفاعا على الشخصية الجزائرية. كل ذلك من أجل صياغة تاريخ نقيض للتاريخ الاستعماري الذي ينفي وجود مقومات وطنية في ماضي الجزائر.

الهوامش:

1- سعد الله (أبو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي: ج 7 ص 419...

2- المصدر نفسه : ص 49.

3-انتقد محمد الطاهر فضلاء في كتابه "التزيف و التحريف في كتاب حياة كفاح". قسنطينة 1982 أقوال المدني و رَدّ عليه هذا الخير في كتاب "رد أديب على حملة الأكاذيب" لم ينشره

4- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا، صفحة 8.

5- قرطاجنة في أربعة عصور، صفحة8.

6- كتاب الجزائر... ص 5.

7- مجلة "الشهاب : عدد مارس 1932.

8- صدرت الطبعة الأولى في الجزائر سنة 1927.

9- قرطاجة ص 107.

10- المصدر نفسه : ص 144.

11- المصدر نفسه : ص 160.

12- كتاب الجزائر : ص 77.

13- المرجع السابق : ص 160.

14- محمد عثمان باشا – ط 2 – الجزائر 1986 – ص 7.

15- المصدر نفسه : ص 6.

16- مذكرات الشريف الزهار (تحقيق) الجزائر 1988 (ط 2).

17- مجلة الشهاب : سبتمبر 1937.

18- صدر هذا الكتاب في الجزائر سنة 1927.

19- المدني "أوزاس محطم الاستعمار الروماني"، مجلة الاصالة : عدد 60-61، الجزائر أفريل 1977.

20- المصدر نفسه

21- المصدر نفسه

22- يسميها حركة "الجواسين" لإضفاء الشرعية عليها و تسميها المصادر حركة "الحوامين" أو "الدوارين" لأنها كانت تجمع عصابات تحيط بمزارع المعمرين قبل تخريبها.

23- «حرب الثلاثمائة سنة 1492-1792: ط2، الجزائر 1976 (الطبعة الأولى صدرت 1968).

24- المصدر نفسه ص 7-10

25- المصدر نفسه، ص 10-15.

26- المدني : تلمسان بين الزيانيين و العثمانيين، مجلة التاريخ، عدد 11، الجزائر 1981.

27- المرجع السابق، ص 11.

28- "هذه هي الجزائر"، صدر بالقاهرة سنة 1957، ص 50

29- المصدر نفسه، ص 6.

30- كتاب الجزائر، ص 293.

31- المصدر نفسه، ص 379.

32- المصدر نفسه، ص 67.

33- المصدر نفسه، ص 352.

الشيخ المهدي البوعبدلي (1992-1907)

أ. حسني بليل*

مقدمة: من الشخصيات التاريخية البارزة في النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصة في مجال التاريخي والفتوى شخصية الفقيه المؤرخ الشيخ المهدي البوعبدلي، وهو من البيوتات العريقة في القطر الجزائري، ونظرا لشهرته الواسعة واهتمامه الواسع بالمخطوطات فقد اخترت أن يكون موضوعي في هذه المداخلة هو إبراز بعض الجوانب من سيرته الذاتية.

المحور الأول: شخصيته: هو الشيخ الفقيه المؤرخ البحاثة المهدي بن أبي عبد الله البوعبدلي نسبة إلى جدهم الأعلى الذي كانت له شهرة واسعة في منطقة شلف كلها وهو الولي الصالح أبو عبد الله الملقب بالمغوفل المدفون شرق مدينة واد رهيو- ولاية شلف حاليا

ولد الشيخ المهدي البوعبدلي سنة **1907**ميلادية في القرية التي كانت تعرف آنذاك باسمها الفرنسي المسيحي (سان لو) وهو الولد الرابع لأبيه بعد بنتين وولد، وتلاه من الإخوة ثلاثة آخرهم مولدا ووجودا على قيد الحياة الشيخ عياض والذي يشرف على زاويتهم بعد وفاة الشيخ المهدي[2].

حياته العلمية:

شيوخه وأساتذته: لقد استغرق في دراسته اعتبارا من المرحلة الابتدائية إلى أن تخرج من الزيتونة ما يقارب **30** سنة، ولم ينقطع عن الدراسة إلا في الظروف المرضية الطارئة، ومن أبرز الشيوخ الذين درس عليهم:

1- والده الشيخ أبو عبد الله البوعبدلي أخذ عنه القرآن الكريم على رواية ورش عن نافع، وقرأ عليه حوالي النصف الأول من ألفية ابن مالك في النحو، وكان كثير النصح لولده[3]

*أستاذ بالتعليم الثانوي- تخصص علوم إسلامي وباحث مشارك بالمخبر- ثانوية الشيخ عبد القادر الياجوري- وهران.

2- الشيخ الفقيه أحمد الكفيف المازوني نجل الشيخ أبي راس المازوني حفيد أبي راس المعسكري[4]

3- الشيخ الفقيه محمد بن عبد الرحمن المازوني[5]

4- العالم الجليل التونسي محمد عبد العزيز جعيط صاحب المجالس العلمية[6].

5- العالم الفقيه الأصولي المفسر الشيخ الطاهر بن عاشور، وكان المهدي يحضر دروسه في التفسير.

6- الشيخ محمد اللقاني بن سايح الجزائري الأصل، التونسي المستقر، أخذ عن القاضي المالكي محمد الصادق النيفر، والمفتي المالكي الأستاذ أبي الحسن النجار، الشيخ محمد النخلي، وغيرهم وعنه شيخنا أحمد الأطرش السنوسي، المهدي البوعبدلي، الشيخ كتو، مولود بالقاسم نايت بالقاسم، والشاعر محمد الأخضر السائحي، وأحمد حماني، والشيخ الطاهر التليلي وغيرهم توفي يوم السبت 15 ذو الحجة 1389هـ الموافق لـ 21 فيفري 1970م، وكانت ولادته سنة 1886م[7].

7- الشيخ الحاج أحمد العياري أحد أكابر علماء جامع الزيتونة، قال عنه المهدي البوعبدلي: والدرس هذا الذي يقرؤه العلامة المذكور تحضره أكثر من خمسة مائة نفرا، من طلبة وتجار وحتى بعض الأساتذة، وذلك لما أوتيه السيد هذا من غزارة في البيان، ويطبق المسائل التي لصقت بالدين وليست منه في شيء.[8]

8- الشيخ عبد السلام: وفي رسالة بدون تاريخ من الشيخ المهدي إلى والده الشيخ أبي عبد الله الرزيوي ما نصه: سيدي، فالمرجو من سيادتكم أن تكاتبوا الشيخ سيدي عبد السلام وتشكروه على ما فعله معنا من خير، فإننا وجدناه كل شيء، يعطينا الكتاب لنطالعه مع الطريقة التي نسلكها في المكتبة، ويقرئنا (كذا) الدرس، وأكثر درسه، درس الأخلاق وتربية سواء في الدرس أو خارجه، زيادة على المعاملة الخاصة[9].

9- العلامة الإمام الفقيه المحدث الفصيح المدرس محمد البشير بن أحمد النيفر.ولد في مدينة تونس سنة 1889/1307، التحق بجامع الزيتونة 1900، فأخذ عن كبار علمائها، منهم محمد النخلي، ومحمد الطاهر بن عاشور، ومحمد الخضر الحسين الجزائري الأصل، وحصل على شهادة التطويع 1905، عمل كمدرس من الطبقة الثانية (1912)، ثم من الطبقة الأولى (1924)، وكلّف في نفس السنة بعضوية لجنة تنظيم كتب جامع الزيتونة، ثم أصبح أستاذًا

حسب النظام الجديد للتعليم الزيتوني (1935)، كما عمل مدرسًا بالمدرسة الصادقية (1929-1946، عُيّن مفتيًا (1940)، ثم قاضيًا (1943)، وإمامًا خطيبًا بجامع الزيتونة (1957) غير أنه استقال منها 1960، توفي 1394/1974، درس عليه المهدي البوعبدلي مع رفيقه زهير الزاهري وآخرين موطأ الإمام مالك بن أنس الأصبحي، وكان المهدي مثال الاجتهاد في طلب العلم أخذا بوصية والده.

تلامذته: كلف الشيخ من قبل نظارة الشؤون الدينية بالتدريس، فقام بما أنيط به أحسن قيام، فكان في كل أسبوع يتجه إلى الجزائر العاصمة تارة من مقر زاويتهم في بطيوة، وتارة أخرى من منصب عمله في الأصنام-شلف حاليا- ليلقي دروسا على الأئمة الخطباء الذين يزاولون فترات تدريبية بمدرسة مفتاح، ومن جملة من درسوا عليه شيخ مدرسة سيدي علي- ولاية مستغانم- الشيخ البارودي وأئمة آخرين[10].

رحلاته: رحلاته من أجل العلم: بعد حفظ القرآن الكريم في مسجد والده ثم تلقيه للمبادئ الأولية في الفقه والنحو والصرف وغيرها من النصوص العقلية والنقلية، ثم مزاولة الدراسة باللغة الفرنسية في المدرسة الرسمية ببلدية بطيوة، سافر طالبا للعلم إلى مدرسة الفقه المالكي وهي بلدية مازونة، وكانت مدرسة الشيخ أبي راس المازوني مشهورة في تخصصها بتدريس مختصر خليل عن طريق تصوير المسائل الفقهية، وهي الطريقة المعروفة بالصورة الحمراء، وبعد سنتين من الجدّ والطلب انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس، وقد أخذ عن كبار مشايخها إلى أن حصل على شهادة التحصيل[11].

الرحلات السياحية والعلمية: كان الشيخ كثير الأسفار سواء في داخل الوطن أو خارجه حتى أنه في بعض الظروف لا يجد متسعا من الوقت للمكوث مع الأهل أو حضور بعض الجنائز أو مراسلة الإخوان والأصدقاء ردا على رسائلهم؛ ففي داخل الوطن زار معظم القطر الجزائري بحثا عن المخطوطات القيمة والنفيسة التي تتناول التراث الجزائري عامة والتاريخي خاصة، وقد زار في رحلاته المتكررة معظم الخزائن التي تحتوي على المخطوطات النفيسة كخزانة الحاج حمو بمعسكر التي آلت إلى ولده الفاضل السيد محمد البدوي القاضي بتندوف، وخزانة المرحوم السيد ابن عبد الله بن حسن القاضي السابق بتموشنت، وخزائن تندوف ومعسكر والقلعة والقلعية وبجاية وفيها اشترى...الخ[12].

وكان يستفيد من هذه الخزائن إما عن طريق الإعارة كما هو الحال بالنسبة لخزانة الشيخ محمود بوزوز، وخزانته مازالت إلى يومنا هذا في زاوية بطيوة أو الشراء كخزانة القاضي القلي من بجاية أو عن طريق التبادل كما وقع مع الشيخ البشير المحمودي البرجي، أو كتابة ما يحتاج إليه إن تعذر عليه استعارة المخطوط، ولكن أغلب تنقلاته كانت إلى العاصمة والأصنام حيث كان مفتيا، وبجاية حيث كان مفتيا وإماما.

أما خارج الوطن فقد زار بلدان كثيرة منها ليبيا، روسيا، فرنسا، المملكة العربية السعودية، ألمانيا، الباكستان، الهند، روسيا، وهذا كله إما في مهمة رسمية أو زيارة لمكاتبها ومتاحفها أو من أجل إلقاء محاضرات، أو المشاركة في الندوات العلمية، وقد تعرّف على الكثير من العلماء، وكانت بينه وبينهم مراسلات[13].

الشهادات والإجازات:

1- الشهادات: حصل على شهادة التحصيل من الزيتونة في سنة 1936م الموافق لـ 1354هـ، ثم شهادة الدكتوراه الشرفية من معهد الحضارة الإسلامية جامعة وهران.

2- الإجازات: كان الشيخ مهتما بالإجازات أيما اهتمام وأجازه بعض كبار العلماء، وقد وجدت ذلك في إحدى رسائله[14].

تقلده للمهام العلمية: كان مكلفا من قبل وزارة الشؤون الدينية بعدة مهام:

1- الاشتغال بوزارة الثقافة (دائرة المعالم الأثرية).

2- عضو في المكتب الوطني للدراسات التاريخية، وله بحوث كثيرة في مجلة الدراسات التاريخية.

3- الإمامة بمسجد الباشا- جامع الترك بوهران- ثم بالمسجد العتيق ببجاية، ثم الإفتاء بنفس المسجد خلفا للشيخ حسن بولحبال الذي انتقل إلى وهران، وتبرز إحدى الرسائل الموجهة من بودلمي بن بلقاسم من المسيلة إلى بودلمي بن علي بالزاوية العلوية بتلمسان يخبره فيها أنه التقى بعدة شخصيات ببجاية، وأنه علم أن الشيخ حسن بولحبال يرغب في مغادرة بجاية، وقد بذل جهودا كثيرة ليعين بالعاصمة كمفتي إلا أنه لم يوفق، وقد عين في هذه الفترة بابا عمر في هذا المنصب كمفتي للحنفية، وأجبر بولحبال على طلب المنصب نفسه بمدينة وهران، وهكذا انتقل إلى هذه المدينة، وخلفه في بجاية المهدي البوعبدلي البطيوي، ثم الإفتاء بمدينة شلف مع تدريس الأئمة كما سبق بيانه[15].

مؤلفاته: معظم مؤلفات الشيخ عبارة عن مقالات ومحاضرات، ولو جمعت لكانت في مجلدات، ويمكن أن تصنف أعماله إلى:

1- إلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات التاريخية.

2- المقالات المطبوعة والمخطوطة.

3- المؤلفات وهي قليلة.

4- تحقيق التراث التاريخي المخطوط.

وقد أحصيت المقالات التي قام بنشرها في المجلات، وبالأخص في المنشورات الخاصة بملتقيات الفكر الإسلامي، والأصالة، وجريدة النجاح والمركز الوطني للدراسات التاريخية، ومجلة الثقافة، والبعض الآخر نشر خارج القطر الجزائري فوجدتها تزيد عن 135 مقالة، منها ست مقالات باللغة الفرنسية، وهي حتما أكثر من ذلك، وتحتاج كلها إلى لجنة علمية مهمتها البحث والتقصي عن كل مقالات ومحاضرات الشيخ في العالم الإسلامي كله.

المقالات والمحاضرات:

- الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي[16].

- الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي[17].

- مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ[18].

- موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور[19].

- تراجم بعض مشاهير علماء زواوة، وقد ألقيت في الملتقى للفكر الإسلامي السابع.

- كراتشوفسكي وآثاره في ميدان الاستشراق العربي[20].

- جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده عام 1903م للجزائر[21].

- الرباط والفداء في وهران والقبائل[22].

- علاقات الجامع الأزهر بالجزائر، محاضرة ألقيت في ملتقي الفكر الاسلامي السابع بتيزي وزو 1973م.

- الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها[23].

- أضواء على تاريخ حياة الأمير عبد القادر قبل توليته من خلال مذكراته التي سجلها في قصر أمبواز- amboise- فرنسا.

- أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، نبذة مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها[24].

- موقف ملك المغرب من الجزائر إثر الاحتلال الفرنسي[25].
- البيعة والشورى في الإسلام وتطورها عبر التاريخ[26].
- ماضي وادي الذهب والساقية الحمراء وحاضرهما[27].
- جوانب من تاريخ بونة الثقافي والسياسي عبر العصور[28].
- دراسة كتاب عيون الأخبار ونزهة الأبصار لمحمد بن محمد البكري، وألقيت في الفكر الإسلامي[29].
- دور جمال الدين الأفغاني في يقظة الشرق ونهضة المسلمين[30].
- لقطات من تاريخ جبل الأوراس الثقافي والحضاري، وألقيت بملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر سنة 1978م.
- عبد الرحمان الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر[31].
- تأثير الثقافة والبيئة في شخصية ابن خلدون في الملتقى الذي نظمه المركز الوطني للبحوت التاريخية 1979م.
- تراجم بعض أبطال المقاومة المسلحة في الهقار، وفي طليعتهم السلطان أحمد المشهور بأمود- ملتقى الفكر الإسلامي الثالث عشر 1979م[32].
- لقطات من تاريخ مملكة الونشريس الثقافي والسياسي والحضاري في عهد دولة بني توجين- الفكر الإسلامي الرابع عشر 1980م[33].
- المؤسسات الدينية في المجتمع المغربي- قدمه إلى المؤتمر الذي انعقد ببرلين ربيع 1980م، وفيه دراسة عن كتاب "توشيح طراز الخياطة".
- اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث- ألقيت في ملتقى القرآن الكريم بالجزائر سنة 1980م.
- دراسة على محمد بن علي الخروبي الطرابلسي[34].
- اهتمام علماء الجزائر بعلم الحديث قديما وحديثا، وألقيت في ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر بتلمسان 1982م.
- الجزائر في العهد التركي، محاضرة بوهران سنة 1965م.

- لقطات من تاريخ دور بعض علماء الجزائر في الاجتهاد، ألقيت في ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر بقسنطينة 1983م، ويضاف إلى كل ما سبق ذكره المحاضرات التي كان يلقيها بالعاصمة ووهران وتلمسان ومستغانم وسائر القطر الجزائري.
- أضواء على كتاب شرح الغريق في تقييد الشريد- 1984م.
- الساقية الحمراء ماضيا وحاضرا[35].
- انطباعات حول المؤتمر الإسلامي العالمي للسنة النبوية الذي انعقد بالباكستان في شهر ربيع الأول 1396هـ/مارس 1976م.
- انطباعات عن ملتقى الدراسات العربية والإسلامية بمركز تكوين الدعاة بجامعة بومباي- الهند- ربيع الثاني 1395هـ/1975م.
- تاريخ بونة- محاضرة ألقيت في الملتقى الإسلامي المنعقد بعنابة من10 إلى 19 يوليو 1976م.

مؤلفاته التاريخية:

- تاريخ علماء الجزائر في العهد التركي وما قاربه: يحتوي الكتاب على مائتي ترجمة، وتشتمل الكثير من هذا التراجم على اثنين أو ثلاثة تراجم أخرى، وقد نقل هذه التراجم كلها في دفاتر على صفحة واحدة، أي من وجه واحد كما يتطلبه الطبع، ومما قاله الشيخ عن تقييده لأعماله: "وخشيت إن كلفت غيري بهذا النقل صعوبته عليه حيث لم يعرفوا الأسماء ولا الأمكنة".

قدّمه الشيخ سنة 1396هـ/1976م للطبع، وهو حصيلة أربعين سنة من الجمع، وبحوزتي قائمة لهؤلاء العلماء الذين ترجمهم، وقال عنه الشيخ عياض البوعبدلي: "هو ما أنجزه من التراجم لعلماء مختلف نواحي البلاد، ولم يتصدّ لترجمة إلا وصاحبها من أكابر العلماء والأدباء، وقد يكون المترجم له مذكورا في تراجم أخرى إلا انه-أي الشيخ المهدي- قد اهتدى إلى معلومات جديدة عنه"، ونلاحظ أنه كان يأمل الزيادة فيما كتبه، إذ نجده يحتفظ بمساحات بيضاء من الكراس بعد إنهاء الرجمة...[36].

الاشتراك في التأليف: اشترك المهدي البوعبدلي مع بعض الأساتذة في كتابة بعض المؤلفات، وبخاصة ما يتعلق منها بتاريخ الجزائر، ومنها "جوانب من تاريخ الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني" مع الدكتور ناصر الدين سعيدوني.

تحقيقه للتراث المخطوط:

1- كتاب "دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران" لمؤلفه محمد بن يوسف الزياني.

2- "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" لمؤلفه محمد بن علي بن سحنون الراشدي.

مخطوطاته التي لم تنشر: له عدة رسائل صغيرة لم تنشر بعد منها: التعليق على وثيقة حكم بصحة ثبوت شرف، وتوجد نسخة مصورة بحوزتي، أما البقية فلم نتمكن من الاطلاع عليها على الرغم من المحاولات المتكررة، ومنشورات في الجرائد: منها جريد النجاح، والصحافة الوطنية[37].

أهم المخطوطات التي اطلع عليها واستفاد منها:

1- رحلة أبي راس الناصري: قال الشيخ المهدي: كنت أطلع في مكتبة جامعة الجزائر، والرحلة بخط مؤلفها رحمه الله إلا أنهم كانوا دائما تحت حراسة القيمين، وإنما يسمح له بأخذ بعض النقاط والفقرات، وكنت أستعمل كل حيلة ووسيلة حتى تمكنت من نقل ما به الحاجة. وتركت المحلات غير المستوفاة في النقل، وعلمت عليها بالنقط أملا أن تسمح الظروف بإعادة مراجعة النسخة حتى أتمها، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، والرحلة حرقت مع كتب الجامعة أثناء الثورة[38].

2- مخطوط لآل الشيخ الطاهر المحفوظي: من شدة اعتناء الشيخ بهذا المخطوط أنه كان على دراية تامة بما قاله الشيخ: فإني كنت أراجع في بعض المخطوطات، ومنها مخطوط لآل الشيخ الطاهر المحفوظي؛ فوجدت بعض قصائد تنقصه وهي:

أ- شطر لقصيدة ابن مزروق الميمية.

ب- تخميس على قصيدة أم هاني في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ج- لامية ابن الوردي.

د- غوثية الحاج عبد القادر بن السنوسي الدحاوي[39].

3- المنظومة الشلفية لسيدي أبي عبد الله: وفيها ذكر لعلماء البطحاء، مدينة عظيمة بالشلف اندثرت، والمتضمنة كذلك لعلماء قلعة بني راشد، قال عنها الشيخ: وقد طبعت مع تأليف لسيدي عدة إلا أنها فيها أخطاء فادحة[40].

4- تأليف المشرفي: ذخيرة الأواخر أو الرحلة المشرفية، قال عنها الشيخ المهدي في إحدى رسائله: أخذت منها ما يفيدنا في تراجم علماء تلك الأسرة[41].

5- منظومة العلامة الشيخ أبي راس التي ذكر فيها وفيات بعض مشايخه الذين من ضمنهم منصور الضرير[42].

6- تأليف الشيخ سيدي أحمد بن عامر الذي يرد فيه على الشيخ مصطفى الرماصي في قضايا ومسائل فقهية[43].

7- أوراق من كتاب مناقب الشلفيين للشيخ موسى المغيلي المازوني، قال عنه الشيخ المهدي: إن الكتاب مفقود إذ كانت توجد منه نسخة مخطوطة عند المرحوم مفتي مازونة، وقد نقل لي حفيده بعض الأوراق أثبتت بعضها في تراجم بعض علماء البلاد في كتاب التراجم الذي هو الآن تحت الطبع[44].

8- رسالة قال عنها الشيخ: "وإن كان صاحبها يسلك فيها طريقة علماء الحديث النبوي في روايتهم التي تروى عن الشيخ مشافهة لأسرار يراعونها، وأهمها التربصات[45].

9- العقود والمواثيق: أذكر بعض النماذج منها:

1- عقد ذكر فيه العلامة الشيخ المكي بن عيسى الذي كان قاضيا على عهد الباي محمد بن عثمان، وهو مذكور في الرحلة القمرية لابن رزفة- مخطوط بالمكتبة- الجزائر.

2- عقد آخر للشيخ مصطفى الرماصي منها نسخة بزاوية الشيخ ببطيوة، استفاد منها الشيخ في ترجمة المعني.

8- انشغاله بالتراث الإسلامي الجزائري والحث على خدمته:كل الرسائل التي اطلعت عليها للشيخ المهدي إلا ووجدته منشغلا كل الانشغال بتراث الأمة الجزائرية، ومما جاء في بعض رسائله: "...إن أوائلنا بذلوا النفس والنفيس في نشر العلم، وواجبنا أن لا نبخل بما تركوه خصوصا في مثل هذه الأزمة التي نعيشها، وهذه أمنيتي في الحياة، فإن فسح الله في الأجل فإنني سأسعى بجميع الوسائل لنشر ما وصلني من هذا التراث..."[46].

ومما قاله في رسالة أخرى في معرض حديثة عن الفائدة من جمع التراث ما يلي: "...فإن هؤلاء العلماء والفقهاء والصالحين الذين غرسوا الدين، ونشروه بسيرهم وإنتاجهم حرام على الخلف أن يحتفظوا بتراثهم ويتركوه للأرضة والفأر، ويحرموا الخلف من الاطلاع على آثارهم، وكانت بحمد الله هذه هي أمنيتي منذ اشتغلت بهذه المهمة، وأخشى دائما أن تحول بيني وبين

هذه الأمنية عوادي الزمان، لهذا بادرت بجمع ما تيسر، وعندما يطبع ولو من نقص فتكون له فائدة، وهي ضمان خلوده، ولا يحرم إن شاء الله من رجال يتممون ما نقص[47].

نماذج من رسائله: ومما جاء في بعض رسائله التي لم تنشر يتحدث فيها عن أوضاع بعض الأشخاص في إهانتهم للنخبة الخيّرة من أبناء الوطن، وما وجده من العنت بعد الاستقلال الوطني مباشرة، ونظرا للخصوصية فإنني اخترت فقرات من هذه الرسائل.

قال الشيخ: وإن كل ثورة من قديم الزمان تعقبها فترات يختلط فيها الحابل بالنابل، ولكن سنة الله في الكون، "والعاقبة للمتقين"، والبقاء للأصلح "فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنون...".

وقال في رسالة أخرى: "...إننا نعيش في ظروف صعبة، وقد ساءت أخلاق كثير من الناس، وتبدلت وغاضت الفضيلة إلا أننا كثيرا ما يتسرّع الإنسان للتخلص منهم؛ فيجد نفسه يردّد قول الشاعر:

رُبَّ يوم بكيت منه فلما صِرْتُ في غيره بكيت عليه

ولهذا فالمؤمن يتسلح دائما بالصبر، ويرجو الله أن يمده بتحمل بعض الصعوبات والمكاره، ولا شكّ أن العاقبة للمتقين، ودُمتم محفوظين من أخيكم عبد ربّه المهدي البوعبدلي[48].

نماذج من رحلاته: قال الشيخ المهدي البوعبدلي في رحلته السوفياتية، والتي صف فيها كل المراحل التي قطعها انطلاقا من مطار الدار البيضاء بالجزائر إلى حين عودته، والأماكن الأثرية والمعارض والمساجد العتيقة التي زارها، والشخصيات التي قابلها، مع بيان أحوال الأقليات الإسلامية في البلاد الروسية ويوغوسلافيا وأذربيجان وأرمينيا، والمناظرات الفكرية والأدبية التي دارت بينه بين علماء هذه البلدان من جهة، والوفد المرافق له من جهة أخرى، ومما جاء في رحلته: "...خرجنا من مطار الدار البيضاء-الجزائر- صباح يوم الخميس 1969/7/3م على متن الطائرة-كارافيل تابعة للشركة الجزائرية للطيرن (كذا)؛ فوصلنا بعد ساعتين إلى مطار أورلي بباريز، وكان في انتظارنا أحد المستخدمين بالسفارة الجزائرية؛ فأقلنا إلى البلد حيث تأخر موعد السفر إلى موسكو إلى ما بعد العصر؛ فمررنا على محل المواطن السيد أحمد حشلاف حيث تناولنا الفطور على مائدته، وفي المساء تجولنا على بعض معالم البلدة، وذهبنا إلى مطار البورجي، وعلى التاسعة والنصف أقلتنا طائرة 104 7ou إلى موسكو، فوصلنا بعد ثلاث ساعات، وكانت الساعة الحادي عشرة والنصف أي متأخرة على

توقيت باريز بساعتين، وبثلاث ساعات على توقيت قرنيتش (كذا)، لم نجد أي واحد في انتظارنا إذ لم يبلغ الخبر لا لأعضاء المؤتمر ولا للسفارة، فتكلمنا تيلفونيا مع السفير فجاءنا إلى المطار، ورافقناه لمنزله حيث قضينا الليل عنده، وفي الصباح اتصل بالخارجية التي أخبرت المؤتمر؛ فأرسلوا لنا سيارتين، ذهبنا إلى ملتقى المؤتمر بدير شهير-zagorak- في ضواحي العاصمة، وبمجرد وصولنا للدير تلقانا عميده بلباسه التقليدي....الخ[49].

مكانته عند علماء عصره: وكان رحمه الله على صلة قوية بمختلف أقطار العالم الإسلامي حيث يحرص على المشاركة في الملتقيات الإسلامية، وتشهد له بذلك أبحاثه القيمة ومداخلاته المتميزة، وكان محلّ إكبار وتقدير وإجلال من الجميع، يدفعه لذلك علو همته، ولذلك سموه بصديق الجميع؛ فاحتل الشيخ المهدي البوعبدلي بذلك منزلة رفيعة بين علماء عصره، سواء في داخل الوطن أو خارجه، ومما يدل على ذلك الرسائل الكثيرة التي كانت تبعث له، وفيها من الألقاب والنعوت التي اطلقها عليه معاصروه، كالعلامة والعالم والأستاذ والباحث والمؤرخ والفاضل والمفتي والنسابة، ولو جمعت هذه الرسائل لكانت مؤلفا مستقلا.

وقد اخترت نماذج من هذه النصوص؛ فمنها ما قاله الشيخ عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية المسلمين رحمه الله في الذكرى السادسة عشرة لوفاة الشيخ المهدي البوعبدلي رحمه الله: "...والعلامة المهدي البوعبدلي رحمه الله قد خدم الجزائر بحق في التاريخ والتحقيق، وفي التدريس والإفتاء، ومن مناقبه رحمة الله عليه أنه أدرك إمام نهضتنا الوطنية الشاملة الشيخ عبد الحميد ابن باديس حيا، وتشرّف باستضافته في بيته الكائن ببطيوة بدائرة أرزيو، كما سعد بصحبته في رحلته التي خصّصها لزيارة الغرب الجزائري، وقد شهد له الإمام رحمه الله وطيب ثراه، بالعلم والاستقامة، ومما قاله فيه في الصفحة 246 من الجزء الرابع من آثاره: "وجدنا بغليزان السيد مهدي ابن الشيخ بوعبدالله آل بوعبد الله في انتظارنا، وهو شاب نجيب، تلميذ بجامع الزيتونة؛ فرافقنا إلى تمام الرحلة بوهران، ورأينا منه آدابا وأخلاقا شريفة"، كما شهد له غيره بدماثة الخلق وحسن المعاشرة، والتودد لكل من يعرفهم، حتى أنه لقب "بصديق الجميع، وذلك ما يتفق مع منتماه العائلي، إذ هو سليل عائلة موصوفة بالعلم والدين، تبوأت مكانة مرموقة بالغرب الجزائري. -

ومن مناقبه أيضا أنه أنشأ مكتبة فخمة غنية بأعز المخطوطات، وإن تسألوني عن معرفتي له، فإن علاقتي به رحمه الله ترجع إلى ما قبل الثورة، إذ عرفته في بجاية التي تولى فيها الإفتاء،

مع الإخوة الأساتذة شنتير عليهم جميعا رحمة الله تعالى، ثم التقينا في تونس لما جاءها زائرا، واتصل بي بصفتي رئيسا لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، لمساعدته على قضاء بعض الأمور الثقافية والسياسية، وبعد الاستقلال تعاونا في إطار وزارة الشؤون الدينية؛ فقد كان عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى، وقدكان نجما لامعا في ملتقيات الفكر الإسلامي، التي أشرفت عليها خلال السنوات الست التي تقلدت فيها شؤون الوزارة، وأذكر أنني زرته في بيته بالغرب الجزائري، لما أقعده المرض، فسعد بزيارتي، وسُرّ بها أيما سرور، إن الاحتفاء بذكرى هذا الرجل المفتي، المدرّس والمؤرّخ المحقق، والأستاذ المحاضر، توجب الالتفات لآثاره، والعمل على جمعها ثم نشرها، لتكون نبراسا للباحثين في تاريخ الجزائر، لأخذ القدوة الحسنة، التي بها يعلو شأن الأوطان والشعوب"[50].

ومما قاله الشيخ العلامة الفقيه مصطفى بن أحمد بن محمد الزرقاء رحمه الله في ديوانه – ديوان قوس قزح- وتحت عنوان "ستخلد في نفسي لكم هذه الذكرى": مشاعر وانطباعات عن ليلتنا في مدينة أرزيو من ولاية وهران في الجزائر، وعشائنا السخي فيها بالمطعم البحري الأنيق مع الأستاذ الفاضل المؤرخ الشيخ المهدي بوعبدلي والشيخ عبد القادر الزبير مدير التعليم الأصلي...[51]، ومما قاله شعرا:

وليلة أنس بالجزائر كان لي　　　بها مجلس ضم الأفارقة الغرا

لقاء بظهر الغيب غير مؤمل　　　على مطعم في أرزيو توج البحرا

إلى أن قال:

على رأسه النهدي بوعبدلي الذي　　　سما فضله في قومه وسما قدرا

وممن نوهوا بشأنه زهير الزاهري-رحمه الله- وكانت له علاقة وطيدة منذ عهد الدراسة بالزيتونة في محاضرته بمدينة بطيوة:كلمة عن حياة وآثارالشيخ محمد المهدي البوعبدلي- رحمه الله- حيث يقول في مقدمتها: الشيخ محمد المهدي البوعبدلي الباحث النسابة يرتفع نسبه الشريف إلى الإمام محمد بن إدريس بن إدريس مؤسس دولة الأدراسة بالمغرب وتلمسان...إن تكوين الشيخ محمد المهدي بالزاوية والمسجد والزيتونة أهلته للاقتداء به، والاهتداء بسيرته وثقافته من طرف معاصريه، والثقة بما يقول ويكتب في ميدان التاريخ والأنساب، كما أهلته غداة الاستقلال للاعتماد عليه في شؤون الدينية وفي المجلس الإسلامي الأعلى....الخ[52].

ومما ذكره المؤرخ الدكتور يحي بوعزيز في مداخلته تحت عنوان: الشيخ المهدي البوعبدلي العالم والباحث التي ألقاها في الذكرى السادسة عشرة لوفاة الشيخ المهدي البوعبدلي رحمه الله:...يمتازالشيخ (المهدي البوعبدلي) عن غيره من شيوخ الطُّرُق.... وذلك بِفضْل دراسته الزيتونية، ومرافقته ومصاحبته للحركة الطُّلابية هناك سنوات طويلة، في إطار "جمعية الطلبة الجزائريين"، وسمح له منصبه كـ:"مفتي" في بجاية والشلف أنْ يُوسِّع ثقافته أكثر، ويُرَقِّيها بِواسطة اقتنائه لِكُتُب التراث، مِنْ مخطوطات ورسائل وكُتُب وتقارير، فقهية وأدبية وتشريعية وأصولية ولغوية وتاريخية، وبعد استعادة الاستقلال الوطني عام 1962م عُيِّنَ عضوًا في "المجلس الأعلى الإسلامي"، وانكبَّ على البحث والدِّراسة، وجمع الكُتُب والمخطوطات والرسائل والجرائد والمجلاَّت مِنْ مختلف المظانّ، وتفرَّغ للبحث والدِّراسة والكتابة، وتحقيق الكتُب والمخطوطات، ومِنْ حظه في هذا الميدان، وحظِّ غيره [ومنهم مُحدِّثكم هذا]، احتضان الباحث والوزير المرحوم مولود قاسم نايت قاسم له، وظهور مجلَّتَيْ: الأصالة والثقافة التي كانت السبب والوسيلة لِنشر المقالات والدِّراسات المختلِفة، والمُتخصِّصة خلال عقدَي السبعينات والثمانينات، وانتشار ظاهرة عقد الملتقيات الفكرية الإسلامية وغير الإسلامية عبر أرجاء مختلف المُدُن الجزائرية، والتي ساعدت الباحثين على الكتابة والإبداع والإنتاج الفكري والعلمي والأدبي، والمعرفي بِصفة عامَّة.

كيفَ تعرَّفْنا على الشيخ المهدي البوعبدلي؟ وهنا لابدَّ من الإشارة إلى كيفية حصول التعارف بيننا وبين الشيخ المهدي البوعبدلي، ففي بداية عقد الستينات، بدأت تصِلُ إلينا أخبار نشاطاته الفكرية والثقافية، وكان أوَّلها محاضرته حول الأتراك العثمانيِّين بِإحدى قاعات سينيما وهران، ولم نحضرها، وكانت القاعة هي الإسكوريال في شارع الأمير عبد القادر، وشاهدناه لأول مرَّة في مقهى الطايطون فيل بالجزائر العاصمة، صحبة الباحثة والمفكِّرة المصرية القديرة الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، التي صرَّحت آنذاك بأنها جاءت إلى الجزائر لِتَحُجَّ، وتُشاهِد بأمِّ عينها معجزات شهداء ومجاهدي ثورة نوفمبر (1954م-1962م).

وبعد ذلك تعرَّفنا على بعضنا البعض، وتوثَّقَتْ الصِّلةُ بيننا خلال ملتقَيات الفكر الإسلامي، والملتقيات الوطنية الأخرى التي كانت تُنَظَّم عبر ولايات الوطن، وقد حرص الأستاذ المرحوم مولود قاسم علينا أن نواصِلَ النشر في "مجلة الأصالة"، وكانت اهتمامات الشيخ المهدي منصبَّة على التاريخ والشعر الملحون أساسًا، تبعًا للتُّراث الذي جمعه في مكتبته الخاصَّة،

ودرسه واطَّلَعَ عليه، وقد حكى لنا مِرارًا وتِكرارًا، كيف كان يجمع هذا التراث، وأنه كثيرًا ما يضطرُّ لبيع بعض حوائجه، وبعض القِطع الأرضية، لِيَشترِيَ بأثمانها المخطوطات والوثائق، وأنه عندما يُسافِر إلى العاصمة أو قسنطينة أو بجاية يتجوَّل في أحيائها العتيقة للبحث على هذه المخطوطات، وشراء ما يُمكِنُ شراؤه، وقد اشترى في بجاية مكتبة باي قسنطينة أحمد القلّي، كما ذكرنا ذلك سابقًا، ولم يكتَفِ بهذا، فشرح لنا شخصيًّا أسباب اهتمامه بالبحث الفكري والأدبي والثقافي بصفة عامَّة، وقال: "إنَّ شيوخ الزوايا في عهد الاستعمار الفرنسي، ليس لهم مجالٌ آخر غير تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم العربية، والدينية واللغويَّة، ومُمارسة السُّلوك الصوفي، وبعد الاستقلال الوطني عام 1962م، تجاوز الزمن هذا الاتِّجاه، وأصبح التعليم في أيدي الدولة الوطنية، تتكفَّلُ به وترعاه وتُوَجِّهه، وصار الإقبال على الزوايا محدودًا جِدًّا، وصار الناس لا يقبلون على النهج الصوفي الذي تجاوزه الزمن"، ولذلك رأى مِنْ واجبه أنْ يتَّجِه للبحث والدِّراسة والتأليف في التاريخ والتُّراث، ولإلقاء المحاضرات، والمشاركة في النَّدوات والملتقيات، ولقد أحسن صُنْعًا على أيِّ حال بعلمه هذا، فأفاد نفسَه وأُمَّتَه وتاريخ بِلاده، وتُراثها الفكري والحضاري بصِفةٍ عامة، وأثار اهتمام الباحثين في الشِّعر، وبِشُعراء الملحون، أمثال: ابن خلُّوف، وابن السويكت، وابن خميس، وبدولة مغراوة، وحقَّق ونشر كِتابيْن مُهمَّيْن عن تاريخ وهران عام 1978م، هما:

- دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، للشيخ القاضي محمد بن يوسف الزيَّاني.
- الثغر الجُماني في ابتسام الثغر الوهراني، للشيخ محمد بن سحنون الراشدي.

وتوَلَّت وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية طبعهما في عهد المرحوم مولود قاسم، وقد أَطْلَعَنا على مقدِّمة الثغر الجُماني قبْلَ أنْ يُقدِّمَه إلى الطبع في منزله بـ:بطيوة في إحدى زياراتنا له رحمه الله، وكان ظهور هذيْن الكتابيْن مِنَ الحوافِز التي دفعتْنا لِتحقيق ونشر كتاب طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود- تأليف الأغا بن عودة المزاري، طُبِع بدار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى سنة1990م.

وعندما حملنا إليه نسخة من هذا الكتاب قبل وفاته بِعِدَّة أشهر، وكان مُلازِمًا للفِراش، سُرَّ كثيرًا، وضحك وتبسَّم وهو يحتضِنُ الكتاب، ولسانُ حاله يقول: «لقد حملتَ إليَّ ما يُؤنسني في هذا السرير الذي لا أستطيع مغادرته...، ثم بين الدكتور بوعزيز كرم وسخاء الشيخ المهدي

على الباحثين عموما وعليه خصوصا...، قدَّم لنا الشيخ المهدي عددًا من الرسائل والوثائق، ومجموعة أوراقٍ لِمخطوطات عديدة، ما يزال البعض منها مركونًا عندنا لِصعوبة قراءتها بِسبب رداءة التصوير، وهناك ثلاثة وثائق لها أهمِّية خاصة هي:

(أوّلاً): رسالة الشيخ عزيز بن الشيخ الحدَّاد من كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي إلى أحد أقرِبائه في الجزائر بتاريخ جوان 1877م، وقد تحصَّل عليها يوم أنْ كان مفتيًا بـ:بجاية، وأفادتنا هذه الرسالة الطويلة بِعَدَدٍ من الأشياء والأحداث التاريخية، ومنها عدد الجزائريين المَنفيين إلى كاليدونيا الجديدة وعدد الأوروبيِّين، وبرنامج إطلاق سراحهم من هناك، وإعادتهم إلى أوطانهم.

(ثانيًا): رسالة الشيخ محي الدِّين والِد الأمير عبد القادر من طرابلس الغرب إلى أحد أقاربه من العبيد الغرَّابة، قرب مدينة (سيق) عام 1828م، وعلَّق الشيخ المهدي عليها، وذكر بأنه بعثها من هناك، وهو في طريقه من الحج إلى الجزائر.

(ثالثًا): منشور الأمير عبد القادر الذي برَّر فيه محاربته للشيخ التيجاني، بـ: عين ماضي عام 1838م، ومن الصُّدف الحسنة أنَّنا عندما نشرنا هذا المنشور، ورسالة الشيخ محي الدِّين في المجلَّة التاريخية التونسية، وجدنا الشيخ (مصطفى بن التهامي) يتحدَّث على هذا المنشور في كتابه الذي ألَّفه في قصر أمبواز مع الأمير عبد القادر، وحقَّقناه ونشرناه في دار الغرب الإسلامي عام 1995م، تحت عنوان: سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، لأنَّ المنشور كما سلَّمه لنا الشيخ المهدي لا يحمِلُ اسم صاحبه، إذ اكتفى فيه وقال: «هذه نسخة من رسالة الأمير»، وقد نشرنا هذا المقال في الكتاب الذي حقَّقناه تعميمًا للفائدة.[53]

ومما قاله فضيلة مفتى الديار التيهرتية الشيخ مصطفى بن زيان الزياني أحد أبناء ملوك تلمسان رحمه الله في رسالة تهنئة بمناسبة حصوله على أحد الأوسمة والتي احرزها عن جدارة واستحقاق، وهذا نص الرسالة بتمامها لصغرها[54]:

الحمد لله وحده

تيارت في 24محرم الحرام 1373 الموافق ليوم 3أكتوبر 1953

جناب زميلنا المحترم العلامة الجليل اللغوي القدير سيدي المهدي البوعبدلي مفتي مدينة الأصنام لا زال في رفعة وعلاء سلام، وتحية ود وإخلاص، تحية كلها إجلال وتقدير، أحييك وأشفع تحيتي هذه بأخلص تهنئة وأعبق باقة من أزاهير الوفاء، أقدمها إليك أيها العزيز، عربون الود، ورمز الصفاء معبرا لك عن كامل سروري وغبطتي، وأنا أسمع بخبر استحقاقك وسام

الشرف وشارة الوفاء، وهي لعمري قليل في جنابكم، ومقامكم الأسمى يتعالى عنها، وإن لكم فينا لمكانة تفوق هذه الشارة، فأجدر بأمثالك أن يبلغوا سامق المراتب، وأعلى المنازل، لازلتم في رفعة شأن ونباهة قدر دنيا وأخرى.

أخوكم المخلص مصطفى بن زيان

علوا في سماء المجد دوما وعزا نلت من رب الأنام

فيا مهدي تقبل من زيان تهاني القلب صيغت بانسجام

لأن قلدت شارة ذي ولاء ولا بدعا فأنت من الكرام

وفي الأصنام وحدتم جموعا معرفة، فأضحت في وئام

وقبلا في بجاية كنت شهما تذود عن الفضيلة بالحسام

وسوف نراك يوما في بلاد الـ جزائر ترتقي اسمي مقام

فذاك هو المنى دنيا وأخرى بمأوى الخلد في دار السلام

موقفه من الثورة: قال الشيخ عياض وهو الأخ الأصغر للشيخ المهدي، والقائم مقامه في الحفاظ على زاويتهم إلى يومنا هذا عن الدور الذي قام به المهدي أثناء الثورة التحريرية: "وقد كان من الساعين لأخذ موقف شجاع وخطير في وقته، وهو أنه في سنة 1956م حين وجه لأعلى المسؤوليين في الدولة الفرنسية وحكومته، بدأ من رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة- الوالي العام- نداء يندد بالجرائم ضد المستضعفين العزل، ويعتبر السياسة المتبعة آنذاك والمسماة بـ"سياسة التهدئة" (pacification) كحرب مسلطة على شعب مستضعف..."[55]، ويؤكد هذا الموقف الشيخ الزاهري في مقولته عن المهدي بقوله: وفي سنة 1956- نوفمبر، قدم مع الكردينال دوفال وآخرين، عريضة يطالبون فيها بالتفاوض مع جبهة التحرير الوطني، على حق تقرير المصير، ولقد سبقهم إمام قالمة الزاهري، فعزل ونفي.

وأصحاب العريضة هم:

*الشيخ المهدي البوعبدلي مفتي الأصنام.

*الشيخ بابا عمر مفتي المالكية بالعاصمة.

*الشيخ بن شيكو مفتي الحنفية.

*الشيخ اسكندر مفتي الحنفية بالمدية.

*الشيخ فخار مفتي المالكية.

*الشيخ التلمساني المدرس بالعاصمة.

*الكردينال دوفال عميد المسيحية بالجزائر.[56]

وبأمر من جبهة التحرير الوطني- خشية عليه- غادر الجزائر في تاريخ لا نعلمه ليلتجئ خلالها إلى المغرب الأقصى حتى استعادة الاستقلال الوطني عام 1962م[57].

وفاته: توفي الشيخ المهدي البوعبدلي المؤرخ الفقيه المؤرخ بمسقط رأسه عام 1992م، ودفن خارج المسجد يطلب منه، وقام بتأبينه فضيلة الشيخ عبد القادر الزبير، وهو من أعز أصدقائه بعد الشيخ نعيم النعيمي والبشير الرابحي وأحمد توفيق الدني ... إلخ.

الهوامش:

1- لقاء مسجل سمعي بصري أجراه الأستاذ بليل حسني مع الشيخ عياض البوعبدلي في زاوية بطيوة في صائفة 2001، وثيقة مخطوطة تتناول شجرة الشيخ المهدي البوعبدلي وأصوله- نسخة مصورة عند الأستاذ بليل حسني.

2- بلهاشمي بن بكار، حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة، مطبعة ابن خلدون، سنة 1961، ص 169، وانظر اللقاء المسجل مع الشيخ عياض في زاوية بطيوة في صائفة 2001م.

3- المهدي البوعبدلي، رسالة إلى والده أبي عبد الله من مازونة، نسخة خطية مصورة عند الأستاذ بليل حسني.

4- نفس المصدر السابق.

5- المهدي البوعبدلي، رسالة بعثها إلى والده أبي عبد الله، من تونس، نسخة خطية مصورة عند الأستاذ بليل حسني.

6- نفس المصدر السابق.

7- نفس المصدر السابق، و ترجمة الشيخ الأطرش السنوسي للأستاذ بليل- مخطوطة عندي.

8-عبد الرحمن دويب، الشيخ المهدي البوعبدلي شهادات ووثائق، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، 2008، ص212.

9- نفس المرجع، ص 33ص 219.

10- لقاء مسجل - سمعي بصري - أجراه الأستاذ بليل حسني مع الشيخ عياض البوعبدلي في زاوية بطيوة في صائفة 2001 .

11- لقاء مسجل - سمعي بصري - أجراه الأستاذ بليل حسني مع الشيخ عياض البوعبدلي في زاوية بطيوة في صائفة 2001

12- المهدي البوعبدلي، تراجم علماء الجزائر في العهد العثماني وما قاربه، مخطوط اطلعنا عليه سنة 2001 واستفدت منه، ولم نتمكن من تصويره.

13- (هذه حصيلة ما استفدته من رسائله المتبادلة مع شيوخ الزوايا في الجزائر، وبحوزتي ما يقرب من 70 رسالة سعيت جاهدا للحصول عليها من مختلف ولايات القطر الجزائري.

14-المهدي البوعبدلي، تراجم علماء الجزائر في العهد العثماني وما قاربه، مخطوط .

15-البوديلمي بلقاسم -رسالة إلى بودلمي بن علي بالزاوية العلوية بتلمسان- مؤرخة في 30 جويلية 1941، ولقاء مسجل- سمعي بصري- أجراه الأستاذ بليل حسني مع الشيخ عياض البوعبدلي في زاوية بطيوة في صائفة 2001.

16- المهدي البوعبدلي،مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية،العدد 8 السنة .1972

17- المهدي البوعبدلي،مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية،العدد8 السنة 1972.

18- المهدي البوعبدلي،مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية،العدد7 السنة 1972.

19- المهدي البوعبدلي،مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية العدد 1973/15.

20- المهدي البوعبدلي،مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية 12السنة1973.

21- المهدي البوعبدلي،مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية ع 1975/4.

22-نفس المرجع العدد 1973/3.

23- المهدي البوعبدلي، مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، عدد خاص ببجاية 1974.

24– المهدي البوعبدلي، مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية 75/26.

25– نفس المرجع العدد 28السنة 1975

26– نفس المرجع العدد 25 السنة 1395/ 1975

27– نفس المرجع العدد 32 السنة 1396/1976

28– نفس المرجع العدد34–35 س 5 1976.

29– نفس المرجع العدد1977/11

30– نفس المرجع العدد1977/44

31– نفس المرجع العدد 53/ 1978

32– نفس المرجع العدد 1979/13

33– نفس المرجع العدد.1980/14

34– توجد نسخة مصورة عند الأستاذ بليل حسني بخط الشيخ المهدي

35– *المهدي البوعبدلي*،مجلةالأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، العدد 28 السنة 1395/1975

36– عبد الرحمن دويب، الشيخ المهدي البوعبدلي شهادات و وثائق، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية،2008، ص... ، ولقاء مسجل – سمعي بصري – أجراه الأستاذ بليل حسني مع الشيخ عياض البوعبدلي في زاوية بطيوة في صائفة 2001

37– ولقاء مسجل – سمعي بصري – أجراه الأستاذ بليل حسني مع الشيخ عياض البوعبدلي في زاوية بطيوة في صائفة 2001

38– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 07

39– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 09

40– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 10

41– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 17

42– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 28

43– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 32

44– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 33

45– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 47

46– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية بعثها للشيخ البشير محمودي،توجد نسخة منها عند عائلة الشيخ البشير محمودي بالبرج، وقد نسختها كتابة خشية ضياعها.

47– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية مؤرخة بتاريخ 4 رمضان 1391، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني رقم 69.

48– المهدي البوعبدلي، رسالة خطية كتبها قي الأصنام في 15 صفر الموافق ل 12 ماي 1986.

49– المهدي البوعبدلي، رحلته السوفيتية، عدد صفحاتها 114، نسخة مخطوطة مصورة بحوزة الأستاذ بليل حسني.

50– عبد الرحمن شيبان، جريدة البصائر، بتاريخ 12–6–1429.

51– عبد الرحمن دويب، الشيخ المهدي البوعبدلي شهادات و وثائق، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية،2008، ص130 نقلا عن ديوان قوس قزح، وسالة خطية لمصطفى الزرقاء.

52– نفس المرجع ص 33 وما بعدها.

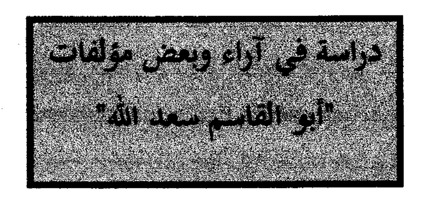
53– نفس المرجع ص 58 وما بعدها.

54– مصطفى بن زيان، رسالة للمهدي بتاريخ 24محرم الحرام 1373 الموافق ليوم 3أكتوبر 1953، توجد نسخة خطية عند بليل حسني سلمت له من قبل ابن مصطفى بن زيان.

55– عبد الرحمن دويب، الشيخ المهدي البوعبدلي شهادات و وثائق، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية،2008، ص76 نقلا عن محاضرة الشيخ عياض.

56– نفس المرجع ص 35 نقلا عن محاضرة الشيخ زهير الزاهري.

57– نفس المرجع ص 57 نقلا عن محاضرة الدكتور يي بوعزيز.



دراسة في آراء وبعض مؤلفات "أبو القاسم سعد الله"

أ. أوكيل مصطفى باديس*

تختلف درجة اهتمام الشعوب بتاريخها حسب درجة الوعي عندها ومدى نمو الثقافة بها، وينشط المجتمع إذا نشطت الحياة الفكرية والتاريخية وتنوعت الأفكار المعالجة وتضاربت نظرة المؤرخين حسب اختلاف معارفهم ومصادر دراستهم، لذا نجد بعضهم يكتب بقلم حماس ثوري هائج والبعض الآخر يكتب أو يرى التاريخ حسب نظرة من سبقوه، فنجده مقلدا دون تجديد يذكر وفريق ثالث وسطي ما هو مقلد ولا مجدد، ومن هنا يمكن القول أن الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية التي وصلها، والوثائق المتوفرة لديه، والمستجدات الحضارية التي تحيط به. وتخضع عملية الكتابة عندئذ لما عليه الجيل من ثقافة ووثائق وإبداعات حضارية.

فإذا كان الجيل المدون للتاريخ مثقفا جدا فإنتاجه سيكون مرآة لثقافته وقدرته العقلية، وإذا كان متوسط الثقافة أو حتى قريب من الأمية فإن إنتاجه سيكون مرآة له أيضا. وكل جيل يحاول أن يعثر على وثائق جديدة أو يحاول أن يفسر الوثائق المتوفرة تفسيرا جديدا حسب المعطيات والرؤى التي عليها الجيل الكاتب، وهذا معنى التجدد في الكتابة التاريخية.

وقد نجد بعض الدارسين يرغبون في دراسة التاريخ والبحث من جهة ربطه بالعولمة، وهذا ما أشار إليه أبو القاسم سعد الله، الذي سنحاول من خلاله تسليط الضوء على بعض مؤلفاته التي اقترنت به واقترن بها، وقد استعرض سعد الله عضلات لسانه الفكرية والثقافية، ووظف فيها أفكاره وأفكار العديد من الباحثين العرب والغرب الذين أثروا في التاريخ الجزائري

* – أستاذ مساعد أ في تاريخ المغرب الإسلامي– قسم العلوم الإنسانية– جامعة البويرة.

الحديث ووضعوا فيها لمساتهم التي لا تمحوها السنون، وظلت تتذكرها الأجيال، وتلهج بذكراها الألسن.

لقد حاول وما زال سعد الله من خلال كتاباته ومحاضراته كشف الستار عن مراحل ومحطات هامة في تاريخ الشعب الجزائري، وكان يهدف إلى إعادة كتابة تاريخنا بموضوعية، وبتعبير دقيق يشحذ الفكر ويعزز الاستقلال بالذات، وإحياء وبعث الروح النقدية محاربا كل طرق المسخ والنسخ، الذي ضرب بأطنابه النخب الفكرية الجزائرية. وهذا ما سنحاول تفصيله في هذا المقال.

نبذة عن حياة أبو القاسم سعد الله: ولد أبو القاسم سعد الله في بلدية قمار بولاية وادي سوف في الفاتح جويلية 1930م من أسرة فقيرة كانت تعيش على فلاحة التبغ والنخيل، حفظ القرآن الكريم في الوقت الذي كان يمارس فيه الفلاحة مع أهله من أجل الاستعداد ليكون طالبا في أن واحد. وفي سنة 1947م سافر أبو القاسم سعد الله إلى تونس حيث قضى بالزيتونة سبع سنوات حصل فيها على الأهلية سنة 1951م، ثم التحصيل سنة 1954م، وخلال دراسته بالزيتونة نشر في جريدتي النهضة والأسبوع التونسيتين وفي جريدة البصائر الجزائرية وجريدة الآداب اللبنانية العديد من القصائد والمقالات، كما ساهم أيضا في إنشاء رابطة القلم الجديدة سنة 1952م مع أعضاء تونسيين من بينهم الأستاذين "الشاذلي زوكار" و "منور صمادح".(1)

وأثناء انفجار الثورة عاد إلى أرض الوطن متوجها إلى الجزائر العاصمة لأول مرة ومن هنا بدأ مهنة التدريس بمدرسة الثبات بالحراش ثم انتقل إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة بضواحي العاصمة، وفي هاته الفترة عايش ما كان يحدث في الجزائر من اضطرابات واضطهادات مما أثر في نفسيته وعلى إنتاجه الفكري، ولعل ذلك الأثر يظهر من خلال القصائد التي نظمها عن الثورة، كما كتب عدة مقالات في جريدة البصائر لأنه كان متأثرا بفكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

لم يكتف سعد الله بهذا القدر من العلم فقرر الرحيل إلى مصر من أجل رفع مستواه العلمي فالتحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القاهرة في أكتوبر 1955م، ومن هناك تحصل على دبلوم صحافة 1957م حيث راسل البصائر واشتغل لمدة سنة في مجلة العالم العربي.(2)

وإلى جانب تمكنه من اللغة العربية فقد درس اللغة الفرنسية في المدارس الحرة، أما في جامعة القاهرة فقد درس الانجليزية والفارسية ثم تحصل على شهادة ليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية في 1959م، واثر ذلك وضع نفسه تحت تصرف سلطات جبهة التحرير الوطني بالقاهرة، وفي نفس الوقت سجل في الدراسات العليا في كل من جامعة القاهرة ومعهد الجامعة العربية كما كان منخرطا في الاتحاد الطلابي.[3]

في صيف 1960 نجح في السنة الأولى للماجستير وكتب دراسة عن الشاعر محمد العيد آل خليفة لكي تكون أطروحته، وفي نفس السنة سافر في بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ودخل جامعة"منيسوتة" التي حصل فيها على دكتوراه في التاريخ الأوروبي الحديث والعلوم السياسية في 1965م، وتعتبر هذه البعثة أول سفر"لسعد الله" إلى بلد غير عربي، ومنذ وصوله انضم إلى فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين وإلى منظمة الطلبة العرب بأمريكا، والى جمعية الطلبة الأفريقيين"بمنيسوتة "ومن خلال مشاركته في هاته الجمعيات استطاع التعريف بالثورة الجزائرية وأهدافها وذلك بإحياء ذكراها في كل سنة وتوزيع المطبوعات التي كانت تصله من مكتب جبهة التحرير الوطني بنيويورك، وجمع التبرعات للاجئين وعرض صور الكفاح المجيد، وبعد تحصله على الدكتوراه بدأ يعمل أستاذا للتاريخ في جامعة "ويسكنسون بأوكلير" ودرس تاريخ الحضارة الأوروبية والشرق الأدنى وأفريقيا الحديثة، وبعد ممارسته التعليم لمدة سنتين في جامعة "أوكلير" التحق في خريف 1967م بجامعة الجزائر.[4]

أ- مؤلفات سعد الله

- تاريخ الجزائر الثقافي: الهدف منه إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية، وذلك أن سعد الله قد وجد نقصا كبيرا في المكتبة العربية عن مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية[5].

إضافة إلى ذلك أن البحث في الثقافة الجزائرية في الماضي يكاد يكون منعدما عكس البحث في التاريخ السياسي والاقتصادي والذي هو بذاته متوفر نسبيا، ويضيف باعتباره أن المستعمرين الفرنسيين كانوا ينفون في كتاباتهم وجود ثقافة جزائرية، وكان هدفهم في ذلك هو الطعن في الشخصية الجزائرية حتى يتمكن لهم تذويب الجزائر في فرنسا. وزاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر، الأمر الذي أدى به إلى البحث والتنقيب في

الثقافة الجزائرية وحرصه على الهوية والعروبة. والمعلوم أنه ركز في الدراسات التاريخية على الجانب الإيديولوجي والثقافي، وباعتباره داعية كبير من دعاة العروبة وتعزيز القومية باعتبارها هوية الجزائر الوطنية الثابتة.

ومع ذلك فإن لهذا الكتاب رسالة واضحة، فنحن إلى الآن لا نملك تاريخا لثقافتنا يحدد معالمها ويكشف عن قيمتها ويضبط علاقتنا بها، وقد كانت هذه الثقافة عربية إسلامية اشترك فيها الجزائريون، فهي ثقافتنا، التي نستمد منها اليوم ذاتنا وحقيقتنا.

لقد وضع سعد الله في بداية عمله لهذا الكتاب خطة ليكون في ثلاثة أجزاء، يتناول في الجزأين الأولين منه العهد العثماني من فاتح القرن العاشر إلى بداية القرن الثالث عشر للهجرة (16-19م)، وفي الجزء الثالث العهد الفرنسي، فإذا اتسعت مادة هذا العهد يغطيه بجزأين آخرين.

بعد اطلاعنا على هذا الإنتاج اتضح أنه حلقة بين إنتاج عاش في ظل إمارات محلية ضعيفة،وإنتاج عاش في ظل وجود إسلامي مركزي، فقد تناول القرن التاسع للهجرة (15م) باعتباره مرحلة هامة في تطور الثقافة التي ورثها العهد العثماني فإنتاج هذا القرن امتد ثلاثة قرون بعد عهد الموحدين(6).

أما فيما يخص سنة 1930م إلى غاية 1954م، فقد تناول فيها الطرق الصوفية من أصولها وفروعها ومبادئها ومصطلحاتها، وكذلك تطورها السياسي والاجتماعي والمعنوي، ثم مواردها وعلاقتها بزبائنها وأتباعها، ومن هنا قام بدراسة الطرق الصوفية في الجزائر منذ حوالي قرن ونصف وتطورها مع الزمن المتغير، للتسهيل على القارئ دراسة الطرق الصوفية التي ظهرت في الجزائر.

بالإضافة إلى ذلك تناول مواضيع رئيسية من بينها الديانة الإسلامية والقضاء الإسلامي، وقد تضمن شؤون الديانة ورجال الدين والقضاء، ودراسة اختصاصهم وأصنافهم وأنشطتهم ودورهم، وعلاقتهم مع السلطة الفرنسية، التي استحوذت بالتدرج على كل اختصاص- القضاء الإسلامي-، وقام بالتطرق إلى البنايات الإسلامية من مساجد وزوايا وأضرحة في العهد الفرنسي، كما قام بدراسة الأوقاف وسبل الخيرات وبيت المال.

إضافة إلى ذلك تناول الكنيسة واللجان والجمعيات العلمية، وقد ظهرت في مجال الصحافة والأدب والعلوم (7).

كما تناول ظهور النخبة الإدماجية، وهي فئة إدماجية قليلة تعلمت في مدارس فرنسية خاصة بالأهالي، وقد ذكر بعض المدارس الفكرية الفرنسية التي سددت سهامها إلى الجزائريين لتدمير هويتهم والطعن في تاريخهم وأصولهم العربية والبربرية، والغرض من دراسته وتحليله لهذه الفئة هو الاستيعاب والإحاطة.

وقد أحاطت دراسته بالتاريخ والتراجم والرحلات، فقد قام بذكر أهم ما طرأ على مفهوم التاريخ وما تفرع منه من تغيرات، وغرضه من ذلك هو توضيح الميادين التي اهتم بها المؤرخون الجزائريون في عهد الاحتلال، وقد احتل التاريخ المحلي قسما كبيرا من هذا الكتاب، وقام بتفسيره إلى ما يتعلق بالغرب الجزائري وما يتعلق بالشرق والجنوب.

زيادة على ذلك قام بتناول النثر الأدبي والفني ومسائل اللغة من دراسات ومعاجم، وقام بمعالجة الشعر الفصيح والملحون، خلال أكثر من قرن (1830-1954م)، أما فيما يخص الشعر الفصيح فكان فيه القوي والضعيف والجميل وغير ذلك، وتناول الإنتاج المتصل بالفنون وتطور موضوعاتها ومساهمته فيها. وعالج الفنون المعمارية من الوجهة الأسلوبية مثل القصور والمباني الحضرية، والمتاحف، وما وضع فيها من نماذج معبرة عن الفنون العامة[8]. كما قام بتخصيص جزء كامل للفهارس العامة فقط، والتي هي سبعة فهارس تغطي الأجزاء الكاملة للكتاب، وهي فهرس الأشخاص والأماكن والكتب والدوريات والجرائد، وفهرس الشعوب والقبائل، والأقوام، ومذاهب الطرق الصوفية.

– أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر: أما كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر فهو صفحة هامة من صفحات سعد الله في خدمة التاريخ وخدمة الأجيال في ضوء العلم الحديث والتقدم البشري، والحفاظ على العروبة والهوية الوطنية، مثلما قال: «المؤرخ الحق هو الذي يفرق بين ميوله الشخصي ومهمته القومية والوطنية والإنسانية"[9]، أي أنه لا يكتب التاريخ حسب أهوائنا وميولنا، وإنما حسب منطوق ومفهوم الوثائق. ومن هنا قدم لنا سعد الله كتاب " أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" من خمسة أجزاء، يتضمن مجموعة من الأبحاث والمقالات في تاريخ الجزائر، إضافة إلى تسليط الضوء على بعض الموضوعات، تتوزع على مراحل التاريخ الوطني في العصور الحديثة، وبعضها مطول ومعمق، وبعضها قصير لا يعدو أن يكون رأيا في كتاب أو استنباطات من وثيقة، وهي قريبة العهد باستثناء القليل لا تنصب إلى أبعد من سنة1980م

والواقع أن هذه المقالات والبحوث تركز خاصة على العصور الحديثة، وتتناول مسائل تكاد تكون مطروحة بكثرة اليوم ولكنها لا تزال معلقة، وتسلط الأضواء على جوانب من المشاكل التاريخية، وقد تبين لنا أن هذه المقالات كتبت في فترات متباعدة يعود بعضها إلى بداية الستينات ويعود آخرها إلى سنوات قريبة، وكان بعضها عبارة عن إجابات سريعة لبعض السائلين أو تعاليق قصيرة على بعض المواقف، إضافة إلى ذلك أنها تضم آراء مترجمة أيضا، وفيها الأبحاث الشخصية المضنية، وفيها التعاريف بالكتب، وفيها ما يتناول القضايا المجردة وما يتناول القضايا من خلال أشخاص لهم دور في تاريخ البلاد.

إضافة إلى ذلك تضمن الكتاب مجموعة من الأبحاث والمقالات حول تاريخ الجزائر، قام "سعد الله" بكتابتها خلال السنوات القليلة الماضية، نتيجة مساهمته في مجال البحث العلمي، وهناك مقالات تعبر عن توضيح موقف أو تقييم وضع، ولكنها جميعا تصب في مجال الرأي حول تاريخ الجزائر، وقد ضم مواضيع بحثية وشخصية مثل الأمير"شكيب أرسلان" والقضية الجزائرية، والمستشرقين الفرنسيين وتعليم اللغة العربية للفرنسيين، وتضمن ترجمات مثل بحث الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر، وانتفاضة 8 ماي 1945م.

إضافة إلى مقالات دعوة خير الدين التونسي في الجزائر، وجمعية العلماء المسلمين والسياسة، واهتمامات جمعية العلماء بقضايا المغرب العربي(10).

إضافة إلى ذلك تضمن الكتاب بعض تعريفات ببعض أعمال التراث، ومن أبرز ذلك رحلة "أبي عصيدة البجاني" إلى الحجاز وكتابه المفقود "رسالة الغريب إلى الحبيب"، وكتاب "الرسالة"، والكرة الفلكية لابن حمادوش، وقد أضاف إلى ذلك مرض"ابن خلدون" وأثره على إنتاجه، والربط بين الحميرية والبربرية الذي يلم الجزائر كما يلم غيرها.

أما المقالات الفكرية في هذا الكتاب فقد أشار"سعد الله" إلى إشكالية الكتابة التاريخية التي تعتبر مساهمة مخلصة في قضية الجدل.

– الحركة الوطنية الجزائرية: هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو غيض من فيض هذا الرجل الذي أعطى جهدا كثيرا في سبيل الرفعة والعزة للوطن وأهله، ولم يكن كل هذا الجهد مانعا لسماحته من الإضافة الكتابية العديدة، التي أضاف من خلالها الكثير إلى المكتبة الوطنية خاصة والمكتبات العربية عامة.

إن الاشتراك في الأرض الواحدة والوطن الواحد لابد أن يخلق علاقة طيبة وإيجابية، لأن الوطن كالسفينة الواحدة التي إذا تعرضت لأي خطر فالخطر على الجميع والنجاة للجميع.

المعلوم أن تاريخ الجزائر فيه بعض التزييف، وهذا ما جعلنا نحاول في كل مرة البحث عن الحقيقة التاريخية، وهو ما جعل الغير كذلك يجد أرضا خصبة لتزييف بعض الحقائق التاريخية، فأخذ يكتب لملء الفراغ كما يهوى، زد إلى ذلك أن الجزائريين لظروف تاريخية تركوا الأجانب يكتبون لهم تاريخهم، وبالأخص الفرنسيين بحكم استعمارهم لبلادنا ومعرفتهم لتفاصيلنا. الأمر الذي دفع "سعد الله" إلى تقديم هذا الكتاب تحت عنوان "الحركة الوطنية الجزائرية" بأجزائه الأربعة والذي كتبه بعد بحث طويل ودراسة وتدريس سنوات طويلة، وهو الأمر الذي يعتبره "سعد الله" الأرضية التي ينطلق منها الباحثون في تاريخ الجزائر[11]، أي أنه كتاب موضوعي، إضافة إلى ذلك فإن جذور الحركة الوطنية ترجع إلى الصدامات الأولى مع الاحتلال.

إن هذا الكتاب هو دراسة تاريخية لحركة رد الفعل الجزائري الذي نتج عن الحكم الفرنسي.

ومن العوامل التي دفعت المؤلف إلى تناول هذا الموضوع، هو عدم وجود دراسة جادة عن الحركة الوطنية الجزائرية، وطريقة تناول الفرنسيين لتاريخ الجزائر كتابة وتفسيرا.

إن رد الفعل الجزائري ضد فرنسا، قد اخذ عدة أشكال واستعملت مختلف الوسائل حسب الظروف، وقد عبر عن نفسه في شكل معارضة سياسة، ومقاومة عسكرية، وقد تضاعفت هذه الحالة نتيجة ظهور النخبة الجديدة والمناداة للعلماء بالإصلاح ،وظهور الصحافة الوطنية، الأمر الذي أدى إلى اندلاع النهضة الجزائرية خلال العقد الأول معتمدة على تراث عظيم من المقاومة التي شاركت فيها جميع الطبقات الاجتماعية، ومن هنا يتبين أن الجزائر كانت تعيش ثقافيا نهضة نشيطة نسبيا خلال الفترة الممتدة ما بين 1900 و1930م.

بالإضافة إلى ذلك فإن الحركة الوطنية قد عرفت واكتسبت صلابة على مر السنين وعاشت تجارب مختلفة، وانتشر الوعي الوطني لدى مختلف الطبقات، وبرزت على المسرح عدة عناصر جديدة لم تكن واضحة خلال العقود السابقة، وتشكلت هيئات وأحزاب جديدة أهمها: جماعة النخبة، وهيئة النواب، جمعية العلماء المسلمين، وجمعية الطلبة بالإضافة إلى نجم إفريقيا الشمالية وحزب الشعب الجزائري.

بعد اطلاعنا على هذا الكتاب وكمنهج عام يبين لنا انه يتناول مراحل تاريخية مهمة ومختلفة عن بعضها البعض فقد تناول الحركة الوطنية بقسميها العسكري والسياسي[12] اللذين يختلفان اختلافا جوهريا، فقد كان عهد الاستعمار في شكله العسكري والمدني خلال القرن 19م صفحة سوداء. إن تاريخ هذه المرحلة لا يزال غير مدروس، ولاحظنا أيضا أن هناك تداخل في معلومات التاريخ السياسي والتاريخ الثقافي أحيانا، فالمؤسسات الدينية وعلماء الطرق الصوفية، إضافة إلى التشريعات الخاصة عن الأوقاف والمؤسسات الدينية، ودور الطرق الصوفية العسكري والسياسي، إضافة إلى ذلك تطرق إلى التحدي الذي أبداه الجزائريين للغزاة والذي تولد عنه ردود فعل مختلفة، مدنية وعسكرية، فالعنف والتعصب الديني والاعتداء على الأملاك الشخصية والدينية أدى إلى إشكال مختلفة من المقاومة كل بحسب طاقته، وكان ذلك مدعاة للبحث عن الوحدة وجمع الصفوف ضد العدو بالدين والوطن وكذلك هو ما يعرف بالضمير الوطني.

- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال): الفترة الانتقالية من العهد العثماني إلى العهد الفرنسي في الجزائر لم تعط حقها من العناية رغم أهميتها في تطور حياة المواطن الجزائري، وهذا الكتاب الذي هو بين أيدينا قد نشر سنة 1970م بعنوان "تاريخ الجزائر الحديث" - "بداية الاحتلال" لكن "أبا القاسم سعد الله" رأى في هذا العنوان على أنه أكبر من حجمه لأنه لا يدرس جميع مدلول العنوان فأعاد نشره بعنوان محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الاحتلال"، مستهدفا في ذلك دراسة الفترة الانتقالية من العهد العثماني إلى العهد الفرنسي ،وقام بتوسيعه وتحديد زمانه إلى حوالي 1848م ،واقترح عليه بعضهم أن يكون هذا الكتاب جزء من الحركة الوطنية، لكن سعد الله "فضل الإبقاء على ما هو عليه في معرفة تاريخ الجزائر، وقد بذل الكتاب الفرنسيون جهدا خاصا في دراسة عهد الاحتلال الفرنسي ولكنهم اكتفوا بوصف العهد العثماني بالتأخر والاستبداد وبوصف المواطن الجزائري أثناءه بالخضوع والضياع، لهذا تعرض"أبو القاسم سعد الله" في كتابه والحركة الوطنية الجزائرية إلى بعض مظاهر هذه الفترة الانتقالية ولكنه تعرض مقتضب.

–"La Montée du Nationalisme en Algérie": فمن خلال تصفحنا لمؤلفات"أبي الاسم سعد الله" التاريخية منها، وجدنا كتابا باللغة الفرنسية بعد أن كان باللغة الانجليزية، ويتطرق المؤلف في هذا الكتاب لتاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، كما يتحدث عن ردود فعل الجزائريين لهذا الاحتلال، وذلك لعدم وجود أبحاث تاريخية صادقة وصريحة لبعد الحركة الوطنية "Nationalisme" في الجزائر وخاصة بعد تزوير الحقائق عن الحركة من طرف بعض الباحثين الفرنسيين قائلا: "نحن ضحايا الاستعمار الفرنسي الذي فرض علينا لغته وأهملنا بذلك لغتنا الأم" ومن بين المواضيع التي عالجها في هذا الكتاب نشأة الحركة الوطنية قبل 1954م ودورها إبان الثورة، ومن جانب آخر ذكر لنا السياسة الفرنسية المنتهجة في الجزائر والتي نتج عنها ظهور مقاومة الأمير عبد القادر وثورات الفلاحين، وختم كل موضوع بخاتمة والتي هي عبارة عن نتائج توصل إليها، إضافة إلى موضوعات أخرى مثل ظهور الأحزاب الوطنية "نجم الشمال الإفريقي" و "جمعية العلماء المسلمين".

وكان الغرض من تأليف هذا الكتاب هو إبراز الحقائق التاريخية خاصة بالحركة الوطنية والتي تميزت بنوع من الغموض[13].

– شعوب وقوميات: لقد آمن "أبو القاسم سعد الله" بفكرة القومية (الوطنية) منذ بداية الخمسينات، لهذا جاء عنوان كتابه "شعوب وقوميات" فأثناء دراسته جذبته الصراعات القومية ولاسيما في العصر الحديث ومن ذلك الوحدة الألمانية والايطالية، والحرب اليونانية والصرب وبولندا ضد القوى الخارجية، ومن ذلك أيضا الصراعات القومية بين بريطانيا والهند وهولندا واندونيسيا بالإضافة إلى صراع فرنسا والجزائر فوقف مؤلفنا هذا منذ ذلك الحين ضد استعمار بلادنا وتطلع إلى عهد من الحرية والاستقلال وكان ذلك في معناه الواسع جزء من الحركة قوامها التحرير الوطني وكان جزءا من الحركة العلمية ضد التسلط والسيطرة والاستغلال.

ولذلك ركز"سعد الله" في هذه الأبحاث التي جمعها في هذا الكتاب على عناصر الصراع القومي وسواء كان الحديث عن حملة "الإسكندر الأكبر" ضد الهند وفارس أو عن آراء بوليبياس في الحضارة والقوى المحركة للتاريخ، أو كان الحديث عن العلاقات البريطانية الهندية، والهولندية والاندونيسية أو كان الحديث عن المعسكرين الغربي والشرقي كما ظهر

بعد الحرب العالمية الثانية، فإن خط السير في هذه الأبحاث واحد، وهو مسيرة الشعوب منذ القدم نحو التحرر.

ومن المواضيع التي عالجها هذا الكتاب منها الحرب الايطالية على ليبيا 1911-1912م. وان معالجة موضوع الحرب الايطالية على ليبيا جعل "سعد الله" يرجع إلى فهم الخلفيات القومية لبعد النزاع في كلا البلدين المعنيين فبدأ بذكر المطامع الايطالية القومية وكان من أسباب هذه الحرب أن ايطاليا شعرت أن الاحتلال العسكري أصبح ضروريا لتحقيق أهدافها مع حلول 1910م ومن جراء هذه الحرب قام الشباب التركي أي "تركيا الفتاة" والمسألة الطرابلسية سنة 1908 حسبه.

- بحوث في التاريخ العربي الإسلامي: لقد جمع "أبو القاسم سعد الله" العديد من البحوث في كتابه "بحوث في التاريخ العربي الإسلامي" والجامع بينها أنها تتناول قضايا العرب والمسلمين في مساحة جغرافية واسعة وفي أزمنة مختلفة سيما الحديثة والمعاصرة، فمنها بحوث عن بلاد الشام وأخرى عن الجزيرة العربية وثالثة عن الهند ورابعة عن المغرب العربي، ومنها ما تناول موضوعات عامة شملت مناهج البحث أو وسائل التواصل في الحضارة الإسلامية، ومنها قراءات وصفية ونقدية في نصوص أجنبية عن أحوال العرب والمسلمين، كما تضمن حديث "سعد الله" عن بعض قادة الرأي الذين لعبوا أدوارا في التاريخ العربي الإسلامي، وتركوا العبرة للأجيال اللاحقة، كما أنها مجموعة بحوث تحمل هموما تقضي مضجع كاتبها وهو يحاول فهم ما كان عليه العرب والمسلمين من قوة وتأثير، وما هم فيه اليوم من استجابة وضعف وخذلان رغم ما لديهم من إمكانيات وطاقات بشرية وطبيعية ومادية تجعل منهم قوة يحترمها الصديق ويخشاها العدو، فحاول "سعد الله" إبراز وضع العرب والمسلمين في هذه البحوث ولم يكن متشائما في نظرته إلى المستقبل العربي الإسلامي، ومن هنا هو يدعو إلى الاقتداء ببعض القادة سواء أولئك الذين هم محور بعض البحوث، أو غيرهم لأنهم كانوا يعملون بروح التحدي من أجل مستقبل أفضل لكل إنسان حيثما كان، فمثلا الفرق بين-العمانيين وبين الموريتانيين- وهم يبحثون عن ذاتهم كأمة، فطريقة بحث كل منهم تختلف لان كل واحد منهم يحاول جاهدا أن ينتهي إلى انه هو الحكم على التاريخ، وعلى حد قول "سعد الله "أن القطرية أو الإقليمية

التي ولدتها وغذتها وضخمتها الوطنية الضيقة المنافسة لعالمية الإسلام هي المسؤولة إلى حد كبير عن ما وصلت إليه الأمة المسلمة من التشتت الذي أفضى بها إلى الضعف والهوان، وقد اجتمع على هذا التشتت عوامل أخرى كالاستنجاد بالأجنبي وفقدان الثقة بالنفس وتكرار التجارب الخاسرة أو المآسي دون تفاديها أو التعلم منها.

درس "سعد الله" مفاصل القوة والضعف في التاريخ وتوصل مثلا إلى أن تدهور الخلافة كان لأسباب موضوعية يجب ألا تتكرر، وان الاستعمار لم ينجح في بلادنا إلا لأننا كنا مستعدين لاستقباله فقرر في كتبه ألا يتحدث عن ذلك ثانية، وان أمثال لجنة الاتحاد والترقي لم يعد لها مكان، وان معاهدة "سايكس بيكو" ووعد بلفور وهزيمة 1948م يجب أن لا تتكرر، ومع كل هذا فإن الواقع يكذب هذا الادعاء فيذكر "سعد الله"أن المسؤولين ومستشاريهم يكررون نفس المآسي ويرتكبون نفس الأخطاء وهم يحملون معهم شعوبهم على الهزيمة بوسائل القمع والتزييف، بل ويجعلونها تكيل لهم المدح بدل النقد.

- أفكار جامحة: يحتوي هذا الكتاب على أبحاث ومقالات في أغراض ثقافية وأدبية وفكرية شتى، وهو يشبه كتاب منطلقات فكرية إلا أن هناك فروقا بينهما في التناول والتنوع.

تحدث "سعد الله" في هذا الكتاب عن الوحدة بأنها ولدت في الجزائر عندما كانت تعيش في ظرف خاص وسميت بالثقافة الشعبية، والتي تعني التقوقع الذاتي والعودة إلى الأصول ، كما تعني رفض فكرة الوطن الواحد (المغرب العربي)، كما تطرق إلى القومية العربية والوحدة الإسلامية التي رحبت بها بعض الجهات والأفراد المؤمنين بها.

يحتوي الكتاب على بحث المدارس الثقافية في المغرب العربي(14)، والذي يعتبره "سعد الله" من أهم ما كتبه عن هذه القضية، حيث ركز أكثر على مدارس الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، أي في العهد العثماني ، وأجرى مقارنة بين مدارس الجزائر والمغرب وتونس، وبذلك يذكر لنا المراحل التي مرت بها المدرسة التقليدية التي كانت من 1820-1848م مرورا بالمدرسة المخضرمة 1848-1880م والتي يقول عنها أنها أضعف المدارس بسبب قلة إنتاجها، أما المرحلة الثالثة فهي المدرسة المستنيرة 1880-1914م وتليها المدرسة الإصلاحية 1920-1954م والتي يعتبرها من أهم المراحل بحيث تمثل تتويجا لجهود كثيرة

بدأت منذ الاحتلال الفرنسي وانتهت ببدء الثورة التحريرية، وهي الفترة التي انتصرت فيها اللغة العربية.

وفي هذا المؤلف يورد لنا "سعد الله" عن حياته وعن تجربته الأدبية وتعامله مع اللغة، كما يحدثنا عن ذكرياته مع الأستاذ "عمر الدسوقي".

- منطلقات فكرية: وهو عبارة عن مجموعة من المقالات والأبحاث عن الثقافة والقومية في الجزائر والوطن العربي وإفريقيا، والصين، كتبها في تواريخ ومناسبات مختلفة، فضمها إلى بعضها البعض في شكل كتاب لكي يسهل الحصول عليها.

والجامع المشترك بين هذه المقالات والأبحاث هو الرغبة في الكشف عن منطلقات فكرية يرد بها اعتبار الماضي وتراد منه آفاق المستقبل، فهي تتناول قضية الثقافة القومية في البلدان والمناطق المشار إليها، وهي جميعا تتناول حيرة هذه الثقافة هناك بين تيارات متعارضة بل ومتصارعة أيضا، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المقالات والأبحاث تكشف عن موقف الإنسان من قضايا عصره وهو موضوع يبدو لبعض الأجيال متناقضا وغير أصيل وقد تجد له أجيال أخرى مختلف المبررات.

كما يتضمن مقالة تحت عنوان "الجهاد الثقافي" وهي عبارة عن السيرة الذاتية "لسعد الله"وأهم المدن التي زارها وكيفية إعداده لأطروحته سنة 1962م والتي كانت بعنوان الحركة الوطنية الجزائرية م[15].

كما يتطرق إلى نماذج من التفكير التقدمي عند بعض الجزائريين[16] أمثال "عبد الرزاق بن حمادوش"، "احمد بن عمار"، "محمد بن العنابي"،" حمدان خوجة"،"الأمير عبد القادر"، "المولود بن موهوب"، والمستخلص من هاته النماذج هو اجتيازها بحيوية الفكر بالرغم من الركود الذي أصاب العالم الإسلامي قبل احتلال فرنسا للجزائر، فكانوا مجاهدين ومدافعين عن أرض الإسلام.

- في الجدل الثقافي: يكاد يكون هذا الكتاب امتدادا لأخويه (منطلقات فكرية وأفكار جامحة) من حيث المحتوى والرؤية، تشمل موضوعات الكتاب آراء ومناقشات لقضايا فكرية وثقافية وأدبية عاشها "سعد الله" خلال السنوات القريبة الماضية، كما تشمل على انطباعات حول مواقع وبلدان زارها مثل سوف والاوراس، وليس فيه سوى بحث واحد مترجم تحت

عنوان "علاقة الحركة الصهيونية بجماعة (تركيا الفتاة) "أضواء جديدة"، والتي يتحدث فيها عن إقامة الكيان الصهيوني بعد تمزيق الدولة العثمانية على أرض فلسطين واستعمال كافة أنواع النفوذ، وكاتب هذا البحث البروفيسور روبيرت أولسن وهو أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة "كونتاكي" بأمريكا، فقام "سعد الله" بترجمته إلى العربية.

ومن بين المقالات أيضا التي احتواها الكتاب مقالة "نكبة ثقافية" وهي عبارة عن ضياع حقيبة "سعد الله" التي تحتوي على جزء كبير من التراث الوطني وتراثه الشخصي الذي جمعه خلال سنوات طويلة من حياته[17].

كما تحدث سعد الله عن الثورة الجزائرية في الفكر العربي، وهي مقالة نشرت في عدة مجلات ودوريات، وقد تناول فيها عدة نقاط من بينها: دور المشرق العربي أثناء الثورة التحريرية، وأوضاع الوطن العربي سنة **1948**م، والذي كان يعيش فراغا سياسيا وفكريا[18].

– قضايا شائكة: أما كتاب "قضايا شائكة" فهو عبارة عن مجموعة من الأحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ، وتتناول نقاط شتى من هموم الإنسان العربي المعاصر، وشواغل المثقف العربي نحو قضايا عصره وأمته، فارتأى "سعد الله" أن يجمعها في كتاب وسماها بالقضايا الشائكة ورغم أنها تحدد هويتنا وتقرر مصيرنا.

كانت هاته الأحاديث مقدمة للعديد من المجلات والجرائد في أزمنة مختلفة.

تضم مجموعة من الأسئلة التي طرحت على "سعد الله" وتم الإجابة عنها من خلال جريدة الشعب، العرب، ومجلة الكفاح العربي، بيروت والوطن العربي، جريدة الجزائر (الأحداث) وفي الأخير يتقدم بالشكر لكل الذين وضعوا فيه ثقتهم الفكرية وحملوه بأسئلتهم من أجل أن يعبر عن همومه في صحفهم ويرجو أن يكون تحاوره معهم قد أسهم في توضيح بعض المواقف التي تهم القارئ العربي في هذه المرحلة الحرجة من حياته[19].

– هموم حضارية: عند قراءتنا لكتاب هموم حضارية نجده يعالج قضايا على المستوى الوطني والقومي والعالمي، ففي الوطن يدرس موضوع الديمقراطية، أما في الوطن العربي فيحدثنا عن ذلك الصراع القوي بين العرب والغرب الذي احتل أراضينا ومقدساتنا وحرماتنا حتى توصل إلى

فرض إرادة دولية على العرب، وهو نوع من الانتداب أو الحماية، ومن بين المقالات التي عالجها هذا الموضوع هي انشغالات مثقف عربي معاصر، ألقيت في ندوة عقدت بالرباط.

أما على المستوى الدولي فكان العالم يعرف انهيار الاتحاد السوفياتي وتحرير أوروبا الشرقية من الشيوعية.

فالكتاب مقسم إلا ثلاثة محاور: المحور الأول يستمد مادته من أزمة أو حرب الخليج وانعكاساتها وذيولها، ومحور يستمد مادته من تحركات المؤلف وانطباعاته وأحكامه على قضايا جزئية أو كلية حدثت في الوطن أو خارجه كما سبق الذكر، أما المحور الثالث فهو مجموعة أبحاث تولدت عن نشاط علمي ساهم فيه "سعد الله" في ملتقيات وتجمعات عديدة، ومن بين هذا وذاك نجد بحثين مترجمين لهم درجة من الأهمية، أحدهما عن احتمالات الاتحاد بين الدول العربية، كتبه المؤرخ الشهير "فيلب حتي" منذ خمسين سنة، وهو بحث يقدم إرهاصات للوضع الذي نعيشه اليوم في البلاد العربية وهي الهلال الخصيب، الجزيرة العربية، مصر، المغرب العربي، وتلخيص الأحداث التي كانت تمر بها المنطقة.

أما البحث المترجم الثاني فهو عن الأدب الفرنسي في شمال إفريقيا كتبه باحث متخصص وهو "جورج جوايو" منذ أكثر من ثلاثين سنة، فهو بحث جدير بالمطالعة ليعرف القراء أن الأدب الجزائري الحقيقي هو المكتوب باللغة العربية.

وهذا الكتاب هو الرابع من السلسلة التي بدأت بمنطلقات فكرية مرورا بأفكار جامحة، ثم في الجدل الثقافي هي سلسلة تحتوي على أبرز مساهمات "سعد الله" في الساحة الفكرية والثقافية الوطنية منها والعربية أثناء ممارسته للبحث الأكاديمي في التاريخ من أجل ربط ماضيه بحاضره لأنه لا يمكن فهم حاضرنا إلا بالانغماس في ماضينا[20].

- خارج السرب: يحتوي هذا الكتاب على مقالات وخواطر متنوعة تناولت مواقف وأنشطة، وهناك مقالات عن اللغة العربية والتعريب وأخرى عن التثاقف والحوار والتاريخ والعولمة وعن بعض الأشخاص الذين كان لهم دور هام في القرن العشرين.

ولقد سمى الكتاب "خارج السرب" لأنه عنوان يصدق في أغلبه على محتواه، ومن المواضيع التي عالجها "سعد الله" في هذا الكتاب تخص الجزائر وشخصياتها، منها فقيد العلم "الشيخ التليلي" حيث يورد لنا سيرته وحياته ومؤلفاته التي بلغت حوالي خمسة عشر

تأليفا، كما تحدث عن مجلة الشهاب التي أسسها "عبد الحميد بن باديس" أوائل العشرينيات من القرن العشرين بعد أن تعرض لحياة "ابن باديس" ومساره العلمي وكذا المواضيع التي كانت تحمله جريد الشهاب من شعارات وآيات قرآنية، ومن التراث العربي الإسلامي فهي خاصة بابن باديس ومشروعه الإصلاحي للجزائر، وبهذا أصبحت الشهاب مدرسة متكاملة من عدة نواح.

ومن بين الشخصيات التي تكلم عنها "سعد الله" الدكتور"أحمد صاري"الذي كتب عن تاريخ الجزائر فكان محط إعجاب لدى "سعد الله" مما جعله يحلل كتبه دارسا لمواضيعها وأسلوبه، فهو بدوره تعرض في كتاباته لشخصيات عديدة منها "مبارك الميلي"، "ابن باديس"، "وابن الموهوب" الذي كان لهم دورا بارزا في تاريخ الجزائر المعاصر وكذا "الأمير شكيب أرسلان "الذي امتاز بعقيدة الإسلام وروح القومية وتأثيره الخاص على الحركة الوطنية، "وشارل أندري جوليان".

كما تضمن الكتاب مقالة تحت عنوان "جزائريون في الثورة العربية بالحجاز" 1916-1919م توضح لنا مشاركة الجزائريين في الثورة العربية والأوضاع التي كان يعيشها المشرق الإسلامي في ظل النفوذ البريطاني، ودعم المواقف التي قدمها كل من الشيخين "الطيب العقبي" و"البشير الإبراهيمي"، ومن بين الجزائريين الذين كانوا حاضرين في الثورة العربية فهم سواء يمثلون المهاجرين إلى الحجاز هروبا من الجور الفرنسي في بلادهم، أو كانوا موفدين رسميين، إلى جانب هذا كان هناك جزائريون متحفظون من الثورة العربية إذ رأوا فيها خروجا عن الصف الإسلامي في وقت تحتاج فيه الأمة إلى جمع الصفوف لمواجهة الخطر المشترك[21].

- حوارات: الكتاب عبارة عن حوارات أجراها "سعد الله" في العديد من المجلات والجرائد، وكان الهدف منها إصدارها في شكل كتاب، وهذا من أجل الحفاظ على مجموعة من الأفكار والآراء المكتوبة بقلمه، ولكي تظهر خالية من الأخطاء والتأويلات وإساءة تصرف الآخرين وعدم التأثر بالشخص المحاور وألوان فكره وطابع شخصيته وصور حركاته وانفعالاته، فمن خلال قراءتنا لهذه الحوارات يظهر لنا أن إجابات "سعد الله" نابعة من ذاته وطبقا لقناعته دون ضغط نفسي أو زمني.

موضوعات الحوار كانت غالبا من وحي المرحلة التي عاشها في البلاد أو سلطت فيها الأضواء على شخصيته إذ اجتاحت الجزائر خلال فترة الحوارات موجات فكرية واجتماعية

وثقافية هامة تمثلت في النظام التربوي، مسألة اللغة والهوية، تعدد الأحزاب والصحف والآراء والترشيحات، كما عرفت الجزائر عنف أحداث 1988 و1992م.

فقد فضل أن يرتب هذه الحوارات من الأقدم إلى الأحدث، أولها سنة 1976م وآخرها 2004م ولكي يستطيع القارئ تتبع مواقف "سعد الله" من قضايا الساعة من تسلسل وتطور الأحداث التي عرفتها الجزائر والوطن العربي والأمة العربية والإسلامية.

فلقد سبق أن أصدر مجموعة أخرى من الحوارات تحت عنوان "قضايا شائكة" التي سبق وأن تحدثنا عنها، أما الحوارات الحالية فهي القسم الثاني من القضايا الشائكة ولطول المدة بينهما ارتأى أن يسميه حوارات، فهي في نظره أفضل أنواع التعبير الدالة على حقيقة أغوار النفس الإنسانية، ومن المجلات والجرائد التي حاورها سعد الله نذكر جريدة الجمهورية، المجاهد، المسار المغربي، العالم، الخبر...

وفي الأخير يقدم الشكر إلى كل من الصحافيين الذين طرحوا عليه أسئلتهم فبفضلهم استطاع بحث همومه وكشف مكنونه فبذلك يكونوا في هذا العمل شركاء في خدمة الثقافة والحقيقة[22].

- مسار قلم: بالإضافة إلى الكتب المؤلفة السابقة الذكر، فقد اهتم بتدوين مذكراته من أجل إبراز سيرته الذاتية حيث أورد لنا هذه اليوميات في كتاب تحت عنوان "مسار القلم" وكان هدفه من إعادة نشرها هي استفادة الجيل الحاضر والجيل اللاحق والذي سيكون أكثر تعطشا لمعرفة تراث أجداده، وليكون عبرة لهم يقتدى بها، كما أنها تمثل مرحلة من مراحل العمر الجميلة الذكرى، فقرر إظهارها للناس في جزأين خشية أن تضيع أو تعبث بها الأيادي العابثة، وقد جرت أحداث هذه اليوميات في القاهرة أيام كان "سعد الله" طالبا في الليسانس والماجستير 1955-1960م.

كما كتب هذه اليوميات متقيدا باليوم والشهر والسنة، فكل حادثة أو موقف إلا وذكر تاريخها وساعتها والمكان الذي وقعت فيه.

من خلال هذه المذكرات ذكر "سعد الله" أن هناك جزأين يريد إضافتهما إلى الأجزاء الأخرى لعلها تعود على جيلنا هذا بالمنفعة والاقتداء[23].

- مجادلة الآخر: ومن بين الكتب التي قام "أبو القاسم سعد الله" بتأليفها أيضا كتاب "مجادلة الآخر" الذي هو عبارة عن مجموعة من البحوث والمقالات التي كتبها في أغلبها عن قرب من الأحداث وعن مشاهدة وممارسة، لأنه رأى أن بعض الآراء كانت مغلوطة ومع ذلك أصبحت سائدة، لأن الطرف الآخر له من الوسائل ما يقلب به الحقائق ومن الجبروت ما يعكس به المنطق، وأمام هذا التصادم الفكري والسيل الإعلامي حاول المؤلف الإسهام برأيه فيما يعرف بالصدق وطرح بعض القضايا الحساسة التي تعبر عن موقف وتصدر عن بينة وتهدف إلى إيقاظ الشعب.

فإن هذا الكتاب هو إخصابات معرفية بيننا وبين الذين لهم رأي مخالف، وهي تضاف مثلا إلى كتاب "خارج السرب".

والحقيقة أن هذه المقالات ليست مواجهات مع الآخر بل هي حقل معرفي وخليط من المواضيع الراهنة، وأخرى تاريخية وثالثة مترجمة ورابعة من نوع تقديم كتاب أو إبداء ملاحظات، وكلها جاءت لتخدم تيارا رئيسيا لن نحيد عنه وهو التيار الوطني العربي الإسلامي[24].

- الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري: وإلى جانب كتاب مجادلة الآخر قام "سعد الله" بالكتابة لأبرز وأهم الشخصيات الجزائرية، نخص بالذكر "الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري" الذي تناوله المؤلف بدراسة حياته وآثاره الموجودة التي كاد النسيان أن يأتي على هذه الشخصية الهامة في تاريخنا الثقافي، فقد عاش ابن حمادوش خلال القرن 12هـ /18م وأسهم فيه برحلاته وكتاباته وتجاربه الطبية وكان مسجلا للأحداث المعاصرة ومشاركا فيها، ورغم الركود الذي أصاب الحياة الثقافية في العالم الإسلامي، إلا أنه استطاع أن يترك تطلعات واثار واضحة، وقد عاش ابن حمادوش حياة فقيرة عانى منها جسديا وفكريا وكانت الضحية في ذلك هي كتبه وأوراقه التي لم يصل "سعد الله" منها إلا القليل.

وقد بدأ اهتمام المؤلف بحمادوش منذ حوالي عقد من الزمن، أثناء بحثه عن الذين أسهموا في الحياة الثقافية الجزائرية، سواء كانوا من المشاهير أو من المغمورين، أما ابن حمادوش فكان لاهتمامه بالثقافة العلمية من طب وصيدلة وفلك وحساب في عصر سادت فيه الثقافة الفقهية والأدبية.

كما ذكر "سعد الله" أن هناك من كتب عن ابن حمادوش قبلة مثل "ليكليرك" الذي ترجم لابن حمادوش كتابه سماه "كشف الرموز" و"كولان" الذي وضع عنه رسالة دكتوراه في الطب غير أنهم لم يستفيدوا من رحلته وبعض آثاره الأخرى، وكان هدف المؤلف من الكتابة لابن حمادوش إبراز ما ظل عن حياته ومساهمته العلمية ومنزلته بين معاصريه غامضا ومحدودا، فاعتقد أنه بتقديمه لهذه الدراسة يكون قد أضاف جديدا ليس فقط لشخصه ولكن إلى عصره ومعاصريه أيضا.

كما أن هذه الدراسة تعتبر مساهمة أخرى لإلقاء الضوء على الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، بعد كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" وكتاب "ابن العنابي" رائد التجديد والإصلاح الإسلامي"، وفي سيرة ابن حمادوش ما يدل على أنه كان مثقفا واعيا نزيها، أليس هو القائل: "كان من فضل الله علي أن لم أجعل علمي سلما للدنيا ولم أنل به شيئا، ولم أمدح أحدا للطمع" وما أحوجنا اليوم إلى المثقف الحر الذي يسير في هذا الدرب ويتبين هذا الموقف.

لقد تناول "سعد الله" دراسة هذه الشخصية المهمة في تاريخ الجزائر في كامل جوانبها، وقد جعل هذه الدراسة مقدمة لتحقيق الرحلة ولكن فيما بعد ونظرا لحجمها ومحتواها قرر إصدار هذه الدراسة منفصلة عن الرحلة[25].

تاريخ الجزائر: المقاومة والتحرر 1830-1962م: أثناء بحثنا وقراءتنا لكتب "سعد الله" وجدنا كتابا قيما كان بمثابة خلاصة عن تاريخ الجزائر، وكان تحت عنوان "خلاصة تاريخ الجزائر، المقاومة والتحرر 1830-1962م".

وقد عالج هذا الموضوع بسبب رؤيته أن الكثير من الدارسين لتاريخ الجزائر عشية الاحتلال لم يتعرضوا للأوضاع الخارجية وتأثيرها على البلاد وهذا خطأ كبير في نظره، فالواجب معرفة نظام الحكم وعلاقته بالشعب والقوى الاقتصادية والاجتماعية المحركة لدواليب السلطة والمجتمع، ولهذا حاول تلخيص الأوضاع للدخول لموضوع "المقاومة والتحرر.

وبهذا تعرض إلى الأوضاع من الناحية الإدارية بحيث وصفها بأنها كانت دخيلة ومستبدة على رأسها "حسين باشا" الذي حكم الجزائر في تلك الفترة وغيره من الحكومة والديوان كالجيش الانكشاري والبحارة، والخلاصة أن النظام الجزائري العثماني عشية الاحتلال كان لا يرعى إلا مصالحه الخاصة، وكان الشعب أو الرعية في حالة تغيب مقصود.

وقد وصف "سعد الله" المجتمع الجزائري في 1830م مجتمعا ريفيا في أغلبه ولم يكن للمدن دور تلعبه في الضغوط السياسية ولا في المفاوضات، لذاك بقيت السلطة المركزية تدير عن جهل وغطرسة شؤون الأمة إلى أن غرقت البلاد في الاستعمار، لذلك انطلقت المقاومة من الأرياف[26].

عاين سعد الله تاريخه الوطني والقومي فهاله هذا التاريخ وأغراه بمزيد من البحث والتنقيب وكانت المادة التي عالجها مادة علمية هامة وثمينة، لم تدفع به إلى السكونية أو الاعتزاز بالذات، وإنما عاينها على منهج أكاديمي وموضوعي.

كانت هذه دارسة في بعض مؤلفات "أبي القاسم سعد الله" وآرائه، وقد تختلف من باحث لآخر، لكن تبقى لهذا المؤرخ بصمة فاعلة في التاريخ الوطني والعالمي، وهي تفتح مجالات أخرى للبحث.

الهوامش

1-أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية،دار الغرب الاسلامي،بيروت لبنان ط2، 2005، ص-ص، 44،45

2- نفسه، ص، 48

3-سعد الله ، أفكار جامحة، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان،ط2، 2005، ص179

4-سعد الله، منطلقات فكرية، ص،51

5-سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط2، 2005 ج1، ص13

6-سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، 37

7-نفسه،ج2، ص، 105

8-نفسه، ج8، ص، 409

9-سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 2005، ج2، ص،06

10-نفسه، ج1، ص، 142

11-سعد الله، الحركة الوطنية، ، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 2005، ج4،ص،09

12-نفسه، ج2، ص،08

13- Saad allah, la monteé du nationalisme en algerie, dar elgharb islami, beirout, 2eme edition, 2005, p 194.

14-سعد الله، مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي، جريد الثقافة، العدد 79، جانفي- فيفري 1984، انظر أ[و القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المرجع السابق، ص 55

15-سعد الله، منطلقات فكرية، المرجع السابق، ص، 44

16-هي محاضرة ألقاها في الملتقى السادس للفكر الإسلامي بالجزائر، صيف 1972

17-سعد الله، في الجدل الثقافي، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 2005، ص، 332

18-سعد الله، جريدة الشعب، العدد، 7742، 15-09-1988، ص، 29

19-سعد الله ، قضايا شائكة، أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط2، 2005، ص، 161

20-سعد الله ، هموم حضارية، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ص، 275

21-سعد الله ، خارج السرب، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص، 295

22-سعد الله، حوارات، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص، 223

23-سعد الله، مسار قلم (يوميات) ، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص، 298

24-سعد الله، مجادلة الآخر، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط1، 2006، ص -ص، 09، 30

25-سعد الله، الطبي الرحالة ابن حمادوش الجزائري"حياته وآثاره"، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط1، 2005،ص، 133

26-سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر،"المقاومة والتحرر 1830-1962م، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان ، 2005، ص، 384

الدكتورة عائشة غطاس وكتابها "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700- 1830م

أ. فوزية لزغم*

عرفت المدرسة التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال تطورا وتجديدا كبيرين على يد ثلة من المؤرخين والمؤرخات، في شتى التخصصات، وفي طليعة هؤلاء الدكتورة عائشة غطاس التي كرست حياتها لدراسة تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني.

ولدت الدكتورة عائشة غطاس بولاية المدية عاصمة التيطري يوم 20 ديسمبر 1955[1]، وبعد دراستها الثانوية التحقت بقسم التاريخ بجامعة الجزائر، وبعد نيلها شهادة الليسانس واصلت دراستها العليا لتحصل على شهادة الماجستير من الجامعة نفسها، وقد كان موضوع أطروحتها "العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر" بإشراف الدكتور مولاي بلحميسي، وفي سنة 2002 حصلت على الدكتوراه من الجامعة نفسها، وكان موضوع أطروحتها هو "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700- 1830) مقاربة اجتماعية- اقتصادية" بإشراف أحد أبرز المؤرخين المختصين في تاريخ الجزائر العثمانية الدكتور ناصر الدين سعيدوني.

درّست الدكتورة غطاس بقسم التاريخ بجامعة الجزائر عدة مقاييس، وأهم المقاييس التي أسندت إليها ودرستها لطلبة التدرج مقياس: "الدولة والمجتمع في تاريخ الجزائر الحديثة والمعاصرة"، كما درّست طلبة ما بعد التدرج، وأشرفت على تأطير عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ الحديث سيما تاريخ الجزائر العثمانية.

ولم تقتصر مهمتها كأستاذة بجامعة الجزائر حيث تقيم، بل كانت تحتمل مشقة السفر وتدرس في جامعات وطنية أخرى مثل جامعة غرداية وجامعة أدرار، فأصبح لها تلاميذ وطلاب هناك[2]، من ذلك عملها خلال السنة الجامعية 2006/ 2007 والسنة التي تليها كأستاذة زائرة

* – أستاذة مساعدة صنف أ في التاريخ الحديث- قسم التاريخ- جامعة ابن خلدون- تيارت.

في المركز الجامعي بغرداية في مرحلة التدرج فغطت مقياس "الدولة والمجتمع"، ومقياس "المسألة الشرقية"، كما يعود إليها الفضل في تأطير طلبة ما بعد التدرج في غرداية في تخصص:"العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط في جزئه الغربي من سنة 1492 إلى 1830" منذ السنة الجامعية 2008 /2009 إلى وفاتها.

وقبل وفاتها بأيام كان من المقرر أن تسافر من الجزائر العاصمة إلى غرداية يوم 13 ماي 2011 لتلتقي بطلبة الماجستير على مدار ثلاثة أيام متتالية على أن تعود إلى العاصمة يوم 17 ماي لكن الرحلة لم تتم لأن الموت سبقها[3]، كما منعتها المنية من المشاركة في ملتقى بوهران، بحيث كتبت قبل سويعات من وفاتها، ولعله في فجر اليوم الذي توفيت فيه ملخصا لمداخلة حول موضوع: البناءون بالجزائر الخلال العهد العثماني[4].

كانت الدكتورة غطاس تحسن اللغة العربية والفرنسية وتطالع التركية والإنجليزية، وهي تستفيد من هذه اللغات في أبحاثها فتأتي غنيّة بالمعلومات والآراء، وقد تخصصت في العهد العثماني وبالتحديد في الحياة الاجتماعية، ولاسيما حياة المرأة وتطور المجتمع.

توفيت الدكتورة عائشة غطاس يوم 10 ماي 2011 عن عمر يناهز الست والخمسين سنة في حادث أليم، لتترك خلفها حوصلة تراثها العلمي الزاهر الذي تشهد عليه بحوثها العلمية، وقد بكاها الكثير من المؤرخين والأستاذة والطلبة وتألموا لفراقها، وأشهرهم الدكتور أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين الذي كتب في تأبينه لها ما يدل على مكانتها العلمية، وقد افتتحها بهذه العبارة:"رحمك الله يا ابنة الكرام".

وهذه بعض الأسطر من تأبينية أبو القاسم سعد الله:"... من سيعوّضك في طلب العلم، وإتقان العمل والحرص على مستوى الطلبة حتّى لا يتدنّى بهم المتدنّون ويعبث بهم العابثون... من لنا بعدك بمثلك ممن يؤثرون على أنفسهم ويسهرون على تخريج طلبة أقوياء مؤهّلين لشقّ طريق البحث العلمي في حين راجت بضائع الانتهازيين والوصوليين... من لهؤلاء الطلبة الأيتام، وقد غبت عنهم وخلا منك الميدان قبل الأوان... لقد غادرت ساحتنا مبكّرة يا دكتورة غطاس بعد أن عرفناك طالبة وأستاذة ومناقشة للرسائل الجامعية. غادرتنا في أوجّ الربيع الذي تَبكيك أزهاره وعصافيره وشبابه. غادرتنا وأنت في قمة العطاء العلمي..." إلى أن قال:"لقد شاركتها في مناقشة بعض الطلبة الذين تُشرف عليهم وغيرهم، فكانت صارمة وعادلة وحريصة

على سمعة الجامعة وسمعتها العلمية.... رحمك الله يا عائشة، لقد فقدتُ فيك إحدى بناتي وتلميذاتي، وإحدى زميلاتي..."[5].

وقد قال فيها الدكتور إبراهيم سعيود الذي عرفها عن قرب طالبا وأستاذا، وأشرفت عليه في رسالة الدكتوراه:"كانت مذهلة بموسوعيتها، فاتنة ببلاغتها، صارمة في تقييمها، وإنسانية في رؤيتها"[6].

إنتاجها العلمي: كتبت الدكتورة عائشة غطاس بحوثا عميقة وألفت كتبا عن المجتمع الجزائري في العهد العثماني: نقاباته وأمناؤه، وحياة البرّانية وإنتاجهم وحرفهم، وحياة العلماء والمتصوّفة في الجزائر العثمانية، وأنواع وأسباب الأمراض والأوبئة التي نهشت المجتمع، والحجر الصحي والمستشفيات، كما وجّهت بعض الطلبة إلى دراسة دور المرأة وانشغالاتها بزينتها كالألبسة والحلي والكحل والبخور والحمام. ووجّهت آخرين إلى دراسة المجلس العلمي كمجلس الفتوى، وركب الحج، ودُور الوقف، وكذلك الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث والمذاهب الفقهية.

أ- المؤلفات:

- "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700- 1830- مقاربة اجتماعية- اقتصادية)".
- "مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني" كان عند وفاتها تحت الطبع.

ب- المساهمة في الكتب الجماعية:

- "الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها" وهو مشروع بحث ترأسته الدكتورة غطاس، وساهمت فيه بأربعة دراسات.
- المساهمة ببحث عن أوجاق الجزائر في كتاب "المرجع لتاريخ الأمة العربية" الذي كان يشرف عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله بتكليف من الأليسكو (المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة).
- المساهمة ببحث بعنوان: "ممتلكات المرأة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني" في كتاب:

histoire des femmes au Maghreb-culture matérielle et vie quotidienne, Tunisie , 2000.

- المساهمة ببحث بعنوان: "الوثائق المحلية وأهميتها في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي مثال مدينة الجزائر (157-175)"، العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية. منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط.2005.

ج- المقالات: للدكتورة غطاس بحوثا كثيرة في مجالات جزائرية وعربية، وقدّمت بعض بحوثها في مؤتمرات علمية في الجزائر وتونس والمغرب وفرنسا واسطنبول، وقد أحصيت بعضا من بحوثها:

- الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، ضمن مجلة الثقافة، العدد: 76، جوان، أوت 1983.

- رصد بيليوغرافي لمصادر الجزائر في العهد العثماني الواردة في المجلة الإفريقية- القسم الأول-مجلة الدراسات التاريخية- ع: 1988.

- التجار الجزائريون من خلال سجلات القنصلية الفرنسية 1686-1830، المجلة التاريخية المغاربية ع: 61، 62-1991.

- إسهام المرأة في الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية المغاربية، ع: 85، 86. 1997.

- سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمدينة الجزائر- العهد العثماني، مجلة إنسانيات ع 3، 1997.

- الصداق في مجتمع مدينة الجزائر (1672- 1854)، إنسانيات، ع4، 1998.

- القضاة الأحناف بمدينة الجزائر (1560- 1850)، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية . ع 17، 18. سنة 1998.

- أوضاع الجزائر المعاشية والصحية أواخر العهد العثماني، المجاعات والأوبئة(1787-1830)، المجلة التاريخية العثمانية، العدد 17-18 زغوان، 1998.

- "حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر"، المجلة العربية للدراسات العثمانية، عدد 15 2001.

- الوافدون على مدينة الجزائر بين التهميش والاندماج "المجلة العربية للدراسات العثمانية، عدد15_2001.

-"أوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر إبان العهد العثماني من مظاهر التواصل بين الجزائر والحجاز"، أعمال المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول المنعقد بتونس بين 2-4 جوان، 2003. مؤسسة التميمي للبحث والمعلومات. تونس، أوت 2005.

- "من أجل إعادة النظر في البيئة الديمغرافية لمجتمع مدينة الجزائر: معطيات مستقاة من الوثائق المحلية "، إنسانيات العددان 19- 20 جانفي-جوان2003.

- قراءة في كتابها "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر(1700- 1830 مقاربة اجتماعية اقتصادية): عدد صفحات الكتاب: 437 صفحة - الطبعة: الأولى-2007.

الناشر: المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار(ANEP)

هذا الكتاب هو نسخة معدلة ومراجعة لأطروحة دكتوراه دولة تمت مناقشتها سنة 2002 بقسم التاريخ - جامعة الجزائر، وهو يعالج أحد أشكال التنظيم الاجتماعي لسكان المدن وهو التنظيم الحرفي، وهو من الكتب المهمة لاعتماد صاحبته بالدرجة الأولى على الوثائق المحلية وعلى وجه التحديد سجلات المحاكم الشرعية ودفاتر التركات الصادرة عن مؤسسة بيت المال. وتذهب الدكتورة غطاس في مقدمتها إلى أنَّ الهدف المتوخى من هذه الدراسة هو البحث عن القوى الاقتصادية والاجتماعية الفاعلة في مدينة الجزائر من خلال دراسة واقع التنظيمات الحرفية والمهنية التي كانت تسمى وقتذ بالجماعات الحرفية.

وقد اختارت المؤلفة "مدينة الجزائر" بسبب ما عرفته هذه الأخيرة من تحولات عميقة وجذرية ابتداء من القرن 16م، وحددَّت مجاله الزمني بمطلع القرن الثامن عشر إلى سنة 1830م نظرا لحساسية هذه المرحلة مع ندرة الدراسات المتخصصة حولها، كما أنها ركزت على شريحة "الحرفيين" لأنها تمثل قوة اقتصادية واجتماعية فاعلة، ومن خلالها يمكن رسم صورة للأوضاع التي عاشها مجتمع مدينة الجزائر، ولتحقيق ذلك نجدها تسلّط الأضواء على إشكاليات دقيقة تخص ملامح التنظيم الحرفي، التوجهات الاقتصادية للمدينة، الشرائح الاجتماعية التي أسهمت فيها، الوضع المادي للحرفيين، والممارسات والسلوكات الاجتماعية التي ميّزت شريحة الحرفيين.

محتوى الكتاب: يضم الكتاب مقدمة وأربعة أقسام، القسم الأول: مجتمع المدينة [7]:

سلطت المؤلفة في هذا القسم الضوء على التركيبة السكانية في مجتمع مدينة الجزائر والهيئات المسيّرة له، وأرجعت اهتمامها بهذه العناصر لعدم إمكانية الفصل بين موضوع

التنظيمات عن دراسة مجتمع المدينة بحكم العلاقة الجدلية بينهما، فالمدينة ترتكز أساسا على البنى الاجتماعية والاقتصادية.

ويشتمل هذا القسم على فصلين: الأول[8] يتناول التركيبة السكانية بمدينة الجزائر، والتنظيم الاجتماعي الساري على العناصر الوافدة إليها، في حين خُصِص الفصل الثاني لمسألة ذات أهمية قصوى، وهي مسألة طبيعة السلطة المحلية ويركز على المؤسسات القائمة بمدينة الجزائر بشقيها الديني والمدني، وهو محاولة للكشف عن آليات تسيير المدينة لدحض الأفكار التي روجها الاستشراف الغربي، ومفادها أن المدينة العربية ميزها الفوضى العارمة وسوء التنظيم، والتسيير وندرة الموظفين.

افتتحت المؤلفة الفصل الأول بالإشارة إلى أسباب تبدل التركيبة السكانية لمدينة الجزائر خلال العصر الحديث، وحصرتها في عاملين رئيسيين هما: الهجرات الأندلسية وارتباط الجزائر بالدولة العثمانية وما أحدثه من تغيرات، وقد قسمت سكان مدينة الجزائر إلى العناصر التالية:

الحضر أو البلدية، وهم الجزائريين الذين توطنوا المدينة منذ زمان بعيد، بالإضافة إلى الوافدين من المدن الذين أقاموا بالمدينة واندمجوا فيها، إلى جانب العنصر الأندلسي. ومن سكان المدينة الأتراك، وقد نتج عن زاوجهم بنساء جزائريات فئة الكراغلة.

ومن العناصر المكونة لمجتمع مدينة الجزائر: الأعلاج أو المهتدون والعبيد، وأهل الذمة اليهود، والبرانية، وهم الوافدون عليها من مختلف أنحاء الجزائر. وبينما اعْتُبِرت العناصر النازحة من المناطق الجبلية والجنوبية برانية تمييزا لهم عن سكان المدينة، فإن تلك التي وفدت من المدن كالمدية والبليدة وغيرها من المدن لم تعتبر كذلك، فالانتماء إلى المجتمع الحضري كان قاسما مشتركا بينهما. كما وفد على المدينة المغاربة من مدن مختلفة من فاس وتيطوان وتازة وطرابلس وتونس، وجربة.

ثم تطرقت المؤلفة إلى التنظيم الاجتماعي: بحيث لم يكد ينقض القرن السادس عشر حتى كان الوافدون على المدينة من المناطق الداخلية مهيكلين ومنظمين في شكل جماعات بحسب أصولهم الجهوية، والجماعات التي تم رصدها هي: بني مزاب، والجيجلية، والقبايل، والبساكرة، والأغواطية، وبني عباس، ومزيتة، والقبالة.

وكان يتصدر الجماعات البرانية أمين يعينه الداي، وخضعت الوظيفة إلى نظام الالتزام، مثلها مثل التنظيمات الحرفية، حيث كان الأمناء يدفعون ضريبة عرفت بضريبة البشماق، وقد بينت المؤلفة مهام الأمين وصلاحياته على مستوى أعضاء جماعته.

أما بالنسبة للمغاربة فلم ينتظموا ضمن جماعات خاصة بهم باستثناء العنصر الجربي أي العناصر الوافدة من جزيرة جربة، حيث تعد جماعة الجرابة الجماعة المغاربية الوحيدة التي سرى عليها هذا التنظيم، وأرجعت المؤلفة ذلك إلى الأهمية العددية لهم، بالإضافة إلى انتمائهم إلى المذهب الإباضي.

كما كان لليهود تنظيم خاص بهم، بحيث خضعوا لنظام الملل الذي سرى على أهل الذمة في مختلف الولايات العثمانية، وكان يتصدر طائفة اليهود موظف معين من طرف الداي. وكان للعبيد تنظيمهم الخاص، وكان على رأسهم قائد العبيد، أو شيخ العبيد والذي عرف أحيانا بقائد الوصفان.

وتؤكد الدكتورة أن التنظيم الاجتماعي الساري على الوافدين على مدينة الجزائر لا يعود إلى النظرة التمييزية المستندة إلى معايير المجتمع الحضري، بل يعد أحد مظاهر تسيير المدينة وإدارتها، كما يعبر عن حرص السلطات على التحكم في النظام العام بالمدينة للحيلولة دون ظهور أية فوضى.

وعنونت الفصل الثاني ب: المدينة: المؤسسات والتسيير(9) : وقسمت هذه المؤسسات إلى السلطات المدينية والسلطات الدينية، حيث خضع تسيير المدينة لسلطتين سلطة سياسية من جهة وسلطة اقتصادية دينية من جهة أخرى، وقد ذكرت المؤلفة عددا من المؤسسات المدينية:

مؤسسة مشيخة البلد ثنائية التسيير: بحيث كان هناك ازدواجية في تسيير المدينة، بوجود شيخان للبلد في آن واحد، وقد تناولت المؤلفة مهام وصلاحيات شيخ البلد، وأشارت إلى الهيئة المساعدة له، والتي تدعى "المجلس البلدي"، وخلصت إلى أن لشيخ البلد اختصاصات وصلاحيات واسعة فهو صاحب المدينة... والمشرف الأعلى على شؤونها، وكان يتم اختار شيخ البلد من العنصر المحلي البلدي، وقد توارث بعض العائلات هذا المنصب في بعض الفترات.

كما تطرقت المؤلفة إلى الموظفين الحضريين، وهؤلاء المؤظفون هم: الشرطة، المحتسب، المزوار، فتناولت مهام هؤلاء الموظفين، واختصاصاتهم، وصلاحياتهم، وفاعلية كل منهم بمدينة الجزائر.

وتناولت الخدمات العمومية: ومنها نظافة المدينة: بحيث خضع تنظيف المدينة إلى تنظيم محكم دقيق للغاية، وكان تحت الإشراف المباشر لقائد، وقد انعكس هذا التنظيم على واقع المدينة، حتى أعتبرها بعض من زارها "أنظف مدن بلاد المغرب"، كما تطرقت إلى تزويد المدينة بالمياه: بحيث زودت مدينة الجزائر بالمياه عن طريق القنوات.

وتضم السلطات الدينية: خمس مؤسسات هي: جهاز القضاء، الذي يتميز بثنائية التنظيم القضاء الحنفي والقضاء المالكي. والهيئة الدينية العليا وهي المجلس العلمي هو بمثابة محكمة عليا، أو محكمة استئناف أو ديوان المظالم.

بالإضافة إلى مؤسسة بيت المال: التي تتولى مراقبة تركات جميع الأشخاص الذين يتوفون أو يطيل غيابهم فيعدون بذلك في عداد الموتى، ولا يؤذن بدفن أي ميت إلا بأمر من بيت المالجي، إلى جانب مؤسسة الأوقاف: التي شكلت مداخيلها المصدر المالي الوحيد للإنفاق على المؤسسات الاجتماعية والثقافية إذ لم تخصص السلطة ميزانية معينة لذلك. ونقابة الأشراف: بحيث انتظمت العائلات ذات النسب الشريف في أطر من علاقات ذات القربى ويتصدر هذا التنظيم نقيب.

وخلصت المؤلفة إلى أن ما ورد في هذا القسم يفند الرأي القائل بأن الفوضى العارمة ميزت المدينة العربية، كما يفند افتقار المدن العربية للموظفين الحضريين، حيث توفرت المدينة على مجموعة واسعة من الموظفين الحضريين بمهام معينة ومحددة. وذهبت إلى أن من أهم أسباب وصولهم إلى هذه النتائج عدم انتفاعهم من رصيد هام من التراث المتمثل في الوثائق المحلية التي تعبر في واقع الأمر عن علاقة الفرد بمؤسساته وبمدينته.

وتضمن القسم الثاني: الموسوم بـ"ملامح التنظيم الحرفي"[10] ثلاثة فصول: افتتحت في الفصل الأول الموسوم بـ"وصف عام"[11] بالمصطلحات المتداولة للدلالة على التجمعات الحرفية، وأوردت بعض التعاريف لها، وحاولت أن تقف على الاختلاف القائم بين مفهوم الحرفة والصنعة. ومن المسائل التي تطرقت لها مشكل عدد الجماعات الحرفية بمدينة الجزائر، وحاولت أن تحصرها، ثم تطرقت إلى التقاليد الراسخة لدى التنظيمات الحرفية ومنها

وراثية الصنعة في العائلة الواحدة، وتحدثت عن بعض العائلات الحرفية التي توارثت نشاط حرفي معين أبا عن جد، كما تطرقت إلى الاختيارات الحرفية في العائلة الواحدة. وأشارت إلى بعض الجماعات الحرفية التي تفرعت فيها الجماعة الواحدة إلى عدة جماعات، مثل صناعة الجلد التي تفرعت إلى تسع جماعات منها: جماعة الدباغين، وجماعة البرادعية ...

وجاء الفصل الثاني متمما للأول إذ تناول بالدراسة البنية التنظيمات للجماعة الحرفية[12]، وبينت المؤلفة أنها تخضع لتنظيم داخلي محكم بشكل هرمي يتصدره أمين الأمناء، وهو السلطة العليا المشرفة على الجماعات الحرفية، وكذا على العناصر الوافدة على المدينة تلك العناصر التي انتظمت في شكل جماعات عرفت بالجماعات البرانية، ومن أشهر العائلات التي توارثت منصب أمين الأمناء وهي عائلة ابن شويهد.

وكان على رأس كل حرفة أمين مثل أمين الحرارين، أمين البلاغجية، وقد تحدثت المؤلفة عن ظروف تعين الأمين، بالإضافة إلى المهام المنوطة به وصلاحياته، ومن المسائل التي توقفت عندها عهدة الأمين، وما إذا تميزت أمانة الجماعة بالطابع الوراثي؟ ثم تدرجت في السلم الهرمي للحرفة وعرفت كل من: المعلم، الصانع، المتعلم، وكانت تقارن هذا التنظيم مع ما هو في الولايات العثمانية كالقاهرة ودمشق.

كما تطرقت إلى التنظيم الداخلي للجماعة، بحيث كان للأمين مساعدين وهم: الشاوش (شاوش الأمين أو شاوش الجماعة)، الخوجة مثال (خوجة الحرارين)، الكيخية أوالكاهية مثال: كاهية البنائين، أو كيخية أمين البنائين الذي انفردت به جماعة البنائين دون غيرها من الجماعات الحرفية،كما كان للجماعة موظف مشرف على الجانب المالي للجماعة من حسابات ومصاريف عرف بالصايجي أو العداد مثال: صايجي جماعة البنائين.

وعرّجت المؤلفة في نفس الفصل على العلاقة بين السلطة والتنظيمات الحرفية، حيث كان هناك رقابة دائمة من طرف السلطة من خلال تحديد سقف الأسعار، فرض الضرائب، ضبط قواعد ممارسة الصنعة، وتحديد شروط تموين الحرفيين والتجار... وخلصت المؤلفة في نهاية الفصل إلى القول بدقة تنظيم الجماعات الحرفية وخضوعها لعدة مستويات من الرقابة دون أن يكون ذلك محل استغلال من البايلك.

وتطرقت أيضا للعلاقات ما بين الجماعات التي ضمت العناصر الوافدة على المدينة، ومن هذه العلاقات التضامن والتكافل مثال جماعة بني مزاب، التي تفرعت إلى عدة جماعات فرعية

تتكافل فيما بينها، فإذا حدثت خسارة لواحدة منها تتحمل كل الجماعة الخسارة، وهناك تكافل بين جماعات أخرى حتى خارج العصبية.

وتعرضت المؤلفة في الفصل الثالث إلى النظام الضريبي[13] المفروض على التنظيمات الحرفية بغية تحديد الهيئة المشرفة على ذلك، بمعنى أنها بحثت عمّا إذا خضع لإشراف أمناء التنظيمات الحرفية مباشرة أم أنه خضع لإشراف شيوخ البلد، وخلصت أن الجماعات الحرفية خضعت لنظام جبائي من نوع الالتزام تميز بالثنائية، أحد أطرفاها بيد شيخ البلد، والآخر بيد أمناء الجماعات. وقد كان جمع الضرائب من صلاحيات أمناء الحرف، ثم تحول تدريجيا ليصبح من صلاحيات شيخ البلد، ومع ذلك بقيت عملية تحصيل الضرائب في بعض الحرف من صلاحيات أمنائها. كما حاولت المؤلفة أن تحصر أنواع الضرائب المفروضة على التنظيمات الحرفية.

وأفردت الدكتورة عائشة غطاس -رحمها الله- القسم الثالث: للفعاليات الاقتصادية[14]، وهو يضم فصلين خصصت الفصل الأول لجغرافية النشاطات الحرفية[15]، فتناولت طبيعة التوزع التوبوغرافي للأسواق، فالحرف ذات الشأن أو الحرف الرفيعة كانت بالقرب من المركز، حيث كان الجامع الأعظم يقوم مقام المركز الظاهر أو القطب الذي تتجمع بالقرب منه النشاطات الأساسية من ذلك سوق الصاغة.

كما تعرضت صاحبة الكتاب لنظام التخصص وهي إحدى القواعد السارية على النشاط الاقتصادي بمدينة الجزائر، وهو ما تعكسه بجلاء الأسماء المعطاة للأسواق سوق الدباغين، سوق الخياطين... ولكنه لم يطبق بشكل صارم. وحاولت الوقوف على عدد الأسواق بالمدينة، والأماكن التي تمركزت فيها الأسواق. ومن الملاحظات التي أدرجتها هي أن الفضاء الجغرافي للنشاط الحرفي لم يكن مغلقا بدليل وجود بعض تجار اليهود.

كما تطرقت إلى حراسة الأسواق والتي تميزت بدقة، وأنيطت بموظفين عرفوا بالأمناء على أن يتحمل أصحاب المحلات التجارية الجانب المالي للحراسة. وتعرضت إلى مختلف المنشآت ذات الطابع الاقتصادي والتجاري من أسواق وسويقات وفنادق ورحبات، وهي كلها مؤشرات على طبيعة النشاط الاقتصادي بالمدينة وأهميته.

ومن خلال الفصل الموسوم بالصناعة والصناع[16]: تناولت أمهات الصنائع وتحدثت بشكل مسهب عن صناعة المنسوجات الحريرية التي كانت أكثر فروع الإنتاج ازدهارا ورواجا،

ثم انتقلت إلى الصنائع النادرة. ثم تطرقت لأهل الحرف ولاحظت أن بعض المهن حصرت في فئات معينة مثل العطارة وصناعة الحرير والخياطة التي حصرت في الحضر والأشراف، وحرفة البناء التي تبدو عليها هيمنة العنصر الأندلسي، حتى أن خلال القرن 17م معظم الذين أسندت لهم إدارة جماعة البنائين كانوا أندلسيين ثم سيطر على الحرفة منذ مطلع القرن 18م عائلات محلية.

ومن الظواهر التي رصدتها المؤلفة من خلال الوثائق انتساب أهل الحرف إلى الأوجاق، وحركة انضمام أفراد الجيش إلى التنظيمات الحرفية من رتب مختلفة: الأياباشية، البلكباشية، الأضاباشية، اليولداش، فضلا عن المتقاعدين. ومن الحرف التي انضم أصحابها للجيش: الحفافة، البابوجية، الخياطة، الحياكة،... والصنائع التي حرص أمناؤها على الاحتماء بالجيش هي صنائع كانت محل استقطاب من الجيش نفسه.

وقد بلغ نفوذ الجيش على الحرف درجة أصبحت معها أمانة بعض الجماعات الحرفية حكرا عليهم كجماعة البابوجية والخياطين والقزازين، والجقماقجية، وواضح أن هؤلاء الأمناء مارسوا النشاطين في آن واحد. ولعل تفسير احتكار الأمانة من طرف عناصر الأوجاق كان بهدف مراقبتها، أما المنخرطون من أهل الحرف في المؤسسة العسكرية فكانوا يهدفون إلى الاحتماء بعناصر الجيش.

وقد مارس اليهود جميع أصناف التجارة واحتكروا بعض المجالات وفي مقدمتها الصياغة، كما احتكروا صك النقود، أعمال المصارف، واشتهروا بتعاطي: العطارة، القزازة، والخياطة.

أمّا حرف الخدمات فقد عرفت انغلاقا حرفيا، بحيث كان نظام التخصص ساريا على العناصر الوافدة على المدينة أي الجماعات البرانية حيث حددت مجالات النشاط الاقتصادي لكل جماعة. وقد حاولت المؤلفة أن تشير إلى كل جماعة من الجماعات البرانية والحرف والمهن التي كان يقوم بها أفرادها، من ذلك جماعة بني مزاب التي كان لها نشاط اقتصادي متميز وكاد العمل في الأفران أن يكون مقصورا على أفرادها، إلى جانب النظارة على الحمامات، القصابة أوالجزارة، وقد تفرعت إلى عدة جماعات أهمها: جماعة الفرانين وجماعة الحمايمية، جماعة السفاجين. أما جماعة الجيجلية فكانت تشرف على الأفران المخصصة لإعداد الخبز لليلداش والأرقاء المسيحيين.

ثم تطرقت المؤلفة إلى الحرف والخدمات المتواضعة: بحيث كان القبايل يقومون بالخدمات المنزلية ويشتغلون بالضيعات والبساتين، ومن الحرف التي كانت حكرا عليهم صناعة الفحم وبيعه. وقد أسندت إلى البساكرة المهن الأكثر تواضعا كبيع الخضر والفواكه، الحمالة، وتحضير الخبز (عجن الخبز). وختمت الدكتورة عائشة غطاس هذا القسم بالنشاط الحرفي للمرأة رغم شح المادة العلمية، وحاولت الوقوف على أهم النشاطات الحرفية والخدمات التي كانت تقوم بها النساء.

أمّا القسم الرابع فقد خصص للحياة اليومية[17] لوصف وتحليل الواقع المادي لشريحة الحرفيين، وهو قسم يبحث في الممارسات والسلوكيات الاجتماعية التي ميزت هذه الشريحة. ولم تدرس المؤلفة تلك السلوكات بمنأى عن المجتمع بل درستها في المجتمع بشموليته للوقوف عند الخصوصيات والمميزات التي انفرد بها الحرفيون.

وعالجت في الفصل الأول الثروات والمستويات المعيشية[18] انطلاقا من دفاتر المخلفات والتركات الصادرة عن مؤسسة بيت المال. كما استعانت أحيانا أخرى بعقود التركات التي صفيت بالمحاكم الشرعية، ولقياس الوضع المادي لشريحة الحرفيين عالجت الثروات ومستوياتها معالجة شاملة ضمن شرائح المجتمع بوجه عام.

وقد لاحظت تفاوتا في الثروات بين أهل الحرف والصنائع من خلال المقارنة بين التركات، وخلصت إلى أنه لا يمكن تفسير ظاهرة التفاوت الصارخ بين مستويات الثروة بمجتمع مدينة الجزائر بطبيعة النشاط الحرفي فقط، ذلك أنها ميزت أيضا الجماعة الواحدة أي تلك التي تعاطى أفرادها النشاط الحرفي نفسه، وأوردت عينات عن ذلك.

ثم تطرقت إلى كبار الأثرياء في مجتمع مدينة الجزائر من خلال قيمة التركة، وحاولت معرفة الشرائح التي ينتمي إليها هؤلاء الأثرياء، كما حاولت الوقوف عند أسباب الرفاه الاقتصادي والارتقاء الاجتماعي وقتئذ بمدينة الجزائر. وقد توصلت إلى أن كبار الأثرياء كانوا من موظفي الإدارة المركزية ثم من أعيان التجار.

وانتقلت المؤلفة وسطى ثروات الحرفيين من خلال المقارنة بين تركات الحرفيين، واستطاعت أن ترصد الحرف التي كانت مصدرا للثراء، ثم راحت تبحث عن سبل ثروات أمناء التنظيمات الحرفية وهي (فئة متميزة اقتصاديا) والتنظيمات الخاصة بالوافدين من خلال

تركاتهم. إن مقارنة تركات الأمناء بما خلفه الحرفيون المنتسبون إلى الجماعة نفسها تظهر نوعا من التفاوت، وكانت وضعية الأمناء المادية أحيانا شبيهة بل مماثلة لوضعية الحرفيين البسطاء.

وتوصلت المؤلفة إلى أن الثراء لم يرتبط دائما بالمنصب كما أن أمناء التنظيمات الحرفية لم يشكلوا فئة متميزة ذات امتيازات اقتصادية بل شكلوا فئة ميسورة الحال نسبيا.

ولم تغفل المؤلفة التطرق إلى توزع الثروات داخل المؤسسة العسكرية: فلاحظت أن هناك تناسق وتناسب بين أهمية المنصب وضخامة الثروة، إذ احتل الأغوات المرتبة الأولى، ثم الأياباشية، ثم البلكباشية وأخيرا الأضاباشية، وهذا أواخر القرن 17م. وقد كانت فئة الأغوات تعيش وضع مادي ممتاز، وأفقر فئة ضمن المؤسسة العسكرية فئة اليلداش بحيث عاش معظمهم في فقر مدقع.

ثم تطرقت إلى المستوى المادي لجماعة البرانية وهي الفئات الأكثر حرمانا، وأشارت إلى وجود بعض الأثرياء ممن ينتمون إلى فئة البرانية انطلاقا من التركة التي خلفوها. كما أشارت إلى تباين الثروات داخل الجماعة الواحدة أي الجماعات البرانية. ثم تطرقت إلى مظاهر من الحياة اليومية، ذلك أن وصف الحياة اليومية وإعطاء خصائصها يقتضي الولوج في الحياة الخاصة، أي دراسة ممارسات الفرد الاقتصادية والاجتماعية من حيث توظيف الثروة من خلال جرد شامل لكل ما احتوت عليه التركة جل شأنه أو قل، من مكونات البيت من أثاث ومفروشات وملابس والمصاغ ومواد غذائية، وممتلكات عقارية وأدوات المطبخ، وحاولت من خلال المخلفات إلى إعادة تركيب الحياة اليومية للحرفيين.

وحتى تكتمل الصورة عن الحياة المادية للحرفيين عرجت على الاستثمار في المجال العقاري استنادا إلى دراسة عقود التحبيس، وقد كان في حوزة عدد من الحرفيين بساتين بالفحص.

وخصص الفصل الثاني لأماكن الإقامة[19] فجاء عبارة عن محاولة إعادة تركيب السكان عبر حومات المدينة، انطلاقا من البحث عن خصوصية التوزيع السكاني. ذلك أن إحدى الخصائص التي ميزت مدينة الجزائر تعدد الأجناس، فحاولت أن تقف على مدى تأثير ذلك على اختيار أماكن الإقامة؟ كما توقفت عند دور الحرفة في اختيار الموقع وفي خلق علاقات الجوار.

كما حاولت انطلاقا من عقود التحبيس رصد عدد الحرفيين القاطنين بعدد من الحومات، وخلصت إلى أن فئة الحرفيين توزعت عبر مختلف حومات المدينة، ولكن يبدو أن أهم تجمع لهم كان بالمدينة العليا أو الجبل. وقد وجهت الحرفة أحيانا اختيار الجوار من ذلك العطارين إذ شكلوا نسبة **33.33%** من جملة الحرفيين المالكين بها. ويلاحظ أنّ الأثرياء من الحرفيين أقاموا بالمنطقة المركزية كالرحبة القديمة وباب السوق.

أما بالنسبة لوضع الوافدين على المدينة البرانية: يلاحظ غياب العناصر الوافدة من المناطق الداخلية من عقود الأوقاف، ما عدا العنصر الجيجلي، بحيث تسمح عقود التحبيس وكذا عقود البيع والشراء بأخذ فكرة واضحة عن توزع الجيجلية عبر حومات المدينة، وكانوا من المالكين بها. ولكن لم يكن من نصيب جل الجيجلية الإقامة والتملك بالمدينة بحيث اتخذ عدد هام منهم المحلات التجارية محلا للإقامة. ومن خلال الجيجلية نجد أن مقولة الاعتبارات الجهوية والاثنية في تحديد أماكن الإقامة في المدينة العربية لا تنطبق على مختلف المدن.

كما تساءلت المؤلفة عن وضع بقية الوافدين كبني مزاب والقابيل والبساكرة والأغواطية، وما إذا خصص لهذه الشريحة حي خاص بها؟ فظهر لها أن كل جماعة سعت إلى حل مشكل الإقامة بحسب ظروفها. وقد كان القليل منهم مالكين بينما أغلبهم يقضون لياليهم في الحوانيت والحمامات، وكان بعضهم يقيمون في الفنادق. ولعل اختيار هذه الجماعات للمواقع السالفة الذكر يعود إلى حرصها الشديد على ادخار كمية من المال لأنها جاءت لكسب لقمة العيش، لذا فضلت تفادي أية مصاريف مكلفة من أجل الإقامة، وباستثناء جماعة الجيجلية التي نجح بعض أفرادها في الإقامة والتملك بالمدينة فإن العناصر الوافدة تكاد تكون غائبة.

وقد كان لليهود أماكن إقامة خاصة بهم (حارة لأهل الذمة)، وقد أشارت المؤلفة إلى هذه الحومات، ولكنهم لم يخضعوا لعزلة تامة بل أقاموا جنبا إلى جنب مع بقية الشرائح. فبعض أحيائهم لم تشكل تجمع يهوديا بحتا إذ أقامت به شرائح أخرى.

وتوصلت المؤلفة إلى الخلاصة التالية: لم يخضع توزع السكان عبر حومات المدينة لأسس مهنية أو عرقية، ولم يخصص للبرانية حي خاص بهم فالجيجليون سنحت لهم أوضاعهم المادية امتلاك عقارات بحومات مختلفة، والاستقرار بها بل أن بعضهم أقام بالأحياء الهامة والراقية. ومن المالكين بالمدينة الجرابة، الذين لم يتخذوا زنقة خاصة بهم رغم وجود زنقة

الجرابة. وتؤكد المؤلفة على أنّ خصوصية التوزع السكاني بمدينة الجزائر هي انعدام الفصل الواضح بين مختلف الشرائح المقيمة بالمدينة، وتبين دراسة عقود التحبيس ودراسة مستويات الثروة أن الاعتبارات المادية حددت في المقام الأول اختيارات أماكن الإقامة.

وفي الفصل الثالث صلات المصاهرات[20] واصلت المؤلفة البحث في الحياة اليومية والممارسات الاجتماعية من خلال طرح موضوع المصاهرات كمظهر من مظاهر العلاقات الاجتماعية، مؤكدة على أن دراسة المصاهرات تسمح بقياس ومعرفة مكانة العلاقات العائلية بالنسبة لمجمل شبكة العلاقات الاجتماعية، وتتم دراستها ضمن كل الشرائح. وأعارت عناية خاصة للاعتبارات التي حددت الاختيارات أو بتعبير آخر لاستراتيجية المصاهرات ودور الحرفة في توجيهها.

رصدت الدكتورة عائشة غطاس شبكة المصاهرات ضمن العائلات المدينية المتنفذة، أو العائلات الحضرية مثل الحكام والموظفين السامين والعائلات الثرية كأعيان التجار ومشاهير رياس البحر، ولاحظت أن النخبة الحضرية حرصت على توجيه مصاهراتها ضمن الفئة نفسها، من أجل توطيد العلاقة والحفاظ على المصالح المشتركة. كما وجدت أن الارستقراطية الدينية انفتحت على العائلات الحرفية التي مارست الحرف والصنائع التي كانت محل اعتبار من جهة كصنعة الجير والصنائع المعتبرة والمربحة.

وبالنسبة للجماعات الحرفية لاحظت أن حالات الزواج داخل الجماعة نفسها كثيرة، بحيث نسج الحرارون مصاهرات في إطار جماعة الحرارين نفسها. ولكن لم تنحصر المصاهرات في إطار الجماعة الواحدة بل تجاوزتها، حيث أقيمت بين العائلات الحرفية رغم التباعد الكبير أحيانا بين النشاطات الممارسة، إلا أن الاتجاه الغالب تميز بإقامة مصاهرات خارج إطار الانتماء الحرفي. وفيما يخص أمناء التنظيمات الحرفية لاحظت أن بعضهم فضل الثراء والجاه على الانتماء الحرفي.

ثم أخذت عينة وهي جماعة الحرارين لتدرس استراتيجية المصاهرات عندها: وقد اختارت هذه الجماعة لأنها أثرى الجماعات، كما توفرت لها مادة علمية حولها سيما عقود الزواج. فقد نسج الحرارون صلات مصاهرة في إطار الجماعة نفسها، وأقاموا علاقات مصاهرة مع جماعات حرفية أخرى. كما تصاهر الحرارون مع الفئات الثرية لا سيما فئة كبار التجار، وربطوا مصاهرات مع موظفي الإدارة المركزية، وتكاد تنفرد جماعة الحرارين عن غيرها من الجماعات

إذ ما يميز المصاهرات عندها هي الاستمرارية والمرجعية في اختيار عائلات معينة عبر جيلين على الأقل.

وخلصت المؤلفة إلى أنّ المصاهرات كانت تتم وفق استراتيجية تصبوا إلى تحقيق التكامل بين السلطتين الاقتصادية والسياسية الدينية من أجل التفرد بالنفوذ والسلطة. وقد اتخذت المصاهرات التي أقامها الحرفيون ثلاثة اتجاهات: إطار الجماعة نفسها، ضمن الجماعات الحرفية الأخرى، وخارج الشريحة الاجتماعية. ولاحظت المؤلفة أن عامل القرابة لم يحدد ولم يوجه استرتيجية المصاهرات في مجتمع مدينة الجزائر.

وأما بالنسبة للوافدين على المدينة فإن الأخبار بشأن مصاهراتهم شحيحة جدا، سيما وأنّ إقامتهم في المدينة كانت في أغلب الأحيان غير دائمة .

ثم تطرقت المؤلفة إلى الصداق: فتعرضت لمكوناته وقيمته، وبحثت في الاعتبارات التي حددت قيمته، فهل الصداق دلالة على الانتماء الفئوي، مع العلم أن أضخم صداق نالته بنات الطبقة الارستقراطية. أما الصداق في فئة الحرفيين، فإن أصحاب الحرف المعتبرة والمربحة قدموا صداقا معتبرا، دنى في بعض الحالات من صداق الارستقراطية. وتُظهر دراسة الأصدقة المتداولة في مجتمع مدينة الجزائر أن الحرفيين شكلوا طبقة وسطى ميسورة الحال مع تفاوت واضح بين الحرف نفسها.

وقد تحكمت في الصداق عوامل عدة أبرزها الانتماء الاجتماعي، فالمهور المعتبرة كانت محصورة في الطبقة الارستقراطية، ولم يرتبط غلاء المهر بالوضعية الاجتماعية للزوجة فحسب بل بوضعية الزوج أيضا. فجل الذين قدموا صداقا معتبرا كانوا من العائلات المتنفذة المدينية منها والدينية ومن البرجوازية أيضا.

– أهمية الكتاب: يعد كتاب "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر" من المراجع التي لا غنى للباحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للجزائر خلال العهد العثماني عنها، بحيث تناولت المؤلفة شريحة الحرفيين ولم تفصلها عن محيطهم الاقتصادي والاجتماعي، وتكمن أهمية الكتاب بالإضافة إلى طريقة تناول الموضوع والاستنتاج والتحليل إلى مصادره، بحيث اعتمدت المؤلفة على عدد كبير من الوثائق الأرشيفية فتوصلت إلى حقائق علمية جديدة.

اعتمدت المؤلفة على مصادر مختلفة، ولكن الاعتماد الأساسي على الوثائق العائدة للعهد العثماني والذي تصطلح عليه تسمية "الرصيد العثماني"، من ذلك رصيد الوثائق المحلية: وهي تتضمن سلسلة سجلات المحاكم الشرعية، وهي عبارة عن عقود التحبيس والوقف وعقود البيع والشراء والقروض وما إلى ذلك... كما يشتمل على مرافعات المجلس العلمي، عقود الزواج والطلاق، العتق الهبات الوصايا، الفرائض (تقسيم التركات)، وأشارت المؤلفة إلى الدقة التي روعيت من قبل الموثقين في تحرير العقود، ولكن الصعوبة الآن في استغلال تلك الوثائق لعدم ترتيبها مما يتطلب وقتا طويلا لاستخدامها.

دفاتر التركات الصادرة من مؤسسة بيت المال: كانت هذه المؤسسة تتولى بوجه عام مراقبة وتصفية تركات الذين يتوفون ولم يخلفوا عاصبا، أو الذين يطول غيابهم فيعدون بذلك في عداد الموتى. أما طريقة جرد مكونات التركة كالتالي: بحيث يذكر الاسم ثم مهنته ثم عدد زوجاته، وعدد أولاده إن وجدوا والعنوان والتاريخ. وتتميز هذه الدفاتر بالدقة في ذكر وجرد محتويات الثروة المخلفة عن الهالك أو الغائب.

سجلات البايليك: تضم دفاتر عديدة تخص قضايا الوقف من إحصاءات وحسابات وما إلى ذلك، كما تضم سجلات تخص النظام الضريبي.

ومما زاد في أهمية الكتاب أنه يضم: جداول كثيرة، منها جداول خاصة بأسماء أمناء الجماعات الحرفية، وجداول خاصة بمقدار الضريبة التي كانت تدفعها كل جماعة حرفية. وقد أعدت هذه الجداول استنادا إلى سجلات المحاكم الشرعية وأخبارا متناثرة هناك وهناك، بمعنى أنها لم تنقلها جاهزة.

كما أوردت عائشة غطاس في ثنايا كتابها وفي الملاحق صورا مختلفة للوثائق التي استخدمتها في دراستها، وهي عبارة عن عقود بيع ومعاملات أخرى بين الحرفيين، وعقود تحبيس، وقرارات تعيين لبعض الأمناء.

ويضم الكتاب مخططات كثيرة أنجزتها اعتمادا على وثائق مختلفة، من ذلك المخطط الخاص بمشيخة البلد في عائلة التمتام، كما أوردت الدكتورة قوائم متعددة، من ذلك قائمة بأسماء شيوخ البلد من 1695م إلى 1830م، وقوائم الجماعات الحرفية، وأوردت في كتابها ثلاثة صور منها الصورة التي نجدها في واجهة الكتاب وهي صورة لورشة حيث يقوم الحرفي بخراطة الخشب. ودعمت القسم الأخير من الكتاب بخرائط لتوزيع الأحياء السكنية بمدينة الجزائر. كما يحتوي الكتاب على عدة ملاحق منها صور لوثائق مختلفة تمثل عقود تحبيس وغيرها، كما أورت قاموسا للحرف، وقاموس آخر للمصطلحات.

الهوامش:

1- إبراهيم سعيود، الدكتورة غطاس كما عرفتها، ضمن جريدة الشروق اليومي، يوم الأحد 15 ماي 2011.
2- أبو القاسم سعد الله يكتب عن الفقيدة عائشة غطاس، ضمن منتديات قمار دي زاد. على شبكة الانترانت.
3- إبراهيم سعيود، المرجع السابق.
4- من مكالمة هاتفية مع طالبتها الأستاذة فهيمة عمريوي، يوم 22 سبتمر 2011.
5- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق.
6- إبراهيم سعيود، المرجع السابق.
7- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر . منشورات ANEp ، 2007. القسم الأول من الكتاب، ص – ص: 17- 99.
8-المرجع نفسه، الفصل من القسم الأول: ص: 17- 57.
9- المرجع نفسه، الفصل الثاني من القسم الأول. ص: 57- 99.
10- المرجع نفسه، القسم الثاني، ص – ص: 101- 197.
11- المرجع نفسه، الفصل الأول من القسم الثاني، ص: 101- 132.
12- المرجع نفسه، الفصل الثاني من القسم الثاني، ص: 131- .172
13 – المرجع نفسه، الثالث من القسم الثاني، ص: 173- .197
14 – المرجع نفسه، القسم الثالث. ص: 199- 264.
15- المرجع نفسه، الفصل الأول من القسم الثالث، ص – ص: 201- 225.
16- المرجع نفسه، الفصل الثاني من القسم الثالث، ص- ص: 227- .264
17- المرجع نفسه، القسم الرابع، ص- ص: 265- 379.
18- المرجع نفسه، الفصل الأول من القسم الرابع، ص – ص: 267- 310.
19- المرجع نفسه، الفصل الثاني من القسم الرابع، ص – ص: 311- 346.
20- المرجع نفسه، الفصل الثالث من القسم الرابع، ص- ص: 347- 380.

منهج الأستاذ عبد القادر بوباية في تحقيق المخطوطات

د. بلحاج طرشاوي*

ترجمة المحقق: عبد القادر بوباية من الباحثين الذين بدأ نجمهم يسطع في سماء البحث في الجامعة الجزائرية، وهو من الجيل الثاني من الباحثين الجادين والمميزين في مجال البحث في التاريخ الوسيط، وبخاصة في ما يتعلق بتحقيق التراث الإسلامي، وكشف أسراره وخباياه، وجعله ميسرا لخدمة الباحثين والطلبة في تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس.

وهو من مواليد سنة 1956م بأولاد فارس- ولاية الشلف- تحصل على شهادة اللسانس في التاريخ سنة 1986م من جامعة وهران ليشتغل بعد ذلك في مجال التربية والتعليم، في التعليم المتوسط من سنة 1979م إلى سنة 1987م. ثم شغل بعد ذلك منصب أستاذ تعليم ثانوي إلى غاية سنة 1997م. ليلتحق بعد ذلك بجامعة وهران، بعد أن تحصل على شهادة الماجستير في التاريخ سنة 1996. ولا يزال يمارس نشاطه إلى يومنا هذا بجامعة وهران. كما درّس في العديد من الجامعات الجزائرية، على غرار جامعة بشار وجامعة معسكر وجامعة الشلف.

وفي سنة 2002م ناقش الأستاذ بوباية رسالة دكتوراه دولة .

النشاط العلمي: شارك الأستاذ بوباية في العديد من الملتقيات الدولية والوطنية، ساهم من خلالها في إثراء المنظومة التاريخية لبلاد المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس. والمتصفح لمشاركاته المتعددة في عديد الفعاليات العلمية، يدرك منذ الوهلة الأولى أنه أمام باحث جاد، يحسن اختيار مواضعه، اختيارا يخدم البحث العلمي، ويساهم في التعريف بالتراث العربي الإسلامي بصفة عامة، والتاريخ الجزائري على وجه الخصوص.

* – أستاذ محاضر أ- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان.

وهو أيضا في جميع مشاركاته الفعالة يهدف إلى تقديم الجديد، أو على الأقل يطرح التساؤلات التي من شأنها أن تدفع الباحثين إلى محاولة الإجابة على ما يطرحه من تساؤلات. يضاف إلى ذلك أن الأستاذ قد سخر جهده ووقته لخدمة الباحثين وطلبة العلم من خلال تقديم الكثير من الأعمال الجيدة، التي تعتبر نبراسا ينير درب الباحثين في مجال التاريخ الإسلامي.

وقد اخترنا أن نعرض بعضا من مشاركاته في الملتقيات الدولية والوطنية، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

المشاركة في الملتقيات الدولية:

* المشاركة في الملتقى الدولي حول الأديب الشهير "أبي العباس أحمد المقري التلمساني" المنعقد أيام 13 و14 جوان 2001م بجامعة أبي بكر بلقايد (تلمسان) بمحاضرة عنوانها: "دور البربر في فتح الأندلس وقيام الإمارة الأموية من خلال كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب".

* المشاركة في الملتقى المغاربي الأول حول الأقليات في المغرب الإسلامي المنعقد بجامعة الأمير عبد القادر– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– يومي 4 و5 ماي 2003م بمحاضرة عنوانها: "دور اليهود السياسي في بلاد الأندلس: ابن النغريلة في مملكة بني زيري بغرناطة نموذجا".

* المشاركة في الندوة العلمية الدولية حول لسان الدين بن الخطيب المنعقدة في جامعة حلب– سوريا– أيام 2–3–4 ديسمبر 2003م بمحاضرة عنوانها "مساهمة لسان الدين ابن الخطيب في التأريخ لمسلمي الأندلس: كتاب أعمال الأعلام نموذجا".

* إلقاء محاضرة في جامعة كمبلوتنس– قسم الدراسات العربية والإسلامية– (مدريد–إسبانيا) يوم 28 جوان 2004م حول "دور البربر في فتح الأندلس".

* الملتقى المغاربي الثاني حول المخطوطات المنعقد بقسم التاريخ– جامعة الإخوة منتوري– قسنطينة–يومي 29 و30 نوفمبر 2004م بمحاضرة عنوانها: "تقديم وعرض مخطوط "ذكر الأندلس ووصفها لمؤلف مجهول".

* الندوة العلمية الدولية حول: "الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين- دورة الجزائر" المنعقدة في فبراير 2005م بالجزائر العاصمة بمحاضرة عنوانها: "العدوة الأندلسية على عهد عبد الرحمن الناصر من خلال كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل".

* الملتقى الدولي حول حركات الإصلاح والتجديد في التاريخ الإسلامي المنعقد بقسم التاريخ-جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة- يومي 16 و17 ماي 2005م بمحاضرة عنوانها: "الإصلاح العسكري للمنصور محمد بن أبي عامر بالأندلس: دوافعه ونتائجه".

* الملتقى الدولي حول الرحالة الحسين الورثيلاني الذي نظمته مجموعة العمل حول تاريخ الرياضيات في بجاية في العصور الوسطى بجامعة بجاية يومي 28 و29 ماي 2008م بمحاضرة عنوانها: "مصادر كتاب الرحلة الورثيلانية أو كتاب نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

* الملتقى الدولي الحادي عشر حول التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة الذي نظمته جامعة أدرار أيام 09-10-11 نوفمبر 2008م بمقر الجامعة الإفريقية بمحاضرة عنوانها: "الطريقة الزيانية وتطورها التاريخي في الجزائر".

* الملتقى المغاربي حول المدن في المغرب الإسلامي الذي نظمه مخبر والبحوث والدراسات التاريخية-جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان يومي 14 و15 أفريل 2009م بمحاضرة عنوانها: "الإشعاع العلمي بمدينة قرطبة على عهد الحكم المستنصر بالله (350-366هـ/961-976م)".

* الملتقى الدولي حول موضوع: "المغرب وإيبيريا: من الصدام إلى التعاون" الذي نظمه مركز الدراسات الإفريقية بجامعة بورتو (البرتغال) وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد الملك السعدي- تطوان- أيام 7 و8 و9 ديسمبر 2009م بمحاضرة عنوانها "علاقة الإسبان بمملكة بني زيان من سقوط غرناطة إلى احتلال وهران".

* الملتقى الدولي حول محمد بن أبي شنب الذي نظمته كلية الآداب بجامعة الجزائر من 15 إلى 17 ديسمبر 2009م بمحاضرة عنوانها "إسهام محمد بن أبي شنب في تحقيق التراث التاريخي الإسلامي".

* الندوة العلمية الدولية حول أثر الصحابة الكرام في التراث المغربي الأندلسي التي نظمها الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب بمدينة طنجة يومي 10-11 فبراير 2010م بمداخلة عنوانها: "أثر الصحابة الكرام في انتشار الإسلام ببلاد المغرب الإسلامي".

* الندوة العلمية الدولية حول موضوع: السلطة العلمية والسلطة السياسية بالمغارب: الاختلاف والمحنة، المنعقدة بمركز طارق بن زياد- الرباط يومي 19- 320 مارس 2010م بمداخلة عنوانها: "علاقة العلماء بالحكام على عهد ملوك الطوائف بالأندلس".

* الملتقى الدولي: الإسلام في بلاد المغرب ودور تلمسان في نشره المنعقد بتلمسان في إطار احتفالية تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية من 21 إلى 23 مارس 2011م بمداخلة عنوانها: "مساهمة تلمسان في ازدهار الحركة العلمية بالأندلس من خلال كتاب البستان لابن مريم".

المشاركة في الملتقيات الوطنية:

* الصالون الوطني الأول للمخطوطات المنعقد بمعسكر يومي 20-21 أفريل 2004م بمداخلة عنوانها: "عرض وتقديم كتاب الحلل السندسية لأبي راس بن الناصر".

*الملتقى الوطني المنعقد في إطار مهرجان موسم الشيخ المختار بلعمش في مدينة تندوف يومي: 2 و3 أكتوبر 2004م بمحاضرة عنوانها "أعلام منطقة تندوف: أسرة بلعمش نموذجا".

* الملتقى الوطني حول مقاومة الشيخ الحداد والمقراني الذي نظمته وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بمدينة برج بوعريريج يومي 11 و12 ديسمبر 2004م بمحاضرة عنوانها "دور الزاوية الرحمانية وشيوخها في ثورة 1871م".

* الملتقى الوطني الثالث لأعلام ولاية البويرة الذي نظمته مديرية الشؤون الدينية والأوقاف بالمسرح البلدي لمدينة البويرة يومي 30 و31 ماي 2007م بمحاضرة عنوانها: "موقف البربر (الأمازيغ) من الفتح الإسلامي".

* الملتقى الوطني حول التطور التاريخي والحضاري لمدينة تلمسان الذي نظمه مخبر البحوث والدراسات التاريخية بجامعة تلمسان يومي 12 و13 جوان 2007م بمحاضرة عنوانها "مساهمة العلماء الأندلسيين في الحركة العلمية بتلمسان".

* الملتقى الوطني الثالث للطريقة القادرية المنعقد بجامعة ورقلة أيام 13-14-15 ماي 2008م بمحاضرة عنوانها "نشاط علماء الطريقة القادرية في الصحراء وبلاد إفريقيا".

الأعمال المنشورة:

1-مفاخر البربر لمؤلف مجهول-دراسة وتحقيق- دار أبي رقراق للطباعة والنشر-الرباط- يناير 2005م.

2-تاريخ الأندلس لمؤلف مجهول-دراسة وتحقيق- دار الكتب العلمية-بيروت- ماي 2007م.

3- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء لأبي مروان عبد الملك ابن الكردبوس التوزري- دراسة وتحقيق-دار الكتب العلمية- بيروت- 2009/02/23م.

4- صالح بن عبد الحليم الإيلاني- مفاخر البربر- دراسة وتحقيق-دار أبي رقراق للطباعة والنشر-الرباط- 2008م.

5- تاريخ الأندلس لمؤلف مجهول- دراسة وتحقيق- دار الكتب العلمية-بيروت-الطبعة الثانية- 2009م.

6- كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن سماك العاملي، دار الكتب العلمية- بيروت-ط1- 2010/06/05م.

7- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري(11م)-دار الكتب العلمية- بيروت-ط1- 23 يناير 2011م.

المقالات المنشورة:

المجلات الوطنية:

1- مصادر مخطوط "مفاخر البربر" لمؤلف مجهول- مجلة عصور- العدد الأول- جوان 2002م.

2- نشاط بن ناصر بن شهرة في تونس وعلاقته بالأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر- مجلة عصور-العدد الثالث- جوان 2003م.

3- محتويات مخطوط مفاخر البربر- المجلة الجزائرية للمخطوطات-العدد 1- جوان 2003م.

4- دور الرحالة والمستكشفين في التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية-مجلة عصور- العددان 4-5 ديسمبر 2003- جوان 2004م.

5- الروابط العلمية والثقافية بين وهران والعدوة الأندلسية- مجلة إنسانيات- العدد 24-25 -جانفي- جوان 2004م.

6– مكانة التاريخ الأندلسي في الجامعة الجزائرية– مجلة عصور–العدد 6–7– جوان ديسمبر 2005م.

7– التعريف بالخزانة الزيانية القندوسية ومحتوياتها– مجلة عصور– العدد 6–7– جوان ديسمبر 2005م.

8– مخطوطات التصوف بالخزانة الزيانية القندوسية– المجلة الجزائرية للمخطوطات– العدد 2– جوان 2007م.

9– مساهمة العلماء القلعيين في الحركة العلمية بالعدوة الأندلسية–مجلة المواقف– منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي–معسكر– العدد الثالث– ديسمبر 2008م.

10– "إسهام التاهرتيين في الحركة العلمية بالأندلس"– الخلدونية في العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية– جامعة ابن خلدون– تيارت– عدد خاص– أكتوبر 2009م.

11– "دوافع الهجرة البربرية إلى العدوة الأندلسية خلال القرن الرابع الهجري(11م)"– مجلة المواقف– منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي– معسكر– العدد الرابع– ديسمبر 2009م.

12– "محمد بن عمر الهواري من خلال كتاب روضة النسرين"– مجلة الحضارة الإسلامية– كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية– جامعة وهران– العدد14–1431هـ/2010م.

المجلات الدولية:

1– العدوة الأندلسية على عهد عبد الرحمن الناصر من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل–أعمال الندوة العالمية "الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين– المشروع الجغرافي العربي–أبو ظبي– الإمارات العربية المتحدة– 2005م.

2– المستشرقون وكتابة التاريخ الإسلامي: إ. ليفي بروفنسال نموذجا– مجلة التاريخ العربي– المملكة المغربية– العدد 34–ربيع– 2005م.

3– تموين الثورة الجزائرية بالسلاح من المغرب الأقصى على عهد محمد الخامس– مجلة التاريخ العربي– العدد 35– صيف 2005م.

4– علاقة الرستميين بالإمارة الأموية في الأندلس– مجلة التراث العربي– إتحاد الكتاب العرب– دمشق– سوريا– العدد 99–100/رمضان 1426هـ/تشرين الأول 2005م–السنة الخامسة والعشرون.

5- مفاخر البربر: عرض وتقديم- مجلة البحث التاريخي- الجمعية المغربية للبحث التاريخي- الرباط-العدد 4- 2006م.

6- إسهام الأندلسيين في الحركة العلمية بحلب- مجلة التاريخ العربي- الرباط- العدد 46- شتاء 2008م.

7- "تاريخ الأندلس" لمؤلف مجهول-مجلة المناهل- وزارة الثقافة- الرباط- العدد 85- نوفمبر 2008م.

8- "الخزانة الزيانية القندوسية ومخطوطات التصوف بها"- مجلة آفاق الثقافة والتراث- مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- دبي- العدد 72- ديسمبر 2010م.

9- "إسهام لسان الدين ابن الخطيب في التأريخ لمسلمي الأندلس: كتاب أعمال الأعلام نموذجا"- مجلة التاريخ العربي- جمعية المؤرخين المغاربة- الرباط- العدد 54- شتاء 2010م.

قراءة في أعمال المؤلف:

المؤنس في مصادر المغرب والأندلس: صدر الكتاب عن دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر. وهو عبارة عن عمل ببليوغرافي لما ألف حول تاريخ المغرب والأندلس، وهو عمل مفيد للطلبة والباحثين ممن يريدون البحث في تاريخ المنطقة، وقد ذكر المؤلف الغاية من تأليفه في مقدمة المؤلف، حيث قال: "ومن أجل مساعدة الباحثين الشباب المقبلين على هذا العمل، وبخاصة منهم طلبة الماجستير، سعيت من خلال هذا العمل إلى رصد وعرض أهم المصادر التي تساعدهم على إنجاز بحوثهم في مجال تاريخ المغرب الإسلامي."[1]

والكتاب يتكون من:

مقدمة ثم تناول المؤلف المصادر التاريخية حسب التسلسل الزمني، مبتدئا بالمصادر التاريخية من بداية الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثالث الهجري. وقد عد المؤلف منها ستا هي: مؤلفات الواقدي، كتاب فتوح ممصرو أخبارها، كتاب الإمامة والسياسة، كتاب فتوح البلدان، كتاب البلدان.[2]

ثم انتقل إلى الحديث عن المؤلفات في القرن الرابع والخامس... لينتهي إلى مؤلفات القرن الحادي عشر الهجري.[3]

وقد أحصى المؤلف حوالي مائة وثمانية وثمانين مصدرا في تاريخ المغرب والأندلس.

ويقوم الكتاب على التعريف بمؤلف المصدر، وأهم محتويات الكتاب، مع الاهتمام بكل ماله علاقة ببلاد المغرب والأندلس.[4]

تاريخ الأندلس: ومؤلفه مجهول، وقد صدر عن دار الكتب العلمية بلبنان سنة2007، وهو ثاني مخطوط يحققه الأستاذ بوباية بعد مفاخر البربر، و هو بذالك يضيف لبنة جديد في مجال تحقيق التراث العربي الإسلامي، إيمانا منه بضرورة تولي المؤرخ العربي إعادة تحقيق التراث، وبخاصة ما تعلق بالمجال التاريخي والجغرافي، فهم أقرب فهما ولسانا إلى ما ورد في بطون المخطوطات.[5]

منهج التحقيق:

1-يبدأ المؤلف عمله بالحديث عن دوافع تحقيق هذا المخطوط، ويحددها في النقاط التالية:

2-ضرورة اعتناء الباحثين العرب، بتحقيق تراثهم، وإعادة النظر في العمل الذي قام به رواد المحققين من المسشترقين، ذلك انها في حاجة ماسة إلى إعادة الدراسة والتحقيق، ومن بين الأعمال التي تحتاج إلى التحقيق، يذكر:البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي، وكتاب العبر لابن خلدون...وغيرها من المؤلفات التراثية.[6]

3-أهمية المخطوط، باعتباره مصدرا يؤرخ لتاريخ الأندلس، ونظرا لاعتماد مؤلفه على كصادر أصلية، معظمها من المصادر الضائعة أو المبتورة.

إن التحقيق الذي قام به المستشرق لويس مولينا، اعتمد نسختين فقط، ولم يطلع على النسخة رقم 1528، وهي نسخة كاملة لا يشوبها أي نقص بخلاف النسختين اللتان اعتمدهما المستشرق فإنهما ناقصتين.[7]

مؤلف المخطوط: لا يوجد في المخطوط أية إشارة تدل على اسم المؤلف، والنسخ المعتمدة في التحقيق لا تحمل في طياتها اسم الناسخ وتاريخ النسخ، ولم يذكر أحد من المؤلفين الذين اعتمدوا المخطوط اسما للمؤلف. ولعل أكثر المؤلفين اقتباسا منه، أبو العباس أحمد المقري في كتابه المشهور، نفح الطيب.

وقد قام المستشرق لويس مولينا(luis Molina) بنشر الكتاب تحت عنوان:" ذكر بلاد الأندلس"، وهي العبارة التي وردت في أول المؤلف.[8] أما الأستاذ بوباية فيؤكد أن عنوان الكتاب هو: "تاريخ الأندلس"، وقد اعتمد في دعواه على أمرين:

الأمر الأول: القاعدة التي جرى عليها أغلب مؤرخي الأندلس بأن يمهدوا لتاريخها بمقدمة جغرافية.

الأمر الثاني: استعمال المؤلف لعبارة: "قال صاحب التاريخ" في ثنايا التأليف.[9]

تحديد تاريخ التأليف: حدد لويس مولينا تاريخ التأليف، بالنصف الثاني من القرن التاسع، مستندا في ذلك على عبارة: "جبرها الله"*، وهي عبارة أوردها المؤلف أثناء حديثه عن الجزيرة الخضراء. وكان النصارى قد استولوا عليها سنة 712هـ.[10]

أما المحقق موضوع دراستنا فإنه ينفي هذا التاريخ، بحيث لا يمكن الاعتماد على هذه الرواية في تحديد التاريخ لأنها قد تكررت أكثر من مرة. وبالمقابل فإنه يعتمد على العبارة التي وردت في النسخة الثالثة، التي لم يطلع عليها لويس مولينا، ونص العبارة: "إنها دار- غرناطة- مملكة المسلمين بالأندلس ودار الإمارة"، ومدينة غرناطة هي المدينة الوحيدة التي لم تقع في أيدي النصارى، بعد استيلائهم على بلاد الأندلس؛ فيكون المؤلف قد ألف كتابه في الفترة الممتدة بين سنة 895هـ إلى تاريخ سقوط غرناطة.[11]

منهج التحقيق: يحدد المؤلف منهجه في التحقيق من خلال الخطوات التالية:

تصويب الأخطاء الواردة في متن المخطوط، من خلال المقارنة بين مختلف نسخ المخطوط والمصادر السابقة له.

الإشارة إلى التصويبات في الهامش، وملء الفراغات الموجودة في المخطوط، ووضع الإضافة بين معقوفتين.

وضع تراجم مختصرة للأعلام البشرية والجغرافية الواردة في المتن، مع شرح المصطلحات الصعبة إن وجدت.[12]

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية: صدر الكتاب عن دار الكتب العلمية بلبنان، سنة 2010م، وهو ثالث كتاب يقوم الباحث بتحقيقه، حول تاريخ الأندلس. ويأتي هذا العمل ليؤكد سعي الأستاذ إلى المساهمة في تحقيق التراث العربي الإسلامي، ولكشف الكثير من الغموض الذي يلف هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي. والتحقيق يكشف عن بروز ملامح محقق لا يكل ولا يمل في سعيه الدءوب إلى عملية التحقيق، وتقريب المخطوط إلى المهتمين من أساتذة وباحثين وطلبة العلم. وكما يعرف الباحثون فإن عملية التحقيق تتطلب الكثير من

الجهد المالي والفكري، والوقت الكثير للوقوف على دقائق الأمور، وقد تكلف العبارة الواحدة من الوقت الشهور الطوال.

والحلل الموشية على عكس المؤلف الأول مؤلفه معروف، وهو ابن سماك العاملي من علماء القرن الثامن الهجري. ولم يمنع هذا الأمر المحقق من السعي وراء التحقق من نسبة الكتاب إلى ابن سماك، بل تحقق من الأمر من خلال الرجوع إلى المصادر التي تناولت الكتاب بالذكر والدراسة من أمثال: العباس بن إبراهيم السملالي لمراكشي، وعبد السلام بن عبد القادر بن سودة، ومن المحدثين رجع المحقق إلى أعمال: محمود علي مكي، محقق كتاب الزهرات المنثورة.[13]

وللتأكد من صحة نسب الكتاب إلى ابن سماك العاملي، قام المحقق بمقارنة الحلل الموشية مع كتابين آخرين وهما: كتاب الزهرات المنثورة وكتاب رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير، وكلاهما ثبتت نسبته إلى ابن سماك العاملي.

وشملت المقارنة الأسلوب والتعابير المستعملة في الكتب الثلاثة، والأخبار المتداولة في طياتها.

ومما يثبت نسبة الكتاب إلى ابن سماك العاملي تطابق الكثير من العبارات الواردة في متن النسخ الثلاثة للمخطوط، ومن بين هذه العبارات يذكر المحقق:

قال المؤلف في بداية تأليفه: "والدعاء لهذا المقام العلي الأسمى"، وقد وردت هذه العبارة في مؤلف الزهرات المنثورة. ووردت عبارة:" والدعاء لهذا المقام العلي المحمدي النصري" في كتاب رونق التحبير. ووردت عبارة:" والدعاء لهذا المقام العلي المحمدي النصري السلطاني" في كتاب الحلل الموشية.[14]

أما في خاتمة كتاب الحلل فإننا نجد العبارة التالية: "اللهم واحفظ إيالته الكريمة التي كرم منتهاها، واشكر سعيه في حوزة الإسلام التي دافع عنها وحماها، اللهم واحفظ بحسن سيرته جميع الأحياء، وأبلغه من فضلك أقصى الأماني وغاية الرجاء، اللهم أبقه يحي في هذه الجزيرة رسوم طارق بن زياد، ادم لنا أيامه التي هي المواسم والأعياد ...".

أما في كتاب في رونق التحبير فقد وورد العبارة التالية: "اللهم احرس بعينك التي لا تنام دولته التي كرم منتهاها، واشكر سعيه عن حوزة الإسلام التي دافع عنها وحماها...، اللهم وحط

بحسن نظره جميع الأرجاء، وبلغه بفضلك أقصى الأماني وغاية الرجاء، اللهم أبقه يحي في هذه الجزيرة رسوم طارق بن زياد، وأدم لنا أيامه التي هي المواسم والأعياد ..."[15].

ويقف الأستاذ عند تاريخ وفاة ابن سماك ورغم ان المؤرخين يذكرون ان ابن سماك كان حيا في نهاية القرن الثامن الهجري، فإن المحقق يرجح أنه توفي بين سنتي 812هـ 820هـ، ذالك أن ابن سماك كان قد أهدى كتابه رونق التحبير للخليفة المستعين بالله، المتوفى سنة 811هـ، كما مدح يوسف الثالث المتوفى سنة 820هـ.[16]

منهج المؤلف في التحقيق: يعتمد المحقق في تحقيقه لأي مخطوط بصفة عامة، وفي الحلل الموشية بصفة خاصة على النسخ المتوفرة من المخطوط،* ويعيد كتابتها، ثم يقوم بمقارنتها بالنسخ الأخرى.

ومن خلال هذه المرحلة يقوم بتصحيح الأخطاء الواردة في النسخة الأم، معتمدا على بقية النسخ، وربما لجأ إلى المصادر المعاصرة، مستنيرا بها في تصويبه لمتن المخطوط.

وكما هو الشأن في تحقيقه لمخطوط:" تاريخ بلاد الأندلس" فإن المحقق يقوم بتحقيق الأعلام البشرية والجغرافية الواردة في المتن، والتعريف بالكلمات الصعبة.

وتيسيرا على القراء من مهتمين وباحثين، فإن المحقق يضع مجموعة من الإشارات المفتاحية، من شأنها أن توجه القارئ إلى ما أضافه الباحث من تصويبات وتعليقات وزيادات.[17]

مفاخر البربر: ومؤلفه مجهول، وقد صدر عن دار أبي رقراق بالرباط، سنة 2005. وهذا المؤلف كان في الأصل رسالة جامعية، تقدم بها الأستاذ للحصول على رسالة الماجستير من جامعة وهران.

واتفق المؤرخون والدارسون على أن مؤلف المخطوط مجهول، ويستبعد الأستاذ بوباية أن يكون هذا المخطوط من تأليف ابن عذارى، بسبب الاختلاف الكبير في الأسلوب الكاتبين. فالغالب على أسلوب ابن عذارى أنه يؤرخ للحكام، أما مؤلف مفاخر البربر فنجده يركز على القبائل البربرية وعلاقتها فيما بينها، وعلاقتها مع الفاطميين والأمويين بالأندلس.[18]

ويختلف هذا التحقيق عن لاحقيه من المخطوطات المحققة ، أن المحقق أشار في بداية مؤلفه إلى العمل الذي قام به المستشرق ليفي بروفنسال عند نشره لقطعة من المخطوط سنة 1934م. وقد أغفل بروفنسال الكثير من أجزاءه، كما أن نشرته احتوت الكثير من الأخطاء.[19]

تصحيح الأخطاء الواردة في المخطوط: لعلّ من بين أهم جهود المحقق التي بذلها في تحقيق المخطوط حرصه على تصحيح بعض الأخطاء التاريخية الواردة في المتن، وعمله يدل على إلمام الباحث بحركة سير التاريخ بحوادثه وصانعيه، كما تدل على الروح النقدية عند المحقق، وأنه ما كان ليقف منبهرا أمام ما وقع بين يديه من مادة تراثية.

ومن بين هذه الأخطاء كما يشير إليها في بداية التحقيق:

1-قضية حمامة ومعنصر*

2-تولية عقبة بن نافع على المغرب.*

3-بناء مدينة مراكش*

وهناك مواطن أخرى وقع فيها الخطأ ليس المجال لذكرها، وإنما أشرنا لبعضها، نريد بذالك أن نشير إلى بعض ملامح الحس النقدي عند المحقق، والتي نعتقد أنها من أهم الأوصاف التي يجب أن يتصف بها الباحث في التاريخ، وبخاصة التاريخ الإسلامي الذي تشوبه الكثير من الشوائب. فلا ينبغي للباحث في مجال التاريخ أن تمر عليه النصوص وكأنها أمر لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من بين يديه.

منهجه في التحقيق:

– الاعتماد على نسختين من المخطوط.*

– تصحيح الأخطاء الواقعة في المخطوطتين.

– إتمام النقص الوارد في المخطوط بعد البحث الدقيق عن مغزى الكلام ومقتضيات السياق. من خلال الاعتماد على المصادر التاريخية التي تناولت التأريخ لتلك الفترة.

خاتمة: إن التراث الإسلامي لا يزال في حاجة ماسة إلى جهد الباحثين من أجل دراسته وتحقيقه، والتعريف به ليستفيد به أهل الاختصاص، ونحن في موقف نشيد بالجهد الذي يبذله الأستاذ بوباية في التعريف بالتراث العربي الإسلامي، وندعو إلى تكاثف الجهود من أجل خدمة التراث الإسلامي، ونذكر هنا الكلمات التي ذكرها الأستاذ محمد العلمي الوالي في تصديره لمفاخر البربر: "وأخيرا كم نحن في حاجة ماسة لمثل هذا الكتاب في وقتنا هذا الذي فسدت فيه المفاهيم والنوايا والأخلاق الوطنية والمواطنة الصادقة التي تدعوا إلى الصفاء والتآخي.."

الهوامش:

1– عبد القادر بوباية، المؤنس في مصادر تاريخ المغرب والأندلس، كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2001م، ص.6

2 نفسه، ص 9-15.

3- أنظر المؤنس في مصادر تاريخ المغرب والأندلس- من ص09 إلى ص275.

4- نفسه، ص 6.

5- تاريخ الأندلس، مؤلف مجهول، دراسة وتحقيق بوباية عبد القادر، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان،2007، ص5.

6- نفسه،ص6.

7- نفسه،ص7.

8- ذكر الأندلس الأندلس، مؤلف مجهول، دراسة وترجمة لويس مولينا، مدريد، ص5.

9- نفسه، ص9

* وردت العبارة في الصفحات:109، 111، 122، 130، 132. استعملت عبارة :" فتحها الله" في الصفحة:126،، وعبارة:" أعادها الله" في الصفحات: 133، 134، 135، 138. *

10- نفسه، ص10

11-نفسه، 11

12- نفسه،ص32

13- ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2010م، ص5.

14- نفسه، ص6،ص7.

15- نفسه، ص7.

16- نفسه،ص 14.

* اعتمد المحقق على أربعة نسخ.

* بلغ عدد المصادر المخطوطة التي اعتمدها المحقق: اثنان، أما المصادر المطبوعة فقط بلغت مائة وستة عشر مصدرا.

17- نفسه،ص39.

18- مفاخرالبربر، مؤلف مجهول، تحقيق ودراسة عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، 2005، ص29.

19- نفسه،ص34/35.

* وهما ولدي المعز بن زيري ، وقد ارسلهمارهينة للمظفر عبد الملك بن محمد بن أبي عامر مقابل تقليده بلاد المغرب، وهذا الخبر يختلف عن ما ورد في المصادر الأخرى.(راجع مفاخر البربر، ص81/82)

* ورد في مفاخر البربر أن عقبة ولي إفريقيا في أواخر دولة معاوية سنة 63هـ، والأصح أن معاوية توفي سنة 60هـ، وسنة 63هـ هي سنة وفاة عقبة بن نافع.(أنظر مفاخر البربر، ص83/84)

* وذكر المؤلف أن يوسف بن تاشفن شرع في بنائها سنة475هـ، بنما يذكر غيره أنها بنيب سنة462هـ.(أنظر مفاخر البربر، ص83/84)

* الأولى تحمل رقم ك1275، والثانية تحمل رقم:د 1020.

المؤرخون والكتابة التاريخية في منطقة توات ما بين القرنين 12و14هـ (18-20م).

أ.مبارك جعفري*

تعد منطقة توات في الجنوب الغربي للجزائر من بين أهم الحواضر الصحراوية، بسبب موقعها الذي يتوسط الصحراء، وكونها محطة رئيسية على طريق القوافل التجارية، تعود عمارتها إلى عصور ما قبل التاريخ حسب الشواهد الأثرية، وبعد دخول الإسلام إلى شمال أفريقيا لعبت دورا أساسيا في انتشار الإسلام جنوب الصحراء، وفي العلاقة بين دول ومماليك المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وقد زادت أهميتها التجارية بعد تراجع الطريق الصحراوي الغربي الربط بين مراكش وغانا نتيجة لسقوط مملكة غانا وقيام مملكة مالي، وهو ما ساهم في تطورها وعمارتها وأهلها لتصبح إحدى أهم المحطات التجارية(1).

ونظرا لتلك المكانة توافد عليها كثير من علماء المغرب الإسلامي نذكر منهم: الشيخ مولاي سليمان بن علي الذي قدم من فاس سنة 580هـ/1184م(2)، الشيخ عيسى بن محمد البطوي قدم سنة 714هـ/1314م(3)، الشيخ أبو يحيى محمد المنياري جاء لتوات عام 815هـ /1412م(4)، الشيخ يحي بن يدر بن عتيق التدلسي حل بتمنطيط سنة 845هـ/1441م(5)، الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني التلمساني وأبن أخيه الشيخ سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني جاء سنة 862هـ/1458م(6)، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي حل بتوات سنة 882هـ/1478م، الشيخ العبدلاوي بن الطيب الفزاني الليبي الذي قدم سنة 992هـ/ 1584م(7)، الشيخ أحمد بن محمد الرقاد الكنتي حل سنة 999هـ/1590م(8)، الشيخ أحمد ألتيجاني مؤسس الطريقة التجانية قدم سنة 1196هـ/1782م(9)، كما زار المنطقة الكثير من الرحالة والمؤرخين مثل الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة سنة754هـ/1353م(10)، التاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Malfan Antonio) سنة 850هـ/1447م(11)، المؤرخ الرحالة حسن (ليون الإفريقي) سنة917هـ/1511م(12)، أبو سالم العياشي

* أستاذ مساعد أ في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم العلوم الإنسانية- جامعة الوادي.

سنة1072هـ/1661م[13]، الحاج ابن الدين الأغواطي سنة 1244هـ/1828م[14] الرحالة الألماني جير هارد رولف سنة 1864م[15]...وغيرهم.

ومن دون شك ساهم تحسن الأوضاع الاقتصادية والبعد عن الصراعات في الشمال وقدوم هؤلاء العلماء في تطور المنطقة وازدهارها الفكري بداية من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي واستمر إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر، برز خلالها مجموعة من العلماء في مختلف الفنون وتعدى صيتهم ربوعها إلى مختلف حواضر المغرب الإسلامي، ومن العلوم التي أهتم بها التواتيون علم التاريخ وما يتصل به من تراجم وسير ورحلات دراسة وتأليفا، حيث تضم خزائن المنطقة اليوم العديد من المخطوطات في هذا المجال، كما كان التاريخ في توات يدرس في المدارس والزوايا، خاصة ما ارتبط منه بالدين مثل: السيرة النبوية الشريفة، وسير الصحابة والصالحين، وتراجم العلماء والمشايخ، أو كدروس تلقى على العامة خلال مناسبات معلومة: كشهر رمضان والمولد النبوي الشريف، دون أن ننسى الروايات الشفهية أو حكايات القصاصين التي امتزجت بالأسطورة وكان يرددها الناس في مجالس السمر وعند الأعمال الجماعية (التويزة)، كحفر الفقاقير، وتتضمن أحداث وقعت أو لم تقع، وكرامات الأولياء والصالحين، أو تاريخ بناء هذا القصر أو ذاك، أو قدوم هاته القبيلة أو تلك.كما حاول بعض العلماء داخل الإقليم القيام بكتابات تاريخية جادة تؤرخ له ولا زال البعض منها موجود في خزائن المنطقة، وضاع البعض الآخر مثل ما ضاعت الكثير من المخطوطات وكانت دوافع الكتابة التاريخية في توات متعددة منها:

– قدوم العلماء والرحالة والمؤرخون إلى توات حسب ما تمت الإشارة إليه في المقدمة مثل ابن بطوطة، والمغيلي، والعياشي، ...وغيرهم، كان لهم دور بارز في دفع حركة التأليف وجعل التواتين يحذون حذوهم.

– إزهار تجارة الكتب والمخطوطات التي أصبحت سلعة رائجة لها تجارها وأسواقها تدر أرباح كثيرة بأضعاف ما تجنيه السلع الأخرى وهو ما أشار إليه حسن الوزان[16]، ويمكن القول أنه أحيانا كانت ثالث سلعة من حيث الرواج بعد الذهب والعبيد، ولكون توات ممر رئيسي للقوافل التجارية، ومن تم شجعت المؤلفين على التأليف في شتى الفنون ومنها التاريخ.

– تنقل علماء توات لكبرى الحواضر وتأثرهم بكبار العلماء، وبالتالي كانوا يكتبون أسانيدهم ويترجمون لمشايخهم ويدونون رحلاتهم في طلب العلم، ومنهم الشيخ عمر بن عبد

القادر التنلاني الذي درس في فاس، وعبد الرحمان بن عمر التنيلاني الذي زار المغرب وبلاد السودان[17] .

– رحلات الحجيج وكانت فرصة سنوية للإطلاع على أحوال العالم الإسلامي، وشجعت التواتين على كتابة تلك الرحلات وتأريخها كما كانت توات طريقا رئيسا لحجيج السودان الغربي وجنوب المغرب والصحراء، مما جعلها فرصة يتحينها الطلبة والعلماء للالتقاء بالمشايخ وأهل الفضل لمجالستهم وحضور دروسهم والاستفادة منهم. وكتابة أسانيدهم، وفي هذا السياق يذكر الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني في فهرسته؛ أنه التقى بالشيخ أبو عبد الله محمد بن على الدرعي الذي التقى به في قصر زاجلو بعدما كان في ركب الحجيج لسنة 1147هـ /1734م وأخذ عنه أسانيده التي ذكرها في ترجمته[18].

– الكتابة بناء على أوامر عليا أو لدافع مادي وظهرت بعد دخول الاستعمار الفرنسي حيث أجبر الاستعمار بعض الأعيان والمثقفين على كتابة تقارير أو القيام برحلات بغيت الاستفادة منها في أغراضه التوسعية مثل: المؤرخ سلكة عبد الرحمان الذي كان عاملا في الإدارة الفرنسية، وعبد القادر بن أبي بكر التواتي الذي قام برحلة بناء على طلب ضابط المكتب العربي بقسنطينة بواسوني (Boissonet) مقابل 500 فرنك فرنسي[19].

– انتشار المكتبات داخل الزوايا وعند الأعيان ووجود عدد كبير من أمهات الكتب التاريخية القادمة إلى الإقليم وهو ما جعل الطلبة يقدمون على قراءة التاريخ ومعرفة أهميته ومن ثم كتابته.

أما بخصوص الكتابات التاريخية للتواتين فهي كثيرة ومتعددة الأشكال يصعب حصرها وسنحاول التعريف بأهمها.

أهم المؤلفين وكتاباتهم التاريخية:

– الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني(ت1152هـ/1739م)[20]: ولد سنة 1098هـ/1687م دَرَسَ في جامع القرويين بفاس ودَرَّسَ بها، بعد عودته سنة 1129هـ/1717م استقر بزاوية تنيلان أين بدأ يزاول نشاطه التعليمي كما تولى القضاء، من مؤلفاته "رحلته في طلب العلم لسجلماسة وفاس"[21] وهي من الحجم الصغير ثلاثون صفحة (نسخة بعبد الله) ويذكر فيها أشياخه، وتصدره للتدريس، بالمدرسة المصباحية وجامع القرويين، وهي تعطينا فكرة واضحة عن

التدريس في جامع القرويين وأهم العلماء هناك خلال القرن 12هـ، والرحلة لم تحقق بعد حسب علمي.

– الشيخ عبد الرّحمن بن عمر التنيلاني(1189هـ/1775م)[22]: من أشهر علماء القرن الثاني عشر، درس في توات وسجلماسة وأروان على يد شيوخ كبار منهم: الشيخ عمر بن عبد القادر التنيلاني، الشيخ محمد بن اب المزمري، الشيخ صالح بن محمد السجلماسي اللمطي، أبو عبد الله محمد بن علي الدرعي، أبو العباس احمد بن صالح التكروري، تضلع في مختلف العلوم وأصبح مرجعا في الفتوى لكثير من العلماء والقضاة، له عديد المؤلفات في مختلف الفنون منها كتابه "فهرست التنيلاني"[23] وهو مؤلف من الحجم المتوسط حوالي مئة صفحة (نسخة تنيلان) تضمن التعريف بشيوخه حيث ترجم المؤلف لاثني عشر شيخا من شيوخه في توات والمغرب الأقصى وبلاد السودان، وذكر تأليفهم وإجازتهم التي أجازوه بها ومرويا تهم والعلوم التي أخذها عنهم، والكتاب يعطينا صورة واضحة عن الحركة التعليمية بصفة عامة في توات والمناطق التي زارها المؤلف في السودان الغربي والمغرب الأقصى وهو دقيق في وصفه وفي حله وتر حاله، كما له مؤلف "رحلة إلى الحج"[24] وهي رحلة صغيرة من عشرون صفحة من الحجم الصغير (نسخة باعبد الله) يذكر فيه مراحل الطريق مرحلة مرحلة، وفي طريق العودة باغتته المنية في مصر قبل إتمامه عام 1189هـ/1775م، ودفن في مصر بمقبرة سيدي عبد الله المنوفي.

– الشيخ محمد بن عمر بن أحمد الحبيب بن محمد بن المبروك البداوي[25]: درس على يد والده الشيخ عمر بمسقط رأسه بودة[26]، تضلع في مختلف العلوم ومارس الإفتاء ببلدته، كما كان خطاطاً يشرف على كتابة وثائق المعاملات، وتذكر المراجع التي ترجمت له أنه توفي سنة 1212هـ/1798م غير أنه وبعد إطلاعنا على المخطوط وجدنا فيه ذكر لكتاب "الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"[27] للمؤرخ الناصري السلاوي (ت1250–1315هـ/1834–1897م)، وهو ما لا يمكن تطابقه مع تاريخ وفاته والراجح أنه عاش في نهاية القرن 13 وبداية القرن 14هـ، كان له اهتمام واضح بالتاريخ، وهو ما جعله يقدم على تأليف كتابه "نقل الرواة عمن أبدع قصور توات"[28] الذي للأسف لم يبقى منه إلا إحدى عشر ورقة وهي بخط المؤلف[29] وقد ذكر في مقدمته أنه يتضمن مقدمة وثلاث أبواب وهي كالآتي: مقدمة في أصل كلمة توات وقصورها وفقاقيرها، الباب الأول: في الأحداث الجارية بتوات، من القرن الثامن

حتى القرن الثاني عشر الهجريين، الباب الثاني: في التعريف بمشاهير علماء توات، الباب الثالث: في الأخبار التاريخية لجهة بودة، ولكن لم يصلنا إلا جزء من المقدمة، أما باقي المخطوط حسب ما جاء في مقدمته مفقود حسب أغلب الباحثين[30] أو يكون المؤلف قد توقف عن كتابته لداعٍ ما. وعلى كل حال يمكن القول أن الدارسين للتاريخ في توات قد حرموا من مصدر هام حول تاريخ المنطقة، أما ما تبقى منه رغم أنه لا يمثل إلا جزء من المخطوط غير أنه يكتسي أهمية كبرى ويظهر من خلاله إطلاعه الواسع على كتب التاريخ ويذكرنا بكتاب آخر في التاريخ مفقود وهو كتاب "أصول أهل توات" لسيدي أحمد بن يوسف التنيلاني(ق11هـ/17م)، كما أعطانا تعريف عن أصل التسمية "توات" وأصل الفقاقير، ولو أكمل المؤلف كتابته أو تم العثور على الأجزاء المفقودة منه سيكون لا محالة من أهم مصادر تاريخ توات.

–الشيخ عبد الرحمان بن إدريس بن عمر التنيلاني[31]: ولد عام 1181هـ/1767م، كان عالما ماهرا في الفقه والأدب، سافر لفاس وتتلمذ على يد الشيخ عبد القادر بن شقرون، توفي في شهر جمادي الثانية عام 1233هـ/1818م، له مؤلف مشهور"رحلة إلى مدينة الجزائر"[32] وهي في مخطوط من الحجم الصغير حوالي ثلاثة عشر صفحة (نسخة تنيلان) ولم تحقق إلى اليوم، تضمنت رحلته التي بدأها في 01 شعبان 1231هـ/26 جوان1816م، وتكمن أهميتها أنها تزامنت مع الحملة الإنجليزية الهولندية على مدينة الجزائر شوال 1231هـ/أوت1816م حيث كان موجود في مدينة الجزائر ووصف لنا الهجوم وصفا دقيقا وهو من المصادر العربية القليلة رفقة "مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار"[33] التي تحدثت عن الهجوم، ولم يكتفي صاحب الرحلة بوصف الأحداث بل حاول تعليلها فهو يذكر مثلا أسباب هزيمة الجزائر في هاته الحرب[34] وذكر خسائر الجزائر والنصارى وأوضاع المدينة بعد الحملة وبنود الصلح[35]، كما تميز بالموضوعية حيث يقول: ((يصف هذه الوقيعة بوصفها الحقيقي ولا أدري بما أشبهها))[36] ، كما يكثر من قول : أبلغني تحقيق ذلك، والقاضي المالكي أخبرني[37]، الدقة في تحديد زمن الأحداث حيث يقول: وقعت بعد صلاة الظهر، وقبل العصر، ومرة على ذلك إحدى عشر ساعة غير سدس[38]، والرحلة مصدرا من مصادر تاريخ الجزائر العثمانية بداية القرن 19م.

- محمد الطيب بن عبد الرحيم التمنطيطي[39]: محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم المشهور باسم "ابن بابا حيدة" وهو من فقهاء مدينة تمنطيط ولد سنة 1184هـ/1770م، نبغ في الفقه واهتم بالتاريخ والأنساب، له كتاب مشهور "القول البسيط في أخبار تمنطيط"[40]، وهو كتاب من الحجم الصغير عشرون صفحة تقريبا (نسخة كوسام) ويشمل تاريخ مدينة تمنطيط وعمارتها ومكانتها السياسية والاقتصادية، وأسماء القبائل التي سكنتها حتى عصره، وتاريخ بعض القبائل والعلماء. ونظرا لأهمية هذا المصنف فقد حضي بإعجاب المؤرخين الفرنسيين ومنهم (مارتان) الذي أفرد له ترجمه في كتابه "أربعة قرون من تاريخ المغرب والصحراء"[41]، وقام الباحث فرج محمود فرج بتحقيق هذا المخطوط ونشره، وأشاد الأستاذ المهدي البوعبدلي بأهمية هذا المخطوط وعده من الكتب النادرة حول تاريخ توات وخاصة عاصمتها تمنطيط[42].

- محمد بن عبد القادر بن عمر التنيلاني[43]: من العائلة التنيلانية نزيل مهدية له مؤلف بعنوان "الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف الادريسيين والعلويين"، وهو مخطوط من الحجم الصغير- خمسة وثلاثون صفحة (نسخة كوسام)- قال مؤلفه: إنه فرغ من كتابته يوم الأحد الثالث عشر صفر عام 1250هـ/1834م، وفيه تراجم لعلماء توات بصفة مقتضبة، وذكر أنه أخذها من تقاييد لوالده، والمخطوط لم يحقق بعد حسب علمي.

- الحاج عبد القادر بن أبي بكر هيبة الله الشريف التواتي: الأرجح حسب رحلته أنه ولد في بداية القرن التاسع عشر في أولف بتديكلت، كان ذا ثقافة واسعة وعلى علم بالصحراء، اتصل ببعض الضباط الفرنسيين في تقرت الذي طلبوا منه معلومات عن الصحراء فقام برحلتة سنة 1266هـ/1849م، ودونت بشكل نهائي سنة 1268هـ/1851، والرحلة انطلقت من توات إلى تقرت ومنها إلى قسنطينة ثم بسكرة فتقرت ثانية ثم تماسين ثم ورقلة ثم ميزاب فمتليلي ثم لقليعة ثم تيميمون وصولا إلى أولف التي دون بها رحلته[44]، ونظرا لأهميتها ترجمها القس بارجيس، وجاءت في كتاب "الصحراء والسودان"[45]، وهي من الأهمية بمكان بحيث تعطينا صورة عن الصحراء الجزائرية خاصة الأماكن التي زارها من حيث: السكان والأوضاع السياسية وهجمات القبائل على القوافل التجارية، كما عرفنا بأماكن الآبار في الصحراء والمسافات بين المناطق، وأسماء النباتات والحيوانات والمعادن، بالإضافة إلى معلومات تاريخية سابقة عند المؤلف وضمنها للرحلة حول التوارق وحولياتهم، ومعلومات عن مدينة تمبكتو ...وغيرها[46]

- محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي[47]: سليل العائلة البكرية العريقة، ولد بتمنطيط سنة 1300هـ/1883م، درس في كوسام على يد الشيخ عبد الله بن أحمد الحبيب وتفقه في الدين، مارس التدريس والقضاء، توفي سنة 1374هـ/1955م، يعد من أشهر المؤرخين في توات، وله كتابين مهمين في تاريخها هما: "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام"[48]، وهو مخطوط صغير الحجم من سبعين صفحة (نسخة كوسام)- سبعة وثلاثون صفحة (نسخة المطارفة)، أفرده للتعريف بتوات وتاريخ عمارتها وتاريخ قدوم أهم القبائل وأبرز العلماء بشكل مختصر، والمؤلف الثاني هو"جوهرة المعاني فيمن ثبت لدي من علماء الألف الثاني"، وهو كتاب من الحجم الصغير- ستون صفحة (نسخة كوسام)- ترجم فيه لثمانية وخمسين عالما عن علماء توات وبلاد المغرب، وهما كتابان لا غنى عنهما للباحث حول تاريخ المنطقة ويستمدان أهميتهما من كون صاحبهما كان قاضيا وشيخا من شيوخ الزاوية البكرية بتمنطيط ومكتبتها العريقة، كما كان على إطلاع واسع بالتقاييد وشجرات الأنساب، كما يتميز طرحه بالموضوعية والابتعاد عن الروايات الشاذة التي لا يقبلها العقل، وله مؤلف آخر في الأنساب هو "الكواكب البرية في المناقب البكرية"[49]، وفيه ذكر لنسب الشيخ البكري بن عبد الكريم والعائلة البكرية التي حملت اسمه.

- عبد الرحمن سلكة: تعلم الفرنسية مما أهله للعمل في إدارة المكتب العربي بتوات منذ سنة1331هـ/1913م، له مؤلف تاريخي باللغة الفرنسية بعنوان "ملخص بخصوص توات"[50]، جمع فيه معلومات واسعة عن الإقليم أو ربما كان دراسة بناء على طلب أحد الضباط الفرنسيين، ظهرت الدراسة سنة 1340هـ/1922م وهي دراسة مهمة تعرفنا بتاريخ المنطقة وقصورها وعدد سكانها والعادات والتقاليد والطبقات ومختلف الأنشطة الاقتصادية، كما تحدث عن علماء توات وعلاقاتهم مع علماء الجزائر، واعتمد في كتابه على الرواية الشفهية والمخطوطات، وهو كتاب مهم لا غنى عنه للباحث خاصة في بداية القرن العشرين الميلادي.

- الشيخ مولاي احمد الطاهري الإدريسي(ت1399هـ/1979م): من مواليد عام 1325هـ/1907م بالمغرب الأقصى، حفظ القران الكريم، وتبحر في العلوم الشرعية واللغوية، جال في مناطق مختلفة فزار شنقيط والسودان، ومر على توات فطاب له المقام بها، احتضنه أولاد سي حمو بسالي، وأسسوا له مدرسة قرآنية، ذاع صيته في المنطقة، وكان له فضل في تخريج الكثير من الأعلام المعاصرين ومنهم: الشيخ محمد باي بلعالم، والحاج عبد القادر

المغيلي وغيرهم، توفي بالمغرب عام 1399هـ/1979م[51]، أهتم بالتاريخ وله مخطوط "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات"[52] الذي يعد من بين المخطوطات المهمة التي تؤرخ لتاريخ منطقة توات، وقد ألفه على وجه التقريب في الستينيات من القرن الماضي، والمخطوط غير محقق، وهو من الحجم المتوسط- عدد صفحات المخطوط 183 صفحة (نسخة كوسام)، تضمن عديد المحاور المتداخلة منها سيرة المؤلف وقدومه إلى توات، والتعريف بقصور توات وبعض أخبارها والأنساب، وتضمن المخطوط بعض المعلومات التاريخية المقتضبة حول جبهة التحرير في الجنوب وقضية فصل الصحراء، وتكمن أهميته في كون صاحبه عالم جليل وذو إطلاع واسع على خزائن المنطقة وعالم بأنسابها كما تحرى الدقة في كتابته حسب قوله: "...وقد تحريت في كتابة هاته العجالة الكثير من التحريات فلم أكتب شيء إلا عن الثقات من الرجال الصادقين والعلماء العارفين..."[53]، ولا غنى عنه بالنسبة للمؤرخين لتاريخ المنطقة خاصة خلال القرن الرابع عشر الهجري العشرين ميلادي.

- محمد العالم بكراوي: من العائلة البكرية، سكن المنيعة (ولاية غرداية)، له كتابين مشهورين حول الأنساب وتراجم العلماء، الأول: "ترجمة وجيزة لبعض علماء توات"[54]، وهو مخطوط من الحجم الصغير- أربعة وثمانون صفحة من الحجم الصغير نسخة (تمنطيط)-، وتتضمن ترجمة مختصرة لبعض علماء توات، والمخطوط الثاني: "الدرة البهية في الشجرة البكرية"[55]، وهو مخطوط من الحجم المتوسط- حوالي مائة وثمانون صفحة (نسخة تمنطيط)-، وخصّصه المؤلف لعلماء وتراجم الأسرة البكرية من الشيخ ميمون بن باز القرن العاشر الهجري لغاية القرن الرابع عشر، وتناول في الفصل الثالث[56] بعض أخبار توات، ويبدو أن المؤلف أعتمد بشكل كبير على مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي.

- الشيخ محمد باي بلعالم(ت 1431هـ/2009م): ولد في قرية ساهل باقبلي التابعة لدائرة أولف عام 1349هـ/1930م، يعود نسبه إلى قبيلة فلان المشهورة في غرب ووسط أفريقيا، أخذ العلم عن والده ثم على يد الشيخ مولاي احمد الطاهري الإدريسي، قام بتأسيس مدرسة دينية بأولف، وكان شديد التأثر بالشيخ عبد الحميد ابن باديس وحركته الإصلاحية، له العديد من المؤلفات في أغراض مختلفة منها مؤلفات تاريخية أبرزها كتاب "الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات"، ويظهر من

خلال عنوانه أنه كتاب يتضمن الكثير من الأخبار والرحلات، وهو خلاصة تجربة الشيخ التي تزيد عن ستين سنة قضاها في طلب العلم والتدريس والفتوى، والتنقل بين مختلف جهات الوطن وأقطار العالم الإسلامي.

والكتاب يتحدث عن ملاقاته العلماء ومراسلاته ومناقشاته معهم، وهو من الحجم الكبير في جزئيين، وحوالي ألف ومائة صفحة، وتم طبعه سنة 1426هـ/2005م[57]، وهو غني وثري لا غنى للباحث عنه، ويتضمن الكثير من المادة التاريخية الخام التي يصعب الوصول إليها، رغم أنه ابتعد عن المنهج التاريخي في كتابته، وله كتاب "قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر"[58]، وهو كتاب من الحجم المتوسط– خمسمائة صفحة– أفرده للتعريف بقبيلته فولان، وهي من أكبر القبائل في أفريقيا، ولها فروع في توات حيث ذكر أصولها وأماكن تواجدها، وترجم لأهم أعلامها في توات وغرب أفريقيا، ودورها في العلم والجهاد، وهو كتاب مهم يلخص تجربة الشيخ في البحث عن أصول قبيلته وعلاقاته مع أفرادها في مختلف الدول، تميز بالموضوعية إلى حد كبير، وعرض فيه المؤلف مختلف وجهات النظر حو لها.

كما له مؤلف تاريخي آخر بعنوان "الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني"[59]، وهو كتاب من الحجم الصغير– أربع وتسعون صفحة– أفرده للتعريف بالشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني مستفيدا مما في خزانته من مخطوطات ومؤلفات الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينيلاني.

– أهم خصائص الكتابة التاريخية في توات: يمكن من خلال الإطلاع على بعض المؤلفات التاريخية في توات، وما يتصل بها من أبحاث ودراسات أن نستنتج مجموعة من المميزات ميزت الكتابة التاريخية والمؤرخين منها:

– المحلية أي أن معظمها كانت حول توات وتاريخها باستثناء بعض الرحلات التي أرخ أصحابها للأماكن التي زاروها، ولكن ظلت مرتبطة بهم مثل: رحلة عبد الرحمان بن عمر إلى الحج، ورحلة عمر بن عبد القادر لسجلماسة وفاس، أو رحلة الشيخ عبد الرحمان بن إدريس لمدينة الجزائر، بل أكثر من ذلك اختص البعض منها في تاريخ قصر "البسيط في أخبار تمنطيط" أو تاريخ عائلة مثل "الكواكب البرية في المناقب البكرية"، حتى أن تداولها وانتشارها

ظل في أغلبه محصورا في توات، باستثناء بعض الكتابات حول الأعيان والشخصيات البارزة مثل المغيلي.

- اقتصرت الكتابة التاريخية على بعض العائلات التي اشتهرت بمكانتها العلمية كالعائلة البكرية في تمنطيط، والتنيلانية في تنيلان، والجعفرية في بودة....الخ

- تأثرها بالجانب الديني بما أن أغلب هؤلاء المؤرخين كانوا فقهاء وقضاة وشيوخ زوايا، وبالتالي حملت طابعا دينا وجاءت فيها الكثير من النوازل والمسائل الفقهية، أو ربما لكون القضاة وشيوخ الزوايا هم الأكثر إطلاعا على أحوال الناس وعلى الوثائق والمعاملات والتقاييد وبالتالي توفرت لهم المادة التاريخية دون غيرهم.

- اهتم معظمها وبشكل أساسي على التأريخ للعلماء والمشايخ، ولم تؤرخ لوجهاء القبائل وأصحاب النفوذ أو لأحداث سياسية.

- غياب التخصص عند المؤلفين فمعظمهم شيوخ زوايا وفقهاء حاولوا المزاوجة بين مهامهم والكتابة التاريخية.

- اعتماد الصنعة والسجع في صياغة العناوين مثل "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات"، "قطف الزهرات من أخبار علماء توات"، وفي بعض الأحيان يكون ذلك على حساب الموضوع فمثلا مخطوط "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام"؛ فالزمان (بعد الإسلام) والمكان (المغرب) بعيدان عن موضوع المخطوط حول توات.

- الخروج عن النص فكثيرا ما يخرج المؤلف عن النص إلى مواضيع ليست لها علاقة بالتاريخ، وهذا يتكرر في كثير من المؤلفات مثلا: مخطوط نسيم النفحات نجد أنه من الصفحة 09 إلى 26 حديث عن الأولياء وكراماتهم[(60)]، وهو ما يتكرر في الصفحة 36 إلى 84[(61)]، وفيها حديث عن الصحابة والأولياء...وغيرها، كذلك مخطوط جوهرة المعاني تضمن من الصفحة 31 إلى الصفحة 36 قصيدة من خمسين بيتاً خارجة عن النص[(62)].

- جاءت معظمها في أحجام صغيرة لا تتعدى المائة صفحة، وميلها الشديد للاختصار المخل وعدم التفصيل في أمور كانت بحاجة لذلك فمثلا: رحلة عبد الرحمان بن إدريس للجزائر العاصمة سنة 1231هـ/1816م جاءت في ثلاثة عشر صفحة، وهي قليلة مقارنة بحجم الأحداث التي شاهدها، ولو كان أطال قليلا في الوصف ورتب الأحداث بشكل جيد لكان من أهم المصادر في تاريخ الجزائر العثمانية لقلتها.

- مراعاتها لخصوصية وطابع المنطقة والعرف والعادات والتقاليد، حيث تحاشت في كثير من الأحيان الحديث في بعض المواضيع مثل الصراع بين القبائل والأنساب خوفا من الحساسيات وهو ما افقدها في بعض الأحيان للموضوعية والواقعية.

- مساهمتها في كتابة تاريخ توات والتعريف بها وبعلمائها حيث شجع وجودها بهذا العدد الكثير من الدارسين والباحثين للكتابة حول تاريخ المنطقة، وبفضلها توجد في المكتبات اليوم عشرات الكتب والرسائل الجامعية حول المنطقة بل حتى من خارج الوطن ومنهم الأستاذ فرج محمود فرج.

في الأخير يمكن القول أن ما تمت الإشارة إليه لا يمثل إلا جزء يسيرا من المؤلفات التاريخية التواتية، والتي يبقى الكثير منها حبيساً لأدراج الخزائن والمكتبات ولم يحقق بعد، بل حتى لم يطلع عليه، إلى جانب كتابات أخرى لا تقل في الأهمية التاريخية مثل كتب النوازل واشهرها "نوازل الغنية"(63) و"نوازل الزجلاوي"(64)، وسجلات المحاكم والتقاييد... وغيرها من الوثائق التي تعطينا صورة واضحة عن تاريخ المنطقة ومناطق أخرى من مختلف المجالات، وهي بحاجة للدارسين والباحثين لنفض غبارها والاستفادة منها.

الهوامش:

1-مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون الجزائر، 2009، ص 75.

2-عبد الحميد بكري: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 هـ، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2005م، ص ص 74، 75.

3-نفسه: ص.62

4-محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم(ابن بابا حيدة): القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.بدون تاريخ، ص 27. محمد بن عبد الكريم محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، مخطوط، ب ت، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص18.

5-محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام: مخطوط، ب ت، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر، ص19. عبد الحميد بكري: المرجع السابق، ص.75

6-ابن بابا حيدة، المصدر السابق، ص 31.

7-نفسه: ص 18.

8-محمد بن سيد المختار الكنتي: الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، مخطوط، ب ت، خزانة الشيخ عبد القادر المغيلي، الحي الغربي، ادرار، الجزائر، ج 1، ص 141، 144.

9- Bernard saffroy: chronique du Touat, centre saharienne, Ghardaïa, Algérie, 1994. P8.

10-ابن بطوطة: تحفة النظار في غريب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، 2001م، ص ص406، 407.

11-نياني ج .ت وآخرون: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع (أفريقيا من ق 12 إلى ق 16) ، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م، ص671.

12-الحسن ابن محمد الوزان (ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج2، ص 133.

13-عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661م . 1663م، تحقيق سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، جزآن، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ج1، ص 79 وما بعدها.

14-الحاج ابن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي في شمالي افريقية والسودان والدرعية، ترجمها من العربية إلى الانجليزية ويليام ب .هودسون، وترجمها إلى العربية أبو القاسم سعد الله، وأوردها في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990م، ص ص 257، 258.

15-إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 25.

16-الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص .167

17-مبارك جعفري: المرجع السابق، ص ص 136، 137.

18-عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني(فهرست التنيلاني)، مخطوط، ب ت، خزانة تنلان، ادرار، الجزائر، ص.55

19-فارس كعوان: الاستشراف الفرنسي والتراث التواتي قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبة الله، الملتقى الوطني الرابع إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث(1500 . 2000م)، جامعة أدرار، 19 . 20 افريل 2010م، ص 131.

20-ينظر ترجمته: عمر بن عبد القادر التنيلاني: الرحلة إلى سجلماسة وفاس، مخطوط، ب ت، خزانة بن الوليد، بعبد الله، ادرار، الجزائر، ص1 وما بعدها. عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: المصدر السابق، ص 01 وما بعدها. محمد عبد القادر بن عمر ابن عبد الرحمان التنيلاني: الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف الإدريسيين والعلويين، مخطوط، دت، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص3. تقييد لأهم علماء توات، مخطوط، ب ت، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر ص20. محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المخطوط السابق، ص ص13،14. محمد باي بالعالم : الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، ط1، دار هومه، الجزائر 2004، ص 05. محمد عبد العزيز سيدي عمر: قطف الزهرات من أخبار علماء توات، مطبعة دار هومه، ط2، الجزائر، 2002م، ص83 وما بعدها. أحمد جعفري: الحركة الأدبية في منطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، رسالة دكتوراه في الأدب، إشراف الدكتور محمد زمري، جامعة تلمسان، 2007/2006م، ص 320. مولاي التهامي غيتاوي: سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، جزآن، ط1، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر، 2001، ج1، ص .102

21-توجد نسخة منها بخزانة باعبد الله، تيمي، ونسخة تحت يدي.

22-ينظر ترجمته:عبد الرحمان بن عمر: المخطوط السابق، ص 01 وما بعدها، نفسه: رحلة إلى أرض الحجاز، مخطوط، د ت، خزانة تنيلان، ادرار، الجزائر، ص1 وما بعدها. تقييد علماء توات، المخطوط السابق، ص10 وما بعدها. محمد عبد القادر بن عمر التنيلاني: المخطوط السابق، ص03 وما بعدها، محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المخطوط السابق، ص13 وما بعدها. محمد العالم بكراوي: ترجمة وجيزة لبعض علماء توات، المخطوط السابق، ص 29 وما بعدها. أحمد جعفري: الحركة الأدبية في إقليم توات، المرجع السابق، ص 313 وما بعدها. عبد العزيز سيدي عمر: المرجع السابق، ص 99 وما بعدها. محمد باي بالعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، جزآن، دار هومه، الجزائر، 2005م، ج1، ص 220 وما بعدها. وأفرد له هذا الأخير كتابا . ينظر: أحمد باي بالعالم : الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، ط1، دار هومه، الجزائر .2004

23-قام الأستاذ عبد الرحمان بعثمان بتحقيق المخطوط تحت إشراف الأستاذ بن معمر جامعة بشار 2009.

24-توجد منها نسخة في خزانة الشيخ باي بلعالم، ونسخة في خزانة باعبد الله بتيمي .

25-أحمد بالصافي جعفري: محمد بن ابّ المزمري 1160هـ حياته وأثاره، ط1، دار الكتاب العربي، القبة الجزائر، 2004م، ص39. الصديق حاج أحمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ، ط1، الجزائر،2003، ص116.

26-تقع غرب مدينة أدرار بحوالي 15 كلم.

27-محمد بن عمر بن محمد الجعفري: نقل الرواة عن من أبدع قصور توات، مخطوط، ب ت، خزانة الحاج محمد بن حسان، تنيلان ادرار الجزائر، ص 7.

28-توجد نسخة أصلية بخط المؤلف في خزانة الحاج محمد بن حسان بتنيلان ادرار الجزائر، وصور عنها في عديد الخزائن منها نسخة مصورة تحت يدي

29-ينظر الملاحق الورقة الأولى من المخطوط.

30-قام مؤخرا الباحث سماعيلي عبد الله بن الطيب بتحقيق المخطوط في مركز البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ونتمنى نشره ليستفيد منه الباحثون.

31-ينظر ترجمته: محمد عبد القادر بن عمر التنيلاني: المخطوط السابق، ص06. محمد باي بالعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص36، أحمد جعفري: الحركة الأدبية، المرجع السابق، ص 313، عبد العزيز سيدي عمر: المرجع السابق، ص 81.

32-توجد منها عديد النسخ منها نسخة تحت يدي.

33-ينظر أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر 1168 . 1246هـ/1754 . 1830م، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

34-عبد الرحمان بن إدريس التنيلاني: رحلة إلى الجزائر،(1231هـ)، مخطوط، د ت، خزانة تنيلان، ادرار، الجزائر، ص ص 06، 07.

35-نفسه: ص ص 8، 9، 11.

36-نفسه: ص 07.

37-نفسه: ص 08.

38-نفسه: ص 06.

39-ينظر محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم(ابن بابا حيدة): المصدر السابق، ص 06

40-توجد العديد من النسخ منها نسخة في خزانة الشيخ محمد بن الكبير، ونسخة في خزانة تمنطيط، وأخرى في كوسام، وهناك نسخة في المكتبة الفرنسية تحت رقم 6399.

41- Martin A.G.P : quatre siècles d'histoire Marocaine (1504,1904), Paris,1923.

42-ينظر دراسة ،المهدي البوعبدلي: اضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور المغيلي بها في قضية يهود توات، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، عدد 94، 1986 ص.ص 83، 88.

43-ينظر ترجمته: محمد عبد القادر بن عمر التيلاتي: المخطوط السابق، ص 1.

44-لم أعثر للأسف على هاته الرحلة، والتي ربما تكون موجودة في إحدى خزائن تدكلت .

45- L'Abbé Barges : Le Sahara et le Soudan, documents historiques et géographiques, Rouvier libraire-éditeur, paris,1853.

46-فارس كعوان: المرجع السابق، ص 130 وما بعدها.

47-ينظر ترجمته: عبد الحميد بكري، المرجع السابق، ص 191 وما بعدها.

48-توجد منه العديد من النسخ في خزانة تمنطيط، وكوسام، وخزانة الشيخ عبد القادر المغيلي، ونسختان تحت يدي.

49-توجد منه نسخة في تمنطيط، ونسخة في خزانة الشيخ سيدي محمد بن الكبير بأدرار.

50- Abderrahmane Selka: Notice Sur le Touat, Bul – SO – G – D' Alger, Alger, 1922.

51-للمزيد حول ترجمته ينظر: مولاي احمد الطاهري الإدريسي: نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص 01 وما بعدها. وأيضا محمد باي بالعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج 1، ص ص من 354 الى 372. وأيضا: مولاي الحبيب: فتوحات الإله مالك على نظم أسهل المسالك في فقه الإمام مالك، المطبعة العلاوية، مستغانم، الجزائر، ب ت، ج 1، ص ص من 05 إلى 14.

52-توجد منه عديد النسخ منها نسخة في خزانة المطارفة، ونسخة أصلية في خزانة سالي،

53-مولاي أحمد الطاهري: المخطوط السابق، ص 31.

54-توجد نسخة في خزانة تمنطيط

55-توجد نسخة في خزانة تمنطيط

56-محمد العالم بكراوي: الدرة البهية في الشجرة البكرية، مخطوط، ب ت، الخزانة البكرية، تمنطيط، الجزائر، ص 131.

57-ينظر: محمد باي بالعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق.

58-ينظر: محمد باي بالعالم: قبيلة فلان في الماضي والحاضر، دار هومه، الجزائر، 2004م.

59-محمد باي بالعالم : الغصن الداني، المرجع السابق.

60-مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: المخطوط السابق، ص 09 وما بعدها.

61-نفسه: ص ص من 36 إلى 84.

62-محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المخطوط السابق، ص ص 31، 36.

63-محمد بن عبد الرحمان البلبالي وآخرون: غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل(الغنية البلبالية)، مخطوط، بدون ترقيم، خزانة ملوكة، ادرار، الجزائر .

64-محمد بن العالم الزجلاوي: نوازل الزجلاوي، مخطوط، بدون ترقيم، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر .

مولاي بلحميسي (1930- 2009م): مؤرخ البحر والبحرية في الجزائر

د. أحمد رنيمة*

مقدمة: ينتمي مولاي بلحميسي إلى الجيل الثاني من مدرسة المؤرخين الجزائريين المعاصرين، بمعنى مؤرخي القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين. أمّا الجيل الأول امثال عبد الرحمان الجيلالي ومبارك الميلي وتوفيق المدني وغيرهم، فقد التزموا بتحقيق مهمّة إثبات انتماء الجزائر الى فضاء الحضارة العربية الإسلامية، ودحض أطروحة الاستعمار الفرنسي التي روجت لفكرة انتماء هذا البلد إلى الحضارة الأوربية المسيحية منذ فترة الاحتلال الروماني. وكانت كثيرا ما تمتزج الدوافع الوجدانية والأحكام العاطفية على الأدلّة التاريخية التوثيقية والبراهين الفكرية والمنطقية، على الكتابات التاريخية لهذا الجيل. هذا الجيل الذي عمل كثيرا من أجل إثبات هوية الجزائر الجزائرية، بدلا من فكرة الجزائر الفرنسية، على الرغم من كل النقائص فإنّ القيّم العديدة لبحوثهم وأعمالهم من الناحية الموضوعية والمنهجية والتحليلية وحتى الإنسانية لا يمكن انكارها.

أما الجيل الثاني من المؤرخين، المعرّبين منهم والمفرنسين، فلم يكنوا مُجبَرين على بذل الكثير من الجهد لتدعيم أطروحة الجيل الأول، لانّ نتائج الثورة التحريرية التي اندلعت سنة 1954م[1] كانت قد فصلت في مسألة الهوية والانتماء، وحوّلت شعور ووعي النخب الوطنية نحو الفضاء العربي الاسلامي والإفريقي رسميا، على الرّغم من بقاء الاعتقاد بجدارة وتفوق التطور والتقدم العلمي والمعرفي الأوربي والغربي عموما لدى الكثير منهم.

ولد محمد مولاي بلحميسي سنة 1930م في مدينة مازونة شرق ولاية غيليزان الحالية، وكان من الجزائريين القلائل الذين أُتيحت لهم فرصة مواصلة الدراسة، فانتقل إلى تلمسان، ثم التحق بجامعة الجزائر، ثمّ هاجر إلى فرنسا لينال درجة دكتوراه درجة ثالثة من جامعة أيكس

* أستاذ محاضر ب في التاريخ الحديث والمعاصر- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة الشلف.

أونبروفس. كما التحق للتدريس بجامعة الجزائر (1966) وقد شغل العديد من مناصب داخل الجامعة، منها مدير معهد علم الآثار حيث كان لي أول لقاء به في خريف سنة 1995م. توفي رحمه الله سنة 2009م بعدما صار أكبر مؤرخي الجزائر العثمانية.

أعمال بلحميسي التاريخية: تجتمع مؤلفات مولاي بلحميسي حول موضوع تاريخ الجزائر البحري، وما يتّصل به من مواضيع متنوعة كالحروب البحرية وبناء السفن والأساطيل وقضايا الأسرى، ومدن المواجهة، والحصون والعلاقات السياسية والتجارية والجوسسة وغيرها. ويبدو أنّ حياته كمؤرخ كانت نموذجية، فكان ذلك المؤرخ الذي يكتب عن مدينته ثم عن منطقته ثم عن وطنه ثمّ عن محيطه الإقليمي أي البحر المتوسط. وهكذا بدأ بلحميسي بكتابة تاريخ مازونة[2] الذي صدر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر العاصمة، ثم كتابه الثاني حول تاريخ مستغانم[3] باعتبارها المنطقة التي تنتمي إليها مازونة إداريا أنداك. ويقع الكتاب في 176 صفحة، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1982م عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر.

وبعد هذا قام بتأليف كتاب، هو من أهم مؤلفاته على الإطلاق وهو تاريخ البحرية الجزائرية (1516-1830م)،[4] صدرت الطبعة الثانية سنة 1986، عن نفس الدار التي تحول اسمها إلى المؤسسة الوطنية للكتاب، ويقع الكتاب في 217 صفحة، وبعده صدر له كتاب آخر بعنوان الأسرى الجزائريين وأوروبا المسيحية[5]، صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر أيضا سنة 1988م، ويقع في 166 صفحة، وفي سنة 1990م أصدر كتاب الجزائر مدينة الألف مدفع[6] عن المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. ويقع في 154 صفحة، لكن كتابه الأهم هو أطروحة الدكتوراه التي قدمها في جامعة بوردو بفرنسا سنة 1986م، وكان عنوانها بحرية وبحارة الجزائر (1518-1830)[7]، صدرت في ثلاث أجزاء عن المكتبة الوطنية الجزائرية سنة 1996م، ثمّ صدرت في طبعة أخرى في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية (2008)، وهناك عمل أخر من أكثر المؤلفات أهمية صدر سنة 1999م عن دار دحلب بالجزائر العاصمة، بعنوان: الجزائر، أوربا والحرب السريّة (1518-1830)[8]، ويقع الكتاب في 221 صفحة.

تتمحور أبحاث ودراسات مولاي بلحميسي حول تاريخ العهد العثماني في الجزائر من الناحية الزمنية، أي منذ دخول الأخوين عروج وخير الدين بربروس ومحاولاتهم الأولى للتمكّن من السلطة في الجزائر ابتداء من سنة 1516م، وتمتد فترة دراساته إلى غاية نهاية هذه الفترة بدخول الاستعمار الفرنسي سنة 1830م، ويضاف إلى هذه المؤلفات التاريخية التي كانت كلها

باللغة الفرنسية العديد من الأعمال باللغة العربية في مقدمتها تحقيق كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول نال به درجة دكتوراه حلقة ثالثة من جامعة أكس في جنوب فرنسا سنة 1972م، وكذلك كتاب الجزائر من خلال رحالات المغاربة في العهد العثماني، صدر بالجزائر(1972)، وكانت له طبعة ثانية سنة 1981م.

كما كانت له مجموعة معتبرة من المقالات صدرت في المجالات العلمية المتخصصة التي أشرفت على إصدارها الهيئات العلمية بالجامعات الجزائرية، كجامعة الجزائر وجامعة وهران ووزارة الثقافة وغيرها، إضافة إلى مساهمته في نَشر مقالات نُشرت ضمن الأعمال الخاصة بتاريخ البحر المتوسط وتاريخ العصر الحديث عموما، في أوربا وبخاصة في فرنسا وكانت باللغة الفرنسية.

ومن أهم مقالاته: "الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر"، صدر هذا المقال في مجلّة تاريخ وحضارة المغرب عدد 4 سنة (1968)، صص7-18. ومقال: "غارة شارلكان على مدينة الجزائر من المصادر الإسلامية والمصادر الغربية"، وصدر أيضا في مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 6-7 سنة 1969م، صص34-56. ومقال آخر بعنوان: "جانب من جوانب الصراع الأوروبي: الجوسسة الغربية في الجزائر (1518-1830م)"، صدر عن مجلة الباحث عدد 3 صص16-29. وأيضا مقال بعنوان "إقناع الجيران في أمر الداي شعبان"، صدر في مجلة الدراسات التاريخية، عدد2، سنة (1986)، صص39-56. وكانت المقالات المذكورة باللغة العربية أمّا باللغة الفرنسية، فقد نشر الكثير من المقالات منها:

Les historiens français et l'Algérie à l'époque Ottomane، صدر المقال في مجلّة الأصالة عدد خاص مع ترجمة بالعربية للمقال، وهناك مقال أخر بعنوان:

Alger et Marseille, portes de deux mondes à l'epoque Ottomane: Chrétiens et Musulmans à la Renaissance[9].

وصدر هذا المقال ضمن أعمال ملتقى علمي حول المسلمون والمسيحيون في عصر النهضة.

ومقال آخر بعنوان: **Description de la ville d'Oran**، صدر في مجلة التاريخ الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، السداسي الثاني، (1981). وهناك الكثير من المقالات التي تعذر دراستها في هذه الورقة.

بين المنهج والنظرية: ينطلق مولاي بلحميسي من المنهجية الغربية المعاصرة في كتابة التاريخ، وعيا منه بأنّ هذه المدرسة الغربية من حيث الأطر المنهجية وأدوات البحث التقنية قد اقتبست الكثير من عناصرها عن التراث التاريخي العالمي بما في ذلك مناهج العلوم التي ازدهرت وحفظها التدوين العربي الإسلامي. ولعلّ من بين اسباب تبنيه لهذا الاتجاه هو تكوينه المزدوج وجمعه بين قيم الثقافة الجزائرية وإنتاج الثقافة الفرنسية؛ فهو خرّيج المدرسة الفرنسية في مختلف أطوارها التعليمية، من الابتدائي إلى الجامعة، وفي الوقت ذاته كان متفطنا إلى مسألة الأهمية المركزية للّغة العربية في تشكيل خصوصية الهوية الجزائرية، التي عملت المدرسة الفرنسية الاستعمارية الكثير من أجل تغيير مكوناتها وبنائها، وتدعيم قيّم الحداثة الغربية في المنظومة التعليمية والفكرية والثقافية للجزائر المستعمرة. لقد أدى تكوينه "الفرنسي" هذا وتمكّنه من اللغة العربية الذي سمح له بالاطلاع على أجزاء مهمة من التراث العربي الإسلامي، كل هذا أدى إلى حضور المنهج المقارن لديه بين قيّم الحداثة الغربية وقيم الحضارة الإسلامية ومن خلال ممارسة فعل القراءة والمقارنة بين قيم حضارتين مختلفتين اتضحت لديه الفروق والاختلافات على مستويات متعددة.

تمثّل المستوى الأول في الجانب النظري أي في الرؤى والمفاهيم والتصورات والعقائد والغايات...، ومنه تظهر شخصية بلحميسي الوطنية الذي أكّد دوما أنّ الجزائر هي في الحقيقة جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، وأنّ فترة الاحتلال والاستعمار لم تكن سوى مرحلة يائسة كشف فيها المشروع الاستعماري عن نقاط ضعفه وتناقضاته أكثر ممّا عبّر عن نجاح كان يبتغي تحقيقه على الرغم من الجهد والمال الكثير الذي بذل لصناعة خطاب دعائي وفكري يمجّد القيم الأساسية العالمية، ويعمل على نشرها في وسط الشعوب الأقل تطورا كما كان يدعي دوما.

أما المستوى الثاني فكان المجال الذي تطلّب من هذا المؤرخ الكثير من العمل التقني، والتركيز والتفحص، والمقارنة والنقد أكثر من التحليل والتأمل العقلي. انطلاقا من شعوره بمسؤولية المؤرخ المحترف، والتزامه بأمانة الحقيقة التاريخية، فقد كان يعتمد كليا على المصادر والوثائق الأرشيفية الأصلية، وفي كل بحوثه ومؤلفاته نجد كمّا معتبرا من الوثائق، ففي كتابه تاريخ البحرية الجزائرية يورد حوالي تسع عشرة وثيقة، مصورة ضمن ملاحق الكتاب، يضاف إلى ذلك قائمة مصادر أوربية كثيرة ان لم تكن معظم ما كُتب حول الجزائر في أوروبا

خلال الفترة العثمانية، كما كان يقرأ بعدة لغات منها الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية وغيرها. وبالإضافة إلى اعتماده على الوثائق الكثيرة، يُورد بلحميسي الكثير من الرسومات والجداول واللوحات والصور المساعدة على الفهم والإدراك والإقناع.

موضوع التاريخ: لم يُؤرخ بلحميسي للحياة السياسية والأعمال العسكرية والحربية فقط على الرغم من طغيان هذا الجانب على معظم مواضيع دراساته. بل أنه يتعرض إلى كل جوانب التاريخ، ابتداء من الأسطورة وكيف صنعت جذور وتسمية المدن مثل مدينة مستغانم التي يناقش ويقارن أصل نشأتها ومدلول تسميتها في الصفحتين 13 و14 من الكتاب.

وكذلك بالنسبة لمدينة الجزائر في كتابه: الجزائر مدينة الألف مدفع **Alger la ville aux mille canons**، وفي العديد من المواضيع الأخرى. ولكنه يرى دوما أنّ الإطار الجغرافي يمثل المدخل الضروري والأساسي، الذي يعطي للموضوع التاريخي الشكل الضروري من الوضوح، ويمكّن القارئ من ادراك واستيعاب الموضوع المدروس. فالجغرافيا باعتبارها علم المكان والطبيعة التي يتحرك وينشط فيها الإنسان، هي مادة ضرورية واجبارية لدارس التاريخ ولكل الاحداث البشرية الماضية. وفي كل مؤلفاته تقربا يوضح الإطار الجغرافي ويفصّل فيه في عدّة صفحات بأسلوب علمي مباشر.[10] كما يتعرض بلحميسي كمؤرخ إلى العمران باعتباره ظاهرة بشرية ويحلل مظاهره، وكثير ما يعتمد على ابن خلدون في تدعيم بعض الأطروحات التي يحاول اثباتها، أو التحقيق في صدقها.[11] كما حاول ان يستثمر كل المظاهر التاريخية، ذات الطبيعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية والادبية والعسكرية والنفسية وغيرها. فالتاريخ هو ظاهرة بشرية بكل مكونات وخصوصيات الطبيعة البشرية.

تبدأ عادة مؤلفات بلحميسي بمقدمة كغيرها من الأعمال العلمية الجامعية، ثمّ يقسم العمل وفق منهجية مضبوطة وواضحة، يراعي فيها المنهج التاريخي الذي ينطلق من فكرة أنّ كل ظاهرة بشرية هي نتيجة حتمية لظاهرة بشرية أو طبيعية مباشرة وسابقة، وفي الوقت ذاته، تتحول النتيجة إلى علّة لظاهرة اخرى، وهكذا يتحرك التاريخ نحو الأمام، ولكن بشكل حلزوني، أو دوري على غرار رؤية ابن خلدون للتاريخ وتفسيره لظاهرة النشوء والتطور والانحلال. وكثيرا ما كان ينتهي بكتابة خلاصة لمؤلفه، وكثيرا ايضا ما يدّعم أبحاثه بملاحق وفهارس متنوعة كصور الوثائق التاريخية من رسائل والاتفاقيات، ونصوص المعاهدات، وكل انواع الوثائق التي تمكّن

من الحصول عليها. إضافة الى صور المواقع الجغرافية والحضرية المعبرة والمدعمة للمواضيع التي تمت دراستها.

وعلى الرغم من المجهود الكبير الذي بذله مولاي بلحميسي كمؤرخ متخصص، إلاّ أن العمل في مجال تخصصه أي بحرية الجزائر العثمانية ما يزال مجالا خصبا، وأن كمّ الوثائق العربية والعثمانية التي لم يستطع الاطلاع عليها واستثمارها تعد بالألاف، منتشرة في ربوع الجزائر ومعظمها في تركيا، وفي بعض دول أوربا أيضا. وكل هذه الوثائق تحتاج الى جيوش من المؤرخين الباحثين الدارسين، من أجل اخراج حقائقها الى النور الذي سينير من جهته عتمة ما أريد له أن يكون هو الحقيقة، على الرغم من تهافت مضامينه وحججه.

ماذا كتب بلحميسي عن بحرية الجزائر العثمانية؟ إن الدّارس لتاريخ الجزائر وتاريخ بلاد المغرب عموما يصدم بظاهرة الشُحّ والنُدرة والغموض في المادة التاريخية لفترات طويلة. مع ظهور الفينيقيين على السواحل وتأسيسهم لدولة قرطاجة في تونس وانتشار نشاطهم التجاري ومشاريعهم البحرية الكبرى حول كل سواحل البحر المتوسط، وعلى الرغم من إنتاجهم الثقافي والحضاري في مجال الكتابة والتدوين، إلّا أن تاريخ بلاد المغرب في تلك الحقبة بقي مجهولا بسبب قلة المصادر المكتوبة خاصة. ولعلّ من أسباب ذلك، ربما، فقدان أهم المصادر القرطاجية ومنها تلك الوثائق ذات الطابع الاقتصادي من مدونات إحصائية للمبادلات التجارية. إضافة غلى كثرة الحروب وعمليات التدمير المُمنهجة التي تعرّضت لها الممتلكات بعد حرق العاصمة قرطاجة. ومع مطلع سنة 146 ق.م. أصبحت بلاد المغرب تحت حكم الاحتلال الروماني الذي عقبته الغزوات الوندالية ثم الاحتلال البيزنطي الذي استمر إلى غاية ظهور المسلمين كقوة عسكرية وفكرية جديدة أنهت الاستيطان البيزنطي الروماني، والذي هيمنت على مظاهره الديانة المسيحية والثقافة الإغريقية الرومانية، ومع مطلع القرن الثامن الميلادي حيث استتب الحكم العربي الإسلامي نهائيا في بلاد المغرب.

ومنذ بداية هذا العهد ازدهرت الكتابات التاريخية وازدهر التدوين باللغة العربية مع تواجد نادر جدا لاستعمال اللغة البربرية المكتوبة، وشمل التدوين جميع مجالات العلوم والمعارف، كما شمل جوانب الحياة المختلفة. لكن مع نهاية حكم الموحدين (1269م) دخلت الحركة الثقافية المغاربية في مرحلة ضعف وانكماش، على غرار بقية العالم الإسلامي، حتى دخول معظم البلدان الإسلامية والعربية تحت سطوة الاستعمار الحديث.

وعلى الرغم من ذلك فإن الجزائر مثّلت استثناء جديدا خلال مرحلة العصر الحديث، الذي بدأ مع وصول العثمانيين إلى سواحل جنوب البحر المتوسط الغربي، وذلك في إطار عملياتهم العسكرية البحرية الكبرى التي هدفت أساسا إلى إنقاذ مسلمي الأندلس الذين هُزموا في اسبانيا من طرف القوى الكاثوليكية الصاعدة. واستمرت مطاردتهم على سواحل المغرب والجزائر وتونس وطرابلس. وفي ظروف ضعف بلاد المغرب سياسيا تمّ احتلال مناطق استراتيجية ونقاط قوى كانت محصنة، مثل سبتة ومليلة المغربيتين ووهران وبجاية في الجزائر وحلق الوادي في تونس وطرابلس في ليبيا. ومع هذا الوضع المستجد، ظهرت شخصيتان عظيمتان جعلتا من بلاد المغرب باستثناء المغرب الأقصى جزءا متكاملا مع الخلافة العثمانية في اسطنبول. وتأسست ما عرف تاريخيا بسلطنة[12] الجزائر العثمانية، وخلال فترة حكم هذه السلطنة التي دامت حوالي ثلاثة قرون، فإن الجزائر بقيت جزءا من العالم الإسلامي دينيا وثقافيا وحضاريا. ولكن بعد تعرضها للاحتلال سنة 1830م من طرف فرنسا. فإنّ الكثير من مكوناتها الاجتماعية والاقتصادية قدت بدأت في التغيّر والتحوّل بسبب تبدّل الأوضاع السياسية والعسكرية والإدارية والقضائية. أمّا من الناحية الثقافية فإن الحركة الاستعمارية قد هيئت كل الظروف ووفرت كل الشروط لتحويل الجزائر من أقوى نقطة ارتكاز في جسد الخلافة الإسلامية غربًا إلى إحدى أقوى نقاط الارتكاز في جسد أوربا المسيحية جنوبا.

ولعل أهم ما قام به الاحتلال الفرنسي في أيامه الأولى في الجزائر، كان العمل على التخلّص من معظم المادة الأرشيفية، والوثائق الرسمية التي وجدت في دار السلطان، وفي عواصم البايلك الثلاث، وفي مجموع الإدارات المحلية. كما عملت الحركة الاستعمارية على تحوير كل المادة المدوّنة من كتابات ووثائق وأرشيف وغيرها وبطريقة ممنهجة من أجل تحويل الجزائر من فضائها الشرقي إلى عالم الحداثة الغربية. وهذا ما دفع إلى تبنّي السياسات الجديدة المتطرفة من خلال إصدار مجموعة من المنظومات القانونية من طرف المؤسسات الحكومية المتعاقبة في فرنسا ومحاولة تطبيقيها بشتى الطرق من اجل التحقيق الفعلي للجزائر الفرنسية.

لم يكن قرن واثنان وثلاثون سنة من العمل الموجّه والمدروس والمكثف بالزمن الكافي لجعل الجزائر تفقد مقاومات وقيّم الهوية العربية الإسلامية، والرغم من نجاح مشروع الحداثة الغربية ولو شكليا، فإنّ عملية إعادة بناء الهوية لم يكن بالعملية السهلة أيضا. فكان على

النخب الوطنية بعد فشل المقاومة المسلحة ضد الاحتلال خلال القرن التاسع عشر الميلادي، أن تبذل مجهودا مضاعفا من أجل البحث عن نقاط الضعف في فلسفة الاستعمار واستبدال تناقضات الخطاب الاستعماري بالعناصر البنّاءة في قيم التراث العربي الإسلامين وتحديد أهم عناصر التراث التي يمكن أن تحلّ بعض إشكالات المجتمع المعاصر وبناء دولة المؤسسات وتحقيق التنمية الشاملة.

وكما سبق وأن تمّ توضيحه، فإن مدرسة التاريخ الوطنية هي التي شرعت في تنفيذ هذا المشروع عبر جيل المؤرخين الأولى، وبما أن مولاي بلحميسي ينتمي إلى الجيل الثاني من مدرسة التاريخ الجزائرية، فإنّه لم يحاول فقط إثبات أنّ وجود الجزائر كسلطة وكمجتمع، هو سابق عن وجود الجزائر الفرنسية، بل استطاع أن يُثبت تاريخيا، بالاعتماد على كمٍّ معتبر من الوثائق المكتوبة والصور والخرائط والخطاطات التي كانت في معظمها إن لم نَقُل كلّها، قد تمّ تدوينها من طرف الأعداء الرسميين للجزائر، الذين كانوا من المسيحيين الأوربيين الغربيين اللاتينيين خاصة. فهو ينطلق من المادة الأرشيفية والمصادر الغربية التي تمّ حفضها بشكل جيد في المكتبات والمراكز المتخصصة في الدول الأوربية، ثمّ يقوم بتحليلها ومقارنة محتوياتها واستخراج تناقضاتها ثمّ استخلاص ما يمثّل الحقيقة التاريخية أو يقترب منها. ففي كتاب تاريخ البحرية الجزائرية (1516-1830)، يعتمد على خمسة مصادر باللغة العربية ومقالتين كتبهما بنفساء في مجلة تاريخ وحضارة المغرب، أما باللغات الغربية فإنه يورد قائمة طويلة من المصادر والدراسات تصل إلى سبعة وخمسين عنوانا. كما يضع في آخر الكتاب قائمة للمصطلحات الواردة في المتن، ويضع لها شروحا معجمية واصطلاحية، بسبب طبيعتها المتنوعة بين اللغات العربية والعثمانية واللغات الأوربية المختلفة. أمّا في كتابه الأسرى الجزائريين وأوروبا المسيحية، فإنه يعتمد مصادر ومراجع مصنفة كما يلي:

المصادر الغربية، ثمّ وثائق الأرشيف، الوثائق غير المنشورة، أي المخطوطة، المراكز والمؤسسات الحافظة للمادة الوثائقية والأرشيفية، ثمّ المراسلات والاتفاقيات، وفي النهاية يصل إلى ذكر المصادر المطبوعة ثمّ الدراسات والمقالات الجديدة.

SOURCES OCCIDENTALES DOCUMENTS D'ARCHIVES
A) Inédits
1. Chambre de Commerce de Marseille (A.C.C.M.).
Séries B/76 a 88.

G/6-34-50-51-88
J/1 350-1 351-1 366-1 367
M R 46.4.1.
2. Archives municipales de Marseille (A.M.M.). Séries HH-FF-EE 166 et 174. GG 105-106.
3. Archives départementales des Bouches-du-Rhône (A.D.B.R.).
Séries IX-B 1(1549-1620); IX B2 (1610-1674). 9 B3 - C 5256 - 5258.
4. Archives de la troisième région maritime (Toulon). 0-Registre 10.106 bis.
5. Archives du Gouvernement général de l'Algérie (A.G.G.A.).
A (Consulat de France à Alger) 1686-1831.
B (Agence des concessions d'Afrique) 1686-1827.
C (Archives espagnoles des XVe-XIXe s.).

6. Archives nationales (Paris)
Marine : sous séries B^7/1-2-3-4-5-6-49-58-64-89-93-214-215. B^4/11.
8. Correspondances
GRAMMONT (H. de) : Correspondance des consuls d'Alger (16901742). Revue africaine (R.A.), 1887-1888-1889.
PLANTET (E.): Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France, t. I (1579-1700), t. II (1700-1833).
9. Divers.
DEVOULX (A.): «tachri fat (recueil de notices historiques», Alger, 1852.
DEVOULX (A.) : Les Archives du Consulat General de France à Alger, Alger, 1865.
10. Traites Algéro-Français

1619 (21 mars): Paix et Commerce.
1628 (19 septembre): Paix et Commerce. 1640 (7 juillet): Concessions d'Afrique. 1666 (17 mai): Paix et Commerce.
1689 (27 septembre): Paix et Commerce.
1719 (7 décembre): Paix et Commerce.
1764 (16 janvier): Convention particulière.
1790 (29 mars et 23 juin): Convention Particulière. 1796 (9 messidor an IV): Prêt algérien au Directoire.
1800 (19 juillet): Armistice.
1800 (30 septembre): Paix et Commerce.
1801 (29 aout): Paix et Commerce.
1814 (11 juillet): Reconnaissance de Louis XVIII par Alger. 1815 (30 mars et 16 avril): Paix et Commerce.
1818 (29 mars): Paix et Commerce.

11. Traites Algérie - Puissances chrétiennes

1662 (avril) : Algérie - Hollande.
1733: Algérie - Empereur d'Autriche. 1746 (10 aout.): Algérie - Danemark. 1749: Algérie - Grand Duche de Toscane.
1751: Algérie - République de Hambourg. 1757: Algérie - Pays Bas.
1763: Algérie - Venise.
1767 (24 mars) : Algérie - Venise. 1768 (23 juin) : Algérie - Venise. 1786: Algérie - Espagne.

1791: Algérie - Espagne.
1810: Algérie - Portugal (treve). 1813: Algérie -Portugal (traites). 1816: Algérie - Angleterre.
1824: Algérie - Angleterre.

OUVRAGES IMPRIMES

BLAVIN : *La condition et la vie des Français dans la Régence d'Alger,* Alger, 1899.
BONO (S.) : *I Corsari barbareschi,* Turino, 1940.
BRAUDEL (F.) : *La Méditerranée et le monde méditerranéen l'époque de Philippe II,* Paris, 1949-1966-1976.
BRAUDEL et ROMANO : *Navires et marchandises à l'entrée du port de Livourne (1547-1611).*
MANCA (B.): Gli Stati de Maghrib e la politca estera de regno sardo (1773-1787), Milano, 1971.
DUCHENE (R.) : *Marseille au passé,* Roane, 1982.
GODARD (l'Abbe): *Les soirées algériennes, corsaires, esclaves et martyrs de Barbarie,* Tours, 1875.
GRAMMONT (H.) : *Histoire d'Alger sous la domination turque,* Paris, 1887.
GRAMMONT (H.) : *Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIP siècle,* Alger, 1879.
HAEDO (F.D. de) : *Topographie et Histoire générale d'Alger,* trad. Monnereau et Berbrugger, R.A. 1870-1871.
HAEDO (F.D. de) : *Histoire des Rois d'Alger;* trad. de Grammont, Alger, 1881.
LA RONCIERE (Ch. de) : *Histoire de la marine française,* 6 vol. 1899-1932.
MORGAN (G.) : *Histoire des Etats barbaresques...* trad. de l'anglais, Paris, 2 vol. 1757.
MASSON (P.): *Les galères de France (1481-1781),* Paris, 1938. ORSE (l'Abbe) : *Alger pendant cent ans et la rédemption des captifs,* Paris, 1857.
SUE (E.) : *Histoire de la Marine française,* Paris, 1865, 4 vol. THEDENAT (M.) : *Les aventures de Thedenat, esclave et ministre du Bey de Mascara,* R.A., 1948, pp. 143-184.
TEISSIER (0.) : *Visite* a *I 'Arsenal de Toulon,* Paris, 1961.
TURBET DELOF (G.): *L'Afrique barbaresque dans la littérature française, aux XVI-XVIe siècles,* Genève, 1973.

ARTICLES DE REVUES

AYMARD (M.) : « *Chiourme et Galères dans la seconde moitié du XVIe siècle* », Mélanges F. Braudel, Toulouse, I, pp. 49-64.
BERBRUGGER (A.) : *Captif et patronne à Alger.* Rev. afric. 1864, pp. 302-315.
BERBRUGGER (A.) : *«De l'esclavage musulman en France»* Rev. Africaine, 1856, pp. 38-41.
BONO (S.) : *Catture di Musulmani sulk coste italiane,* Revue Africa, XXXV, 1980, pp. 281-286.
BONO (S.) : *Schiavi musulmani sulk galere e nei bagni d'Italia dal XVI al XIX secolo, Le genti del mediterraneo,* Napoli, 1981, pp. 845-846.
BONO (S.): Achat d'esclaves turcs pour les galères pontificales (XVI-XVIIe s.). Revue de l'Occident Musulman et de la méditerranée, 39/1985, pp. 79-92.
BOYER (P.) : «La *chiourme turque des galères de France, 16651687* », R.O.M.M. 6/1969, pp. 53-74.

CARRIERES : « *Le trafic des esclaves en Méditerranée française* » Revue Neptunia, 108/1972.

FOURNIER : « *Un marché de Tures...* » Bulletin Historique et Philologique, 1901, pp. 572-574.

GODECHOT (J.) : «*La course maltaise le long des côtes barbaresques la fin du XVIIIe siècle*» R.A., 1952, pp. 105-106.

GRAMMONT (H. de) : «*La course, l'esclavage et la rédemption* à *Alger* » R.H. 1884-1885.

MATHIEX (J.) : «*Trafic et prix de l'homme en Méditerranée au XVIIIe siècle* » A.E.S.C. 1954, pp. 157-164.

MATHIEX U.) : « *Levant, Barbarie et Europe chrétienne* » Bull. de la Société d'histoire moderne, 2/1958.

PIGNON *U.): «Les relations franco-tunisiennes au début du XVIe siècle, I 'accord de 1606* », R.A. 1958, pp. 409-421.

RIGGIO (A.) : «*Esclaves et missionnaires en Barbarie, 1672-1682*» R.A. 1949, pp. 38-64.

لا يختلف هذا النموذج التوثيقي عما هو متّبع في مختلف الجامعات المحترمة عالميا والمراكز العالمية المتخصصة في الدراسات والأبحاث في الإنسانيات، ويدلّ هذا الاختيار على رؤية واسعة وأفق مفتوح وعلى يقين من امتلاك الحقيقة التي يجب العمل بجد على إظهارها والتخلص من عقدة الخوف والنقص التي ميزت مراحل تراجع المسلمين ثقافيا وعلميا. وبهذا فإنّ مولاي بالحميسي، قد أستطاع الانتقال من المؤرخ المشتغل برواية التاريخ الدعائي –على الرغم من وجود عناصر الحقيقة في هذا الشكل من التاريخ– إلى مؤرخ وكاتب التاريخ العلمي الذي يعتمد على تقنيات البحث التاريخي الدقيقة وعلى الصبر في تقليب الوثائق، وإجراء العمليات الذهنية الضرورية من تمحيص وتحقق ومقارنة ونقد إلى غير ذلك...، والأكثر من كل هذا هو امتلاك الشجاعة في العدل والإنصاف بقول الحق، فلم يكن يُمجّد كل ما كان جزائريا ولم يكن يُبرر ما حدث تاريخا من أشكال الخطأ البشري، ومن طغيان سياسي، واختلال ميزان العدل بين الحكام والرعية، فكل ما وصل إليه من أحداث في الجزائر خلال العهد العثماني وفي مجال البحرية خاصة، كان يحاول ذكر بسلبياته وإيجابياته، وكان يسجّل الكثير من الأخطاء وحالات الإهمال وفترات التقاعس التي عاشتها البحرية الجزائرية وبخاصة خلال الفترة الأخيرة من حكم سلاطين الجزائر العثمانية. وكانت له الثير من الاستنتاجات الهامة حول تحليل أسباب الضعف والتراجع الذي ميّز حيات الجزائريين، في مقابل التطور المستمر والبناء العقلاني والعلمي للدولة وللمجتمع الحديث في الدول الغربية المسيحية.

الهوامش:

1- كل التواريخ الواردة في هذه الورقة هي موافقة للتقويم الميلادي.

2- *Histoire de Mazouna*, Société Nationale d'Edition et de la Diffusion, Alger.

3- 1982, *Histoire de Mostaganem, des origines à nos jours*, Société Nationale d'Edition et de la Diffusion, Alger, 1982, 176 pages.

4- 1986, *Histoire de la Marine Algérienne (1516-1830)*, Entreprise Nationale du Livre, Alger, 217 pages.

5- 1988, *les captifs algériens et l'Europe chrétienne*, Entreprise Nationale du Livre, Alger, 166 pages.

6- 1990, *Alger la ville a mille canons*, Entreprise Nationale du Livre, Alger, 154 pages.

7- 1996, *Marine et Marins d'Alger (1518-1830)*, Tome 1, *Les Navires et les Hommes*, Tome 2, *face à l'Europe*, Tome 3, *Grandeur et Décadence*, Bibliothèque National Algérienne, Alger.

8- 1999, *Alger, l'Europe et la guerre secrète (1518-1830)*, éditions Dahlab, Alger, 221 pages.

9- 1994, *Alger et Marseille, portes de deux mondes à l'époque Ottomane*, pp 305-313, Centre d'Etudes Supérieures de la Renaissance, In, Chrétiens et Musulmans à la Renaissance, actes du 37ème colloque international du CESR, réunie par Bartolomé Bennassar et Robert Sauzet, Honore Champion Editeur, Paris.

10- *Histoire de Mostaganem*, op. cit., pp 15-17; *Histoire de la Marine Algérienne*, op. cit., pp 13-23.

11- *Marine et Marins d'Alger*, p 33-37; *Histoire de la Marine Algérienne*, p 14. / *Histoire de Mostaganem*, pp 34-35.

12- اختلفت المصادر الغربية في تسمية الجزائر العثمانية ففي بعضها نجد أسم Régence/ Regency، اي الإيالة أو حكم الوصي على ولي العهد، وهذه التسمية خطأ كبير بسبب عدم وجود النظام الوراثي الذي يستلزم وجود ولي العهد، وكذلك بالنسبة لتسمية المملكة Royaume. أمّا الاسم الحقيقي للجزائر العثمانية هو السلطنة لأن المراسيم والوثائق الرسمية كانت تسمي حاكم الجزائر بالسلطان، وكانت العاصمة تدعى دار السلطان، أما السلطان العثماني في إسطنبول فكان خليفة ابتداء من فترة حكم سليم الأول.

الأستاذ عبد الحميد حاجيات ومنهجه في التحقيق والتأريخ

د. نصر الدين بن داود*.

القسم الأول: التعريف به:(1)

1–مولده ونشأته: عبد الحميد حاجيات من الشخصيات البارزة التي فرضت وجودها بأعمالها المتميزة في مجال البحث العلمي، فهو من مواليد 20 أكتوبر 1929 بمدينة بني زيان تلمسان، نشأ في أسرة متواضعة محافظة كانت تعرف في الأوساط التلمسانية باسم بن حاجي، إلا أن الإدارة الفرنسية غيرت هذا اللقب إلى حاجيات، وقد هاجرت عائلته من قبل إلى تركيا سنة 1910م، وعادت بعد ثلاث سنوات إلى موطنها الأصلي، وأما طريقة عيشها فكانت تعتمد كلية على النشاط الزراعي وتربية الماشية حيث كان يصعب عليها توفير جميع متطلبات الحياة الكريمة، وكانت تتكون من مجموعة كبيرة من الأفراد، ورغم ذلك واجهت هذه الحياة القاسية في العهد الاستعماري حتى الاستقلال، بعده أخذت مكانة محترمة في المنطقة ولها كل الشرف أنها أنجبت المؤرخ عبد الحميد.

2–مساره الدراسي: مثلما ذكرنا سابقا بأن وضعية المجتمع الجزائري كانت قاسية في الفترة الاستعمارية، فليس من السهل الالتحاق بالدراسة، إلا أن رغبته الكبيرة في كسب المعرفة جعلته يلتحق بالكتاتيب في سن الثالثة أين حفظ القرآن الكريم على يد شيوخ المنطقة المعروفين في تلك الفترة، وبعد ثلاث سنوات التحق بالمدرسة الابتدائية التي لم يكن من السهل مزاولة الدراسة بها نظرا للضغط والسيطرة التي كان يتلقاها الأطفال من قبل السلطات الفرنسية، ورغم ذلك استمر في طلب العلم والمعرفة، فالتقى بالعلامة البشير الإبراهيمي وتتلمذ على يده وعلى يد شيوخ جمعية العلماء المسلمين الذين كان لهم الدور البارز في توعية وإرشاد الجزائريين.

*– *أستاذ محاضر ب في تاريخ المغرب الإسلامي– قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة أبو بكر بلقايد– تلمسان.*

كما توّج نشاطه العلمي الكبير بالانضمام إلى اتحاد الطلبة الجزائريين الذي كان له دورا كبيرا في الثورة التحريرية الكبرى، وبخاصة في الفترة الممتدة بين سنتي 1956م و1958م، حيث دافعوا عن القضية الوطنية بالعلم والمعرفة، وبعد استرجاع الجزائر سيادتها التحق بعالم الشغل؛ فتوجه إلى الدار البيضاء بالمغرب الأقصى، وعمل بجامعتها لكنها كانت تجربة قصيرة، وبعدها عاد إلى أرض الوطن، واشتغل في الديوان الرئاسي كمستشار لأول رئيس للجزائر المستقلة أحمد بن بلة لوقت قصير، حينذاك أدرك عبد الحميد حاجيات أن هدفه في هذه الحياة علمي وليس سياسيا، ومن هنا كانت انطلاقته الحافلة لتطوير قدراته وتحقيق مشاريعه في البحث العلمي.

3-مؤهلاته العلمية:

- دبلوم معهد الدراسات العليا الإسلامية ،كلية الآداب جامعة الجزائر يونيو 1950م.
- ليسانس آداب عربية ،كلية الآداب الجزائر– ليون (فرنسا)، 1950-1954م.
- دبلوم الدراسات العليا،كلية الآداب، جامعة بوردو (فرنسا)، 1959م.
- التبريز في الآداب العربية،كلية الآداب السور بون باريس (فرنسا) 1960
- دكتوراه الحلقة الثالثة في الحضارة الإسلامية، كلية الآداب– إيكس أن بروفانس (فرنسا)، 1974م.
- دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي موسومة بـ:تاريخ المغرب الأوسط في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، إيكس أن بروفانس (فرنسا)، 1991م.

4-وظائفه الجامعية:

- أستاذ مساعد بمعهد التاريخ– جامعة الجزائر– 1975/1966م.
- أستاذ مكلف بالدروس بمعهد التاريخ– جامعة الجزائر– 1975-1986م.
- أستاذ مكلف بالدروس بمعهد الثقافة الشعبية– جامعة تلمسان 1986-1992م.
- أستاذ محاضر بمعهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان 1992-1997م.
- أستاذ التعليم العالي بقسم الثقافة الشعبية– جامعة تلمسان– 2010/1997م.
- أستاذ التعليم العالي بقسم التاريخ ،جامعة تلمسان منذ سنة 2010م.

5-نشاطاته العلمية:

- مؤلفاته:

- باللغة العربية :

1- أبوحمو موسى الثاني الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ط1-1975، ط2-1982م، 398ص، يتضمّن هذا الكتاب عرضا مفصلا حول حياة أبي حمو موسى الثاني منذ مولده إلى وفاته مع التركيز على دوره السياسي والثقافي أثناء حكمه لمدة ثلاثين سنة (760-791هـ/1359-1389م)، وعلى إنتاجه الأدبي مع نصوص مختارة من كتابه "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، ومن شعره .

2- الجزائر في التاريخ، ج3: العهد الإسلامي بالمشاركة مع مجموعة من الأساتذة الباحثين، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر-1984م، 605ص، وقد تناول الأستاذ حاجيات فيه الأقسام التالية: الجزائر في عهد المرابطين والموحدين: تطور سياسي وحضاري- إحياء الدولة الزيانية- استمرار النفوذ المريني- الحياة الفكرية بالجزائر على عهد بني زيان- خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية.

3- عبد الله بن المقفع: حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1990م، 108ص، يعتبر ابن المقفع (106-142هـ/724-760م) من مشاهير أدباء عصره، وقد تناول المؤلف التطورات العامة لعصره ثم حياة وشخصية ابن المقفع، ثم تطرق إلى آثاره وهي: رسالة الصحابة، الأدب الصغير، الأدب الكبير، كليلة ودمنة، وتطرّق إلى منتجات من هذه الآثار، وأهمها كتاب "كليلة ودمنة" الذي تناول فيه الحكم علي لسان الحيوانات، وبهذا يرجع إليه الفضل في ظهور المخيال القصصي في الأدب العربي، ويعتبر ابن المقفع رائدا للحكاية الرمزية الأخلاقية، وقد ترجم الكتاب إلى لغات عديدة، واشتهر في سائر الأقطار فأصبح يعد من بين روائع الأدب العالمي.

4- كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، أنجز بمشاركة معروف بلحاج ومبخوت بودواية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007م، 295ص، يتناول هذا التأليف دراسة تاريخ الجزائر الوسيط بما أمكن من الوضوح والنزاهة في إطار إعادة كتابة تاريخ الجزائر من الفتح الإسلامي إلى انهيار الدولة الزيانية.

- باللغة الفرنسية:

5 - **Le Maghreb central sous le règne du sultan ziyànide Abou H'ammou mousà ll-760-791h/1359-1389, edition errached sidi belabes Algérie 2009,609 pages.**

يعالج فيه التطور السياسي والحضاري للمغرب الأوسط في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م) بداية بتمهيد جغرافي للمغرب الأوسط– الخصائص الطبيعية والبشرية– الفصل الأول: تناول فيه نشأة الدولة الزيانية، والصراعات التي كانت بين العبدواديين والمرينيين، من الفصل الثاني إلى الفصل الثامن: إحياء الدولة الزيانية على عهد أبي حمو موسى الثاني وبعثها من جديد، ثم يتابع التطورات السياسية والعسكرية والحضارية للدولة الزيانية إلى غاية وفاته، الفصل التاسع: العلاقات الدبلوماسية، الفصل العاشر: التنظيمات السياسية والإدارية مع مجموعة من الملاحق: نصوص من مراسلات أبي حمو موسى الثاني بالعربية وترجمتها إلى الفرنسية، وجداول سلاطين بني عبد الواد والمرينين والحفصيين، وأخيرا شجرات النسب للقبائل البربرية والعربية.

ب التحقيق:

6- الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1975- ط2، 1986م، 427ص، هذا الكتاب عبارة عن مجموعة شعرية تم جمعها بأمر من حاكم تلمسان بروصلار brosselard عام 1871م، وكتبها محمد لمرابط، ومن هذه الأشعار قصائد الشيخ أبي مدين شعيب وأحمد الحلبي والداودي الفهرى، وقصائد لشاعرمجهول، وقصائد ابن مسايب وأحمد بن تريكي وابن سهلة. وكانت هذه الأشعار تغّنى حسب طبوع الأنواع الموسيقية المألوفة من مدائح وموشّحات وأزجال وحوازى.

7- أخبار المهدي بن تومرت لأبي بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1-1975،ط2، 1986م، كان مؤلف هذا الكتاب أحد رفقاء المهدي بن تومرت حين عودته من المشرق إلى بلاده بالمغرب الأقصى، فهو معاصر للأحداث التي ذكرها وشاهد عيان في أغلبها، إذ تتبع الحركة المهدية والدعوة إلى قيام نظام سياسي جديد، ثم بيعة عبد المؤمن بن على وتطور الدولة وتوسعاتها، ثم القبائل التي ثارت على الموحدين.

8- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحي بن خلدون، الجزء الأول، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، 332ص، وطبع سنة 2007م في اطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، يتناول هذا الجزء تاريخ المغرب الأوسط أيام الدولة الزيانية من مؤسسها يغمراسن بن

زيان إلى ما قبل أبي حمو موسى الثاني؛ فيعرّف بقبيل عبد الواد ومحل اعتمارها، ثم وصف تلمسان وأقادير وتقرارت، ثم يتطرق إلى علماء وصلحاء تلمسان، ثم يعود إلى تاريخ تلمسان من الفتح إلى عهد الموحدين، ثم يعرّف ثانية بقبيل عبد الواد إلى قيام دولة يغمراسن 633هـ/1235م، وتطورها إلى غاية نهاية عهد السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت 760هـ1359م.

9- تاريخ دولة الأدارسة، من كتاب نظم الدر والعقيان لأبي عبد الله التنسي المتوفى سنة 899هـ/1494م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، 107ص، وقد حقق فيه الفصل الخاص بالأدارسة بالمغرب الأقصى، وأبناء عمومتهم الحموديين بالأندلس والسليمانّيين بالمغرب الأوسط، وتمتد الفترة التي يغطيها هذا التأليف من أواخر القرن الثاني الهجري إلي أواسط القرن الخامس، وهي فترة لا تخلو من غموض، ولا تزال تثير كثيرا من التساؤلات، غير أن عرض التنسي هذا يمتاز بالاختصار والدّقة ورشاقة الأسلوب.

- الترجمة من الفرنسية:

10- المهدي بن تومرت: تأليف رشيد بورويبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، 172ص، ترجمه من الفرنسية الي العربية، لقد اعتمد مؤلف هذا الكتاب على العديد من المصادر والمراجع، وبذل مجهودا ملحوظا لتقديم دراسة تمتاز بالدقة والوضوح والنّزاهة، وقد تتبع حياة المهدي بن تومرت من مولده سنة 468هـ/1075م إلى رحلته إلى المشرق، وبعدها من عودته إلى بيعته ووفاته سنة 524هـ/1130م، ثم يتطرق إلى تنظيم جماعة الموحدين وشخصية المهدي بن تومرت ومذهب الموحدين.

ج- تحت الطبع: في إطار تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م:

11- تلمسان في أعمال الأستاذ حاجيات: دراسات حول التاريخ السياسي والحضاري لتلمسان والمغرب الإسلامي ،ج1 وج2، طبعة عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، وهي تتضمن عشرين مقالة تتعلق بالحياة السياسية والحضارية، وخصوصا الحياة العلمية والفكرية لحاضرة تلمسان وحواضر وأعلام المغرب الإسلامي.

12- سلوان المطاع في عدوان الأتباع لأبي عبد الله محمد ابن ظفر الصقلي المتوفى سنة 565هـ/1170م، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011م، حقق هذا الكتاب الذي يعد من أهم ما ألّف في أخلاق الملوك والصفات التي ينبغي التحلي بها قصد ضمان ثقة

الأتباع، وهي:1- سلوانة التفويض، 2- سلوانة التأسي، 3- سلوانة الصبر، 4- سلوانة الرضا، 5- سلوانة الزهد في الملك، وقد استخدم مؤلفه الرمزية من خلال الحيوانات.

13- دولة بني عبد الواد من كتاب ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمن بن خلدون، تتبع فيه تطور الدولة الزيانية في نحو 200 صفحة من قيام الدولة وقبائلها وتطوراتها السياسية والحضارية إلى غاية عصر المؤلف الذي توفي سنة 808هـ/1405م.

14- أبو مدين شعيب الأشبيلي حياته وآثاره: تتبع فيه حياة شيخ العارفين وقطب الصالحين، وكتب عن عصره ونشأته ثم سيرته ومناقبه وآثاره وإنتاجه.

15- تحقيق كتاب للشيخ أبي مدين شعيب: أنس الوحيد ونزهة المريد، وهو كتاب في التصوف يتناول جانب العقيدة والزهد وحكم وقصائد متنوعة.

16- زهر البستان لمؤلف مجهول، حقق هذا الكتاب وهو خاص بالسفر الثاني أما الأول والثالث فهما في عداد المفقودين، تطرق المؤلف في هذا الكتاب إلى تطور الدولة الزيانية خلال خمس سنوات في عهد أبي حمو موسى الثاني، ويبدو أنه كان من موظفي ديوان السلطان حيث يتابع التطورات الداخلية للحكم والعلاقات الخارجية للدولة، وهو يولي اهتماما كبيرا للسلطان أبي حمو موسى الثاني، وقد ألحق قصائد لشعراء هذا العصر، منها شعر المولديات وبعض القصائد ذكرها يحيى بن خلدون وأخرى لم يذكرها.

والأستاذ عبد الحميد حاجيات لم ينقطع عن البحث إلى غاية هذه الساعة، فهو لازال يشتغل الآن على مخطوطات أخرى لعلماء تلمسان كالحسبة للعقباني، والنجم الثاقب لابن صعد، ويعكف أيضا على تحقيق جديد لكتاب المسند الصحيح لابن مرزوق الخطيب، نسال الله تعالى أن يطيل في عمره، ويبارك فيه لإتمام هذه الأعمال.

د- منهجه في مقدمة التحقيق:

1- تقديم المؤلف والكتاب.

2- التعريف بالكاتب: من نشأته وتكوينه ونشاطه.

3- تقديم الكتاب: العنوان الكامل، تاريخ ودوافع التأليف، مضمون الكتاب ومصادره.

4- منهج المؤلف في الكتابة والأسلوب ثم القيمة العلمية للكتاب.

ثانيا :منهجه في التحقيق:

1- تصنيف النسخ: يجتهد الأستاذ في البحث عن النسخ المتوفرة ما أمكن، وبعدها يصنف هذه النسخ إلى:

أ- النسخة الأساسية: وهي التي تكون غير مصابة بنقص ملحوظ، وهي أكمل النسخ وأقربها إلى نسخة المؤلف التي هي النسخة الأم.

ب- النسخ الثانوية: وهي التي عادة ما يكون بها ثغرات ونقص كبير، وبالتالي فهي لا تنتمي للنسخة الأم، ويرمز لكل نسخة بحرف.

2- تحقيق النص: ويكون بمقابلة النسخة الأساسية مع النسخ الأخرى لرصد أوجه الاختلاف بينها نقصا وزيادة، تقديما وتأخيرا، والزيادات التي لا فائدة منها لا تضاف، ولكن عندما يتطلبها السياق تضاف إلى النسخة الأساسية، ويجعلها بين معقوفتين، ويشير إليها في الهامش.

3- الهوامش: وهي على نوعين:

أ- هوامش تحقيق النص: لذكر الاختلافات بين النسخ التي لا تكون من باب الأغلاط الكتابية أو النحوية أو اللغوية مع استخدام الرموز للدلالة على الزيادة + أو النقص-، المعقوفتان[...] للدلالة على النقص الواقع في النسخة الأساسية، النجمتان: *...* للدلالة على الجمل أو الفقرات الناقصة في النسخ الأخرى، واستثناء يختار العبارات والمفردات المناسبة للأسلوب والمعنى كلما اقتضى الأمر ذلك.

ب- هوامش الشروح: وهي خاصة بالأعلام والأماكن والكتب الواردة في النص، وكل ما يتطلب مزيدا من الإيضاح والتدقيق.

كما يحاول المحقق الأستاذ حاجيات مقابلة النص المحقق بالمصادر التي تناولت الموضوع لتأييد وتأكيد الخبر أو الاختلاف معه، وذلك بالرجوع إلى مصادر المخطوط أولا لتصحيح الأخطاء الواردة، ثم العودة إلى المصادر الأخرى، وفي الأخير يرجح الأصح منها.

4- الملاحق: ومنها صور لصفحات من المخطوط، خرائط توضيحية، وفهرس الأعلام وفهرس القبائل والأجناس وفهرس الأماكن وفهرس أسماء الكتب الواردة في النص المحقق، ثم قائمة المصادر والمراجع المستعملة في الدراسة والتحقيق، وأخيرا فهرس الموضوعات.

يهدف الأستاذ عبد الحميد حاجيات من عملية التحقيق إلى محاولة إخراج النصوص على الشكل الذي كان يسعى إليه المؤلف، فيكون النص محققا متكاملا وصحيحا كما أراده

المؤلف ومنقحا ومستقيم التعبير، وهذا العمل هو واجب علمي من باب المساهمة في كتابة تاريخ المغرب عامة وتاريخ الجزائر خاصة.

هـ- المقالات: نشر المؤرخ حاجيات ثلاثة وثلاثين (33) مقالا دوليا ووطنيا مواضيعها في الأدب والتاريخ السياسي والحضاري، وخصوصا الثقافي والفكري، ومنها الكتابة عن التراجم والسير والمناقب ومنها:

- عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، الأصالة، العدد، 1978م.
- الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، الجزائر، عدد خاص، 1983م.
- حول شخصية عقبة بن نافع الفهري، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع1، 1986م.

إضافة إلى تراجم أخرى لشخصيات علمية منها عبد الرحمن بن خلدون، ابن المقفع، سيدي محمد بن عمر الهواري، عبد الرحمن الثعالبي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، مصطفى بن براهيم.

و- المحاضرات: مداخلات علمية في ملتقيات دولية ووطنية وصلت إلى تسعة عشر(19) محاضرة منها:

- شخصية الأمير عبد القادر من خلال إنتاجه الأدبي الملتقى الوطني حول التعليم والعلماء في عصر الأمير عبد القادر، جامعة سيدي بلعباس،2001م.

ن- مشاريع البحث العلمي: لعبد الحميد حاجيات عدة مشاريع في البحث العلمي نتيجة اختلاف مجالات بحثه كتاريخ المغرب الإسلامي السياسي والحضاري، وتحقيق المخطوطات والترجمة والثقافة الشعبية مع العلم أنه يتقن اللغة العربية واللغة الفرنسية بمستوى جيد واللغة الانجليزية بمستوى متوسط.

وأهم هذه المشاريع الحياة الثقافية بالجزائر في القرن 8هـ/14م أنجز سنة 1996، نصوص أمازيغية للغرب الجزائري دراسة اجتماعية ثقافية وترجمتها إلى العربية والفرنسية، أنجز سنة 2001، تطور التيار الصوفي بالجزائر في العصر الوسيط، أنجز سنة .2006

6- تكوين ما بعد التدرج:

1-الإشراف على رسائل الدكتوراه: أشرف الأستاذ المؤرخ عبد الحميد حاجيات على خمسة عشر (15) دكتوراه مجال بحثها التاريخ وعلم الآثار والفنون والثقافة الشعبية منها:

– المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية: دراسة أثرية معمارية وفنية للباحث عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1999م.

– العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي ميزاب للباحث معروف بلحاج، قسم الآثار، جامعة تلمسان، 2002م.

– :الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان للباحث لخضر عبدلي، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2004م.

– العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد بني زيان للباحث مبخوت بودواية، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2005م.

الإشراف على رسائل الماجيستر: أشرف الأستاذ على خمسة وأربعين (45) رسالة مجال بحثها التاريخ والآثار والفنون والثقافة الشعبية منها:

– الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصر المرابطين والموحدين للطالب محمد الأمين بلغيث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987م.

– القضاء والقضاة في عهد الدولة الزيانية للطالبة نبيلة حساني، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1999م.

– علماء أسرة المرازقة ودورها الثقافي بتلمسان من ق 7هـ/13م إلى ق 10هـ/16م للطالب نصر الدين بن داود، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2004م.

– العلوم الدينية في بلاد المغرب الأوسط خلال ق 9هـ/15م للطالب محمد بوشقيف، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2004م.

خلاصة: إن مجالات بحث الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات واهتماماته متنوعة من التاريخ السياسي والحضاري للمغرب الإسلامي إلى تحقيق المخطوطات والفنون الشعبية المغاربية والأدب الشعبي والترجمة، كما ساهم في إثراء مكتبة التاريخ والحضارة بنحو خمسة عشر كتاب (15) فضلا عن المقالات والمحاضرات الوطنية والدولية، كما أشرف على التكوين في ما بعد التدرج في عدة جامعات جزائرية (الجزائر- تلمسان- وهران- سيدي بلعباس) فضلا عن المناقشات العلمية في عدة جامعات من الجزائر.

القسم الثاني: نماذج من ترجمته لبعض الأعلام:

- حول شخصية عقبة بن نافع[2]: عالج الدكتور هذا الموضوع ليس من باب الكتابة عن هذه الشخصية تعريفا بها وبأعمالها، وإنما أراد أن يدرس ما جاءت به المصادر[3] ليقف على ما تقدمه من صورتين متباينتين:

الصورة الأولى: الإيمان القوي وجهاده ضد الكفر والشرك لنشر الإسلام.

الصورة الثانية: الفتك بأهل المغرب والسبي والمعاملة القاسية وجنوحه إلى العنف والشدة، فكيف تستقيم معادلة عقبة أو ما هو التصور الآخر وتفسير الأستاذ حاجيات له ؟

الصورة الأولى: الكثير من الرواة وضعوا الأخبار قصد التمجيد، ونقل عنهم المؤرخون ومنهم ابن عبد الحكم وابن عذاري.

ميل الناس إلى الأخبار العجيبة وغير المألوفة بأسلوب القصاص (التنبؤات، الخوارق، الكرامات)؛ فظهرت صورة عقبة ضمن العلماء المقربين.

الصورة الثانية: فتح عقبة لبرقة سنة 46هـ برواية ابن عبد الحكم وجدعه لأُذن ملكهم ثم القسوة والشدة مع ملك جربة وقطع أصبعه، ويقول: إنه فعل هذا تأديبا للملك.

إذن فالخبر هذا لم يوضع لغرض التأريخ، وإنما وضع لتسلية المستمع والترفيه عنه وإثارة العجب؛ فهي قصص اخترعها القصاص وأدرجها الرواة في أخبارهم لملء فراغ المعطيات التاريخية الموثوق بصحتها.

وعليه يقول الأستاذ حاجيات: "التحفظ في معالجة المصادر القديمة أمر ضروري إذا أردنا أن نصل إلى تصور سليم ومقبول لشخصية عقبة وغيره من الأبطال، وضرورة استبعاد كل ما هو من باب العجائب والخوارق، وما يعتقد فيه غلوا ومبالغة سواء في المدح أو الذم، ثم يؤكد على حقيقة الفتح في هدفه الأسمى، لنشر الإسلام بين الأهالي وتطبيق مبادئه الداعية إلى العدل والمساواة واحترام الأديان، ولا نشك في عقبة وغيره من قادة الفتح أنهم كانوا كذلك وإلا كيف تفسر الإقبال الكبير على الإسلام والاندماج في حياته والمساهمة في الفتح كما كان مع طارق بن زياد في الأندلس، فلا يعقل أن يأخذ بما اعتاد المؤرخون ذكره من إبادة الأهالي والإكثار من السبي والغنائم.

أما عن موقف عقبة من أبي المهاجر وكسيلة الأوربي فالبعض يرى ذلك مظهرا من مظاهر العنف والقسوة والحقد، ولتفسير ذلك يقول الأستاذ حاجيات: "ينبغي التساؤل عن البيئة السياسة للخلافة الأموية، والصراع بين اليمنية والمضرية، وكذلك بين العرب والموالي من

الفرس والبربر وغيرهم، ولا غرابة أن ينتقم عقبة من أبي المهاجر لما أصابه من هوان ومذلة ناهيك عن الحرص على العودة لقيادة الجيش إتماما للفتح الإسلامي ببلاد المغرب".

أما عن كسيلة وموقف عقبة منه فحديث مضطرب؛ فكسيلة شخص مبهم يُذكر باسم ابن الكاهنة[3]، أما البلاذري فلم يذكره إطلاقا، أما المعاملة القاسية فقد تكون من قبل وضع القصاص قصد إيجاد دوافع لعملية القضاء على عقبة ورفاقه ناهيك عن الغموض في القصة.

خلاصة شخصية عقبة تعكس العصر والبيئة التي عاش فيها؛ فهو مثل الصحابة والتابعين قوى الإيمان شديد الحرص على إعلاء كلمة الله ونشر دينه، شجاعا إلى حد الاستماتة، يتجشّم الصعاب برباطة جأش وعزيمة فولاذية، وكان مثل غيره من أبناء قريش فخورا معتزا بشرف نسبه وطموحا، عالي الهمة لا يتأخر عن طلب المجد، ويتطلع إلى المهام العالية، وكان أبيا لا يقبل الإهانة، ولا يرضى المذلة؛ فكان قدوة للفرسان المجاهدين وكان لاستشهاده الأثر العميق حيث أعطى نفسا جديدا لحركة الفتح.

2-عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين (**487**هـ-**558**هـ/**1094**م-**1163**م)[5]: يقول عنه الأستاذ حاجيات "تعددت المصادر التي أرخت لهذه الدولة وشخصياتها ومنها عبد المؤمن، ومن أهم هذه المصادر كتاب أخبار المهدي بن تومرت لأبي بكر بن علي المشهور بالـ"البيدق" الذي احتوى على معلومات قيمة، لكن مثل غيره من الكتب المعاصرة متأثرة بالبيئة الاجتماعية والسياسية لما فيه من أخبار غير متصلة بالواقع التاريخي؛ فهي مجرد خيالات وأوهام شاع ذكرها عند القصاص كحكايات وأساطير، ومن ذلك لقاء ملالة وما لفّ حوله من أخبار وهذا بدافع:

- التحيز والحرص على إقناع القارئ بصحة دعوة الموحدين.
- شرعية حكم الإمام والخليفة.
- إدخال عنصر المنامات لبلوغ هذا الغرض.

ومن ذلك قول المهدي بن تومرت: "لا يقوم الأمر الذي فيه حياة إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين"[6]، ثم منام عبد المؤمن لصحفة من الطعام على ركبته يأكل منها الناس[7]، وما ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان حكاية النحل الذي نزل على عبد المؤمن وتفسيره بإجماع أهل المغرب على طاعته، وعبد الواحد المراكشي في المعجب وحكاية منام عبد

المؤمن.. إذن لقاء ملالة عليه الطابع الأسطوري بمبالغة المؤرخين وبخاصة منهم مؤرخي الموحدين.

ثم علق الأستاذ حاجيات قائلا: إنه لا ينبغي تعميم هذا الطابع الأسطوري على كل الأخبار الواردة بل يتعين على الباحث تصفيتها ووضعها في مسار التطور السياسي والحضاري، وقد قام المؤرخون الذين جاؤوا بعد سقوط دولة الموحدين بعملية التصفية، وعلى رأسهم ابن خلدون، إلا أنّ هذه التصفية لم تكن شاملة.

ثم يتناول الأستاذ حاجيات عبد المؤمن بن علي ودوره في تأسيس دولة الموحدين[8]؛ فيقول يحق لمنطقة تاجرة وهنين وتلمسان والجزائر الافتخار بهذه الشخصية ودورها في قيام دولة الموحدين، أعظم دولة في تاريخ المغرب الإسلامي.

وحتى نتبين جيدا بقول الأستاذ حاجيات من شخصية عبد المؤمن علينا:

– مراعاة الظروف الاجتماعية والبيئة التي نشأ فيها.

– مراعاة الأوضاع الدولية والعلاقات الخارجية حتى تكون النظرة متكاملة لتقييم وتقدير أي حركة سياسية.

– بترجيح الروايات ومنها رواية عبد الواحد المراكشي لخلوها من التنبؤات والتحيز.

– الاستعانة بالوصف المورفولوجي للشخصية لتحليلها، ومعرفة حقيقة خصالها وصفاتها، قوة الشخصية جاذبيتها، مؤهلاتها للمهام القيادية.(المنهج النفسي في دراسة الشخصية).

كل هذا مكّن عبد المؤمن بن علي من قيادة الدولة الموحدية وإرساء أسسها وبسط سلطانها من بلاد سوس جنوبا إلى الأندلس شمالا ومن المحيط الأطلسي غربا إلى بلاد طرابلس شرقا .

3-شخصية الأمير عبد القادر من خلال إنتاجه الأدبي(**9**): يطرح الأستاذ حاجيات فيها ضرورة إعادة كتابة تاريخ الأمير عبد القادر ومقاومته لتصحيح مزاعم المؤرخين الأجانب التي تهدف إلى إرضاء الضمير الاستعماري بالسكوت عن وحشيته، ورغم المدح والتنويه بذكاء وخصال الأمير الحميدة فإنها كثيرا ما تلجأ إلى إغفال فضائح المحتل، وتفخيم انتصاراته لتتجاوز انتصارات الأمير، ومن ذلك بول أزان **paul Azan**[10] الذي كتب عن الأمير انطلاقا من تعصبه الديني إلى الوطنية الفرنسية، ويخلص الأستاذ حاجيات إلى أن الأمير ما كان متعصبا ولا أصبح وطنيا فرنسيا.

والكتابة عن الأمير بكل موضوعية تكون بالاعتماد على المصادر النزيهة، وتفسير مواقف الأمير يكون انطلاقا من إنتاجه الفكري، وتصوفه الذي مكنه من تقوية الجانب الروحي للتغلب على شهوات النفس، والجهاد ضد المحتل، والصبر على المشقة حتى في فترة اعتقاله، وهذا الاعتقاد لم يكن عند الأمير بمجرد تقليد إنما هو نابع من ثقافته الواسعة وتفكيره العميق، ومن هنا كانت مقاومة الأمير بجمع شمل الجزائريين والتصدي للعدو في إطار حركة شاملة وخطة واضحة بتنظيم سياسي وإداري و عسكري وثقافي واقتصادي واجتماعي.

كما ركز الأستاذ حاجيات على الجانب الأخلاقي عند الأمير عبد القادر الذي حرص على التحلي بالأخلاق الإسلامية لإظهار الصورة الحقيقية للمسلم مجاهدا وقائدا وأسيرا...، كالوفاء بالعهد انطلاقا من عهده على قيادة الجهاد لمن بايعوه، وصولا إلى الالتزام بالاتفاقيات مع العدو، وبالمقابل كان ابتعاد الأمير كل البعد عن الخصال الذميمة كما هو جليا في كتابه "المواقف"، ومن الأخلاق الأخرى التي لفتت انتباه المؤرخ حاجيات موقفه الشجاع في دمشق سنة 1860م، وتصديه لتعدي المسلمين على النصارى، ثم يحلل الأستاذ هذا الموقف ليوضح أن باعث هذا النهي عن المنكر واجب إسلامي، وليس ولاء لفرنسا حتى ردّ على من شكروه أنه لا يستحق ذلك، وإنما الشكر لله تعالى الذي وفقه إلى هذا الموقف.

إذن خلاصة الأستاذ في دراسته للأمير جاءت انطلاقا من إنتاجه الأدبي؛ فشِعُره مرآة صادقة لعواطفه وما صادف حياته من أفراح وأحزان وآلام و أشواق.

كما أن الأمير لم يكن متزمتا وإنما انفتح على حضارة الغرب دون أن يحيد عن أصالته الإسلامية كما هو واضح في كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، كل هذا حتى نتفهم نفسية الأمير؛ فهو شخصية فذة ذات نبل وعلو همة، وفشل المقاومة لا تعود إلى تقاعد عن الجهاد أو خلل تنظيمي، وإنّما إلى تفاوت في القوة، وتشتت القوى الوطنية، وإحجام البعض عن نصرة الأمير؛ فكان الاستسلام رحمة بالشعب؛ فالأمير متضلع في مختلف العلوم ونابغ الذكاء؛ فهو حقيق بالإعجاب وجدير بالتقدير كبطل للمقاومة، رمز شخصية الدولة الجزائرية الحديثة والمعاصرة أولا وأديبا وعالما ثانيا، ولا غرابة أن يكون في مقدمة أبطال الإنسانية، ذلك هو الأمير من منظور الأستاذ الدكتور حاجيات عبد الحميد؛ فجزاه الله عنا وعن الجزائر والإسلام خير جزاء.

الهوامش:

1- السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات.

- مقابلة خاصة مع الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات في بيته بتاريخ: 17-10-2011

2- محاضرة ألقاها في الملتقى الأول لحركة الفتوح الإسلامية بالمغرب الإسلامي المنعقدة بولاية بسكرة ما بين 24 و28 أفريل 1985 نقلا عن مجلة الدراسات التاريخية ،معهد التاريخ جامعة الجزائر العدد الأول سنة 1406-.1986

3- من المصادر الرئيسية التي كتبت عن عقبة بن نافع:

- ابن عبد الحكم "فتوح إفريقية والأندلس".
- الطبري "تاريخ الأمم والملوك".
- ابن الأثير "الكامل في التاريخ " " أسد الغابة في معرفة الصحابة".
- البلاذري " تاريخ فتوح البلدان".
- عبد الواحد المراكشي "المعجب في تلخيص أخبار المغرب".
- ابن عذاري المراكشي "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب".
- ابن خلدون "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر".

4- ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس ص59.

5- عبد الحميد حاجيات: عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، الأصالة، العدد 64/1399-1978.

6- أبو بكر بن علي الصنهاجي،ت منتصف ق 6هـ كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، صص 37- .40

7- عبد الحميد حاجيات: عبد المؤمن بن علي شخصيته ودوره في تأسيس دولة الموحدين، ملتقى وطني "هنين ماضيها وحاضرها "برعاية المجلس الشعبي الولائي تلمسان تحت الإشراف العلمي لجامعة وهران، وحدة البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، تلمسان، فيفري .1985

8- عبد الحميد حاجيات: شخصية الأمير عبد القادر من خلال إنتاجه الأدبي، الملتقى الوطني حول التعليم والعلماء في عصر الأمير عبد القادر، جامعة سيدي بلعباس، مؤسسة الأمير عبد القادر، سيدي بلعباس، 30-31 ماي 2001.

9- الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1983.

10— من أشهر من كتب عن الأمير عبد القادر بول أزان **PAUL Azan** ومؤلفه الموسوم بـ:

"L'Emir Abdelkader du Fanatisme musulman au Patriotisme Français"

المدرسة التاريخية الجزائرية

نحو مدرسة تاريخية جزائرية: فتح ملفات عالقة

أ. لخضر بولطيف*

مقدمة: ما لبث النقاش يدور بين الباحثين العرب، منذ أزيد من عقدين من الزمن[1]، حول إمكان القول بقيام مدرسة عربية تاريخية، نظير مدارس أجنبية قائمة؛ خاصة تلك التي توصف بالكولونيالية.

وفي الجزائر حيث يضحى التاريخ مرادفا للوطنية، ورديفا للحرية، لم يستقر رأي الباحثين المعنيين بالكتابة التاريخية، وقد التأم شملهم في أكثر من مناسبة علمية[2]، فيما إذا كان يسوغ اعتبار المنجَز التاريخي بعد مرور نصف قرن عن الاستقلال، أرضية متينة لقيام مدرسة تاريخية جزائرية.

وبين متفائل بقيمة المنجز التاريخي، معتدّ به، وبين متحفّظ عليه، متوقف بشأنه، سُئل شيخ المؤرخين الجزائريين؛ الأستاذ أبو القاسم سعد الله "هل توجد مدرسة تاريخية جزائرية حقا في الواقع، محددة المعالم، معروفة الخصائص، واضحة الأسس والأهداف؟"[3]، فكان من جوابه: "ربما يمكن وصف المرحلة التي نحن فيها بمرحلة ردود الفعل على المدرسة التاريخية الفرنسية الموجّهة للجزائر، وردود الفعل لا تؤسس مدرسة تاريخية جزائرية، إنها بمثابة حوار بين طرفين (هم يقولون، ونحن نقول)، أو كما يقول القدماء عند الجدل: فإن قلتم كذا، قلنا كذا"[4].

وإلى رأي مماثل نحا الأستاذ ناصر الدين سعيدوني؛ إذ يرى أن مجمل الكتابات التاريخية الجزائرية لا ترقى إلى مستوى تشكيل مدرسة تاريخية، نظرا "لمحدوديتها، وقصور تصوراتها، وعدم صدورها عن جماعة من الباحثين يشتركون في خصائص ومميزات، تحدد طبيعة إنتاجهم"[5].

* – أستاذ مساعد أ في تاريخ المغرب الإسلامي– قسم التاريخ– جامعة محمد بوضياف– المسيلة.

ومهما تبدو مثل هذه التصريحات- ومقام أصحابها من البحث التاريخي مشهود معلوم- في نظر بعض المتفائلين، مشوبة بالحذر، موغلة في التشاؤم، فهي على أنها لا تنفي بصورة مطلقة كون المدرسة المنشودة لا تزال في "طور التكوين"[6]، فإنها- من جهة ثانية- شخّصت الداء الذي يحول دون انخراط المدرسة التاريخية الجزائرية الناشئة في مسارها الصحيح، بمنأى عن استقطاب المدرسة التاريخية الفرنسية، التي ما فتئت تلقي بظلالها على ما يُصنّف من كتب، ويُنجز من أطاريح.

ولا نعدم العديد من الشواهد على تكرّس هذا المسلك المرتهن بما كتبه الآخر، لاسيما في الكتابات المبكرة، التي أنجزت في سِني الاستقلال الأولى.

فمنذ أن أطلق الأستاذ محمد الشريف ساحلي (1906-1989) كتابه "حرّروا التاريخ"[7]، والذي يعكس مدى شعوره بوطأة "الترسانة التاريخية"[8]، التي أنتجتها ماكينات الاحتلال الفرنسي، على مدار قرن ونيّف، شهدت الساحة الثقافية بالجزائر المستقلة عددا من الكتابات المسكونة بهذا الهاجس، وأجلى ما يظهر ذلك في كتاب "الموجز في تاريخ الجزائر"[9]، من تأليف الأستاذ يحيى بوعزيز (1929-2007)، حيث تعلو فيه نبرة التذكير بالأمجاد والبطولات، وتفنيد ادعاءات الاستعمار ومفترياته[10].

ولا يبعد ذلك عما قرّره الأستاذ جمال قنّان بصدد توصيفه للمدرسة التاريخية الجزائرية المأمولة، من أنه من أولى مهامها أن تسهم "في دحض كل طروحات المدرسة الاستعمارية، وإبراز مآثر الشعب الجزائري، وأمجاده عبر التاريخ، وإثبات وجوده، وحقه في أن يكون له تاريخ، وماض، مثل أي شعب"[11].

وإذا كان هذا النهج من الكتابة التاريخية يجد له ما يبرره، زمن الاحتلال الفرنسي، كما في كتابات الرواد الأوائل (الميلي، المدني، الجيلالي)[12]؛ وكذا في مطلع الاستقلال الوطني، بحكم ما تستدعيه مسؤولية بث الوعي القومي، وتحصين الشخصية الوطنية، من وصل لحاضر الأمة بماضيها، وإشادة بمنجزات الأسلاف وسجاياهم، إلا أن الاستمرار على المنوال نفسه يصبح عبئا ثقيلا على البحث التاريخي، إذ يحيله إلى نوع من الوعظ والتذكير[13]، وهو إن كان من بعض مقاصد الدرس التاريخي، فليس مقصده الأول والأخير.

غير أن هيمنة الانشغال بترسيخ الاعتقاد بالانتماء إلى ثقافة مغايرة لثقافة المحتل، وهو مطلب حضاري بامتياز، ويزداد إلحاحا في عصر تحديات العولمة، ليس العائق الوحيد الذي

يحد من آفاق قيام مدرسة تاريخية جزائرية، يُتطلّع لأن تكون في مصاف المدارس التاريخية الكبرى المعاصرة لها، إنما هناك عوائق عديدة، في الوسع رصدها من خلال فحص متأن لواقع الكتابة التاريخية في الجزائر.

وفي تقديري، يمكن تصنيف تلك العوائق إلى ثلاثة أصناف: صنف أول يتصل بأشخاص الباحثين، وصنف ثان مداره النصوص المنجزة، وصنف ثالث لا ينفك عن المؤسسات الحاضنة للبحث العلمي.

1- الباحث.. المنهج والرؤية: يولي الباحثون المعاصرون قضية المنهج والرؤية أهمية فائقة[14]، وبخاصة في ظل تعدد مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتشعبها، وتداخلها، وكذا تباين الرؤى والمشارب والمنطلقات التي يصدر عنها هذا الفريق أو ذاك[15]، إلى حد التضاد والتصادم، لا لغاية سوى لأن الحسم في خيارات المنهج والرؤية، هو ما من شأنه أن يجلي حدود اتجاه مميز أو معالم مدرسة بعينها.

لكن اللافت للانتباه- حقا- أن هذه القضية، على خطورتها البالغة، لم تحظ بالعناية المرجوة في كتابات الباحثين الجزائريين، ولو أنه يجري التصريح عادة- تبعا لمقتضيات العرف العلمي- في مقدمات الأطاريح الجامعية باعتماد منهج ما أو أكثر، فالأمر لا يعدو- غالبا- التنويه بجدوى توثيق الروايات وتحقيق النصوص، ونقد المستندات المرجعية، بل ثمة من يتحاشى ذكر المنهج الذي تعاطاه في بحثه، مكتفيا بذكر أدوات منهجية متفرقة قد لا يكون لها سمْت مشترك[16]، أو قد يُضرب صفحا عن كل ذلك، خشية أن يراجَع الحساب فيما قرّر، دون أن يُنهض عليه دليلا.

هذا على مستوى المنهج، أما فيما يتعلق بالرؤية فالأمر أشد فداحة، إذ يؤثر جل الباحثين اللّياذ بالصمت حيال الكشف عن رؤاهم الفكرية ومنطلقاتهم التصورية[17]، متلفعين بعبارات من قبيل "تحري الحياد"، و"التزام الموضوعية"؛ كأنما الرؤية- في حسبانهم- تعكس حكما جاهزا أو رأيا مسبقا، لا أنها تمثل موقفا فلسفيا من الكون والحياة، يرسم وجهتنا، ويحدد منظورنا، إذ لا يسعنا أن نصير جميعنا نسخة واحدة مكرورة في قراءاتنا وتحليلاتنا وتخريجاتنا، مهما اتفقت مصادر معلوماتنا، واشتركت أدواتنا المنهجية.

عدا أن الإجمال في الحكم على ظاهرة غياب أو تغييب المنهج والرؤية في كتابات الباحثين الجزائريين، لا يعفينا من الاعتراف أن ذلك الحكم لا ينسحب- بالضرورة- على

جميعهم، ولسنا هنا نلمّح إلى استثناء كبار الباحثين وجهابذة الكتاب، بقدر ما نحاول أن نقرر حقيقة لا مفرّ من البوح بها، وهي أن الباحثين المحسوبين على اليسار[18]، ومهما قيل عن استلابهم للثقافة الغربية، وانسلاخهم عن ثقافتهم العربية، بدوا على الدوام، أمْكن من غيرهم في إعمال أدواتهم المنهجية، وأجرأ على البوح بخلفياتهم الفكرية.

في مقابل ذلك، استحوذ الانشغال بتصحيح مسار التاريخ الوطني، وإعادة النظر فيما كُتب حوله بأقلام فرنسية مغرضة، على كتابات كثير من الباحثين الذين لم يترددوا في إعلان ذلك في مقدمات كتبهم وأطاريحهم[19]، وعلى ما أبدوه من تحرّ ظاهر في نشدان الحقيقة، وما التزموه من نزاهة مشهودة في إصدار الأحكام، إلا أن ارتهان كتاباتهم– غالبا– بمساجلة المدونة الاستعمارية ومحاججتها، لطالما كان مبعثا على التساؤل حول مدى تعالي المناهج والرؤى التي صدروا عنها، على مستوى الجدل الإيديولوجي، إلى أفق السجال العلمي.

وإذا كان عدد من الباحثين قد نأى بنفسه عن دائرة مجادلة المدونة الاستعمارية، وأكثر ما نلحظ ذلك في أوساط الباحثين في التاريخ الوسيط، فإنهم– بدورهم– لم يفلتوا من استفززات المدونة الاستشراقية؛ سواء من تعاطى مع مقرراتها بمنطق التبني والقبول أو تعاطى معها بمنطق الرفض والصدود[20]، وبين المنطقين المتضادين ظلت لغة الكتابة التاريخية ملتبَسة، موزّعة بين دعاوى الانفتاح على الآخر، وضرورة الاستفادة من رصيده المعرفي، وبين صيحات التحذير من الانبهار بالخطاب الوافد، والتهوين من شأن الإعراض عنه.

أما الاستثناء الذي لا يجوز لنا– بحال– تجاهله، فهو ما لمسناه عند ثلّة من الباحثين، يمكن أن نمثّل لهم بالأستاذة بوبة مجاني من جامعة قسنطينة، والأستاذ خالد كبير علاّل من جامعة الجزائر.

أما الأستاذة بوبة مجاني، وهي باحثة مرموقة غنية عن التعريف، وقد تخرّج بها أجيال من الطلبة والباحثين في الشرق الجزائري، فكان متوقعا أن تكون– وعلى غرار زملائها المغاربة[21] من تلاميذ الأستاذ محمود إسماعيل– امتدادا لمدرسة التاريخ الاجتماعي، في رهانها على المنهج المادي والرؤية الهيجلية، لكن من المجازفة بالقول إن أيّا من مؤلفات الباحثة المرموقة[22]، على ما يُسجّل في ثناياها من احتفاء بالعوامل المادية، واعتبار للتصنيفات الطبقية، في تفسير أحداث التاريخ، يمكن عدّه انعكاسا مباشرا لتوجّه أستاذها الذي ما فتئ ينتصر لمنهجه ورؤيته في كل مناسبة متاحة[23].

وفي سياق مماثل، لا تختلف الأستاذة فاطمة بلهواري من جامعة وهران، وهي نظيرة سابقتها في التلمذة للأستاذ محمود إسماعيل، في كونها اختطت لنفسها مسارا لا يبدو مقتفيا لمنهج أستاذها ورؤيته، وإن كان لا يخرجها عن نطاق مدرسة التاريخ الاجتماعي- الاقتصادي بوجه عام[24].

أما المثال الآخر الذي استوقفنا، ممثلا في شخص الأستاذ البحّاثة خالد كبير علاّل، فإنه يحيلنا على نمط في الكتابة التاريخية مباين للأول منهجا ورؤية؛ إذ يعوّل صاحبه على منهج المحدثين في تناول قضايا التاريخ الإسلامي[25]، ولا يساورنا الشك في أن إعمال منهج الجرح والتعديل في تقويم الروايات والأسانيد[26]، لمما يضفي على أحكام الباحث في التاريخ كثيرا من الصدقية، التي يكاد يذهب بها الانسياق غير المتزن وراء ضروب الحدس والتخمين، مما يستعيض به الباحثون- عادة- لملء الفجوات التاريخية.

بيد أن المنهج الذي انحاز إليه الأستاذ خالد كبير علاّل، على اندراجه ضمن إطار الرؤية المعيارية الإسلامية، إلا أن توظيفه في حقل الدراسات التاريخية لا يمكن أن يعِد بالكثير[27]، شفيعنا في ذلك أن الدراسات المنجزة على ضوئه لا تكاد توغل بعيدا عن الفترات المتقدمة من تاريخ الإسلام، حتى إذا عرضت للفترات المتأخرة، بدا عقم المنهج متفاقما، إزاء روايات غير مسندة، ورواة لا نملك بشأنهم من إفادات سوى النزر اليسير، ولعل مما زاد في قصور المنهج عند الأستاذ خالد كبير علاّل اختزاله للرؤية الإسلامية في خيار نظرة الفصيل السلفي[28]، المناوئ لخيارات فصائل إسلامية ذات حضور فاعل في الفكر الإسلامي؛ على غرار المعتزلة والأشاعرة والماتريدية.

وكان يمكن أن نلحق بالنموذج السابق نظيرا له؛ ممثلا في شخص الأستاذ صالح فركوس من جامعة قالمة، فإنه رافع بحماس لصالح استصحاب الرؤية المعيارية التي تبيّن له من منظورها أن "تاريخ الجزائر لا يزال بحاجة إلى دراسة وتحليل لوقائعه وقضاياه على ضوء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، حتى يكون- بحق- صورة عاكسة للمنهج الرباني الذي يراعي سنن الله في الكون، لا صورة مقلدة أو تابعة للمناهج الشرقية والغربية التي لم ينزل الله بها من سلطان"[29].

لكن شيئا مما قرّره في كتابه "أصالة وتغريب"، بكل ما طبعه من حدة وعنفوان، لا نجد له أثرا في كتابه الآخر "المختصر في تاريخ الجزائر"[30]، والذي قدّر له أن يظل- إلى زمن

قريب- على رأس لائحة المراجع المعتمدة لدى طلبة ما قبل التدرج، في كثير من المعاهد والكليات بالجامعات الجزائرية.

ومع ذلك، فإننا على قناعة تامة أن الاتجاهين اللذين مثّلنا لهما بالأستاذين: بوبة مجاني من جهة، وخالد كبير علاّل من جهة ثانية، وعلى ما بينهما من تباين، يمكن عدّهما من بين الاتجاهات الواعدة التي تعزّز من حظوظ التأسيس لأرضية المدرسة التاريخية الجزائرية الموعودة.

إن تنويهنا بهذين الاتجاهين- على ما نسجله عليهما من تحفظات- لا ينبغي أن يُحمل على أنه إبخاس للآخرين حظهم من الأصالة والحضور ضمن مكونات أرضية المدرسة التاريخية الجزائرية، ولاسيما الاتجاه الكلاسيكي الذي يضم بين صفوفه أكبر عدد من الباحثين الجزائريين، الذين تتراوح منابع تكوينهم ما بين شرقية وغربية[31]، إنما كان القصد منه التنبيه على دور المنهج والرؤية في بلورة اتجاهات تاريخية متنوعة، لكل منها فلسفته الخاصة، ضمن مدرسة جامعة، لها معالمها الواضحة وخصائصها المميزة.

2- النص.. اللغة والمضمون: تعد لغة الكتابة في الجزائر من بين القضايا الشائكة التي ظل النقاش يحتد حولها تارة ويخفت تارة أخرى، وليس خاف أن للأمر صلة بملف التعريب[32] الذي ينطوي بين دفتيه على مفارقة تعاطي السلطة السياسية مع الإرث اللغوي الاستعماري، بين من يراه "غنيمة حرب"، لا يحسن التفريط فيها، وبين من يرى فيه شرخا حضاريا في هويتنا الوطنية، لا ينبغي أن نغفل عن فداحة آثاره وتداعياته المستقبلية.

وسواء تعلق الأمر بالكتابة الأدبية أو التاريخية فالملاحظ أن الإنتاج المدوّن باللغة العربية ما فتئ يفرض نفسه شيئا فشيئا بعد الاستقلال حتى صارت له الصدارة والتقدم[33]، وإذا كان ثمة من كان مضطرا- لاعتبارات تاريخية معينة- أن ينشيء بلغة المستعمر، التي كان يعتبرها- مع ذلك- منفاه غير الاختياري[34]، فإنه من غير المفهوم أن ينجم من بين صفوف الجيل الجديد من يراهن على الكتابة باللغة الفرنسية، لمجرد تلقيه تكوينا أو انتسابه إلى مؤسسات بحث أجنبية[35].

وحيث أن الإشكال المطروح ليس مقتصرا على الأوعية والمباني، بل يتعداه إلى الأفكار والمعاني، فلم نستغرب ألا يجد الأستاذ أبو القاسم سعد الله مندوحة من التنبيه على الخطر القادم من الغرب في ركاب الطلبة الجزائريين المتخرجين من الجامعات الفرنسية؛ ممن تشبعوا

بآراء أساتذتهم الفرنسيين "في تاريخ الجزائر وجغرافيتها"[36]، منكرا عليهم هذه التبعية الإمّعيّة لمشرفيهم، وترديد آرائهم وتخريجاتهم المغرضة دون تبصر أو تمحيص[37].

هذا على صعيد النص في انطباعه بمنطق الازدواج اللغوي، الذي يمثل إحدى التحديات المفتعلة في سياق تحديد وجهة المدرسة التاريخية الجزائرية المتوخاة. أما على صعيد النص كمّا وكيفا، طرحا وتناولا، مشغلا واهتماما، فالأمر يحتاج إلى بعض بيان وتفصيل.

فإن الحديث عن إرهاصات مدرسة تاريخية جزائرية، سيظل من جنس الآمال الموهومة، ما لم يستند إلى تقويم شامل لما أنجز إلى غاية اليوم من دراسات وأطاريح، وما وضع من كتب ومقالات، وإذا ما تجاوزنا- مبدئيا- التهمة التي ظلت تلاحق المثقفين الجزائريين- عبر مختلف العصور- من كونهم أقل الناس كتابة مقارنة بغيرهم من شعوب المعمورة[38]، فإننا ومع غياب رصد دقيق مستوعب للمنجز التاريخي الجزائري بعد الاستقلال[39]، نشعر أن ثمة نقصا غير هيّن، لا يمكن التستر عليه أو تبريره بشتى المعاذير التي قد يتذرّع بها البعض، من ضغوط اجتماعية وعراقيل إدارية.

وبإزاء ما يسجل من تواضع حصيلة الإنتاج التاريخي كماً، يراودنا التساؤل عن مستوى الحصيلة المتأتية كيْفا؟

قد يكون مما يبعث على الإحباط، أن يقرر بعض جهابذة الباحثين عندنا، من المشهود لهم بالألمعية والشفوف، أنهم لا يرون في المنجز التاريخي الراهن سوى "كتابات"[40]، أو "مساهمات"[41]، يفتقر أغلبها إلى "معايير البحث التاريخي"[42]، لأجل أنها لم توفق- في نظرهم- "في تكوين مفهوم متكامل للتاريخ الجزائري"[43].

ولسنا نروم هنا تزكية هذا الحكم أو دحضه، بقدر ما نحاول تعقب الأسباب التي تحول دون تحقيق النصاب المطلوب من التراكم المعرفي- كمّا وكيفا- في مسار البحث التاريخي الجزائري.

ويأتي في طليعة تلك الأسباب أن قطاعا واسعا من مدونتنا التاريخية إنما اضطلع بإنتاجه هواة غير متخصصين، لا تنفك كتاباتهم- في الغالب الأعم- عن انتماءاتهم الحزبية أو القبلية أو الطرقية، ولا عن ميولهم الشخصية أو الوطنية أو القومية[44]، مما كان له الأثر البيّن في تقليص مساحة الدراسات النوعية المتخصصة، التي "تشكل لُحمة ونسيج التاريخ العام"[45]؛ إذ بدون هذه القاعدة من الدراسات يظل فهمنا للتاريخ الجزائري مبتسرا وملتبسا.

ولعله مما لا يزال يلقي بظلاله على ما يعدّ في جامعاتنا من رسائل وأطاريح أكاديمية، هو ذلك التجاذب القائم بين تركيز الاهتمام على التاريخ المحلي[46]، أو تتبع الظاهرة التاريخية في امتداداتها الحضارية دون التفات إلى الأطر الجغرافية الضيقة[47]، كما أن استقطاب المنحى السياسي لانشغال الباحثين على حساب المناحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، قد يعضد ما ذهب إليه البعض من أن مستوى المعرفة التاريخية لدينا لم يبارح- بعد- مرحلته الأولى؛ المتمثلة في "المعرفة الوقائعية"، حيث تُولى العناية- بالدرجة الأولى- "للنمط الحوادثي ذي الطابع السياسي، الذي تعوزه الأصالة والمعالجة التقييمية من الداخل، ويغلب عليه التبسيط والانسياق وراء أفكار مسبقة"[48].

لكن من الإنصاف للحقيقة القول إن استغراق الشأن السياسي للكتابة التاريخية أكثر ما يلاحظ في دراسات التاريخ المعاصر، بينما يسعنا أن نحصي فيما عداه من العهود المتقدمة؛ من قديمة ووسيطة وحديثة، عشرات الدراسات التي تهيّأ لأصحابها الانفلات من إسار تاريخ الكيانات والشخصيات السياسية، مرتادين آفاقا رحبة من النطاقات البحثية، بحيث نقف على موضوعات من قبيل: الإدارة والدواوين[49]، القضاء والحسبة[50]، الحواضر والبوادي[51]، التجارة والصناعة[52]، الوقف والجباية[53]، النقود والمسكوكات[54]، الأقليات والجاليات[55]، الطلبة والعمال[56]، الرقيق والموالي[57]، المرأة والمجتمع[58]، الأسَر والبيوتات[59]، الثقافة والعمران[60]، الرحلة والتعليم[61]، الطب والصيدلة[62]، الطوائف والمذاهب[63]، الفقهاء والعامة[64]، التصوف والأولياء[65]، الدعوة والإصلاح[66]، الرسائل والظهائر[67]، الصحافة والإعلام[68]، ...

على أن هذا الثراء في المشغل التاريخي لم تزل تكتنفه محاذير لم تند عن انتباه متبصّرة الباحثين، فترى المتخصص منهم في التاريخ القديم يعترف أنه بالنظر إلى التدمير العشوائي والممنهج الذي اقترفه الاستعمار الغربي في حق التراث التاريخي للمجال الأفروعربي "لم يبق لنا إلا كتب الغرب نفسه نعوّل عليها، ولا مناص من محاورتها ومجادلتها"[69]. ولما كانت معضلة تاريخنا القديم المكتوب بلغة الآخر- الإغريقي والروماني- المكابر بانتمائه العرقي، وخلفيته الثقافية، تشكل تحديا لا نملك حياله الكثير في ظل خياراتنا المحدودة، فليس أمامنا- حسب البعض- سوى تعديل منهج التعاطي مع تاريخ المغرب القديم، بفك ارتباطه

بحضارات البحر المتوسط التي تجعله مرتهنا بالحضارات الوافدة، والتوجه- بديلا عن ذلك- إلى توثيق عُراه بحضارات الروافد المائية والمسالك النهرية، في دواخل الصحراء الإفريقية[70].

ومن ناحية أخرى ترى المتخصص من الباحثين في التاريخ الحديث يزيد على برمه بتحامل الإسطوغرافيا الاستعمارية التي هيمنت عليها فكرة التنويه بتاريخ العهد الروماني، فتاريخ العهد الفرنسي، وتصوير ما بينهما على أنه ليس سوى عصور غامضة أو مظلمة غير حريّة بأي عناية أو تحفّ[71]، استنكاره على زملائه الوقوع في مطب اختزال التاريخ الجزائري بين حدّي المقاومة الوطنية والثورة التحريرية[72]. وثورة التحرير على ما تمثله من لحظة فارقة في تاريخ الجزائر، ومع أنها لم تحظ- في الواقع- بما يكافئ مقدار تأثيرها في رسم مسار الدولة الوطنية الحديثة، فليس ذلك مبررا لأن تصير نقطة المبتدأ والمنتهى، فتاريخ الجزائر أرحب مدى وأوسع مجالا.

وقد يكون مما يخفف من غلواء هذا التوجه العفوي أو المقصود في إعلاء جانب من التاريخ الجزائري على آخر، ما نلمسه لدى شريحة من الباحثين الشباب من اهتمام متنام باقتحام ميادين بحثية جديدة، تتقاطع في تناول "تاريخ الأفكار والذهنيات"[73]، ما ينبئ عن مؤشرات واعدة بمستقبل الكتابة التاريخية في الجزائر.

3- المؤسسة.. الهيكل والفاعلية: تزدهي الجزائر بمؤسساتها الجامعية التي تكاد تضاهي عدد مدنها، بل تربو عليه[74]، إذ قد تشتمل المدينة الواحدة على قطبين أو ثلاثة أقطاب جامعية، وبعض هذه المؤسسات والمراكز الجامعية تتربع على مساحة مترامية الأطراف تجعل منها مدينة جامعية بحق، لكن هل واكب هذا الشموخ في البناء وتشييد الهياكل فاعلية في الأداء والارتقاء بالتكوين؟

لا يخفي بعض المتابعين للشأن الجامعي بالجزائر، أن الجامعة الجزائرية "أصبحت مانحة شهادات، لا مكوّنة رجال"[75]، يعكس ذلك طغيان الاعتبارات المادية الريعية ضمن منظومة الأفكار والقيم التي يصدر عنها المنتسِب الجامعي، ما أضحى معه الظفر بالشهادة، ومنصب العمل، كيفما اتفق، أولى من الكد وبذل الجهد في التحصيل العلمي والتكوين المنهجي.

ولقد انعقدت بهذا الشأن ندوات وطنية، وأيام دراسية[76]، حرص المشاركون فيها على تباحث واقع وآفاق الدراسات العليا بالجامعة الجزائرية، وكان مما خلصوا إليه أن مكْمن

المشكلة فيما تعانيه الجامعة من نقص وتراجع في مستوى الرسائل الجامعية المنجزة، يعود إلى جملة من العوامل[77]، يأتي في مقدمتها عدم تمكن الطلبة الباحثين من أدوات البحث العلمي، وقلة تحكمهم في لغة البحث أو اللغات المساعدة، فضلا عن تقصير عدد من الأساتذة المؤطّرين في الاضطلاع بدورهم التكويني، والمتابعة الجادة لما ينجز تحت إشرافهم من رسائل وأطاريح.

وبرغم كون الجامعة هي الإطار المرجعي لرعاية البحث العلمي وتطويره، إلا أنها لا تستمد فعاليتها من قاعات المطالعة والدراسة فحسب، بل إنها تكتسي طابعها الحيوي من خلال الأنشطة والمبادرات العلمية المنوطة بمخابر البحث[78]؛ من عقد ندوات وملتقيات، وإصدار مجلات ومنشورات، وهو الجانب الذي يشهد تقاعسا كبيرا لدى القائمين عليه، خلا حالات نادرة تمثل الاستثناء لا القاعدة[79].

صحيح أن تنظيم الملتقيات الوطنية والدولية يشهد وتيرة متسارعة في مختلف الجامعات الوطنية، لكن كم من أعمال تلك الملتقيات، التي تستنزف طائلا من الوقت والجهد والمال، يجد طريقه إلى النشر والتداول؟! وصحيح- أيضا- أن عددا مقبولا من المجلات الجامعية المتخصصة يُعلَن عن صدورها بين الحين والآخر، ولكن ما أشبه حالها بالفطر سرعان ما تظهر لتذوي وتموت؟!

أليس باعثا على التأمل والتأسي أن ملتقيات الفكر الإسلامي التي توالى انعقادها إبان سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، والتي درجت على خص المشهد التاريخي بمحور ثابت من محاورها[80]، قد كان لها الأثر الجلي في إثراء الساحة العلمية بنقاشات حيّة شغوفة، طالما وجدت طريقها إلى صفحات الجرائد الوطنية والدولية، وأن مجلة "الأصالة"- لسان حال وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية- كانت منبرا علميا رائدا، ازدانت بأقلام كبار الباحثين من الجزائر وخارجها[81]، ولا زالت تصنّف ضمن أهم مراجع البحث التاريخي في بلادنا.

ولما كان الأمل معقودا- من جهة أخرى- على الإضافة التي يمكن أن تقدمها مراكز البحث العلمي التابعة لبعض الوزارات المعنية بالشأن الثقافي، كالمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ[82]، والمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954[83]، إلا أن غياب استراتيجية وطنية موحدة للنهوض

بالبحث العلمي، يظل عائقا يحدّ من فاعلية عطاء هذه الأطر البحثية، ويلجم طموح أصحابها في رفد مسارب مدرسة تاريخية جزائرية[84].

وإذا كان من الباحثين من عقد آمالا عراضا على إعادة بعث "الجمعية التاريخية الجزائرية"، التي من شأنها أن تلملم شمل المؤرخين الجزائريين من ذوي الخبرات والتجارب المديدة في الكتابة التاريخية[85]، فإن تجربة اعتماد "اتحاد المؤرخين الجزائريين"[86]، بعد مضي سنوات على مثوله في الساحة الوطنية، لم تتأد إلى تحقيق الهدف المنشود، كإطار جامع لأجيال الباحثين، يحققون ضمنه تقاليد التعاون والتواصل الغائبة.

إن ظاهرة غياب العمل المؤسساتي أو عقمه، لمما يفسر حجم الصعاب التي يعانيها أفراد الباحثين، حين تصديهم لإنجاز مشاريع بحث طموحة، من مصاف توجيه العناية إلى إنقاذ التراث القومي المخطوط؛ إحصاء وفهرسة[87]، نشرا وتحقيقا[88]. ومهما أثمرت جهود هؤلاء الباحثين في إطلاعنا على الدرر المكنونة، أو تمكيننا من المستندات النادرة، فإن ذلك لا يغني عن مجهود منظم، وإطار مدعّم، يوفر الكثير من العناء، ويختصر الكثير من الوقت.

يتبين لنا– مما تقدم– أن السعي في اتجاه التأسيس لأرضية مدرسة تاريخية جزائرية، إذا أريد له ألا يظل حبيس القول الطوباوي، فإنه يمر حتما عبر فتح ملفات عالقة، من غير الحكمة أن نتمادى في التغاضي عنها.

فليس مهما أن تتضارب رؤانا وتتباين مناهجنا، بقدر ما ينبغي أن نكون واضحين منسجمين مع منطلقاتنا الفكرية، متفقهين متمرسين بإعمال أدواتنا المنهجية. كما ليس مهما أن تفترق انشغالاتنا واهتماماتنا العلمية، بقدر ما ينبغي أن نرتقي بمستوى طرحنا وتناولنا، بمنأى عن الارتهان لقضايا ظرفية مفتعلة.

وإذا كنا لا نملك حق الافتئات على مؤسسات الدولة في تخطيط استراتيجية شاملة للبحث العلمي بوجه عام، والبحث التاريخي بوجه خاص، إلا أننا نحوز– في الواقع– إمكانات غير محدودة في مضاعفة الجهد، ومتابعة العمل في دائرة مخابر البحث، وعلى مستوى تكريس الوعي.

الهوامش:

1– انعقد ببغداد في الفترة ما بين 27 و29 ديسمبر 1987 مؤتمر دولي، من تنظيم اتحاد المؤرخين العرب، كان موضوعه: "نحو مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته". كما كان انعقد قبل ذلك بالمملكة المغربية ندوتان؛ الأولى في شهر أكتوبر 1986، وكان موضوعها: "البحث الغربي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية"؛ والثانية في شهر ديسمبر 1986، وكان موضوعها: "ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب". وقد

صدرت الندوتان في كتاب مشترك، بعنوان: "البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم"، تقديم: محمد المنصور وآخران، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989.

2-من بين أهم اللقاءات العلمية ذات الصلة، نذكر: الملتقى الوطني الأول حول "المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري"، من تنظيم معهد التاريخ، جامعة الجزائر، بتاريخ: 10-1987/03/12؛ والملتقى الوطني الأول حول "المدرسة التاريخية الجزائرية"، من تنظيم اتحاد المؤرخين الجزائريين، وانعقد بالمتحف الوطني للمجاهد، خلال شهر فيفري 1996؛ وكذا الندوة الوطنية حول "المدرسة التاريخية الجزائرية: نصف قرن من العطاء"، من تنظيم قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، بتاريخ: 2009/11/24.

3-مراد وزناجي: حديث صريح مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، الجزائر: منشورات الخبر، 2008، ص134.

4-المرجع السابق، ص135.

5-ناصر الدين سعيدوني: "الدراسات التاريخية في الجزائر بين الأمس واليوم"؛ ضمن كتابه: ورقات جزائرية، ط01، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2000، ص10.

6-وهو الوصف الذي استخدمه الأستاذ أبو القاسم سعد الله في مقدمة كتابه: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط04، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005، 04/1.

7- Sahli M. Ch., *Décoloniser l' histoire*, Paris, Maspero, 1965.

وقد صدرت للكتاب طبعات أخرى بالجزائر، كما صدر معرّبا بعنوان: تخليص التاريخ من الاستعمار، تعريب: محمد هناد ومحمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2002.

8-قد يكون الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم (1927-1992) هو أول من أطلق هذا الوصف على الإنتاج الضخم الذي خلّفته المدرسة الفرنسية الاستعمارية حول تاريخ الجزائر. يراجع محمد الهادي الحسني: "مولود قاسم فيلسوف رابط في جبهة التاريخ"؛ ضمن الكتاب التكريمي: الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم.. المفكر الموسوعي، والوطني الثائر، منشورات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، قسنطينة، 2007، ص93. ويمكن الاطلاع على مجمل حصيلة هذا الإنتاج من خلال المظان الآتية:

- Christian Courtois, "De Rome à l' Islam", *Revue Africaine*, V. 86, 1942, pp. 25-55.
- William Marçais, "Un siècle de recherches sur le passé de l' Afrique musulmane", dans *Histoire et historiens de l' Algérie: 1830-1930*, Paris, 1931.
- Georges Yver, "La conquête et la colonisation de L' Algérie", dans *Histoire et historiens de l' Algérie: 1830-1930*, Paris, F. Alcan, 1931.
- Xavier Yacono, "L' Algérie depuis 1830", *Revue Africaine*, V. 100, 1956, pp. 145-190.

9-صدر جزءه الأول؛ ويخص الفترتين القديمة والوسيطة من تاريخ الجزائر، سنة 1965، وله طبعة أخرى تشتمل على جزأين، صدرت عن ديوان المطبوعات الجامعية، سنة 2009.

10-يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر (ط. 2009)، 05/1.

11-جمال قنان: من نص تصديره لندوة "المدرسة التاريخية الجزائرية"، مرجع سابق، ص26.

12-أخرج الشيخ محمد مبارك الميلي (1880-1945) الجزء الأول من كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، سنة 1928، ولم يمض وقت طويل حتى أردفه الأستاذ أحمد توفيق المدني (1898-1983) بـ "كتاب الجزائر"، سنة 1931، أما كتاب "تاريخ الجزائر العام"، للشيخ عبد الرحمن الجيلالي (1908-2010)، فصدر جزءاه الأول والثاني في سنتي 1953 و1954 على التوالي.

13-يرى الأستاذ عبد الرزاق قسّوم أن "من خصائص الحس التاريخي عند يحيى بوعزيز، اندماجه في الحدث التاريخي، الذي يغلب على حسّه القوي؛ فيجعله ينفعل مع الحدث، فيخرجه هذا الانفعال -أحيانا- عن سمته، ووقاره العلمي، ليصنفه في خانة الواعظين بالتاريخ، أو الأدباء الهجائين". تراجع مداخلته بعنوان: "الأستاذ يحيى بوعزيز.. حس تاريخي، وحماس ثوري"؛ ضمن الكتاب التكريمي: الأستاذ يحيى بوعزيز.. حس تاريخي، وحماس وطني، منشورات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، قسنطينة، 2008، ص49.

14-أنجز الباحث التونسي محمد نجيب بوطالب أطروحته للدكتوراه: "سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي"، في خمسة فصول، جعل مدار الفصل الأول منها حول: أسئلة في المنهج. يراجع نص الأطروحة مطبوعا، ط01، بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، 2002.

15-يسع الباحث أن يكوّن فكرة مبدئية عن حجم التباين في مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية التي يتبناها باحثون يصدرون عن رؤى متغايرة، من خلال مطالعة -على سبيل المثال- مصطفى حلمي: مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب، ط01، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005؛ ومحمد أمزيان: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، ط04، هيرندن، فرجينيا: منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2008.

16-يذهب أحد الباحثين بصدد استعراض المنهج المتبع في بحثه، إلى أنه لجأ إلى إعمال منهج الاستنباط والمقارنة (كذا) لاستخراج المادة المطلوبة. يراجع موسى هيصام: "الجيش في العهد الحمادي"، رسالة ماجستير مرقونة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001. في حين يحتفل باحثون آخرون بذكر مناهج متعددة جرى توظيفها في أبحاثهم (التاريخي، الوصفي، التحليلي، الاستقرائي، النقدي...). عدا أن الأمر بخلاف ذلك؛ فليس إعمال مجرد الوصف منهجا وصفيا، ولا مجرد التحليل منهجا تحليليا، ولا مجرد الاستقراء منهجا استقرائيا، وهكذا، فالأمر لا يعدو -في الواقع- توظيف المنهج التاريخي، الذي يقوم -في الأصل- على آليات الوصف والتحليل، والنقد والمقارنة، والاستقراء والاستنباط، ولم يحملهم على ذلك الادعاء والمجازفة بالقول إلا قلة عنايتهم بفقه المناهج، والتمرّس بآلياتها. ولا نعدم -في المقابل- من كان على بيّنة من أمره، فتراه يعلن -بلا مواربة- أنه اعتمد منهجا تاريخيا تحليليا نقديا، على سبيل ذكر مواصفات المنهج، لا تعداد المناهج.

يراجع عبد القادر ربوح: "الأحباس ودورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرن[ين] 04-09هـ/10-15م"، رسالة ماجستير مرقونة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006؛ وواعظ نويوة: "أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية"، رسالة ماجستير مرقونة، قسم التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2008؛ ونوّارة شرقي: "الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين"، رسالة ماجستير مرقونة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2008. ويقارن بعبد القادر بوعقادة: "المذاهب الفقهية المندثرة وأثرها في التشريع الإسلامي في القرنين 02 و03هـ/08 و09م"، رسالة ماجستير مرقونة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003؛ ومصطفى أوكيل: "انتشار الإسلام في بلاد المغرب وآثاره على المجتمع خلال القرن الأول الهجري"، رسالة ماجستير مرقونة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006.

17-فيما يتعلق بهذه النقطة، يكاد الأمر ينسحب على قطاع واسع من الباحثين، باستثناء نماذج محدودة، ما ليس مجديا معه استحضار أمثلة بعينها. ولعله مما يبعث على التساؤل أن الرؤية في كتابات جيل الرواد من الشيوخ، بدت أدنى إلى الحضور والوضوح، مما كان يرجّى في كتابات أجيال الباحثين المعاصرين.

18-يمكن الإشارة إلى الأستاذ عبد القادر جغلول (1946-2010) في كتابه: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، تعريب: فضيلة الحكيم، ط01، بيروت: دار الحداثة، 1982.

19-يعترف الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن من أوكد الأسباب التي جعلته يميل إلى اختيار تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية موضوع بحث رسالته للدكتوراه، هو ما عاينه من "احتكار الفرنسيين، منذ أكثر من قرن، لكتابة وتفسير تاريخ الجزائر". يراجع كتابه: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 55/1.

20-يمكن رصد مدى تفاوت الانفتاح على المدونة الاستشراقية، وحضور تخريجاتها في دراساتنا التاريخية، عبر المقابلة بين أطروحتي:

- **Allaoua Amara, *Pouvoire, économie et société dans le Maghreb hammadide (398-547/1007-1152)*, TN, Univ. Paris I, 2000.**

– الطاهر بونابي: "الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 06 و07هـ/12 و13م"، رسالة ماجستير مرقونة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000.

21-من أحفلهم ذكرا الأساتذة: إبراهيم القادري بوتشيش، وأحمد الطاهري، وعبد الإله بنمليح، ومحمد تضغوت، ومحمد ستيتو.

22-نخص بالذكر كتابيها: أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، قسنطينة: منشورات جامعة منتوري، 2003؛ والنظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي، ط01، قسنطينة: دار بهاء الدين، 2009. وهما -في الأصل- رسالتاها للماجستير (جامعة القاهرة، 1982)، والدكتوراه (جامعة قسنطينة، 1995)، على التوالي.

23-نوّه بذلك في مقدمات جلّ كتبه المنشورة، وفصّل القول فيه بوجه خاص في تقديمه لموسوعته: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ط04، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2000، 11/1-35.

24-يُتأمل كتابها: التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط، الرباط: منشورات الزمن، 2010.

25-يدلّل على ذلك عدد من أعماله المنجزة، ومنها:

– رؤوس الفتنة في الثورة على الخليفة الشهيد عثمان بن عفان -دراسة نقدية تمحيصية وفق منهج علم الجرح والتعديل-، الجزائر: دار المحتسب، 2008.

– بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى خلال العهد الراشدي -دراسة نقدية تمحيصية وفق منهج علم الجرح والتعديل، إسنادا ومتنا-، الجزائر: دار كنوز الحكمة، 2009.

– تناقض الروايات السنية والشيعية حول تاريخ صدر الإسلام -دراسة نقدية تمحيصية للروايات السنية والشيعية المتعلقة بتاريخ صدر الإسلام وفق منهج علم الجرح والتعديل-. (قيد النشر).

26-من بين الأعمال التي قامت على إعمال منهج المحدثين، تبرز أعمال الأستاذ أكرم ضياء العمري، ومن بينها:

- السيرة النبوية الصحيحة -محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية-، ط06، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحِكم، 1994، جزءان.

- المجتمع المدني في عهد النبوة -محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد الروايات التاريخية-، ط01، المدينة المنورة: منشورات المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، 1983.

- عصر الخلافة الراشدة -محاولة لتطبيق قواعد النقد عند المحدثين على الرواية التاريخية-، ط01، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحِكم، 1993.

27-يقرر ابن خلدون طبيعة الاختلاف القائم ما بين التعاطي مع الأخبار الشرعية والتعاطي مع الأخبار التاريخية، في قوله: "وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية، لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط. وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة". المقدمة، تحقيق: درويش الجويدي، ط01، بيروت: المكتبة العصرية، 1995، ص42.

28-كان مدار بحث الأستاذ خالد كبير علاّل في أطروحتيه للماجستير (1996) والدكتوراه (2003) على "الحركة الحنبلية"، ثم كان من بين أبرز كتبه التي تومئ بانحيازه إلى ترجيح كفة المدرسة السلفية الحديثية الحنبلية على كفة ما سواها من المدارس الإسلامية، ما يلي:

- الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرنين 05 و06 الهجريين، ط01، الجزائر: دار الإمام مالك، 2005.

- منهج أهل الحديث في الرد على المتكلمين -أسسه وتطبيقاته-.

- مواقف المتكلم أبي بكر بن العربي من الحنابلة من خلال كتابه: العواصم من القواصم.

- مواقف المؤرخ ابن الأثير من الحنابلة من خلال كتابه: الكامل في التاريخ.

(الكتب الثلاثة الأخيرة قيد النشر، وهي موجودة بموقع "مكتبة صيد الفوائد"، على الرابط: http://www.saaid.net/book/search

29-صالح فركوس: أصالة وتغريب -مشروع فرنسا الصليبية والمجابهة الإسلامية-، الجزائر: دار الكوثر، 1991، ص08. (صدر في إطار سلسلة: نحو تأصيل إسلامي لتاريخ الجزائر).

30-للكتاب أكثر من طبعة، وبيانات الطبعة التي تحيل عليها، هي: عنابة: دار العلوم، 2002.

31-تخرّج الأستاذ موسى لقْبال (1934-2009) بأساتذة المدرسة المصرية، حيث ناقش بجامعة عين شمس أطروحتاه للماجستير (1968) والدكتوراه (1972)، في حين تخرج زميله الأستاذ عبد الحميد حاجيات بأساتذة المدرسة الفرنسية، حيث ناقش بجامعة بروفانس أطروحتاه للماجستير (1974) والدكتوراه (1991).

32-من أبرز الأعمال التي تناولت ملف التعريب بعمق وإحاطة، نذكر:

- عثمان سعدي: قضية التعريب في الجزائر، بيروت: دار الطليعة، 1967.

- أحمد بن نعمان: التعريب بين المبدأ والتطبيق في الجزائر والعالم العربي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

33-أحمد سليماني: "إشكالية كتابة التاريخ الوطني"؛ ضمن أعمال ندوة: المدرسة التاريخية الجزائرية، مرجع سابق، ص73.

34-لم يقدّر للأديب الجزائري مالك حدّاد (1927-1978) الذي تلقى تعليمه في ظل الاحتلال الفرنسي، أن يلهج أو يكتب بلغته الأم، وكان ذلك يحز في نفسه، حتى لقد قرر بعد الاستقلال أن يتوقف عن الكتابة، مطلقا عبارته الشهيرة: "اللغة الفرنسية منفاي، ولذا قررت أن أصمت".

تراجع سيرته الذاتية بموقع "نخبة الإبداع"، على الرابط: http://www.nu5ba.net/vb/showthread.php?t

35-يمكن أن نمثل لهذا الاتجاه بباحثين نابهين، هما: الأستاذ علاوة عمارة، من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، والأستاذ محمد الصالح بوقشور من جامعة الشلف.

36-مراد وزناجي: حديث صريح مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، ص136.

37-أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء، 12/3. وفي موضع آخر من الكتاب (299/5، 302-304)، يتعقب تلميذه السابق الأستاذ عبد الحميد زوزو، في أطروحته حول "إقليم الأوراس"، والتي أنجزها بفرنسا تحت إشراف الأستاذ Charles-Robert Ageron (1923-2008)، منتقدا مسلكه في إعمال بعض التعابير والاصطلاحات التي تحيل على تصورات ومواقف غير سائغة؛ كإعلانه أنه سيقف على مسافة واحدة -أي على الحياد- من المستعمِر والمستعمَر، وأن هدفه الوحيد هو -فقط- دراسة الملامح والعلاقات التي كانت بين المجموعتين (كذا)، خلال عهد طويل من "التعايش"، استمر أكثر من مائة سنة.

38-يقول الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم: "أجدادنا أنجزوا جلائل الأعمال، ولكنهم لم يسجلوها". يراجع كتابه: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ط01، قسنطينة: دار البعث، 1985، 27/1، 46.

39-من بين المحاولات التي استهدفت رصد الإنتاج التاريخي حول الجزائر المعاصرة (1830-1962)، العمل الذي أنجز في إطار وحدة بحث، بجامعة الجزائر، تحت إشراف الأستاذ عمار هلال (1944-1995)، والذي استوعب قسمه الأول المظان التالية: مجلة الثقافة (1971-1987)، مجلة الأصالة (1971-1981)، مجلة المجاهد الأسبوعي (1962-1974)، مجلة المجاهد الثقافي (1967-1974)، مجلة الجيش (1964-1991)، مجلة حضارة الإسلام (1960-1962)، صحيفة المنار الجزائرية (1951-1954)، صحيفة الشعب (1962-1991)، صحيفة السلام (1990-1991). يراجع أعمال الملتقى المغاربي الأول: المصادر والمراجع العربية لتاريخ الجزائر المعاصر (1830-1962)، من تنظيم معهد التاريخ، جامعة الجزائر، بتاريخ: 28-29/12/1992، الجزائر: منشورات جامعة الجزائر، د.ت.، ص104-234.

كما لا يفوتنا أن ننوه -بهذا الصدد- بالعمل الذي يعكف عليه الأستاذ المختار بوعناني، من جامعة وهران، والمتمثل في "معجم المؤلفين الجزائريين باللغة العربية في القرنين: 20 و21"؛ وكذا العمل الذي يسعى لاستكماله الأستاذ علاوة عمارة رفقة فريق من الباحثين، والمتمثل في "فهرس الرسائل الجامعية المناقشة في الجامعات الجزائرية منذ الاستقلال إلى وقتنا الحاضر".

40-مراد وزناجي: حديث صريح مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، ص132.

41-ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص10.

42-مراد وزناجي: حديث صريح مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، ص132.

43-ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص69.

44-أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء، 2/05-06، 238.

45-ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص05-06.

46-يرى الأستاذ موسى لقبال أنه لأجل الانخراط في مسعى كتابة التاريخ الجزائري، يتعين "نبذ الشمولية التي جرى عليها طلبتنا وباحثونا حتى الآن، حتى لا تصبح أحداث بلادنا غارقة في أحداث جيراننا مغربا ومشرقا". يراجع مقاله: "تاريخنا الوطني، ومسعى إعادة صياغته بروح جديدة"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية (قسنطينة)، ع11/2010، ص12.

47-تتساءل الأستاذة فاطمة بلهواري فيما إذا كانت الحدود الجغرافية بين البلدان تمثل في -الوقت نفسه- فواصل فعلية في تاريخها؟ ومع اعترافها بجدوى هذه الرؤية في حصر وترتيب الفضاء الجغرافي ضمن مجال زمني معين، إلا أنها تسجل وقوع أصحابها في ارتباك واضح عند تناولهم لبعض الظواهر التاريخية بمعزل عن محيطها العام. يراجع نص مداخلتها بعنوان: "من أجل رؤية جديدة لتاريخ الجزائر"، ضمن أعمال ندوة: المدرسة التاريخية الجزائرية: نصف قرن من العطاء، مرجع سابق، (النص مرقون).

48-جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500-1830)، الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987، ص07.

49-تلاحظ أعمال: بوبة مجاني، الدّراجي بوزياني، عبد السلام همّال، عزيز حدّاد،...

50-تلاحظ أعمال: موسى لَقْبال، إبراهيم بحّاز، محمد بن معمّر، منى صالحي،...

51-تلاحظ أعمال: عبد العزيز فيلالي، عمار غرايسة، محمد قويسم، الطاهر طويل، ناصر الدين سعيدوني،...

52-تلاحظ أعمال: لطيفة بشّاري، رشيد باقة، عبد المالك بكاي، كمال صادقي،...

53-تلاحظ أعمال: ناصر الدين سعيدوني، فلّة القشاعي،...

54-تلاحظ أعمال: صالح بن قرْبة ، يمينة درْياس، منير بوشناقي،...

55-تلاحظ أعمال: سهيل الخالدي، حنيفي هلايلي، عبد المجيد قدّور، خير الدين شَتْرة،...

56-تلاحظ أعمال: عمار هلال، خير الدين شترة، مسعود شبّاحي، عبد الحميد زوزو، عمار بوحوش،...

57-تلاحظ أعمال: لطيفة بشاري، مفتاح خلْفات،...

58-تلاحظ أعمال: فوزية كراز، سهام دحْماني، حنان لطرش، نجاة بولعسل،...

59-تلاحظ أعمال: رفيق خليفي، امحمد بوشريط، نصر الدين بن داود، محمد أوجرتني، لخضر بوطبّة،...

60-تلاحظ أعمال: محمد الأمين بلْغيث، نجيب بن خيْرة، منيرة بوغْرارة، محفوظ زقّوم، مبروك مهيرس، عبد العزيز شهبي،...

61-تلاحظ أعمال: سامية مقْري، بلقاسم فيلالي، عبد الجليل قرْيان، علي آجْقو،...

62-تلاحظ أعمال: نور الدين زرْهوني، جعفر يايوش،...

63-تلاحظ أعمال: مسعود كواتي، آمال معوشي، إسماعيل سامعي، عبد القادر بوعقادة،...

64-تلاحظ أعمال: لخضر بولطيف، صابرة خطيف، دلال لواتي،...

65-تلاحظ أعمال: الطاهر بونابي، عبيد بوداود، آمال لذْرع، فاطمة الزهراء جدّو، كمال فيلالي، مختار بونقاب،...

66-تلاحظ أعمال: أحمد بوعتروس، عبد العزيز لعميد، علي بن طاهر، نور الدين ثنيّو، أحمد مُرّيوش،...

67-تلاحظ أعمال: محمد فرقاني، كمال بن مارس،...

68-تلاحظ أعمال: محمد ناصر، فاطمة الزهراء قشّي، إبراهيم لونيسي، محمد مُرغيث،...

69-محمد الطاهر العدواني: الجزائر منذ نشأة الحضارة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص20.

70-محمد الصغير غانم: معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، الجزائر: دار الهدى، [2003]، ص251-252.

71-ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث، ص09.

72-المرجع السابق، ص09-10، 30؛ وأبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء، 11/3.

73-من قبيل تناول موضوعات: كخطاب الشرف، والخطاب الفقهي والعمران، والخطاب الديني والمجتمع، وتداعيات الحروب والكوارث والمجاعات والأوبئة،...

74-تضم الشبكة الجامعية الجزائرية 84 مؤسسة للتعليم العالي، موزعة على 46 ولاية عبر التراب الوطني. يراجع موقع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، على الرابط: http://www.mesrs.dz/arabe_mesrs/etablissements_a.php?eetab=2

75-أحمد طالب الإبراهيمي: المعضلة الجزائرية -الأزمة والحل-، ط04، الجزائر: دار الأمة، 1999، ص؟؟؟؛ نقلا عن عنترة بن مرزوق: "البحث العلمي في الجزائر"، ضمن أعمال ندوة: مناهج إعداد الرسالة الجامعية، المنعقدة بقسنطينة، بتاريخ: 2009/05/20، قسنطينة: منشورات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، د.ت.، ص462.

76-من بينها ثلاث ندوات انعقدت بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، هي على التوالي:

- ندوة: "واقع وآفاق الدراسات العليا"، بتاريخ: 15-2007/01/16.
- ندوة: "علاقة المشرف بالطالب الباحث"، بتاريخ: 2008/11/19.
- ندوة: "مناهج إعداد الرسالة الجامعية"، بتاريخ: 2009/05/20.

77-تراجع لائحة التوصيات التي خرجت بها الندوات الثلاث المذكورة آنفا.

78-لأجل الوقوف على مخابر البحث العلمي المعتمدة في مختلف المؤسسات الجامعية بالجزائر، يرجى مراجعة موقع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، على الرابط: http://www.mesrs.dz/laboratoires.php

79-من بين أكثر المخابر -ذات الصلة بالدراسات التاريخية- نشاطا على المستوى الوطني، فيما يتناهى إلينا من أخبار وأصداء:

- مخبر "البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي"، جامعة قسنطينة، برئاسة الأستاذة: بوبة مجاني، والذي يوالي نشر أعمال ندواته وملتقياته العلمية تباعا.
- مخبر "مصادر وتراجم"، جامعة وهران، برئاسة الأستاذ: غازي جاسم الشمري، والذي يتابع نشر أعداد مجلته المحكّمة "عصور"، منذ بضع سنوات (2002-2011).

80-إلى ذلك أشار الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم، في قوله: "وفي جميع هذه الملتقيات قاعدة ثابتة، صلبة، قائمة، دائمة، دائبة، تبقى لازمة ملازمة، هي تناول فترات هامة من تاريخ تلك المنطقة بتوسع، وبطريقة شاملة كاملة، بقدر الإمكان، والزيارة لآثارها". يراجع كتابه: أصالية أم انفصالية، الجزائر: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، 1980، 207/2.

81-كتب الأستاذ يحيى بوعزيز عن مجلة "الأصالة" مثنيا عليها، بقوله: "وقد تطورت هذه المجلة في محتواها، وأصبحت عالمية، يبحث عنها كل المثقفين... وأبرزت تاريخ الجزائر، وحضارتها المشرقة عبر العصور... وكانت حقا نافذة على الجزائر إلى كل بلدان العالم، وصورتها الحقيقية، عرّفت أصالة الجزائر وعراقتها، في التطور والتحضر والرقي، عبر العصور". يراجع كتابه: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط01، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995، 274/1.

82-يتبع لوزارة الثقافة، ومن إصداراته مجلة "ليبيكا"، ويقوم على إدارته الأستاذ: سليمان حاشي.

83-يتبع لوزارة المجاهدين، ومن إصداراته مجلة "المصادر"، ويقوم على إدارته الأستاذ: جمال يحياوي.

84-عدّ الأستاذ العربي الزبيري قيام المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 "فتحا مبينا"، معلقا عليه الأمل في أن يكون خطوة ثابتة على الطريق المؤدية إلى تكوين المدرسة التاريخية الجزائرية. يراجع كتابه: تاريخ الجزائر المعاصر، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، 14/1.

85-يوسف مناصرية: "آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان"، مجلة الدراسات التاريخية (الجزائر)، ع1988/05، ص198.

86-يرأسه -حاليا- الأستاذ يوسف مناصريّة، خلفا للأستاذ إبراهيم فخّار.

87-بذل الأستاذ عبد الكريم عوفي -في إطار إشرافه على مشروع "إحياء التراث" بجامعة باتنة- جهودا مضنية، في سبيل إحصاء أماكن وجود المخطوطات بالجزائر، وفهرسة عدد من المكتبات الخاصة والعامة، وقد نشر خلاصة أبحاثه في مجلات وطنية وأخرى دولية، نذكر منها: مجلة المورد (العراق)، مج18، ع1989/03؛ ومجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة)، مج39، ج1995/01، ج1996/02؛ ومجلة آفاق الثقافة والتراث (دبي)، ع20-1998/21، ع27-2000/28، ع29-2000/30، ع2001/34؛ ومجلة الثقافة (الجزائر)، ع117-1999/118.

88-يواصل الأستاذ عبد القادر بوباية من جامعة وهران مشروعه -معتمدا على إمكاناته ووسائله الخاصة- في إعادة تحقيق عدد من المخطوطات النفيسة، وقد أخرج منها إلى الآن: تاريخ الأندلس لمؤلف مجهول (2007)، ومفاخر البربر لابن عبد الحليم (2008)، والاكتفاء في أخبار الخلفاء لابن الكردبوس (2009)، والحلل الموشية لابن سماك العاملي (2010)، والبستان لابن مريم (2011).

مساهمة المؤرخين الجزائريين في تحقيق التراث التاريخي الجزائري المخطوط

د. عبيد بوداود*

مقدمة: تملك الجزائر تراثا مخطوطا ضخما على غرار العديد من البلدان العربية والإسلامية، غير أن استغلال هذا التراث في الأبحاث الأكاديمية وأعمال التحقيق لا يزال في مراحله الأولى، كما أن هذه الثروة تعرضت إلى العديد من الأخطار زمن الاحتلال الفرنسي، كما تتهددها اليوم أخطار من نوع آخر.

إن أعمال تحقيق التراث المخطوط بدأت مع المدرسة التاريخية الفرنسية، حيث بادر العديد من الباحثين الفرنسيين أثناء الحقبة الاستعمارية بتحقيق عدد من المخطوطات نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ألفرد بل(1873-1945) الذي حقق كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون. ولقد خدم من أمثال هؤلاء المستشرقين التراث الجزائري، بإخراج العديد من نصوصه من صفتها المخطوطة إلى صفتها المطبوعة، مما أمكن من التعرف على العديد من المؤلفات، ومن التداول الواسع لها، ولكن بالمقابل فإن بعض المستشرقين استحوذوا على العديد من المخطوطات بطرق شتى، ونقلوا البعض منها إلى فرنسا، وبلدان أوروبية أخرى، مما شكل نزيفا حقيقيا للثروة الجزائرية المخطوطة.

*جهود المدرسة التاريخية الجزائرية في التحقيق: بعد استرجاع السيادة الوطنية انبرى العديد من المؤرخين الجزائريين لإعادة تحقيق ما بادر به بعض المؤرخين الفرنسيين من قبل، وتحقيق مخطوطات أخرى لأول مرة. لكن ثمة صعوبات واجهت هؤلاء الباحثين، لعل من أبرزها أن التراث الجزائري المخطوط كان في حاجة إلى جرد وفهرسة، فباستثناء قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الذي قام بفهرسته إدموند فانيان E.Fagnan، وطبع بباريس سنة 1893،

---

* – أستاذ محاضر أ في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة معسكر.

والفهرس يقع في 690 صفحة، فإن بقية المكتبات والخزانات لم يشرع في جردها وفهرستها إلا منذ فترة قريبة جدا، وبعض هذه الأعمال التي تكفلت بها بعض مخابر البحث لا تزال في طور الانجاز؛ وللإشارة فإن ما اشتهر بتسميته بفهرس فانيان، وظل من نوادر المؤلفات أعيد طبعه من قبل المكتبة الوطنية سنة 1995 في صورته الأصلية دون زيادة أو نقصان، باستثناء مقدمة بسيطة في صفحتين للمدير العام المساعد[1].

وللعلم فإن فانيان لم يكتف بعرض عام لمخطوطات المكتبة الوطنية، وإنما اتبع خطة من ست نقاط، نوجزها فيما يلي: مقدمة شرح فيها المؤلف منهجه، قائمة تتضمن مقابلة بين أرقام المخطوطات في المكتبة الوطنية، وبين أرقامها في فهرس المؤلف، قائمة لأرقام المخطوطات المفقودة، فهرس مفصل بموضوعات المخطوطات، كشف هجائي عام يحتوي على أسماء مؤلفي المخطوطات وأسماء الأماكن والموضوعات في ترتيب هجائي واحد من حرف A إلى حرف Z، وكشاف بعناوين المخطوطات باللغة العربية.

وعلى الرغم من أن بعض طلبة علم المكتبات أنجزوا فهارس جديدة لأجزاء محددة من بعض محتويات– اقتصرت على علوم أو فنون معينة– قسم المخطوطات في إطار أبحاثهم لإنجاز مذكرات ليسانس إلا أن تلك الأعمال لم تثر ولم تطور لصالح إعادة فهرسة المكتبة الوطنية، مع العلم أن هذه الأخيرة استفادت من مقتنيات جديدة إما في شكل هبات أو مشتريات جديدة، وهي غير مدرجة في فهرس فانيان.

أما المكتبات والخزائن الخاصة، وخزانات الزوايا، فهي في حاجة إلى جرد وفهرسة لمحتوياتها حتى نستطيع الوقوف عند حجم وقيمة التراث المخطوط، رغم بعض الأعمال المنجزة في هذا الإطار، لكنها غير مطبوعة، وإن طبع البعض منها فهي قليلة التوزيع.

ولقد قام بعض الباحثين الجزائريين بالتعريف بمحتويات بعض هذه المكتبات في شكل مقالات نشرت ببعض المجلات، ومن بين تلك الأعمال نذكر ما يلي:

– التراث الجزائري المخطوط بين الأمس واليوم، د.عبد الكريم عوفي، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، مجلة أفاق الثقافة والتراث، العددان 20-21، السنة 1998، صص85-103.

- فهرس مخطوطات زاوية أحمد بوزيد مولى القرقور بسريانة، ولاية باتنة، الجزائر، د.عبد الكريم عوفي، مجلة أفاق الثقافة والتراث، العددان 27-28، السنة 2000، صص63-91.
- مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري- إقليم توات نموذجا، د. عبد الكريم عوفي، مجلة أفاق الثقافة والتراث، العدد 34، السنة 2001، صص 113-130.
- خزائن المخطوطات الخاصة بولاية أدرار الجزائرية بين تشدد المالكين ورغبة الباحثين، عز الدين بن زغيبة، مجلة أفاق الثقافة والتراث، العدد 61، السنة 2008، صص4-5.
- خزائن المخطوطات بأقاليم توات (الجزائر) الواقع والأفاق، د. أحمد جعفري، مجلة أفاق الثقافة والتراث، العدد 64، السنة 2009، صص120-129.

بالإضافة إلى عشرات المقالات والمحاضرات التي ألقيت في مختلف الملتقيات العلمية للتعريف بمخطوط أو عدد من المخطوطات.

ومن بين الأعمال التي لا بد أن ننوه بها في هذا المقام كتاب "فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث "واقع التراث الجزائري الأصيل بين المعلوم والمجهول"، الكتاب الذي يقع في ثلاثة مجلدات، هو من تصنيف الشيخ بشير ضيف بن أبي بكر بن عمر الجزائري، وقدم له وراجعه الدكتور عثمان بدري، ونشر في الجزائر سنة 2002. الكتاب عبارة عن قراءة لواقع التراث الجزائري المخطوط، ويقدم معلومات مستفيضة عن المخطوطات الجزائرية، وأماكن توزعها، ونسبة المحقق منها؛ وهو كتاب مهم، ويعد مرجعا لا بد منه للباحثين المهتمين بمسألة المخطوط الجزائري، لكنه يبقى كتاب عام، ولا يمكنه أن يؤدي وظيفة الفهرسة المتعارف عليها من حيث الدقة والشمولية في إحصاء وجرد المخطوطات.

ومن الأعمال التي صدرت مؤخرا أي في سنة 2009، وهي ثمرة أعمال مخابر البحث المهتمة بالمخطوطات الجزائرية، كتاب التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج للدكتور مختار حساني من جامعة الجزائر[2]، وهو في سبعة أجزاء، الجزء الأول بعنوان تاريخ الجزائر من خلال المخطوط (كتاب الشماريخ نموذجا)، تحقيق مختار حساني، الجزء الثاني والثالث بعنوان الوثائق المخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية (نماذج)، الجزء الرابع بعنوان فهرس مخطوطات علماء الجزائر بالخزائن الوطنية (الشمال)، الجزء الخامس بعنوان فهرس مخطوطات علماء الجزائر بالخزائن الوطنية (الجنوب)، الجزء السادس والسابع بعنوان فهرس

المخطوطات خارج الجزائر. ويعتبر هذا العمل محاولة لوضع فهرس جامع للمخطوطات الجزائرية داخل الوطن وخارجه، لكنه لم يتمكن من حصر كل المخطوطات الجزائرية.

كما أن أمرا آخر حال دون إعطاء دفعة قوية للتحقيق في الجزائر، ألا وهو العدد المحدود للأعمال الأكاديمية التي اهتمت به في شكل رسائل ماجستير ودكتوراه، وعدم تشجيع اللجان والمجالس العلمية في الجامعات للطلبة على الانخراط في هذا النوع من الأبحاث لأسباب مختلفة، ومن بينها الاعتقاد السائد لدى بعض أعضاء هذه اللجان والمجالس أن التحقيق عمل سهل، ولا يحمل الطالب أعباء البحث الأكاديمي الجاد. وهذا في اعتقادي هو الذي أحدث الفرق بين الجزائر وبعض البلدان المجاورة مثل المغرب، فباطلاعنا على قوائم رسائل الماجستير والدكتوراه في التحقيق نلاحظ الفرق الشاسع بين البلدين.[3]

1- في إطار الرسائل الجامعية: بغض النظر عن الجدل الدائر في أوساط الباحثين حول مسألة وجود مدرسة تاريخية جزائرية من عدمه، فإن المقصود هنا جموع المؤرخين الجزائريين ذوي التوجهات الوطنية، الذين ظهروا بعد الاستقلال، وحاولوا الدفاع عن الهوية الجزائرية، والرد على المدرسة التاريخية الفرنسية، وإعادة كتابة التاريخ الجزائري وفق نظرة وطنية.

إن الدراسات الأكاديمية يفترض فيها أن تتسلح بمناهج البحث العلمي المعروفة، وتتميز بالموضوعية في الطرح والتحليل، لذلك تعتبر معيارا للدراسات الجادة، ونعني بالدراسات الأكاديمية، الأبحاث التي أنجزها أساتذة وباحثون جامعيون في إطار إعداد رسائلهم الجامعية، أو أبحاث أخرى مستقلة.

ثمة صعوبات حقيقية تعترض سبيل الباحث في رصد وتشخيص حجم هذه الأعمال، وذلك في غياب مرجع يمكن العودة إليه للتعرف على عناوين الرسائل والأطاريح الجامعية المناقشة في مختلف الجامعات الجزائرية، كما هو الحال عليه مثلا في المغرب الأقصى مع كتاب الباحث عمر أفا "دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات الآداب بالمغرب"[4]، لكننا حاولنا أن نجمع ما أمكننا من المعلومات، رغم أن بعضها في حاجة إلى تحيين.

جامعة الجزائر: تضم أعرق معهد للتاريخ في الجزائر حسب التسمية القديمة، ويعرف حاليا باسم قسم التاريخ، فبالنسبة لرسائل الدكتوراه في التاريخ، الطور الثالث التي نوقشت ما بين سنتي 1968 و1985 لم نسجل ولا دراسة في مجال التحقيق من قائمة ضمت ست عشرة دراسة.[5]

أما بالنسبة لدبلوم الدراسات المعمقة التي نوقشت بذات المعهد ما بين سنتي 1963 و1985 لم نسجل إلا دراستين في التحقيق، واحدة بعنوان: "تحقيق ودراسة لكتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية" ناقشها الطالب محمد بن عبد الكريم يوم 1969/12/19، والأخرى بعنوان:"ابن حماد الصنهاجي وأخبار ملوك بني عبيد" ناقشتها الطالبة نشيدة سليماني(رافعي) يوم 1979/05/10، من مجمل قائمة للبحوث بلغت سبعة وخمسين بحثا.[6]

بينما لم تتضمن القائمة الخاصة برسائل الماجستير في نفس المعهد أية دراسة ذات علاقة بالتحقيق من بين سبعة وثلاثين بحثا نوقش في نفس الفترة.[7]

جامعة وهران: ضمت جامعة وهران ثاني أقدم معهد للتاريخ في الجزائر، وهو يحمل اليوم اسم قسم التاريخ وعلم الآثار، ومنذ أواسط الثمانينيات من القرن الماضي شرع الطلبة في مناقشة رسائلهم للماجستير وأطروحات الدكتوراه، وحتى لا نتيه في التسميات المختلفة التي أخذتها أسماء شهادات هذه الرسائل الأكاديمية الجامعية تبعا للإصلاحات التي تعاقبت على الجامعة الجزائرية (دبلوم الدراسات المعمقة، رسالة ماجستير، أطروحة دكتوراه دولة، مذكرة ماجستير، دكتوراه علوم)، سوف نشير إليها دفعة واحدة؛ حيث تقدر هذه الأعمال المناقشة بحوالي مائة وأحد عشر عملا ما بين سنتي 1985 و2010 [8]، لم نعثر من بين هذه القائمة الطويلة إلا على عمل واحد في مجال التحقيق، وهو عبارة عن رسالة ماجستير للباحث عبد القادر بوباية في التاريخ الوسيط الإسلامي بعنوان: "مخطوط مفاخر البربر: دراسة وتحقيق"، نوقشت يوم 1996/11/13، وهي من إشراف الدكتور إبراهيم فخار، والمشرف المساعد غازي الشمري.[9] (تضمن المخطوط ست وسبعين ترجمة لعلماء ذوي أصول بربرية بالمغرب والأندلس، كما تعرض لأصولهم وثوراتهم).

أما على مستوى قسم الحضارة الإسلامية التابع لنفس الجامعة، فقد سجلنا مناقشة سبعة أبحاث في مجال تحقيق المخطوط، وكلها ما بين سنتي 2006/2005 و2009/2008، وهي على النحو التالي:

- أعمال خير الدين من خلال مخطوط قدوم عروج وخير الدين رايس إلى الجزائر، رسالة ماجستير من تقديم الطالب محمد لعباسي، وإشراف الدكتور الجيلالي سلطاني، السنة الجامعية 2006/2005.

- كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم لأبي الحسن بن الخطيب، دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير من تقديم الطالبة نعيمة الطيب بوجمعة، إشراف الدكتور محمد بن معمر، السنة الجامعية 2007/2006.

- كتاب الاعتبار وجواهر الاختيار والتعريف بذرية النبي المختار صلى الله عليه وسلم لأحمد بن عبد الجليل بن عبد العظيم التونسي، دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير من تقديم الطالبة لطيفة سموم، إشراف الدكتور عبد المجيد بن نعمية، السنة الجامعية 2007/2006.

- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لأبي راس الناصري، دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه من تقديم الطالب محمد بوركبة، والإشراف الدكتور عبد المجيد بن نعمية ، السنة الجامعية 2007-2008.

- مخطوط النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، لابن صعد التلمساني، الجزء الأول دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير من تقديم الطالب محمد بلحاج، وإشراف الدكتور محمد بن معمر، السنة الجامعية 2007-2008.

- رحلة المجاجي، دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير من تقديم الطالبة سعاد آل الشيخ، إشراف الدكتور عبد المجيد بن نعمية، السنة الجامعية 2007-2008.

- أبو عبد الله التنسي وكتابه نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، مذكرة ماجستير من تقديم الطالبة سهام بوعنيني، وإشراف الدكتور محمد بن معمر، السنة الجامعية 2008-2009.

يبدو أن هذا العدد مهم مقارنة بالأقسام الأخرى، والظاهر أن وجود مخبر للمخطوطات بالقسم هو الذي حفز الطلبة على الخوض في هذه الموضوعات، ونعني به مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا.

أما العدد المحدود جدا من أعمال التحقيق، بقسم التاريخ بجامعة وهران، فهو يعكس الحضور الضعيف وشبه غياب للأعمال المهتمة بتحقيق التراث التاريخي المخطوط، ليس فقط على مستوى جامعة وهران، وإنما على مستوى كل الجامعات الجزائرية.

جامعة منتوري بقسنطينة: أبلغنا بعض الزملاء دون أن نتأكد من حقيقة ذلك ميدانيا أنه لم يسجل أي موضوع في التحقيق بهذه الجامعة التي تتوفر على قسم عريق للتاريخ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية: هي جامعة حديثة بالمقارنة مع جامعتي الجزائر ووهران، لكنها لم تختلف عنهما في قلة الأعمال ذات الصلة بتحقيق المخطوط التاريخي،

فبالنسبة لأطاريح الدكتوراه المناقشة بقسم التاريخ بهذه الجامعة لم نعثر إلا على عمل واحد في الفترة الممتدة ما بين سنتي 2003 و2008 للباحث عمر سليمان بوعصبانة بعنوان "مجموعة سير الوسياني، دراسة وتحقيق الجزء الأول، ضبط ومقارنة نصوص الجزأين الثاني والثالث"؛ نوقشت الأطروحة يوم 2006/03/06، وهي تحت إشراف الدكتور عبد العزيز فيلالي، من بين عشر أطاريح نوقشت خلال الفترة المذكورة.[10]

أما بالنسبة لرسائل ومذكرات الماجستير المناقشة ما بين سنتي 1993 و2008، فلم نعثر على أي عمل ذي صلة بالتحقيق من مجموع أعمال نوقشت بذات القسم بلغ عددها واحدا وخمسين بحثا.[11]

بينما الجامعات التي تأسست بها حديثا أقسام للتاريخ مثل جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس، وجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، وجامعة معسكر، وجامعة باتنة، وجامعة الوحدة الإفريقية بأدرار، وجامعة بشار فلم تهتم الدراسات العليا بها بشأن المخطوط وتحقيقه، ربما متأسية بالجامعات العريقة في هذا الأمر.

أما خارج الجزائر، فقد سجلنا رسالة لعبد الحميد حاجيات حول تحقيق الجزء الأول من كتاب بغية الرواد ليحيى بن خلدون، ناقشها بجامعة بروفانس بفرنسا سنة 1974.

-HADJIAT Abdelhamid, le bujyat ar-ruwwad de Yahya Ibn Khaldun (1ere partie). Edition critique avec introduction et notes, T3, Univ. Provence, 1974.

2- في إطار الدراسات الأكاديمية: بذل عدد من الباحثين الجزائريين جهودا معتبرة لنشر التراث الجزائري المخطوط وتحقيقه، منذ الاستقلال وإلى غاية الآن، ولقد ارتأينا في هذا المقام ذكر عناوين المخطوطات التي حققوها، بالإضافة إلى دار النشر، وسنة النشر، واقتصرنا على التعريف بموضوع بعض المخطوطات دون الأخرى إيثارا للاختصار:

إسماعيل العربي:

- سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني(ت471هـ/1078م)، المكتبة الوطنية الجزائرية، 1979، وديوان المطبوعات الجامعية، 1984. وهو من أقدم المصنفات الخاصة بتاريخ الإباضيين في المغرب، إذ زودنا بمعلومات حول دخول المذهب الإباضي إلى المغرب، وتطوره فيه، وعن تاريخ الرستميين، ومقاومة الإباضيين للفاطميين، كما زودنا بسير عدد من أعلام الإباضية المشهورين من المغرب الأوسط والأدنى خلال القرنين الرابع والخامس

الهجريين. ينقسم الكتاب إلى قسمين، القسم الأول ذو محتوى تاريخي، والقسم الثاني حوى تراجم عدد من الإباضيين البارزين من المغرب.

– سير مشائخ المغرب، لأبي الربيع سليمان عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسياني(ت571هـ/1175م)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985. ينتمي المؤلف إلى قبيلة بني وسيان الزناتية، التي كانت مضاربها بإقليم قسطالية من بلاد الجريد التونسية. ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء، الجزء الأول في مآثر أعلام الإباضية، بالإضافة إلى قضايا فقهية واجتماعية؛ وهذا الكتاب ثبت انتسابه للوسياني. أما الجزء الثاني الذي يحتمل أن أحد تلامذته هو الذي ألفه، فيتضمن أخبارا وقضايا مختلفة مع تراجم لبعض أعلام الإباضية. بينما يرجح أن يكون الجزء الثالث مأخوذا من سير أبي زكريا، ونسب للوسياني خطأ. إن هذا الكتاب يعتبر حلقة وصل بين ما ألفه ابن الصغير وأبو زكريا قبله في تاريخ الإباضية، ومن جاء بعده كالشماخي والدرجيني.[12]

رابح بونار:

– سنين القحط والمسغبة أو مجاعات قسنطينة، للصالح بن محمد العنتري (ت بعد 1293هـ/1876م)، الجزائر، 1974. ألف العنتري هذا الكتاب سنة 1870، واهتم فيه بتسليط الأضواء على الحياة الاقتصادية بقسنطينة أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، مركزا على سنوات القحط وما رافقها من غلاء في الأسعار ما بين سنتي 1803 و1868. و الكتاب يقع في 76 صفحة.[13]

– عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للغبريني(ت704هـ)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970. بلغ عدد تراجمه مائة وتسع وأربعين ترجمة موزعة على النحو التالي: تراجم البجائيين والجزائريين ومن يتصل بهم، تراجم الأندلسيين المهاجرين إلى بجاية ونواحيها، تراجم الغرباء الوافدين عليها من المشرق.

– مصباح الأرواح في أصول الفلاح (حول يهود توات)، لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1504م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968. الكتاب عبارة عن رسالة وجهها الشيخ عبد الكريم المغيلي إلى فقهاء تلمسان وفاس يستفتيهم في شأن اليهود الذين أصبحوا يتبوأون منزلة اقتصادية وسياسية رفيعة في هذا الإقليم. الرسالة تنقسم إلى ثلاثة فصول: فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، والثاني فيما يلزم أهل الذمة في

الجزية والصغار، والثالث فيما عليه يهود هذا الزمان في أكثر الأوطان من الجرأة والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان. نشر الكتاب "وألحق به أجوبة فقهاء تلمسان وفاس حول قضية اليهود بتوات، ونبذة من وصية المغيلي لسلطان كانو".[14]

- خاتمة أنيس الغريب والمسافر في الطرائف والنوادر، أو تاريخ بايات وهران المتأخرين، لمسلم بن عبد القادر الوهراني (ت1248هـ/1832م)، الجزائر، 1974. وهو كتاب في تاريخ وهران وناحيتها في الخمسين سنة الأخيرة التي سبقت الاحتلال الفرنسي، حاول فيه الإلمام بما حث في عهد البايات المتأخرين.[15]

محمد بن عبد الكريم:

- بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، لأبي المكارم عبد القادر المشرفي الجزائري(ت1192هـ/1778م)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. وهو يتحدث فيه بإيجاز إل أصل الإسبان وموطنهم، ثم بشيء من التفصيل لقبائل بني عامر ونسبهم، وتعاونهم مع الإسبان، ودوافعهم وراء ذلك، مع كلام مختصر عن علماء عصره، ورجال الدولة على عهده،[16] والكتاب في عمومه صغير الحجم، حيث لا يتعدى واحدا وستين صفحة، منها أربعين صفحة تشكل المتن، أما البقية فهي عبارة عن فهارس وقائمة المصادر والمراجع المعتمدة في التحقيق، وهو لا يتضمن فصولا ولا عناصر، وإنما هو عبارة عن فقرات متتابعة.

- إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء لحمدان بن عثمان خوجة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، وهو كتاب في الطب والوباء، قدم فيه المؤلف معلومات طبية، وأكد على أهمية العزل الصحي الذي أخذ به الأوربيون لتجنب انتشار الأوبئة.

- التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لابن ميمون محمد الزواوي الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1972. وهو في سيرة الداي محمد بكداش(1710/1707)، ضمن كتابه مجموعة من الأشعار بلغ عدد أبياتها سبعمائة وخمسة وتسعين بيتا، وذلك في شكل مقامات، وصلت إلى ست عشرة مقامة، كل مقامة تحمل عنوانا مستقلا يعكس الموضوع الذي تعالجه أو تتعرض إليه. وجاء الكتاب حافلا بالمعلومات التاريخية عن أوضاع الجزائر في مطلع القرن 18م.

- رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، لأحمد بن هطال التلمساني (ت1219هـ/1804م)، القاهرة، 1969. وهو تسجيل دقيق لغزو محمد بن عثمان الكبير لعين ماضي والأغواط وجبل عمور، سجل فيها يوم سير المحلة، وأسماء الأماكن التي مرت بها، مقدار الغنائم التي تحصل عليها الباي، كما تعرض لحالة السكان ووضعية العمران، وعلاقة الرعية بالحكام.[17]

- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، لأبي راس محمد بن أحمد المعسكري (ت1238هـ/1823م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990. يرصد الكتاب حياة أبي راس الذاتية والعلمية، وهو يتألف من خمسة أبواب، الباب الأول: ابتداء أمري، الباب الثاني: في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة، الباب الثالث: في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام، الباب الرابع: في الأسئلة وما يتعلق بها، الباب الخامس: المسمى بـ:"العسجد والإبريز" في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز.

عبد الحميد حاجيات:

- أخبار المهدي بن تومرت للبيدق أبي بكر بن علي الصنهاجي(ت حوالي 555هـ/1160م)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.أعادت المكتبة الوطنية طبعه سنة 1980، والمؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1986. ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام: قسم يذكر فيه عودة ابن تومرت إلى المغرب، حركته الإصلاحية، دعوته إلى تأسيس نظام سياسي جديد، غزواته، وفاته. قسم يذكر فيه بيعة عبد المؤمن، غزواته، وفاته، وقسم يذكر فيه قائمة الثائرين على الموحدين في المغرب، وأخرى في الأندلس، وقائمة الحصون التي بناها المرابطون.

- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون(ت780هـ)، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980. الجزء الثاني حققه بوزيان الدراجي.

- تاريخ دولة الأدارسة (قسم من كتاب نظم الدر والعقيان)، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1984.

أبو القاسم سعد الله:

- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، للشيخ عبد الكريم الفكون (ت1073هـ/1662م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987. وهو كتاب يعكس نظرة نقدية

تجاه مدعي التصوف لا سيما في مدينة قسنطينة والشرق الجزائري على عهد المؤلف، ينقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول بعنوان: في من لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن قبل زمنهم ممن نقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواترا. الفصل الثاني: فيمن تعاطى المنصب الشرعي لادعائه العلم، وهم كل من ادعى ما لا يصح له من خطة وتدريس وغيرهما إلا قليلا وفي الحديث كلابس ثوب زور، الفصل الثالث: فيمن ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين والمتشدقة والمبتدعة الضالين المضلين. خاتمة الكتاب: في ذكر من أردنا ذكره من الأصحاب والأحباب.

– رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (ت حوالي 1200هـ/1785م)، منشورات المكتبة الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983. اعتمد المحقق على النسخة المخطوطة الوحيدة المتوفرة لحد الآن، وهي الموجودة في الخزانة العامة بالربط تحت رقم ك 463، والتي تتضمن الجزء الثاني من الرحلة، أما بقية الأجزاء فهي في حكم المفقود. يتضمن هذا الجزء من الكتاب رحلة ابن حمادوش إلى المغرب الأقصى، وتحديدا إلى مدن تطوان، مكناس، فاس ثم العودة إلى مدينة الجزائر. الكتاب حافل بوثائق مهمة في التاريخ الاجتماعي والديني والأدبي، كما يسلط الأضواء على شخص المؤلف الذي لا نتوفر على معلومات عنه في مصادر أخرى.

– رسالة الغريب إلى الحبيب[18] لأبي عصيدة أحمد بن أحمد البجائي(ت حوالي 865هـ/1460م)، بيروت، 1993. تقع في خمس وسبعين ورقة، استهلها المؤلف بقصيدة شعرية يشيد فيها بأبي الفضل المشدالي ومنزلته العلمية وذكرياته معه. وتضمنت بقية الرسالة خبر انتقاله من مصر إلى الحجاز مفارقا أبي الفضل المشدالي، ثم يروي حياته بالحجاز، وانتقاله بعد ذلك إلى تونس، وعودته إلى الحجاز. قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بنشر هذه الرسالة مع نبذ من أنيس الغريب وروض الأديب.

يحيى بوعزيز:

– روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، للشيخ محمد بن صعد الأنصاري التلمساني(ت901هـ)، منشورات ANEP، الجزائر، 2004. وهو في التعريف بأربع شخصيات من متأخري صوفية المغرب الأوسط، وهم: محمد بن عمر الهواري، وإبراهيم التازي، والحسن أبركان، وأحمد بن الحسن الغماري.

- طلوع سعد السعود، للأغا بن عودة المزاري (ت بعد 1315هـ/1877م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990. يوجد هذا الكتاب في جزأين، الجزء الأول به أربعمائة وخمس صفحات، والجزء الثاني به أربعمائة وسبع وعشرين صفحة.

إن العنوان الحقيقي لهذا الكتاب، هو طلوع سعد السعود في تاريخ وهران ومخزنها الأسود، والمحقق هو الذي أدخل عليه هذا التعديل حتى يتجاوب مع مضمونه، الذي يذكر عنه المحقق ما يلي: "فقد توسع مؤلفه الآغا إسماعيل بن عودة المزاري في التأريخ لمدينة وهران، والجزائر، والغرب الوهراني، وإسبانيا، وفرنسا، والأتراك العثمانيين، من غابر العصور إلى عهده عام 1890م".[19]

يعود تاريخ تأليف المخطوط إلى نهاية عقد الثمانينيات وبداية عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر، ويتشكل من خمسة أقسام يحمل كل واحد منها اسم مقصد، وهي:"

- المقصد الأول: فيمن بنى وهران، وفيمن أمر ببنائها، وأي تاريخ بنيت فيه. وبه 8 صفحات، من 4 إلى 11.

- المقصد الثاني: في ذكر بعض أوليائها والتعريف بهم، وبه 20 صفحة، من 11 إلى 30.

- المقصد الثالث: في ذكر بعض علمائها والتعريف بهم، وبه 9 صفحات، من 30إلى 38.

- المقصد الرابع: في ذكر الدول التي حكمتها، وهي تسع، وبه 486 صفحة، من 38 إلى 523.

- مقصد الخامس: في ذكر مخزنها وهو عين المراد، وبه 59 صفحة، من 523 إلى 582."[20]

- فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها المعروفة بتاريخ قسنطينة، للصالح بن محمد العنتري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.

ناصر الدين سعيدوني:

- القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط للشيخ أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي(ت بعد 1301هـ/1883م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991. تعرض المؤلف في هذا الكتاب لقضايا عديدة، وأحداث متفرقة، بعضها عاصرها، وكان شاهد عيان عليها، والبعض الآخر نقلها عن غيره؛ ومن بين ما تعرض إليه: ثورة بوعمامة(1881-1904)، حقيقة الرؤيا الصالحة، الحديث عن الإمامة وشروطها، بعض الانتفاضات التي وقعت بالغرب

الجزائري، ثورة الأمير عبد القادر، بعض المجاعات والأوبئة والفيضانات بالناحية الغربية، ذكر سيدي الهواري، استيلاء الإسبان على وهران، فتح وهران الأول والثاني إلخ...

محمد العربي الزبيري:

– المرآة، لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر، لحمدان بن عثمان خوجة (ت حوالي 1261هـ/1845م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1982. وترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، 1972.

– مذكرات لحمدان بن عثمان خوجة، ترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.

المهدي البوعبدلي:

– الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، لأحمد بن محمد بن سحنون الراشدي (ت بعد عام 1211هـ/1796م)، قسنطينة، 1973. يتعرض الكتاب لشرح أرجوزة وضعها المؤلف في الفتح الثاني لوهران.

– دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران لمحمد بن يوسف الزياني (ت بعد 1320هـ/1902م)، الجزائر، 1978. يتألف الكتاب من قسمين: القسم الأول وبه أربعة فصول: في التعريف بوهران، في ذكر من اختطها، في ذكر بعض علمائها وأوليائها، وفي ذكر من ملكها من حين اختطت إلى هذا الزمان. أما القسم الثاني فتعرض فيه لحكم بني زيان، وأصل الإسبان وبلادهم واحتلالهم لوهران، ثم الحكم العثماني، وأخبار بايات الغرب.

إبراهيم طلاي:

– طبقات المشائخ لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني(ت670هـ/1271م)، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974. ولد الدرجيني بنفطة من بلاد الجريد، ثم انتقل إلى ورجلان سنة 616هـ/1220م، ثم عاد بعد سنتين إلى منطقة الجريد، وواصل تعلمه بتوزر، وتوفي ودفن بها. ألف كتابه هذا نزولا عند طلب بعض مشائخ الإباضية أثناء إقامته بينهم في جربة. ضمن كتابه في جزئه الأول ما كتبه أبو زكريا الورجلاني مع تعقيبات مهمة، وتعرض في الجزء الثاني إلى الترجمة لعدد من العلماء الإباضيين المشاهير، فبلغ من ترجم لهم مائة وعشرين ترجمة من المغاربة والمشارقة.

- الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات لأبي القاسم إبراهيم البرادي(ق8هـ)، "الذي هذب وأكمل به كتاب الدرجيني".[21]

عبد الرحمن طالب:

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986. وهو في الترجمة لعدد معتبر من العلماء والأولياء الذين ينتسبون لتلمسان بالولادة أو الإقامة أو الزيارة أو الوفاة.

إبراهيم بحاز ومحمد ناصر:

- أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير ،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

محمود بوعياد:

- نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان للتنسي محمد بن عبد الله (ت899هـ)، حقق محمود بوعياد قسم منه عنونه بـ: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، 1985.

مختار حساني:

- الدرر المكنونة في نوازل مازونة للمازوني أبي زكريا يحيى بن موسى (ت833هـ). وهو كتاب في النوازل، تضمن فتاوى المازوني، وغيره من مشاهير فقهاء المغرب الأوسط.

- تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين، الجزء الأول فتح مدينة وهران للجامعي، وهو في موضوع فتح وهران سنة 1708م، الجزء الثاني الرحلة القمرية(1792) لابن زرفة، منشورات مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003.وهو في تاريخ مدينة وهران، تضمن مسائل مختلفة، بما في ذلك الفتح الثاني لوهران من قبل محمد بن عثمان الكبير.

مصطفى محمد الغماري:

- شرح أم البراهين في علم الكلام، لأبي عبد الله السنوسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

محمد الأمين بلغيث:

- كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، لأحمد بن يحيى الونشريسي، النشر لافوميك 1985. الكتاب من الحجم المتوسط فهو في حدود 85 صفحة، وموضوعه النظم في المغرب الإسلامي وتطور خطة القضاء. ينقسم الكتاب إلى قسمين، القسم الأول: كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية، والقسم الثاني: كتاب الأقضية.

جلول أحمد البدوي:

- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، لأبي عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984. يتضمن الكتاب معلومات هامة عن الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية بالمغرب، وثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

محمد بن معمر:

- رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، لأبي العباس أحمد المقري(ت1041هـ/1631م)، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004."يحتوي الكتاب على معلومات هامة، وهي تتعلق بحياة المقري الشخصية في تلمسان والمغرب الأقصى ومصر والشام والحجاز. ويعالج الحياة الثقافية والأدبية في عصر المؤلف، وهو يتضمن في نفس الوقت معلومات تاريخية عن بلاد المغرب وأرض الحجاز واليمن، وبعض القضايا الفقهية والعقدية وغير ذلك"[22]

عبد القادر زبادية:

- أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

محمد بوكوشة:

- الديوان لأبي عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني (ت حوالي 1088هـ/1677م)، الجزائر، 1968. [23]

محمد بخوشة:

- الديوان لأبي عبد الله محمد بن مسايب التلمساني (ت حوالي 1190هـ/1776م)، نشره بتلمسان سنة 1370هـ، وأعاد نشره محققا الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي، الجزائر، 1989.

- الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، لمحمد بن رقية الجديري التلمساني (ت بعد 1194هـ/1780م)، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد3،

1967، ص ص 2–32. فرغ المؤلف من وضع كتابه سنة 1779م، وجاء تأليفه استجابة لطلب الباي محمد بن عثمان الكبير باي وهران، وتضمن الكتاب عرض تسع حملات عسكرية تعرضت لها الجزائر بين 1516م و1775م.

أحمد توفيق المدني:

– مذكرات 1754–1830 للحاج أحمد الشريف الزهار (1289هـ/1872م)، الجزائر، 1974. يعتبر الكتاب تقاييد شخصية تعرض فيها صاحبه إلى الفترة الأخيرة من العهد العثماني، ومرحلة المقاومة بزعامة كل من الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي.[24]

لا ندعي أننا أحطنا بكل الأعمال المنشورة والمحققة للتراث الجزائري المخطوط من قبل باحثي المدرسة التاريخية الجزائرية، فربما قد أغفلنا ذكر بعض تلك الأعمال، لكن العناوين المذكورة تمثل أهم ما أنجز في هذا الإطار.

نلاحظ على هذه الأعمال أنها كانت أكثر اهتماما بتاريخ الجزائر خلال مرحلتي التاريخ الوسيط والحديث خاصة الفترة العثمانية، هذه الأخيرة التي تزخر بحجم أكبر من المخطوطات مقارنة بالفترات التاريخية السابقة. وأن مجهودات المؤرخين الجزائريين تراوحت بين النشر والدراسة والتحقيق. وأن بعض هذه الأعمال المعروضة لم تقتصر على تاريخ الجزائر فقط ، وإنما تناولتها في إطار تاريخ المغرب الإسلامي مثلا فأدرجناها ضمن التراث الجزائري المخطوط.

ولا بد أن نشير أن العديد من المؤرخين الجزائريين ساهموا في تحقيق التراث العربي والإسلامي، سواء المتعلق منه بتاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، أو تاريخ المشرق الإسلامي، لكننا ارتأينا حصر الموضوع في تاريخ الجزائر، حتى نستطيع الإحاطة به، والتحكم فيه.

خاتمة: ساهم الباحثون الجزائريون، سواء في إطار إعداد رسائلهم الجامعية، أو في إطار أعمال أخرى مستقلة، في بعث التراث التاريخي الجزائري المخطوط، والتعريف به، والعمل على نشره وتحقيقه؛ وإن كان هذا الجهد خلال العقود الأربعة التي تلت الاستقلال الوطني دون الآمال المعقودة، وذلك لأسباب موضوعية، لعل على رأسها تأخر فهرسة ذلك التراث، وضعف الوعي بأهميته.

لكن اليوم هناك انطلاقة جديدة، لعل من أهم معالمها، الشروع في فهرسة العديد من خزائن المخطوطات العامة والخاصة، وتأسيس عدة مخابر للبحث في هذا الحقل من المعرفة، وتسجيل عدة مواضيع لتحقيق التراث سواء كرسائل جامعية، أو في إطار مشاريع وطنية للبحث، وتأسيس المركز الوطني للمخطوطات، وكذلك الحاجة الملحة إلى هذه المخطوطات لإعادة كتابة التاريخ الوطني بوثائق محلية، تشكل بديلا للمصادر الأجنبية التي هي أكثر استعمالا واستغلالا والتي كثيرا ما شوهت التاريخ الوطني.

هوامش البحث:

1- E. FAGNAN, Catalogue Général des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale d'Algérie (Première tranche : du n°1au n°1987, Bibliothèque Nationale d'Algérie, 2è édition, Alger, 1995.

2- منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2009.

3- راجع ما ورد عند عمر أفا، دليل الرسائل والأطروحات الجامعية.

4 – صدر منه لحد الآن خمسة أجزاء تغطي الفترة الممتدة من 1961 إلى 2003، طبعت هذه الأجزاء بمطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء بين سنتي 1996 و2006.

5 – مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع1، 1986، ص 179.

6- نفسه، ص ص 180-182.

7 – نفسه، ص ص 183-184.

8- يمكن مراجعة هذه القائمة في مجلة عصور، يصدرها مخبر مصادر وتراجم، جامعة وهران، العددان الرابع والخامس، ديسمبر2003/جوان 2004، ص ص 311-319.

9 – طبعت هذه الرسالة في طبعتين، الطبعة الأولى بعنوان مفاخر البربر لمؤلف مجهول، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2005؛ والطبعة الثانية اكتشف من خلالها الباحث مؤلف الكتاب حيث نسبه لأبي عبيد الله صالح بن عبد الحليم الإيلاني المصمودي، وطبع بنفس الدار.

10- حليمة قصير:" دليل مناقشات رسائل الماجستير والدكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية(معهد الحضارة الإسلامية سابقا)"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد العاشر، جانفي 2009، ص.420.

11- نفسه، ص ص 430-436.

12- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص ص 76-79.

13- نفسه، ص 535.

14 – نفسه، ص 271-273.

15- نفسه، ص 471.

16 – نفسه، ص 413.

17- نفسه، ص 448-449.

18-" تقع في حدود خمس وسبعين ورقة. وهي في شكل رسالة أدبية استهلها أحمد البجائي بقصيدة يشيد فيها بأبي الفضل المشدالي ومكانته العلمية وذكرياته معه، بعدها أوضح أن هذه الرسالة هي جواب عن خطاب وصله من المشدالي المقيم بالقاهرة، وقد ذكر فيما بقي من الرسالة تحوله من مصر إلى الحجاز مفارقا أبي الفضل الذي ظل متعلقا به يراسله باستمرار دون أن يتلقى ردا يريح قلبه ويشفي غليله" ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص 240-241.

19- المزاري الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، دراسة وتحقيق يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1990، ج1، ص أ.

20- نفسه، ص 15.

21- عمارة علاوة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص174-175.

22 – المقري أبو العباس أحمد، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004، ص 9.

23- نشر رابح بونار سنة 1976 القصائد العامية للمنداسي المجموعة في مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1989 ورقات 114-124، وتتضمن ست قصائد مجموع أبياتها 352 بيتا مع القصيدة النونية. أنظر ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 372.

24- نفسه، ص 516.

مكانة تاريخ الأندلس في الدراسات العليا بالجامعات الجزائرية (1962-2011م)

أ.د عبد القادر بوباية*

مقدمة: تمكن المسلمون بعدما أكرمهم الله سبحانه وتعالى بخاتم الأنبياء والمرسلين من إقامة دولة مترامية الأطراف امتدت حدودها من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن أواسط آسيا شمالا إلى بلاد السودان جنوبا، ومن المناطق التي فتحها المسلمون بلاد الأندلس.

كان فتح المسلمين لبلاد الأندلس سنة 92هـ (711م) على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، والي بلاد المغرب على عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وخلال عملية الفتح أكد سكان بلاد المغرب من البربر اندماجهم التام في حظيرة الدولة الإسلامية من خلال قيامهم بأعباء الفتح الأول الذي شارك فيه حوالي اثني عشر ألف من البربر إلى جانب إخوانهم العرب الذين لم يتجاوز عددهم الثلاثمائة حسب أغلب المؤرخين.

استمر حكم المسلمين للعدوة الأندلسية حوالي ثمانية قرون، (من تاريخ الفتح المذكور سابقا إلى غاية سقوط غرناطة آخر مملكة إسلامية في عام 897هـ/1492م)، وتمكنوا من تشييد حضارة لا تزال آثارها تدل على العظمة التي وصلوها خلال تلك القرون التي كانت فيها بقية القارة الأوروبية تعاني من ويلات التخلف في كافة المجالات.

وخلال تواجد المسلمين بالأندلس، ظلت الروابط وثيقة بينهم وبين إخوانهم في العدوة المقابلة، كما استمر التأثر والتأثير بينهما في كافة المجالات، وعندما بدأت حركة الاسترداد المسيحي كان المغاربة في مقدمة المتطوعين لنجدة إخوانهم، وعندما فقد المسلمون ممتلكاتهم في بلاد الأندلس، كانت مختلف بلدان المغرب الملاذ الأقرب للفارين بدينهم من البطش الإسباني الصليبي.

---

* – أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب والأندلس–قسم التاريخ ومدير مختبر تاريخ الجزائر–جامعة وهران.

اندمج مسلمو الأندلس في بلاد المغرب، وساهموا في البناء الحضاري لهذا الجزء من العالم الإسلامي، وصاروا جزء لا يتجزأ من المجتمع المغربي، ومن ثم فقد أولى الجزائريون عامة، والباحثون منهم خاصة عناية كبيرة لتدوين تاريخ الأندلس، واستلهام العبر والعظات من تاريخها الحافل بالأمجاد أحيانا، وبالنكسات في أحيان أخرى.

وكان من الطبيعي أن يحظى تاريخ الأندلس بأهمية كبيرة في الدراسات العليا بالجامعات الجزائرية، وتجلى ذلك في تعدد الدراسات المعمقة ورسائل الماجستير والدكتوراه التي خصصت لتاريخ الأندلس.

وسأعمل من خلال هذه المقالة المتواضعة على رصد مختلف الرسائل والأطروحات التي تم تسجيلها في مختلف الجامعات الجزائرية، كما سأعرض فيما بعد أبرز محتويات البعض من هذه الرسائل على سبيل توضيح المحاور الرئيسة التي تناولها الباحثون في هذه الرسائل، ومن ثم إبراز المكانة التي يحتلها تاريخ الأندلس في ضمائر أبناء الجزائر، وبخاصة منهم الباحثين في الجامعات الجزائرية.

الرسائل الجامعية الخاصة بتاريخ الأندلس في الجامعات الجزائرية:

1- دبلوم الدراسات المعمقة:

*- "الأوضاع الاقتصادية لمملكة ميورقة في العصور الوسطى" للطالبة كوران س.، ونوقشت سنة **1965**م بجامعة الجزائر العاصمة.

*- "سكان مملكة ميورقة المسلمين في القرن **14**م" للطالب قابس ناجم الدين، ونوقشت في **16** أكتوبر **1970**م بجامعة الجزائر العاصمة.

*- "العلاقات الاقتصادية والسياسية بين قرطبة ومختلف الأنظمة الإسلامية في القرن العاشر الميلادي" للطالب القلي ج. مونيي، ونوقشت في **13** يناير **1979**م بجامعة الجزائر العاصمة.

*- "الموريسكيون في فالنسيا على عهد فيليب الثاني" للطالبة برار عديلة، ونوقشت في **14** يناير**1979**م بجامعة الجزائر العاصمة.

*- "بليوغرافا عن الموريسكيين" للطالب رافيلار مارتيني، ونوقشت في **15** يناير **1979**م بجامعة الجزائر العاصمة.

*- "الصراع بين الفاطميين والأمويين على السيادة في المغرب الإسلامي" للطالب حساني مختار، ونوقشت في **26** نوفمبر **1979**م بجامعة الجزائر العاصمة.

*- "القوى المغربية في الأندلس في عهد ملوك الطوائف خلال القرن الخامس الهجري" للطالب فراد محمد أرزقي، ونوقشت في 02 ماي 1983م بمعهد التاريخ- جامعة الجزائر.

*- "لسان الدين ابن الخطيب وآثاره الفكرية والتاريخية" للطالب كمال إبراهيم، ونوقشت في 23 ماي 1984م في معهد التاريخ- جامعة الجزائر.

2- رسائل الماجستير:

أ- الرسائل المنجزة:

*- "لسان الدين ابن الخطيب، آثاره الفكرية ونظريته التاريخية" للطالب سعيد كمال إبراهيم، ونوقشت بقسم التاريخ- جامعة الجزائر.

*- "مؤلف مجهول- مفاخر البربر- دراسة وتحقيق" الطالب بوباية عبد القادر، ونوقشت في 13 نوفمبر 1996م بجامعة وهران السانية.

*- "اليهود في الغرب الإسلامي إلى سقوط الموحدين" للطالب كواتي مسعود، ويتعلق معظمها باليهود في بلاد الأندلس، ونوقشت بجامعة الجزائر العاصمة سنة 1998م.

*- "أبو مروان عبد الملك بن زهر ودوره في تطور الحركة الطبية في بلاد الأندلس" للطالب جعفر يايوش، ونوقشت سنة 1998م بالمعهد الوطني العالي للحضارة الإسلامية بوهران.

*- "النظام القضائي بالأندلس من الفتح حتى نهاية القرن الخامس الهجري" للطالب همال عبد السلام، ونوقشت بقسم التاريخ- جامعة الجزائر.

*- "الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 17/16م" للطالب هلايلي حنيفي، ونوقشت عام 2000م بجامعة وهران السانية.

*- "الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري/12م" للطالب نور الدين زرهوني، ونوقشت سنة 2002م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران السانية.

*- "الجيش في عهد المنصور بن أبي عامر" للطالبة هواري الزهراء، ونوقشت في جوان 2003م بقسم الحضارة الإسلامية- جامعة وهران.

*- "المرأة في المغرب والأندلس من القرن الخامس إلى منتصف القرن السابع الهجريين" للطالبة كرراز فوزية، وتمت مناقشتها في 21 جوان 2004م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران السانية.

*- "آل الرازي وآثارهم التاريخية والجغرافية في الأندلس" للطالب بوشريط امحمد، وقد نوقشت في 10 أكتوبر 2004م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران السانية.

*- "الحركة الفكرية في الأندلس على عهد الحكم المستنصر بالله" للطالب صادق قاسم، وتمت مناقشتها في 2 جويلية 2005 بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

*- "الجيش في الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر" للطالبة سعدو تالية، وتمت مناقشتها في 26 نوفمبر 2005م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

*- وراد طارق- "أبو مروان ابن حيان ومنهجه التاريخي من خلال كتابه المقتبس" للطالب ورّاد طارق وتمت مناقشتها في 13 جوان 2006م بقسم التاريخ- جامعة وهران.

*- "أهل الذمة بالأندلس في ظل الدولة الأموية (138-422هـ/755-1031م) للطالب محمد الأمين ولد أن، وتمت مناقشتها في 21 جوان 2006م بقسم التاريخ- جامعة وهران.

*- "الأحباس ودورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين/10-15م" للطالب عبد القادر ربوح، وتمت مناقشتها بقسم التاريخ- جامعة الجزائر سنة 2006م.

*- "الوظائف المساعدة لخطة القضاء في الأندلس" للطالب عبد الحفيظ حيمي، وقد نوقشت في 13 فبراير 2007م بدائرة التاريخ- المركز الجامعي ببشار.

*- "التسامح الديني في ظل الدولة الأموية بالأندلس"، وقد نوقشت في سبتمبر 2007م بقسم التاريخ- جامعة باتنة.

*- "الحجابة في الأندلس على عهد الدولة الأموية" للطالب وهراني قدور، وقد نوقشت سنة 2007م بقسم الحضارة الإسلامية- جامعة وهران.

*- "النشاط التجاري بالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين" للطالب إبراهيم رمضان، وقد نوقشت في 2008م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

*- "أسرة بني حمدون ودورها السياسي والحضاري في المغرب والأندلس" للطالب محمد سعيداني، وقد نوقشت بقسم الحضارة الإسلامية- جامعة وهران سنة 2008م.

*- "المستعربون ودورهم في الحضارة الأندلسية" للطالب محي الدين صفي الدين، وقد نوقشت بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران في 17 جوان 2008م.

*- "الصناعة والصناع على عهد الخلفاء بني أمية بالأندلس" للطالبة تواتية بودالية، وقد نوقشت بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران في 29 جانفي 2009م.

*- "الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس على عهد ملوك الطوائف (5هـ-11م)" للطالب عمر بوخاري، وقد نوقشت في 7 جويلية 2009م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

*-"البربر بين المعارضة والموالاة على عهد الإمارة الأموية بالأندلس (138-316هـ/755-929م)" للطالب حميد زيدور، وقد نوقشت في أكتوبر2009م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "خطة الكتابة السلطانية في الأندلس على عهد الأمويين" للطالبة نصيرة طيطح، وقد نوقشت في 21 أكتوبر 2009م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

*- "الإسهام الفكري للبربر بالأندلس من العهد العامري إلى نهاية الوجود المرابطي(366-39هـ/976-1148م)" للطالب يخلف حاج عبد القادر، وقد نوقشت بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران في 25 نوفمبر2009م.

*- "الإسهامات العلمية للبربر في الأندلس على عهد الموحدين مابين القرنين 6-7هـ (12-13م)" للطالب حاكمي الحبيب، وقد نوقشت سنة 13 جويلية 2010م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

*- "الإسهامات العلمية للبربر في الأندلس من خلال كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي" للطالبة مليكة عدالة، وقد نوقشت سنة 2010م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

*- "جوانب من الحياة الاجتماعية للبربر في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى دخول المرابطين" للطالبة فتيحة تريكي، وقد نوقشت سنة 2010م بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

3-أطروحات دكتوراه دولة:

*- "البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري(11م)" للطالب الباحث بوباية عبد القادر، ونوقشت في09 أكتوبر2002م بقسم التاريخ وعلم الآثار-جامعة وهران السانية.

*- "الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين" للطالب الباحث محمد الأمين بلغيث، ونوقشت في 15 ماي 2003م بقسم التاريخ- جامعة الجزائر العاصمة.

*- "التأثيرات السياسية والحضارية للأندلسيين على المغرب خلال القرن السابع الهجري(13م) للطالبة الباحثة السيدة دحمان شريفة، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار-جامعة وهران السانية.

4-أطروحات الدكتوراه (النظام الجديد):

أ- الأطروحات التي نوقشت:

* "مخطوطات الطب في الأندلس" للطالب شخوم السعدي، وقد نوقشت بقسم التاريخ- جامعة سيدي بلعباس في 2009م.

ب- أطروحات في طور الإنجاز:

* "أبو مروان ابن حيان القرطبي مؤرخا والمجموع المستدرك من تواريخه" للطالب طارق وراد، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ- جامعة جيلالي اليابس- سيدي بلعباس.

* "الحياة الاقتصادية في الأندلس على عهد الأمويين" للطالبة تالية سعدو، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* اليهود والنصارى بالأندلس من نهاية الخلافة الأموية إلى سقوط غرناطة" للطالب محمد الأمين ولد أن، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "ظاهرة البيوتات العلمية بالأندلس ودورها الثقافي" للطالب امحمد بوشريط، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "هجرة العلماء الأندلسيين إلى المشرق الإسلامي" للطالب قاسم صادق، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "العلماء في الأندلس بين المجتمع والسلطة على عهد الأمويين 138-422هـ/756-1031م" للطالب حميد زيدور، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "سفارات بلاط الدولة الأموية بالأندلس" للطالبة نصيرة طيطح، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "الدور السياسي والإسهام الفكري لصنهاجة بالأندلس من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجريين(10-12م)" للطالب حاج يخلف عبد القادر، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين" للطالب حبيب حاكمي، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

* "الموالي في الأندلس ودورهم السياسي والعلمي على عهد الأمويين 138-422هـ/756-1031م" للطالبة فتيحة تريكي، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ- جامعة وهران.

* "الحياة الاجتماعية في الأندلس في عهد الدولة الأموية (138-422هـ/755-1031م)" للطالب محي الدين صفي الدين، وهي في طور الإنجاز بقسم التاريخ- جامعة وهران.

5-نماذج من الرسائل الجامعية المتعلقة بالأندلس:

* القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) للباحث محمد أرزقي فراد.

تعتبر هذه الرسالة المنجزة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، والتي نوقشت بتاريخ 1983/05/02م، من أبرز البحوث المخصصة لموضوع البربر في بلاد الأندلس، وقد عالج فيها صاحبها دور البربر في أحداث الأندلس من أواخر القرن الرابع الهجري إلى نهاية الخامس الهجري (القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين).

قسّم الباحث رسالته إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، وتناول في الفصل الأول هجرة البربر إلى الأندلس وأماكن استقرارهم، وتعاظم نفوذهم السياسي والعسكري، كما أشار إلى انهيار الخلافة الأموية وانفراط عقد الأندلس، وقيام ما عرف بممالك الطوائف، وذكر الباحث أهم الإمارات البربرية وعلاقاتها مع ممالك العرب والصقالبة، كما تطرق في الفصل ذاته إلى أوضاع الإمارات المسيحية التي كانت بصدد جمع شملها وتحقيق وحدتها.

وخصّص الباحث الفصل الثاني لدولة بني حمود التي كانت تستقطب البربر في الأندلس سواء أثناء تمركزها في قرطبة أو بعد انتقالها إلى مالقة، وذلك إلى غاية استيلاء حكام بني زيري في غرناطة على ممتلكاتها.

وتناول في الفصل الثالث إمارة بني زيري بغرناطة التي أسسها زاوي بن زيري، وكانت على جانب كبير من القوة وبخاصة في عهد باديس بن حبوس (428-465 هـ/1037-1073م) الذي نجح في إحباط محاولات العامريين حكام ألمرية، وبني عباد حكام إشبيلية في السيطرة على دولته، وذكر في نهاية هذا الفصل أهم البيوتات البربرية الأخرى التي استقرت بمدن وأقاليم جنوب الأندلس.

أما الفصل الرابع فقد خصصه لإمارتي بطليوس وطليطلة، وقد أسس الأولى بنو الأفطس في غرب الأندلس، واشتهروا بحبهم للعلم لذلك غصّ بلاطهم بالعلماء والأدباء والشعراء، كما خاضوا حروبا عديدة ضد المسيحيين؛ وضد الأمراء المسلمين المتاخمين لهم، أما الإمارة الثانية فقد أسسها بنو ذي النون في الثغر الأوسط، وبذلك كانت درعا قويا يحمي مسلمي الأندلس من اعتداءات النصارى المتكررة، والتي كان سقوطها بيد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة 478 هـ/1085م بداية لنهاية المسلمين بالأندلس.

تناول الباحث في الفصل الخامس سقوط الإمارات البربرية وغيرها بيد المرابطين الذين استنجد بهم أمراء الطوائف على إثر سقوط طليطلة بيد المسيحيين الأسبان، وبعد الانتصار الكبير الذي حققه المسلمون في معركة الزلاقة سنة 479 هـ/1086م، قرر يوسف بن تاشفين القضاء على ملوك الطوائف لأنهم سبب الداء الذي نخر عظام مسلمي الأندلس[1].

وختم الباحث رسالته بالإشارة إلى أن البربر خلال النصف الثاني من القرن الرابع والقرن الخامس الهجري قد لعبوا دورا بارزا على جميع الأصعدة، من ذلك توليهم أكبر مناصب القضاء والإدارة إضافة إلى دورهم البارز في صنع الانتصارات العسكرية خلال عهد الخلافة وبخاصة في عهد محمد بن أبي عامر، وعندما انهارت الخلافة الأموية استغل البربر قوتهم العسكرية وتفاقم الوضع السياسي ليؤسسوا إمارات مستقلة برزت على جميع الأصعدة[2].

*- "مفاخر البربر: دراسة وتحقيق" في إطار رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الوسيط للطالب عبد القادر بوباية.

تمهيد: يعتبر مخطوط مفاخر البربر من المصادر التاريخية الهامة المتعلقة بتاريخ بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة، وبتاريخ قبيلتي زناتة وصنهاجة بصفة خاصة، كما يعتبر من أولى المصادر التي اعتنت بأنساب البربر وتاريخهم وقبائلهم[3].

وبغية إفادة المهتمين بتاريخ بلاد المغرب صمم الباحث على دراسة وتحقيق المخطوط رغم كونه قد نشر من طرف الأستاذ ليفي بروفنسال سنة 1934م تحت عنوان "نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى"، وما دفعه إلى ذلك هو احتواء هذه النشرة على الكثير من النقائص، أضف إلى ذلك أنه نشر دون دراسة وتحقيق.

ورغم الصعوبات التي تنطوي عليها دراسة وتحقيق المخطوطات، فإنه بذل قصارى جهده كي يخرج نصا صحيحا مبرءا من الوهم والخطأ قدر الإمكان، معتمدا على النسختين

المتوفرتين لديه، واللتان تحملان الأرقام "ك.1275" و"د.1020"، إضافة إلى الجزء الذي نشره ليفي بروفنسال، وبسبب وضوحها وسهولة قراءتها جعل النسخة "ك.1275" هي الأصل الذي اعتمده في التحقيق[4].

التعريف بالمخطوط: هو مجموع يسمى"مفاخر البربر"، ويتكون المخطوط من أجزاء اقتبسها مؤلفه من الكتّاب المغاربة والأندلسيين الذين حوت كتبهم معلومات تتعلق بالأحداث السياسية التي شهدها المغرب خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (القرنين العاشر والحادي عاشر الميلاديين)، ويضيف إلى ذلك تراجم العديد من ملوك ورؤساء البربر في المغرب والأندلس، ويذكر عددا كبيرا من علماء البربر في المغرب والأندلس، كما يطّعم كتابه بجملة من الأبيات الشعرية، ولا يكتفي المؤلف بالاقتباس فقط بل يضيف إلى ما ينقله عن الكتّاب الآخرين العديد من المعلومات التي استقاها من تحرياته الخاصة، أو من مصادر مفقودة تمكن هو من الإطلاع عليها[5].

محتوى المخطوط: يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة يبرز فيها الدوافع التي جعلته يؤلف هذا الكتاب حيث يقول: "فإنه لما كانت البربر عند كثير من جهلة الناس أخسّ الأمم وأجهلها، وأعراها من الفضائل وأبعدها عن المكارم، رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام ورؤساءهم وثوارهم وأنسابهم وبعض أعلامهم وتواريخ أزمانهم"، وأهم محتويات المخطوط هي:

*-أخبار المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك مع البربر، وتمثل الجزء الأكبر من المخطوط (من الورقة 58 إلى الورقة 79) وتستغرق فترة زمنية تمتد من سنة 368هـ إلى سنة 399هـ، ولا يكتفي المؤلف خلال ذلك بإيراد أخبار المنصور بن أبي عامر وابنه فقط؛ بل يذكر أخبارا تتعلق بقيام دولة صنهاجة الزيرية بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة 360هـ، وغزوات زيري بن مناد ثم ابنه بلقين لبلاد المغرب الأقصى، وكذا حركة الحسن بن قنون (جنون) ضد الأمويين بالأندلس.

ثم أخبار زيري بن عطية المغراوي وابنه المعز حيث يذكر مصير زيري بعد هزيمته أمام جند المنصور بن أبي عامر؛ وبداية صراعه مع الصنهاجيين، وبعد وفاته يتكلم عن خليفته المعز بن زيري، ويورد كتاب المظفر عبد الملك إليه وفيه يقلده بلاد المغرب؛ ثم يتكلم بعدها على مصير الأندلس والمغرب بعد تولي أمر الحجابة من طرف عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر.

ويعرّج على ذكر ثوار الأندلس؛ ومنهم إسماعيل بن ذي النون الثائر سنة 409هـ، وزاوي بن زيري بن مناد وابن أخيه حباسة وحبوس الثائرين سنة 405هـ، وبنو برزال الثائرين في أول المائة الخامسة، وأبو نور بن أبي قرّة المغيلي ويتطرق إلى ثوار البربر ببلاد المغرب؛ ومنهم زيري بن عطية وخلفاءه وتميم بن زيري اليفرني الذي ثار في سلا والمصامدة الذين ثاروا بأغمات، وموسى بن أبي العافية المكناسي والصفرية الذين ملكوا سجلماسة، وأبو يزيد مخلد بن كيداد الذي قام على العبيديين سنة 332هـ.

كما يورد المؤلف أخبارا تتعلق بمحاولات الفاطميين لفتح مصر وآخرها محاولة جوهر الناجحة مبرزا الدور الذي قام به البربر في تحقيق ذلك، ويتطرق المؤلف إلى أخبار صنهاجة؛ فيذكر مناد بن منقوش الوتلكاتي الصنهاجي الذي ملك المغرب وإفريقية والخلفاء الذين جاءوا بعده، ثم يتكلم عن قبيلة لمتونة الصنهاجية وخروجها من الصحراء بعد الأربعمائة ويركز على بني تاشفين، ويذكر غزوات عبد الله بن ياسين واستيلائه على بلاد المصامدة سنة 450هـ، ثم يتناول بداية دولة المرابطين؛ فيتكلم المؤلف المجهول عن قيامها ويذكر غزوات يوسف بن تاشفين لقبيلة زناتة، وشروعه في بناء مدينة مراكش، وحروبه مع سقوت البرغواطي وابنه أصحاب مدينتي سبته وطنجه، ثم يذكر بعض رؤساء البربر، وفي آخر الفقرة يتكلم عن الحروب التي وقعت بين تاشفين بن علي وعبد المؤمن بن علي والتي ستنتهي بمقتل الأول وبالتالي بداية نهاية دولة المرابطين.

وبعدها يذكر بداية دولة الموحدين ويبدأ كلامه بالحروب الواقعة بين المرابطين والموحدين؛ ويضيف أخبارا عن دخول عبد المؤمن بن علي إلى أهم المدن المغربية وآخرها مراكش في 28 شوال سنة541هـ، ولا يتوسع المؤلف كثيرا في الكلام عن هذه الدولة.

ويورد المؤلف في كتابه سبعا وسبعين ترجمة لفقهاء وعلماء ومؤرخين ومتصوفين من أصول بربرية، وأغلب هؤلاء الأعلام من سكان المناطق الساحلية للمغرب الأقصى؛ وبخاصة مدينة أزمور كما أن جلّ هؤلاء الأعلام توفوا في نهاية القرن السابع وبداية الثامن الهجريين أي في الفترة القريبة من تاريخ تأليف المخطوط الذي يقابل سنة 712هـ، وهذه الفقرة التي تستغرق الصفحات من 91 إلى الصفحة 99 هي من تأليف صاحب المخطوط حيث لا تسبق مثل بقية الفقرات بـ"قال فلان في كتابه"، ويختم المؤلف هذا الفصل بإيراد أخبار عن حملة القائم الفاطمي على مصر سنة 302هـ .

ويذكر المؤلف من تنبأ من البربر، ويخص بالذكر منهم صالح بن طريف البرغواطي وعاصم بن جميل اليزدجومي وحاميم بن منّ الله الملقب بالمفتري الذي ادعى النبوة ببلاد غمارة، وينفرد بنشر قصيدة بائية لشرف الدين البوصيري تتألف من تسع وخمسين بيتا يتعلق موضوعها بمدح الشيخ أبي مدين شعيب، دفين العبّاد كما يذكر معه جملة من علماء الصوفية ببلاد المغرب وبلاد المشرق.

ويخصّص صاحب المخطوط فصلا لذكر سبق البربر وفخرهم ويتضمن هذا الفصل الأخبار والأحاديث التي تبين ذلك، والقاسم المشترك بين كل هذه الأخبار والأحاديث هو البرهنة على المكانة المرموقة التي يحتلها البربر، والدور الكبير الذي لعبوه في التاريخ، ثم يذكر الحدود الجغرافية لبلاد المغرب، وأنساب البربر نقلا عن أبي محمد بن حزم حيث يورد مختلف الأقوال المتعلقة بهذا الموضوع كما يذكر المؤلف نقلا عن نفس المؤلف أهم بيوتات البربر بالأندلس، ويأتي أيضا على ذكر ولاة لمتونه بها؛ فيورد قائمة تتضمن أسماء الولاة الذين تداولوا على ولايات قرطبة وإشبيلية وغرناطة وألمرية وبلنسية وسرقسطة، وهي قائمة ينفرد بها المؤلف حيث لا يذكرها بقية المؤلفين سواء المعاصرين أو اللاحقين للمؤلف، وبخاصة ابن عذاري وابن أبي زرع وعبد الرحمن بن خلدون.

ويعرّج المؤلف على موضوع بناء القيروان وغزوات عقبة بن نافع في المغرب الأقصى؛ فيذكر تولية عقبة بن نافع وبناء القيروان وما رافقها من كرامات، كما يورد أخبارا عن غزوات عقبة بن نافع لبلاد المغرب الأقصى، ويختم هذه الفقرة بمقتل عقبة على يد كسيله سنة 63هـ بتهودة، ويعود بعدها إلى الحديث عن نسب البربر؛ ويذكر عدة روايات منها أنهم التحقوا بأبيهم حام الذي خرج إلى بلاد المغرب، ومنها أنهم قدموا من فلسطين بعد مقتل جالوت على يد داود عليه السلام كما يذكر أنهم من كنعان ومن العماليق، ويرجع تسميتهم إلى إفريقش الملك الحميري الذي قال لهم :"ما أكثر بربرتكم"، وقال في ذلك شعرا جاء في بيته الأول:

بربرت كنعان لما سقتها من   أرض الضنك إلى العيش الخصيب

ولا يغفل المؤلف ذكر من دخل المغرب من العلويين حيث يورد أسماء كل من إدريس وسليمان ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وداود بن القاسم الجعفري ابن عمهما، وبعد ذلك يتكلم عن مصير دولة الأدارسة بعد وفاة إدريس بن إدريس.

ويذكر الأحاديث النبوية التي بشّرت بالمهدي ويتعلق الأمر بسبعة أحاديث اقتبسها المؤلف من كتاب "سراج الملوك" لأبى بكر الطرطوشي، وبعد ذكرها يحاول نقدها وتوضيحها معتمدا على شرح الشيخ الخطابي لحديث أم سلمة: "المهدي من عترتي"، وحديث أبي سعيد الخدري "المهدي أجلى الأنف"، ويختم المؤلف هذه الفقرة بإيراد أسماء أبرز من تسموا بالمهدي نقلا عن كتاب "نقط العروس" لابن حزم الأندلسي، وأخيرا يورد أخبارا عن المهدي بن تومرت وجملة من المصادر التي أرّخت لدولة الموحدين، ويختم الكتاب بذكر خلفاء الدولة الموحدية6.

*- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي للباحث عبد القادر بوباية.

يمثل هذا الموضوع أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، وجاء وفقا للمنهجية التالية:

الباب الأول: تناول الباحث فيه أوضاع البربر بالأندلس قبل قيام فتنة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وقسّمه إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وخصّصه لتتبع استقرار البربر بالأندلس، ومراحل هذا الاستقرار، وأهم الهجرات التي قام بها المغاربة إلى هذه البلاد، والأسباب التي دفعتهم إلى ذلك، والعوامل التي شجعتهم على الاستقرار بها، وبخاصة في عهد المنصور محمد بن أبي عامر، والمواطن الرئيسة التي استقروا بها.

الفصل الثاني: وخصصه لدور البربر في المجالين العسكري والسياسي؛ فذكر دورهم في فتح الأندلس، وفي قيام الإمارة الأموية بها، واعتماد الأمراء والخلفاء عليهم في مواجهة أعدائهم، وبخاصة نصارى الشمال الإسباني، ودورهم في حماية الثغور الشمالية والشمالية الشرقية، وختم ذلك بذكر أبرز القادة العسكريين من أصل بربري، وركّز في المجال السياسي على المساهمة البربرية في تولي الوظائف الإدارية والقضائية، وأبرز ضعف مساهمتهم في هذا المجال قبل القرن الرابع الهجري، وازدياد الاعتماد عليهم في هذا المجال خلال القرن الرابع الهجري، وأشار إلى العوامل التي ساعدت على ذلك، كما ذكر البربر الذين تولوا مناصب إدارية وقضائية خلال القرن الرابع الهجري وقبله من أجل المقارنة.

الفصل الثالث: وركّز فيه على المساهمة البربرية في الحركة العلمية ومكانتهم الاقتصادية والاجتماعية؛ فذكر عوامل ازدهار الحركة العلمية بالأندلس بداية من منتصف القرن الثالث الهجري، ونصيب البربر من هذه الحركة؛ وبين ضعف هذه المشاركة قبل القرن الرابع الهجري واتساعها خلاله، والعوامل التي تسببت في الظاهرة الأولى؛ وتلك التي شجعت على الظاهرة الثانية، كما ذكر أهم الفروع العلمية التي شارك فيها البربر وبرزوا فيها، وأبرز العلماء إضافة إلى النتائج التي تمخضت عن هذه المشاركة العلمية والثقافية الواسعة لهم.

وبالنسبة لمكانة البربر الاقتصادية والاجتماعية؛ فقد تطرق الباحث إلى احتكار العرب للأراضي وحرمان البربر منها، وذكر بعض البيوتات البربرية الثرية ومكانتها الاجتماعية والحرف التي مارسها البربر من حضر وبدو والمكانة التي احتلوها في الهرم الاجتماعي للأندلس وبين الصورة المنحطة التي رسمها بعض الكتاب والأدباء الأندلسيين للبربر والتي يعبر عنها أحد شعرائهم حين يقول:

رأيت آدم في نومي فقلت له — أبا البرية إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك، قال: إذن — حواء طالقة إن كان ما زعموا[7]

الباب الثاني: وتناول فيه بالبحث فتنة القرن الخامس الهجري وموقف البربر منها وقسمه إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وخصّصه لقيام الفتنة ومراحلها وأسبابها البعيدة فبدأ بقيام الفتنة على يد محمد بن هشام بن عبد الجبّار المهدي والسياسة التي انتهجها والنتائج التي أدّت إليها ومنها مبايعة البربر للمستعين بالخلافة وبداية الصراع الدموي بين المسلمين والذي انتهى في مرحلته الأولى بدخول البربر مدينة قرطبة ثم استيلاء الحموديين على منصب الخلافة وتطور الفتنة خلال حكمهم ثم تطرق إلى عودة بني أمية للحكم والمرحلة الأخيرة من عصر الخلافة التي انتهت بقرار إلغائها ونفي أفراد البيت الأموي من الحضرة وأتبع موضوع الفتنة بمحاولة استقصاء الأسباب البعيدة التي كانت وراء قيامها.

الفصل الثاني: وخصّصه لموقف البربر من الفتنة ومحاولة تحديد المسؤوليات حيث تطرق لموقف البربر عند قيام المهدي على الخليفة هشام وحاجبه عبد الرحمن شنجول وسياسة الخليفة الجديد إزاءهم ورد الفعل البربري على ذلك وبداية الصراع بين البربر وغيرهم من أفراد المجتمع الأندلسي الذي انتهى بانتصار البربر ودخولهم مدينة قرطبة سنة 403هـ وقيام

المستعين - الخليفة الأموي- بتقسيم أجزاء من جنوب الأندلس ووسطها على زعماء القبائل البربرية وظهور دويلات خاصة بهم ثم تعرض إلى موقف البربر من الفتنة عقب ذلك التاريخ وتصدّيهم لهجوم المرتضى المرواني وحلفائه من الصقالبة وأمراء الثغور وانتصارهم عليهم وختم هذا الفصل بمحاولة تحديد المسؤوليات فيما جرى من أحداث بالأندلس خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري ولاحظ الاختلاف الكبير بين المؤرخين القدامى والمعاصرين في هذا المجال؛ فأورد مختلف آرائهم وسعى إلى تحديد المسؤول عن قيام الفتنة اعتمادا على النصوص التاريخية الواردة في المصادر التي كتبت عن أحداثها.

الفصل الثالث: وخصّصه لذكر نتائج الفتنة القائمة خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري بالعدوة الأندلسية فبدأ بالنتائج السياسية وأدرج ضمنها الممالك التي أسسها البربر وتطورها التاريخي وعلاقتها بغيرها من الممالك التي أسستها بقية عناصر المجتمع الأندلسي وبخاصة العرب والصقالبة وأبرز تكالب النصارى على المسلمين وبلادهم خلال ذلك ثم تطرق إلى النتائج الاقتصادية التي نتجت عن الفتنة والآثار الاجتماعية التي ترتبت عن ذلك من انتشار للمجاعة والأوبئة وبين في آخر هذا الفصل أثر الفتنة على الحياة الثقافية والعلمية من قتل للعلماء وفرار البعض الآخر وجمود الحركة العلمية في مدينة قرطبة خاصة وازدهارها في غيرها من حواضر الأندلس والعوامل المساعدة على ذلك[8].

وختم الباحث أطروحته بالتطرق إلى أبرز النتائج التي توصل إليها في بحثه إضافة إلى وضع ملاحق أبرزها شجرة أنساب لأبرز البيوتات البربرية القاطنة بالعدوة الأندلسية.

الخاتمة: إن التمعن في هذا الكمّ الكبير من الرسائل الجامعية المخصصة لتاريخ الأندلس يثبت بما لا يدع مجالا للشك الاهتمام الذي يبديه الباحثون لموضوع الأندلس ضمن الدراسات العليا، وهو الأمر الذي يؤكد الارتباط الذي ما زال قائما بين الجزائريين وماضي العدوة الأندلسية الذي يمثل جزءا لا يتجزأ من تاريخ الأمة الإسلامية، كما أن الموضوعات التي وقع عليها اختيار الباحثين تدل أيضا على الحنين إلى ذلك الماضي المشرق من جهة، وإلى الاعتبار بتلك النهاية المؤلمة من جهة أخرى.

إن اختيار مواضيع متعلقة بالحضارة الراقية التي حققها مسلمو الأندلس تدفع إلى ضرورة الاستنارة بذلك الماضي المشرق من أجل استيعاب الدروس، والسعي الحثيث لتحقيق ما

حققته الأجيال التي سكنت بلاد الأندلس، وأنجزت ما أنجزت في ظل ظروف أقل ما يقال عنها أنها لا تساعد كثيرا على الإبداع والتقدم.

إن التطرق لمواضيع يتعلق محتواها بالعدوة الأندلسية يعيد إلى الأذهان تلك المآسي التي عاشها أهل الأندلس سواء في زمن الفتن التي حدثت خلال فترات مختلفة من تاريخ الأندلس أو تلك التي عاشها آخر القاطنين بالعدوة الأندلسية من المسلمين، كما تدفع أيضا إلى استلهام العبر والدروس، وذلك بغية تفادي الأخطاء التي وقع فيها السلف من هذه الأمة، من ذلك مثلا الفتنة التي وقعت في نهاية القرن الرابع الهجري؛ وبداية القرن الخامس الهجري، والتي تميزت بالاقتتال بين المسلمين وبخاصة بين البربر والعرب، واستعانة كل من الطرفين بالنصارى؛ وهو الأمر الذي مكن هؤلاء من استعادة كثير من المناطق التي كانت في أيدي المسلمين.

الهوامش:

1- فراد محمد أرزقي– القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)– ديوان المطبوعات الجامعية– الجزائر– 1991م– ص1-2.

2- نفسه – ص 123-124.

3- عبد القادر بوباية– مفاخر البربر دراسة وتحقيق– رسالة ماجستير– معهد التاريخ– جامعة وهران السانية– 1417 هـ/1997م– المقدمة ص7، وقد نشرت بالرباط (المملكة المغربية)– دار أبي رقراق سنة 2005م، وصدرت الطبعة الثانية سنة 2008م.

4- نفسه – المقدمة – ص 8.

5- نفسه– ص 17.

6- نفسه– صص 55-63.

7- أحمد بن محمد المقري– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب– تحقيق إحسان عباس– دار صادر– بيروت– ط2– 1997م– ج3 ص412.

8- عبد القادر بوباية– البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)– رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي– قسم التاريخ– جامعة وهران السانية– 2002م– المقدمة صص د...ز، وقد طبعت سنة 2011م بدار الكتب العلمية– بيروت.

النشاط العلمي
لمخبر تاريخ الجزائر

عرض أ. د عبد القادر بوباية*

تنظيم ندوة علمية وطنية حول موضوع: "التاريخ والمؤرخون الجزائريون عبر العصور":

نظم مختبر تاريخ الجزائر ندوة علمية وطنية يومي 7 و8 ديسمبر 2011م بقاعة المحاضرات الكائنة بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- حي الصباح- ندوة تاريخية وطنية موضوعها "التاريخ والمؤرخون الجزائريون عبر العصور" شارك فيها سبع وعشرون أستاذًا جاءوا من مختلف جامعات الوطن (تلمسان- سيدي بلعباس- معسكر- وهران- تيارت-الشلف- الجزائر- البويرة- المسيلة- الوادي).

وفي ختامها تمّ تكريم أحد رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، ويتعلق الأمر بالأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات، وكان اختياره بالنظر إلى الدور الفعال الذي لعبه في تحقيق كثير من المخطوطات التاريخية ذات العلاقة بتاريخ المغرب الإسلامي عامة وتاريخ الجزائر بصفة خاصة، إضافة إلى كونه واحدًا من علماء تلمسان، عاصمة الثقافة الإسلامية لسنة 2011م.

إشكالية الندوة: ساهم الجزائريون في التدوين التاريخي عامة، وتدوين تاريخ الجزائر عبر العصور خاصة، وكان لهم وجود ضمن كوكبة المؤرخين الذين تخصصوا في هذا النوع من الكتابة، وقد ازداد عددهم أكثر بعد حصول الجزائر على استقلالها، وبخاصة بعد إنشاء معاهد التاريخ في كل من الجزائر العاصمة، ثم وهران وقسنطينة، وتوسيع ذلك فيما بعد إلى العديد من جامعات الجزائر.

ومن ذلك الكم الضخم من المُتخرّجين برزت نخبة سعت جاهدة إلى المساهمة وبدور فعال في كتابة التاريخ وتحقيق مصادره المخطوطة.

* – مدير مخبر تاريخ الجزائر– جامعة وهران.

فما هي الظروف التي ظهرت فيها كتابة التاريخ في الجزائر؟ وما هي المدارس التاريخية التي تأثرت بها الكتابة التاريخية؟ وما هي المواضيع التي طرقها المؤرخون الجزائريون قبل وبعد الاستقلال؟ وما هو دور المؤرخين الجزائريين في تحقيق التراث التاريخي المخطوط؟ ومن هم أبرز المؤرخين الجزائريين قبل وبعد الاستقلال؟ ثم هل يمكن القول بوجود "مدرسة تاريخية جزائرية"؟

محاور الندوة العلمية الوطنية:

1- ظروف نشأة الكتابة التاريخية في الجزائر.

2- المدارس التاريخية المؤثرة في الكتابة التاريخية بالجزائر.

3- المواضيع المدروسة من قبل المؤرخين الجزائريين.

4- المؤرخون الجزائريون وتحقيق التراث التاريخي المخطوط.

5- أبرز المؤرخين الجزائريين قبل وبعد 1962م.

6- هل هناك مدرسة تاريخية جزائرية؟

****

البرنامج العلمي للندوة

****

يوم الأربعاء2011/12/07م:

على الساعة 8سا 30د: افتتاح الندوة (النشيد الوطني- آيات بينات من الذكر الحكيم)

كلمة السيد مدير مخبر تاريخ الجزائر

كلمة السيد عميد كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية.

الجلسة العلمية الأولى: رئيس الجلسة أ. د محمد موفقس- رئيس قسم التاريخ

09سا - 9سا 15: أ.د. عبد الحميد حاجيات- جامعة تلمسان- يحي بن خلدون وكتابه "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد".

09:15-09:30: أ. د دحو فغرور- جامعة وهران- المدرسة التاريخية الوطنية: ظروف النشأة.

09:30- 09:45: أ. د محمد دادة- جامعة وهران: التدوين التاريخي في الجزائر خلال العهد العثماني، خصائصه وموضوعاته.

09:45-10:00: أة. نوال بلمدني- جامعة معسكر: ابن مرزوق الخطيب والمناقب المرزوقية.

10:00- 10:15: أ. مصطفى مغزاوي- جامعة الشلف: أبو العباس الغبريني البجائي ومنهجه من خلال كتابه"عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية.

10:15-10:30: محمد بوشقيف- جامعة تلمسان: محمد بن عبد الله التنسي الفقيه التاريخي.

10:30- 10:45: مناقشة عامة

****

الجلسة العلمية الثانية: رئيس الجلسة: أ. د محمد بن عميرة- جامعة الجزائر

11:00-11:15: حميد زيدور- جامعة الوادي: التاريخ والمؤرخون في ورجلان الإباضية على عهد الموحدين: أبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم الورجلاني نموذجا.

11:15-11:30: عبد القادر قوبع- جامعة المسيلة: دور ابن قنفذ القسنطيني في تاريخ الحياة السياسية والثقافية والدينية للجزائر الحفصية.

11:30-11:45: امحمد بوشريط- جامعة معسكر: منهجية التحقيق عند محمد بن عبد الكريم

من خلال كتاب "التحفة المرضية في الدولة البكداشية".

11:45-12:00: محمد بوشنافي- جامعة سيدي بلعباس: الكتابة التاريخية في الجزائر: العهد العثماني نموذجا.

12:00- 12:15: بن عتو بلبروات- جامعة سيدي بلعباس: إسهام العائلة المشرفية في الكتابة التاريخية.

12:15- 12:30: امبارك جعفري- جامعة الوادي: المؤرخون والكتابة التاريخية في إقليم توات ما بين القرنين 12 و14هـ/18م-20م.

12:30- 13:00: بن عمر حمدادو- جامعة وهران: منهج أبي راس الناصر في كتاباته التاريخية: دراسة في بعض النماذج.

13:00- 13:30: مناقشة عامة

****

يوم الخميس 08 ديسمبر2011م: أ. د محمد دادة- قسم التاريخ- جامعة وهران

الجلسة العلمية الثالثة:

09سا - 9سا 15: د. عبيد بوداود- جامعة معسكر: مساهمة المؤرخين الجزائريين في تحقيق التراث التاريخي المخطوط.

09:15-09:30: أ. د عبد القادر بوباية- جامعة وهران: مكانة تاريخ الأندلس في الدراسات العليا بالجامعات الجزائرية (1962-2011م).

09:30- 09:45: أ.د محمد بن عميرة- جامعة الجزائر: منهج الأستاذ المرحوم عطاء الله رهينة من خلال كتابه Le royaume abdelouadide.

09:45-10:00: أ. حسني بليل- ثانوية عبد القادر الياجوري- وهران: الشيخ المهدي البوعبدلي: حياته وآثاره.

10:00- 10:15: أ. عبد القادر حاج يخلف- جامعة وهران: المؤرخ أحمد توفيق المدني ومذكراته: حياة كفاح.

10:15-10:30: د. محمد غالم- جامعة وهران: براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي عند أحمد توفيق المدني.

10:30-11: مناقشة عامة.

****

الجلسة العلمية الرابعة: د عبيد بوداود- قسم التاريخ- جامعة معسكر

11:15-11:30: أ. حميد آيت حبوش- جامعة تلمسان: قراءة في الموروث التاريخي ليحي بوعزيز.

11:30-11:45: أ. مصطفى باديس أوكيل- جامعة البويرة: دراسة في آراء وبعض مؤلفات أبو القاسم سعد الله.

11:45-12:00: فوزية لزغم- جامعة تيارت: عائشة غطاس وكتابها الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700م-1830م.

12:00-12:15: د. أحمد رنيمة- جامعة الشلف: مولاي بلحميسي (1930-2009م): مؤرخ البحر والبحرية في الجزائر العثمانية.

12:15- 12:30: د. سعدي الشخوم- جامعة سيدي بلعباس: محطات شخصية وعلمية في حياة العلامة الدكتور موسى لقبال.

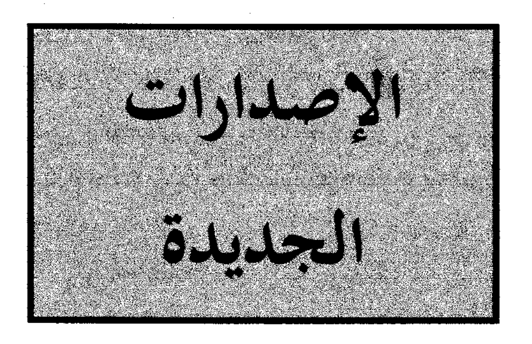
12:30 –13:00: د. الحاج طرشاوي– جامعة تلمسان: منهج الأستاذ عبد القادر بوباية في تحقيق المخطوطات.

13:00–13:15: د. لخضر بولطيف– جامعة المسيلة: نحو مدرسة تاريخية جزائرية: فتح ملفات عالقة.

13:15–13:30: د. نصر الدين بن داود– جامعة تلمسان: عبد الحميد حاجيات ومنهجه في ترجمة الأعلام.

مناقشة عامة.

- تكريم الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات.
- اختتام فعاليات الندوة العلمية (تلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم– النشيد الوطني).

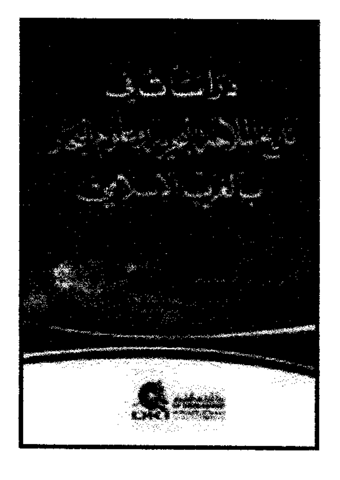

الإصدارات
الجديدة

* عنوان الكتاب: *دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي*.

- المؤلف: الدكتور عبد السلام الجعماطي- أستاذ التعليم العالي المساعد بالمركز التربوي الجهوي لتكوين الأساتذة- طنجة.

- دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

- تاريخ النشر: الطبعة الأولى- 2011م.



صدر حديثا عن دار الكتب العلمية ببيروت، كتاب بعنوان "*دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي*"، للباحث المغربي الدكتور عبد السلام الجعماطي، أستاذ التعليم العالي المساعد بالمركز التربوي الجهوي (لتكوين الأساتذة) بطنجة، وأحد المتخصصين في تاريخ النقل والمواصلات البحرية بالمغرب والأندلس. وقد جاء الكتاب في 160 صفحة من القطع المتوسط، ويمثل حلقة ضمن سلسلة من الدراسات التي دأب الدارس على إصدارها بداية بكتاب "*أكرية السفن*" لأبي القاسم خلف بن أبي فراس القروي (تطوان: 2009)، وكتاب "*النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف*" (بيروت: 2010)، و"*قاموس المفردات البحرية بسبتة الإسلامية*" (تطوان: 2011).

ويعتمد الكتاب على بيبليوغرافيا متنوعة تشتمل على 153 مصدرا ومرجعا باللغة العربية واللغات الأجنبية، وتستند مجموع الدراسات على توثيق مكثف للمعطيات التاريخية والحضارية التي تتضمنها.

ويشتمل الكتاب على موضوعات تتمحور حول الملاحة البحرية والمعارف العلمية والتقنية المتصلة بها، وتركز الدراسات جميعها من خلال هذا الكتاب على إسهامات مسلمي الغرب الإسلامي في مضمار الملاحة البحرية، خلال العصور الوسطى، من قبيل درايتهم بسواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي، واسترشادهم بالرياح المناسبة وباقي الظواهر الطبيعية في الملاحة، وكيفية تحديد المسافات البحرية عند الإبحار، ومعرفتهم بالفترات المناسبة لها وبأوقات توقفها، وتصنيف المراسي وتجهيزاتها حسب قدرتها على استقبال السفن وحمايتها من الرياح والأمواج العاتية، وأصناف السفن والمركب وباقي المعدات الملاحية، من قبيل

البوصلة والخرائط البحرية والأسطرلاب، ودرايتهم في مجال تقنيات إنقاذ الغرقى وتجنب المخاطر الناجمة عن ركوب البحر وتجنب خطورة الحيوانات البحرية الضارية، إضافة إلى تعداد طوائف البحارة وحرفيي قطاع النقل البحري مثل الربابنة والسفانين والنواتية والقلافطة والوكلاء والأدلاء والحمالين ونظّار المحارس وعمال المضارب والمجذفين وعبيد المراكب.

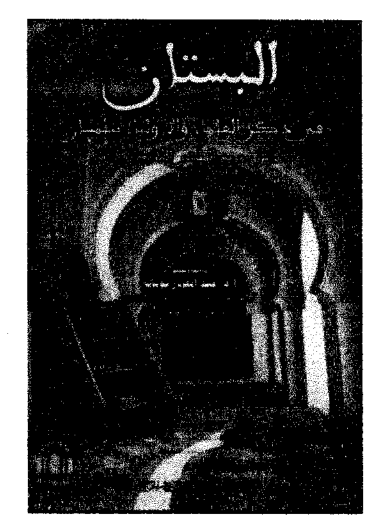
ويهدف الكتاب إلى إلقاء مزيد من الأضواء على تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالجناح الغربي لدار الإسلام خلال العصور الوسطى الإسلامية.

---

* عنوان الكتاب: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان.

- المؤلف: ابن مريم وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، المتوفى على الأرجح بين عامي 1025-1028هـ/1616-1619م.

- المحقق: الأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة وهران.



- دار النشر: مكتبة الرشاد- سيدي بلعباس- الجزائر ضمن منشورات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية.

- تاريخ النشر: الطبعة الأولى- 2011م.

احترف ابن مريم التعليم واشتغل بالتأليف حيث ألف أثنا عشر مؤلفا معظمها في حكم المفقود باستثناء كتاب البستان الذي ترجم فيه لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها.

وعن هدف تأليفه يقول المؤلف ردا على من طلب ذلك: "فقد طالعت ما أشرتم به عليّ من ذلك التأليف الأبرك المتضمن جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات، وجمع من كان بها وحوزها وعمالتها فأسعفتكم بما طلبتم".



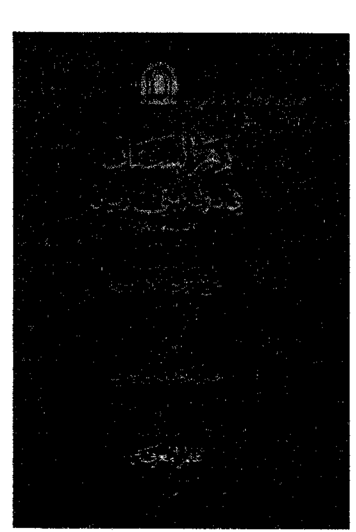
رتب المؤلف تراجم العلماء الذين أورد لهم تراجم تختلف تبعًا لحجم العلم المترجم على حروف الهجاء بداية من اسم أحمد، وانتهى من تأليفه سنة أربعة عشر وألف بمدينة تلمسان.

يُعتبر هذا الكتاب مصدرًا بالغ الأهمية في دراسة الحياة العلمية والثقافية بمدينة تلمسان خاصة، والمغرب الأوسط عامة نظرًا لحركة العلماء، وترددهم على حواضر العلم والثقافة خلال العصر الوسيط.

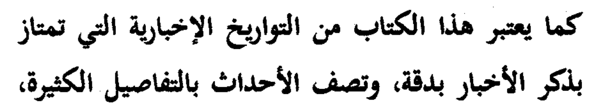
---

* عنوان الكتاب: "زهر البستان في تاريخ ملوك تلمسان".

- المؤلف: مجهول.
- المحقق: الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان.
- دار النشر:.
- سنة النشر: **1432هـ/2011م**.



يعتبر كتاب زهر البستان في دولة بني زيان من أهم الكتب التي ألفت حول تاريخ الدولة الزيانية، وذلك لاعتبارات عديدة منها أن مؤلفه تحدث عن أحداث وقعت في عصره وأغلبها وقعت بتلمسان وأحوازها أو في قصر السلطان الزياني بالمشور، ويمكن القول إن مؤلف هذا الكتاب شاهد عيان وأنه ضمّن تأليفه أخبارا شاهدها أو سمعها ممن شاهدها ويثق هو في صدقهم.



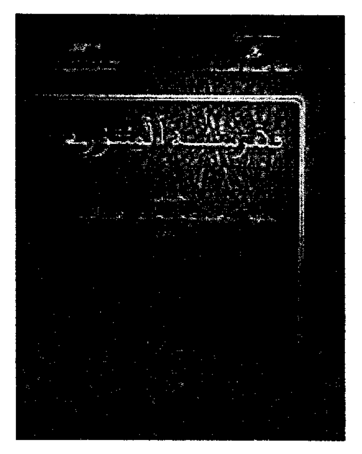
كما يعتبر هذا الكتاب من التواريخ الإخبارية التي تمتاز بذكر الأخبار بدقة، وتصف الأحداث بالتفاصيل الكثيرة، ومن خلال بعض التصريحات الواردة في الكتاب يمكن الترجيح بانتماء المؤلف إلى سلك موظفي ديوان من دواوين الدولة، ويلاحظ أيضا أن المؤلف له اهتمام ملحوظ بالجانب الدبلوماسي؛ فهو يتحدث بإطناب عن استقبال ممثلي السلطان المريني بقصر المشور بمناسبة الموافقة على الصلح بين الدولتين.

ولم يختلف مؤلف زهر البستان عن غيره من مؤرخي عصره فيما يخص طريقة التأليف في التاريخ حيث أورد مثلهم عددا لا يستهان به من القصائد الشعرية التي نظمت في المديح النبوي والرثاء ومدح السلطان وغير ذلك، ومنها قصائد لم ترد إلا في هذا الكتاب.

يتألف كتاب زهر البستان من ثلاثة أسفار عثر الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات على السفر الثاني منها في أواخر الستينيات بمكتبة جون ريلاندس بمانشستير(إنجلترا)، وقام بدراسته وتحقيقه ونشره ضمن إصدارات احتفالية تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، ويتناول المؤلف في هذا السفر الثاني أخبار دولة بني زيان من أوائل سنة 760هـ/1359م إلى أواخر سنة 764هـ/1363م، وتكتسي هذه السنوات الخمس أهمية كبرى لأنها تشكل الفترة الأولى من عهد أبي حمو موسى الثاني الذي دام حكمه حوالي ثلاثين سنة، وهي فترة إنهاء الاستيلاء المريني على بلاد المغرب الأوسط، وإحياء الدولة الزيانية من جديد، واسترجاع قسم كبير من قوتها.

يتضمن الكتاب أيضا عددا لا يستهان به من القصائد الشعرية التي كانت تلقى بمناسبة الاحتفالات بالمولد النبوي وفي مناسبات أخرى مثل انتصار الجيش الزياني على الجيش المريني، وتؤكد هذه القصائد الازدهار الثقافي والحضاري التي كانت تعيشه الدولة الزيانية إضافة إلى تأكيد تشجيع سلاطينها للشعراء والأدباء.

وعليه فالكتاب مصدر مهم- على الرغم من فقدان معظم أجزائه- في التأريخ للدولة الزيانية خاصة ولبلاد المغرب الإسلامي عامة.



* عنوان الكتاب: فهرسة المنتوري

المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن علي القيسي المِنْتَوْري المتوفى سنة 834هـ /1493م.

المحقق: الدكتور محمد بنشريفة.

دار النشر: الرابطة المحمدية للعلماء- مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث- الرباط (المملكة المغربية).

تاريخ النشر: 1432هـ/2011م.

يعتبر فن الفهارس والأثبات والبرامج من فنون التصنيف

التي اشتهر بها علماء المغرب والأندلس قديماً وحديثاً، غير انّه بالرغم من كثرة الفهارس المصنّفة فانّ معظمها قد ضاع واندثر، وسعياً لإنقاذ ما يمكن انقاذه توجّه مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء الى افتتاح سلسلة من الفهارس، وفي مقدّمها فهرسة الامام ابي عبد الله محمد بن عبد الملك القيسي المنتوري.

يوضح المنتوري موضوع كتابه في مقدمته حيث يقول: "هذا كتاب يشتمل على ما حملته من شيوخي رضي الله عنهم ورويته بأي نوع أخذته وتلقيته فأبدأ أولا بذكر ما رويته بالقراءة والسماع لجميعه أو لبعضه من الكتب المفردة ثم أتبع ذلك ما أخذته بالإجازة من التآليف على اختلافها وشتى أصنافها".

يتضمن الكتاب ذكرا لـ289 تأليفا ذكرها بعناوينها و652 تأليفا ذكر بعبارة تآليف مما يعني أنها أكثر من تأليف واحد، وهو ما يعني أن عدد المؤلفات كبير جدا يثبت الكم الضخم من المؤلفات المتداولة في العدوة الأندلسية خاصة وبلاد المغرب الإسلامي عامة، وهو تأكيد على نشاط حركة التأليف وجمع الكتب التي كانت إحدى مميزات بلاد المغارب والأندلس.

ويختم المؤلف كتابه بذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم، ويمكن تصنيفهم إلى نوعين: نوع لقيهم المؤلف وأخذ عنهم واعتمد عليهم وأجازوه إجازة عامة، أما الصنف الثاني فهم الذين كتبوا له بالإجازة العامة من غير لقاء جماعة، وينتمي هؤلاء الشيوخ إلى العدوة الأندلسية وبلاد المغارب.

---

* عنوان الكتاب: "تاريخ المغرب المريني وحضارته"

المؤلف: الأستاذ الدكتور مصطفى الشريف- أستاذ في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة تطوان.

الناشر: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان.

سنة الطبع: 2011م.

حدد المؤلف الإطار العام الذي انتظمت فيه مضامين الكتاب في كلمة تقديمية جاء فيها: "ترك العصر المريني من الآثار الاجتماعية والمعطيات الثقافية العامة ما سوف يحدد معالم المغرب الأقصى في العصر الحديث... بيد أن الوجه المشرق لبني مرين يتجلى بالخصوص في الميادين العلمية والثقافية والعمرانية، فقد خلفوا من المنشآت الدينية، والمؤسسات العلمية أو الاجتماعية، ما لم تخلفه دولة من دول

المغرب قبلهم ولا بعدهم... وقد ضمنا هذا الكتاب دراسات تاريخية تتناول بعض أوجه التواصل الحضاري للمغرب المريني مع الخارج، وكذا قراءات نقدية لبعض الإصدارات الإسبانية تهم جوانب مغيبة في دراسات المؤرخين المغاربة والعرب عموما، كما طعمناه بنصوص تاريخية معبرة عن البنيات الإدارية، والمنجزات الحضارية للمرينيين بصفة عامة..." (ص5-6).

تتوزع مضامين كتاب "تاريخ المغرب المريني وحضارته" بين أربعة أبواب متكاملة في قضاياها السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بتاريخ دولة بني مرين، وهي القضايا التي كانت- في الأصل- موضوع محاضرات علمية ألقاها المؤلف برحاب كلية الآداب بتطوان، وعززها برصيد ثري ومتنوع من البيبليوغرافيات المتخصصة ذات الصلة بالموضوع. وتغلب على مجموع هذه المواد سمة التحليل التركيبي الذي يتجاوز منطلقات الاستقراء الحدثي للوقائع والاجترار التنميطي للتفاصيل، إلى الغوص في أعماق منغلقات الإسطوغرافيات المتوارثة، قصد الكشف عن الخلفيات ومقارنة الروايات واستنطاق مكونات بنية النص التقليدي في إطار تركيبي يساهم في إعادة تجميع عناصر الدراسة وفق رؤى مجددة ذات نفس علمي أصيل.

في هذا الإطار، احتوى الباب الأول المعنون بـ"محاضرات في تاريخ المغرب المريني"، على دراسات تفصيلية حول بداية المرينيين، استنادا إلى مجموعة من العناصر الارتكازية في التقييم وفي التصنيف، اهتم أولاها بتتبع مراحل التوسع القبلي بمنطقة غرب بلاد المغرب، وتتبع ثانيها سياقات انتقال المرينيين من الطور القبلي إلى الطور السياسي، وركز ثالثها على الامتدادات الخارجية لتحرك المرينيين وخاصة بالمنطقة المغربية وبلاد الأندلس، ورسم رابعها أبعاد الإطار الجيوتاريخي والاقتصادي لتطور المغرب المريني.

وفي الباب الثاني المعنون بـ"قراءات نقدية لمؤلفات في التاريخ المريني"، أدرج المؤلف سلسلة تأملات فاحصة في كتابات علمية متميزة اشتغلت على تاريخ الدولة المرينية، وعلى رأسها كتاب "ورقات عن حضارة المرينيين" للمرحوم محمد المنوني، وكتاب "المجتمع والسلطة والدين بالمغرب نهاية العصر الوسيط" (بالفرنسية) لمحمد القبلي، كما أدرج في نفس الباب دراسات تعريفية بالنقوش وبالكتابات العربية التي تحتويها "المدرسة الجديدة" بمدينة سبتة، وكذا بمدينة "البنية" التي شيدها المرينيون ببلاد الأندلس.

وفي الباب الثالث المعنون بـ"مباحث في تاريخ المغرب المريني"، اهتم المؤلف برصد مظاهر التواصل الحضاري بين المغرب المريني وغرناطة النصرية، وكذا دور الجالية المغاربية ببلاد السودان الغربي في التفاعل الحضاري بين ضفتي الصحراء، ثم دور مؤسسة الأحباس في تنمية المؤسسات التعليمية بالمغرب، وأخيرا تقييما عاما للسياسة الضرائبية للدولة المرينية.

وفي الباب الرابع والأخير من الكتاب والمعنون بـ"المغرب المريني من خلال النصوص"، فقد أدرج المؤلف موادا انتقائية من نصوص مصدرية أصيلة تؤرخ لمختلف مظاهر تطور الدولة المرينية ونظم حكمها وبنياتها الإدارية المرتبطة بالقيم الحضارية التي خلفتها هذه الدولة، مثل المنشآت العمرانية والتعليمية والبنيات الإدارية والعسكرية والدينية والثقافية والنقدية...

وبهذه المواد الثرية والمتنوعة، أضاف الأستاذ محمد الشريف قيمة مضافة لرصيد التراكم الأكاديمي المرتبط بتحولات منطقة الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط. ولا شك أن هذا العمل، بما احتواه من عناصر الصرامة العلمية وضوابطها الإجرائية المعروفة، يظل أرضية مشرعة للكثير من الأسئلة المتناسلة عن مختلف النتائج التي انتهى إليها الأستاذ محمد الشريف في هذا العمل.

---

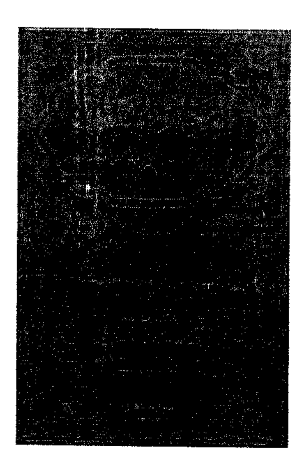
* عنوان الكتاب: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب.

– المؤلف: ابن صعد التلمساني، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الفضل بن سعيد بن ميمون بن سعيد بن صعد الأنصاري التلمساني، المتوفى بالقاهرة سنة 901هـ/1496م.

– المحقق: الدكتور محمد أحمد الديباجي- كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي- الإمارات العربية المتحدة.

– دار النشر: دار صادر- بيروت.

– تاريخ النشر: الطبعة الأولى- 1432هـ/2011م.



حدّد المؤلف موضوع كتابه في مقدمته حيث يقول: "أما بعد؛ فهذا كتاب النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب يضم أعلامهم، وينشر مآثرهم وأيامهم"، وترجم فيه لمتصوفة وأولياء المغرب والمشرق الإسلاميين، كما أنه لم يتقيد بعصره بل عاد إلى العصور التي سبقته، وبذلك فقد تضمّن الكتاب أخبار الصوفية من أجل التعرّف عليهم والاقتداء بسيرتهم، وقد انتهى من تأليفه سنة 891هـ/1486م.

يتألف الكتاب من ثمانية أجزاء، وقد نشر المحقق منه جزأين، وتضمن ما حققه المؤلف سبعين ترجمة.

حدد المؤلف منهجه فقال: "وجعلت على حروف المعجم ترتيب أسمائهم بذكر ما أمكن من وفياتهم وأنبائهم"، وقد اتبع فيه مؤلفه خطة تتمثل في التعريف بأصحاب الترجمة، وذكر أسباب سلوكهم الطريق الصوفي في سياق قصصي، كما يذكر كراماتهم ومرائيهم، ويختم الترجمة عادة بذكر بعض من حكم المترجمين نظمًا أو نثرًا، كما يورد مقتطفات من مؤلفاتهم ورسائلهم، ويحرص على ذكر وفياتهم.

يُعتبر هذا المؤلف من المصادر الهامة في ترجمة متصوّفة المغرب والمشرق الإسلاميين، إضافة إلى كونه مصدرًا لا يمكن الاستغناء عنه في تأريخ الحركة الثقافية والعلمية في هذه البلاد خلال العصر الوسيط.

---

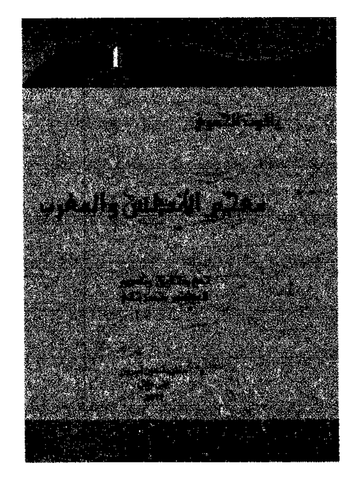
* عنوان الكتاب: معجم الأندلس والمغرب.

المؤلف: ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي المتوفى سنة 626هـ/1228م.

جمع وتحقيق وتقديم: الدكتور محمد حقي- أستاذ في تاريخ المغرب الإسلامي-جامعة محمد الخامس- الرباط.

دار النشر: مطبعة عين أسرون- بني ملال- المغرب.

تاريخ النشر: 2011م.



استفاد ياقوت من رحلاته الكثيرة التي سمحت له بتأليف كتاب معجم البلدان الذي يعتبر فضلا على كونه معجما جغرافيا هاما، كتاب تاريخ وأدب هام لا يمكن للباحثين الاستغناء عنه.

قسّم المؤلف كتابه كما ذكر ذلك في مقدمته إلى خمسة أبواب: خصّص الأول منها لذكر صورة الأرض، وحكاية ما قاله المتقدمون في هيئتها والمتأخرين في صورتها، والثاني لوصف اختلافهم في الاصطلاح على معنى الإقليم، والثالث لشرح الألفاظ التي يكثر تكرارها

مثل البريد والفرسخ والميل والكورة وغيرها، والرابع في حكم الأرضين والبلاد المفتتحة في الإسلام، وحكم قسمة الفيء والخراج فيما فتح صلحا أو عنوة، والخامس في جمل من أخبار البلدان.

يكتسي هذا الكتاب أهمية خاصة بالنسبة لبلاد المغرب الإسلامي، إذ يورد المؤلف فيه أخبارًا جغرافية تهم هذه البلاد، كما يترجم عددا كبيرًا من أعلام المدن التي يُعرّف بها.

كانت دراسة كتاب "معجم البلدان" فرصة للتعمق في الجغرافية الإسلامية ومعرفة بعض خصائصها، كما كشفت الدقة العالية التي تميز بها عمل ياقوت خاصة في موضوع ضبط شكل الكلمات، لكنه كان على حساب الإضافة في المعلومة الجغرافية. وهذا؛ ربما، يعكس ضعف الهمم الذي عرفه عصر المؤلف وعدم رغبة الجغرافيين في تجشم عناء السفر للبحث عن المعلومة مكتفين باجترار ما هو متداول ومعروف، وبالمقابل يلاحظ حدة وقوة منهجية قد تعكس مستوى المهنية الذي وصل إليه الكتاب على صعيد المنهج في الكتابة، ولهذا يظهر التعامل مع محتويات هذا الكتاب سهلا ومتيسرا حتى للمبتدئ لتقديمه الكلمات مشكولة ومنظمة وفق حروف المعجم، ونحن نقرأ ما ورد في المعجم عن المغرب الأقصى نستنتج بسرعة أن المغرب وحتى القرن 6هـ/12م مايزال مجهولا من قبل المشارقة عكس الأندلس التي يعرفون عنها الكثير من التفاصيل، ولعل السبب يكمن في ضعف تأليف أهل البلد في جغرافية بلدهم، ونقول في الأخير أن فضل ياقوت فيما قدمه حول المغرب والأندلس هو ضبط كثير من الأعلام، وإيراد بعض المواضع الصغيرة والمغمورة، وجمع ما كتب عن المنطقة حتى القرن 5هـ/11م، وتنظيمه وفق حروف المعجم، وكأنه يضع حصيلة بين يدي أبناء البلد للإنطلاق منها، كما سيفعل الإدريسي وصاحب الاستبصار والحميري وابن بطوطة وغيرهم.

---

* عنوان الكتاب: "الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافيا"

– المؤلف: تأليف جماعي

– دار النشر: دار إفريقيا الشرق– الدار البيضاء

– تاريخ النشر: *2012*م

يأتي تأليف كتاب "الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية" الذي أصدرته هذه السنة *2012* دار إفريقيا الشرق البيضاء (*132* صفحة)، ثمرة نقاشات متعددة



ومتكررة انصبت حول آليات البحث التاريخي، فكانت المقاربة الطوبونيمية إحدى نتائج هذا النقاش، حيث اعتبرت آلية يمكن اعتمادها لتعزيز نتائج البحث في الدراسات التاريخية وغيرها، مقاربة تصل نتائج البحث في العصر القديم بأخرى في العصر الوسيط، وتحقق التواصل بين الفروع في التخصص الواحد. وهو إصدار ليس من غاياته ضبط وجرد وإحصاء أسماء الأماكن، فذلك جهد دونه الفريق، لكن يمكن اعتباره مسودة لأرضية نظرية لمشروع معجمي تاريخي خاص بأسماء الأعلام الجغرافية في الغرب الإسلامي، وهذا يتضح من خلال المواضيع والقضايا التي تمت معالجتها، حيث سعت الأبحاث المقدمة إلى معالجة ثلاث جوانب من موضوع الطوبونيميا (التعريف، المنهج والعلائق)، اعتبرت مقدمات فقط.

والكتاب ثمرة جهد جماعي بين باحثين جعلوا من البحث والتنقيب العلمي رسالة لهم، حيث جاءت مقالاتهم المنبثة في ثنايا الكتاب إسهاما قيما، يعرف بالطوبونيميا وأهميتها وخصائصها وأنواعها وبعض مظاهرها، ارتباطا بأدوات البحث التاريخي ونتائج التحري الأركيولوجي، ويقدم ضوابط منهجية تعد أولية لكل آخذ بالمقاربة الطوبونيمية، حيث أشاروا إلى طرق ضبط أسماء الأعلام الجغرافية، طرق سعوا بعرضها إلى لملمة خيوط معاني أسماء الأعلام الجغرافية، وملامسة أصولها وصيغ بعضها، وتاريخ كتابتها...، وذلك بقصد تنبيه الباحثين إلى غنى هذه الآلية، غنا يستدعي ضرورة التعرف على الأعلام الجغرافية من جهة، والبحث في مرجعيتها من جهة ثانية وصلا بين حلقات تاريخ الغرب الإسلامي، وتدقيقا وتمحيصا لبعض فقراته، وتنقيبا عن بعض الإشارات المفقودة من تاريخه، إنها محاولة تبغي وضع ملامح خطة طريق للوصول إلى موضوع ضبط الأعلام الجغرافية في الغرب الإسلامي. وهذا لن يتحقق إلا باعتماد منهج علمي صارم يقوم على الدقة في توثيق المعلومات والروايات، والحفر في عمق النص المصدري، والتحليل المركز الساعي إلى البناء النظري عبر نماذج تمثل مظهرا من مظاهر الوعي بالمكان.